الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سام كريستر
Sam Christer

تُرجمت إلى
33 لغة
مناسبة لعشاق روايات
دان براون

Rewity.com
Dalyai

لغز ضحايا ستونهنج

THE STONEHENGE LEGACY

رواية حيّة، ومشوّقة، ومستمرّة منذ 500 عام

قبل ثمانية أيّام من بداية الصيف، يتمّ نحر رجل في طقوس مرعبة أمام حشد من الرجال المرتدين العباءات، ليُقدَّم قرباناً عند نصب ستونهنج الأثري. بعد ساعات، يُقْدِم أحد أهمّ صيّادي الكنوز في العالم على الانتحار في قصره الريفي، تاركاً لابنه، عالِم الآثار الشابّ غيديون تشيس، رسالة مشفّرة...

بالتعاون مع شرطيّة جريئة من ويلتشر، سرعان ما يكتشفا وجود طائفة سرّية دوليّة كرّست نفسها منذ آلاف السّنين لستونهنج. وتحت قيادة زعيم جديد، بالغ القسوة وواسع النفوذ، تعمد الطائفة إلى تقديم قرابين بشرية ضمن طقوس مخيفة لكشف لغز أحجار الهيكل.

رواية حافلة بالرموز، والتشويق، فضلاً عن تفاصيل مذهلة عن أكثر الأماكن غموضاً في العالم. «لغز ضحايا ستونهنج» رواية مشوّقة تنافس أفضل ما كتبه دان براون.

ISBN 978-614-01-0315-3
9 786140 103153

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على الانترنت
في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com

تصميم الغلاف: سامح خلف

لغز ضحايا ستونهنج

THE STONEHENGE LEGACY

لغز ضحايا ستونهنج

THE STONEHENGE LEGACY

سام كريستر

Sam Christer

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

القسم الأول

الحجارةُ العظيمةُ
تمتلك طاقةً عجيبةً
الرجالُ المرضى
يؤثّرون في الحجرِ
ويغسلونَهُ
فيزيلُ ماءُ الغسلِ ذاكَ مرضَهُمْ

1

ليلة ولادة الهلال، الأحد 13 حزيران
ستونهنج

انساب الضباب مثل طحالب من البخار في ظلام ليل ويلتشر. في الحقول مترامية الأطراف، رفع المراقبون رؤوسهم المقلنسة نحو السماء لرؤية أولى البوادر الفضّية. القمر هلال، ولا يبدو منه سوى وميض أبيض عذريّ باهت، تحت دِثار فضفاض من المخمل الأسود.

في الأفق، طلع القمر مثل وجه شاحب تحت قلنسوة. رُفع مشعل ناريّ بِيَدِ عجوز، وسرت بين المراقبين همسات ملحّة. القربان جاهز. أُحضر بعد صيامه سبعة أيّام، وبقائه بلا طعام، وبلا ضوء، وأصوات، ولمسات، وروائح. تمّ تنظيف جسده من الشوائب التي تناولها. أصبحت حواسّه أكثر حدّة، وذهنه مركّزاً على مصيره.

ارتدى المراقبون ملابس من الخيش محاكة يدويًّا، وتحزّموا بزنانير مجدولة من النباتات، بينما انتعلوا في أقدامهم أحذية من جلود الحيوانات الخشنة. تلك هي طريقة القدماء؛ مبتكري الحرفة.

نزع المنظّفون ملابس الرجل الداكنة. لن يغادر هذا العالم بأكثر ممّا دخله. نزعوا خاتماً من إصبعه، وساعة من رسغه، وسلسلة ذهبية بسيطة عُلّق فيها رمز معتقد زائف.

حملوه وهو يقاوم إلى النهر، وغمروه فيه. ملأ الماء البارد فمه وراح يُرغي ويُزبد في رئتَيه المتلفتَين. قاوم مثل سمكة مروّعة، وراح يبحث عن تيّار آمن للهرب من أيدي آسريه.

ولكن، هيهات.

بعد غسله بالماء، تمّ جرّه وهو يسعل ويبصق إلى الشاطئ. أتى إليه الحمّالون، وقيّدوه بحبال من لحاء الشجر إلى حمّالة من خشب الصنوبر، وهي الشجرة النبيلة التي اجتازت معهم العصر الجليدي. رفعوه عالياً على أكتافهم، وحملوه مثل رجال فخورين ومحبّين يحملون تابوت أخيهم المحبوب. فهو غالٍ على قلوبهم.

كانت مسيرتهم طويلة - أكثر من ميلَين - جنوب مخيّم دورينغتون القديم، ووصولاً إلى الجادة العظمى، التي تقع فيها الأحجار الزرقاء[1] وأحجار السارسين الرملية الضخمة بوزنها البالغ أربعين طنًّا.

لم يتذمّر الحمّالون. فهم يعرفون الألم الذي عاناه أجدادهم وهم ينقلون الحجارة العظيمة مئات الأميال. إذ هاجر مهندسو الفلك جماعيًّا عبر التلال والوديان، واجتازوا البحار الهائجة. استخدموا قُرون الغزال الأحمر وعظام أكتاف الماشية لصنع الحُفَر التي تقع الدائرة فيها الآن. خلف الحمّالين، مشى الأتباع. جميعهم من الذكور، وجميعهم يعتمرون قلنسوات متشابهة، ويرتدون أثواباً بنّية خشنة. أتوا من بريطانيا، وأوروبا، ومن جميع أنحاء الكرة الأرضية. فالليلة سيُقدِّم سيّد هانج الجديد أوّل قرابينه. إنّه قربان فات موعده، سيُجدّد قوّة الأحجار الروحية.

توقّف الحمّالون عند حجر العقبيّة، وهو جزء ضخم من الحجر الرملي المائل. وسط المدخل المغليثي[2]، اشتعلت النار في الظلام، ومدّت أصابعها التي تصاعد منها الدخان لملامسة القمر، منيرة سيّد هانج وهو يرفع يدَيه. توقّف، ثمّ جمعهما ببطء على شكل قوس، وراح يدفع جدار الطاقة المنبعثة بينه وبين حدوة الحصان في أحجار

(1) حجر رملي مزرقّ يُبنى به.

(2) المغليث: حجر ضخم غير منحوت مستخدم في كثير من الآثار الراقية إلى ما قبل التاريخ.

الترليتون. "أيها العظماء، أشعر بوجودكم الأبدي". انخفضت وجوه المجتمعين سرًّا بصمت إلى الأرض.

جمع السيّد يدَيه وأبقاهما فوق رأسه، مشيراً بأصابعه إلى السماء. نهض الحمّالون، ورفعوا مجدّداً الشابّ العاري المقيّد إلى الحمّالة الخشنة على أكتافهم.

"الشكر لكم أيّها العظماء الذين تعتنون بنا وتباركوننا. احتراماً لكم ولطرائق القدماء، نقدّم هذا القربان".

بدأ الحمّالون رحلتهم الأخيرة، فمرّوا تحت القناطر الحجرية الضخمة متجهين نحو مكان التضحية الواقع على خطّ الانقلاب الشمسي؛ إلى حجر المذبح.

مدّدوا الشابّ على اللوح الرمادي الطويل. نظر سيّد هانج إلى الأسفل، وأخفض يدَيه المضمومتين لملامسة جبين القربان. لم يخف من النظر إلى العينَين الزرقاوَين المروَّعتَين تحته. لقد استعدّ لإبعاد جميع مشاعر التعاطف، تماماً مثلما يقوم ملك بنفي خائن.

أحاطت يداه المضمومتان ببطء بوجه الرجل، بينما واصل الخطاب الذي يُقال في تلك المراسم. "باسم آبائنا، وأمّهاتنا، وحُماتنا، ونُصّاحنا، نُحِلّك من خطاياك".

هنا فقط، فصَل سيّد هانج كفَّيه عن بعضهما، وبسط ذراعَيه. كان نصفه مضاءً بنور القمر الأبيض كلَون العظام، ونصفه الآخر مضاءً بضوء النار الأحمر كلَون الدم. كان جسده متوازناً مع المرحلة القمرية. بدا أمام الحجارة العظيمة متصالب الشكل.

وضع الحمّالون في كلّ من يدَيه الممدودتَين الأدوات المبجّلة. أمسكها سيّد هانج، والتفّت أصابعه حول القبضتَين الخشبيّتَين الملساوَين والمنحوتتَين قبل قرون من الزمن.

ضربت الفأس الصّوّانية الأولى رأس الضحيّة.

ومن ثمّ الثانية.

ومن ثمّ الأولى مجدّداً.

انهالت الضربات إلى أن تهاوى العظم والجلد مثل قشرة بيضة. بموت القربان، تعالى الهتاف من الحشد. تصاعد صياح الانتصار مع تراجع السيّد الذي بسط ذراعَيه أمامهم لكي يروا دم القربان الذي غطّي ثوبه وجسده في بعض المواضع.

"مثلما سفكتم الدماء وحطّمتم العظام لبناء هذا الباب العظيم لحمايتنا، كذلك نسفك دمنا، ونحطّم عظامنا من أجلكم".

تقدّم الأتباع واحداً تلو الآخر، وغمسوا أصابعهم في دم القربان، وضرّجوا به جباههم. ثمّ ساروا عائدين إلى الدائرة الرئيسة وقبّلوا الترليتون.

وبعد أن بوركوا وتضرّجوا بالدم، انحنوا قبل أن يختفوا بصمت في عتمة حقول ويلتشر.

2

في وقت لاحق من ذلك الصباح
تولارد رويال، كرانبورن تشيس، ساليسبوري

جلس البروفيسور ناثانيال تشيس إلى مكتبه في غرفة اكتست جدرانها بخشب السنديان، في قصره الريفيّ العائد إلى القرن السابع عشر. ومن النوافذ ذات الأُطُر الرصاصيّة، راح يراقب نور الصباح مع شروق شمس ذلك النهار الصيفي. فهو لا يُفوّت أبداً هذا الصراع اليومي. اختال ذكر تدرُج[1] ملوّن فوق العشب بعد أن جذبته أشعّة

(1) طائر ذيّال شبيه بالحجل.

الضوء التي أنارت العشب المثقل بالندى. تبعته إناث كسلى، ثمّ تظاهرت بعدم الاهتمام، وأخذت تنقر قشر جوز الهند الذي علّقه جنائنيّ تشيس.

بسط الذكر جناحَيه بفخر، مكوّناً عباءة نحاسية ملوّنة. كان رأسه، وأذناه، وعنقه ذات لون أخضر استوائي، بينما اكتست حنجرته وخدّاه بلون أرجواني برّاق. أحاط بعنقه لون أبيض ناصع أضفى عليه مسحة دينية، بينما كان وجهه وعرْفه بلَون أحمر داكن. كان الطائر عبارة عن نوع مهجّن من التدرُج العادي. وحين أمعن البروفيسور النظر، شكّ في أنّه حدث قبل بضعة أجيال تهجين مع تدرُج أخضر نادر أو اثنين.

يُعدّ تشيس رجلاً ناجحاً، أكثر ممّا يحلم به معظم الناس. فهو أكاديمي لامع، اعتُبر واحداً من أذكى أدمغة كامبردج. بيعت كتبه التي تتحدث عن الفنّ وعِلم الآثار في مختلف أنحاء العالم، ولم يشترها الراغبون في الدراسة وحسب. ولكنّ ثروته الطائلة ونمط حياته الفخم لا يرجعان إلى ما تعلّمه. فقد ترك كامبردج قبل بضع سنوات، وحوّل مواهبه إلى تحديد مصدر بعض أندر تحف العالم وأصلها، والمتاجرة بها. وهي ممارسة أمّنت له مكاناً دائماً على لائحة أثرياء العالم، وسمعة تناقلها الناس همساً؛ فقد قيل عنه إنّه لصّ قبور.

خلع الرجل البالغ من العمر ستّين عاماً نظّارة القراءة ذات الإطار البنّي ووضعها على المكتب الأثري. المسألة التي بين يدَيه ملحّة، ولكن يمكنها أن تنتظر إلى أن ينتهي العرض الترفيهي في الخارج.

توقّفت إناث التدرُج عن تناول طعامها لإعطاء الطائر الاهتمام الذي يريده. أدّى رقصة خرقاء قصيرة، وقاد الإناث بلونها البنّي المائل إلى الاصفرار، نحو أجمة مشذّبة. تناول تشيس منظاراً يحتفظ به قرب النافذة. في البداية، لم يرَ شيئاً باستثناء السماء الزرقاء المائلة إلى اللون

الرماديّ. أخفض العدستين إلى الأسفل فملأت الطيور الإطار. تلاعب بالعدستين إلى أن أصبح كلّ شيء واضحاً وحادًّا مثل هذا الصباح الصيفي البارد. كان الذكر محاطاً الآن بالإناث، ويزقزق معبّراً عن متعته. إلى اليمين، رأى عشًّا قليل العمق عند أسفل الشجيرات. شعر تشيس أنّه حسّاس وعاطفي، فقد أثّر فيه العرض خارج نافذته إلى حدّ جعله يشعر بالرغبة في البكاء. كان الذكر محاطاً بمعجباته الكثيرات، في ذروة حياته، وهو يضجّ بالألوان والقدرة، ويستعدّ لتأسيس عائلة. ما زال يذكر تلك الأيّام، وذلك الإحساس، وذلك الدفء.

كلّها تلاشت.

لم يكن المنزل الكبير يحتوي على أيّ صور لزوجته الراحلة، ماري، أو لابنه المبعَد، غيديون. المكان خالٍ. انقضَت أيّام فرْد الأجنحة بالنسبة إلى البروفيسور.

وضع المنظار قرب النافذة وعاد إلى عمله الهامّ. تناول ريشة مصنوعة من أغصان الكرمة، وهي إحدى القطع المحدودة من بيليكان كالوم، وتلذّذ بوزنها وتوازنها. كانت واحدة من بين خمسمئة وثمانين ريشة فقط، صُنعت إجلالاً لدورة عطارد حول الشمس في مسافة تبلغ ثمانية وخمسين مليون كلم. كان لعلم الفلك دور حيويّ في حياة ناثانيال تشيس. قال في سرّه: حيويّ جداً.

غمس رأس الريشة في دواة الحبر الأثرية النحاسية، وترك البيليكان تروي ظمأها، ثمّ استأنف عمله. استغرق ناثانيال ساعة لإنهاء الكتابة على الورق القطني الناعم الذي يحمل علامته المائيّة الخاصّة. راجع بعناية كلّ سطر من السطور، وتأمّل وقْع الرسالة على قارئها. دمغها، ثمّ ثناها ثلاث مرّات، ووضعها في مغلّف ختمه بشمع قديم الطراز وبختم شخصي. فالطقوس مهمّة، لا سيّما اليوم. وضع الرسالة في وسط المكتب الكبير،

ثمّ جلس حزيناً ومرتاحاً في آن واحد لانتهائه من كتابة النصّ.

كانت الشمس تشرق الآن على البستان الواقع في الطرف المقابل للحديقة. في يوم آخر، كان ليمشي في الأراضي، ويتناول الغداء ربّما في المنزل الصيفي، ويتأمّل الحياة البرّية في الحديقة، ثمّ يستمتع بغفوة في منتصف فترة ما بعد الظهيرة. كان ليفعل ذلك في يوم آخر.

فتح الدرج السفلي للمكتب، وتوقّف حين وقع نظره على ما فيه. بحركة مصمَّمة واحدة، أخرج مسدّساً من زمن الحرب العالمية الأولى، ثمّ وضع فوّهته على صدغه، وضغط على الزناد.

خارج النافذة الملوّثة بالدماء، أطلقت طيور التدرُّج صيحة حادّة، ثمّ حلّقت في السماء الرمادية.

3

اليوم التالي
جامعة كامبردج

أعاد غيديون تشيس السمّاعة بهدوء، وحدّق شارداً إلى جدران مكتبه الذي كان يراجع فيه مكتشفات أعمال التنقيب في معبد مغليثي في مالطا.

ما كان للشرطيّة أن تكون أكثر وضوحاً. "لقد مات والدك. أطلق رصاصة على نفسه". تذكّر كلامها، ورأى أنّه من الصعب أن تكون أكثر وضوحاً. لم تُكثر من الكلام بلا جدوى، بل اكتفت بلَكمة شفهيّة استقرّت في أحشائه، وقطعت أنفاسه. بالطبع، تأسّفت في مكان ما، وتمتمت بالتعازي. ولكن، حينذاك، كان دماغ الشابّ اللامع البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، والذي يستعدّ ليصبح بروفيسوراً في جامعة، قد انغلق.

والدك. مات. رصاصة.

ثلاث كلمات صغيرة رسمت أكبر صورة يمكن له تخيّلها. ولكنّ كلّ ما استطاع قوله ردًّا على كلامها كان: "آه". طلب منها تكرار ما قالته للتأكّد من أنّه فهم. ليس لأنّه لم يفهم، بل لأنّه شعر بالارتباك إلى حدّ أنّه لم يستطع أن يقول غير: "آه".

مرّت سنوات منذ أن تكلّم الأب والابن للمرّة الأخيرة. كان لقاؤهما واحداً من اللقاءات الأكثر مرارة. يوم ذاك، خرج غيديون غاضباً وأقسم على ألاّ يتكلّم مع العجوز مجدّداً، ولم يكن من الصعب عليه أن يفيَ بقسمه؛ فقد انتحر والده.

يا لها من صدمة! لطالما تفاخر الرجل العظيم طيلة حياته بشجاعته، وجرأته، وإيجابيّته. هل يمكن للمرء أن يرتكب عملاً أكثر جبناً من تفجير دماغه؟ أجفل غيديون. ربّاه، لا بدّ من أنّ المشهد كان شنيعاً.

مشى في أرجاء مكتبه الصغير بلا تركيز. طلبت منه الشرطية السفر إلى ويلتشر للإجابة عن بعض الأسئلة، وتوضيح بعض النقاط الغامضة. إلاّ أنّه لم يكن واثقاً بقدرته على الوصول إلى الباب، فما بالك بالذهاب إلى ديفايزيس.

تسارعت ذكريات الطفولة إلى رأسه مثل صفّ من قطع الدومينو المتساقطة: شجرة كبيرة، رجل ثلج يذوب فوق عشب الحديقة، غيديون الطفل ينزل السلّم بملابس النوم لفتح الهدايا، أبوه يلاعبه بينما كانت أمّه تُعدّ طعاماً يكفي لإطعام قرية. تذكّرهما وهما يقبّلان بعضهما تحت الشجرة، فيما كان يحضن أرجلهما إلى أن حملاه وحضناه هو أيضاً. ثمّ أتت الضربة. كان في السادسة من عمرة عندما توفّيت أمّه. تذكّر صمت المقبرة، وفراغ المنزل، وتبدّل أبيه، والوحدة التي شعر بها في المدرسة الداخلية.

كان لديه الكثير ليفكّر فيه في أثناء الرحلة جنوباً نحو ويلتشر؛ المنطقة التي ولدت فيها أمّه، والمكان الذي كانت تسمّيه بحنان أرض توماس هاردي.

4

ويلتشر

قلّة يعرفون بوجوده. إنّه قبو سرّي من الحجر البارد، صُنع بمقاييس ملحميّة على يَد مهندسي ما قبل التاريخ؛ مكان لا يزوره غير الملقّنين.

هيكل الأتباع أعجوبة غير مرئيّة. إنّه بحجم دار عبادة كبيرة، ولكنّه يبدو مجرّد نتوء في سطح الحقول الممتدّة فوقه، وهو غير مرئيّ تقريباً للعين البشرية. أمّا تحت الأرض، فهو جوهرة حضارة قديمة، ونِتاج شعب لا يزال ذكاؤه يحيّر أعظم أدمغة الزمن الحديث.

بُنيَ المكان قبل ثلاثة آلاف عام من الميلاد، وهو عبارة عن مفارقة تاريخية، هيكل شاسع يبدو خارج الزمن، يخطف الأنفاس ويسلب العقول؛ تماماً مثل هرم الجيزة الأكبر.

دُفن في اثنين من قبوره المنحوتة تحت الأرض مهندسا ستونهنج والهيكل. ترقد رفاتهما وسط أكثر من مليونَي كتلة حجرية، مأخوذة من المصادر نفسها. وتماماً كما أنّ نُصب الجيزة هرم شبه كامل، كذلك إنّ الهيكل نصف دائرة شبه تامّة؛ قبّة ترتفع فوق أرض دائريّة، قمر بارد قُطِع بالنصف.

الآن، تردّد صدى خطوات على الممرّ المنحدر، وكأنّ المطر يتساقط في غرف الكهف. في ضوء شموع القاعة الصغرى، اجتمعت الدائرة الداخلية. كانوا خمسة يمثّلون الأعمدة الثلاثية العملاقة الواقعة

خـارج دائرة سـتونهنج. ارتـدوا جميعاً العبـاءات، ووضعوا القلنسـوات، كدليل على احترام الأجيال السـابقة؛ أولئك الذين ضحّـوا بحياتهم لبناء هذا المكان المبجّل.

بعد التلقين، يُعرف الأتباع باسم كوكبة مؤلفة من الحرف الأوّل من اسم كلّ منهم. وغطاء السـرّية هذا تقليد قديم آخر، وصدى لحقبة كانت النجوم فيها هي مرشد العالم.

دراكو رجـل طويل القامـة، وعريـض المنكبَيـن، وينضح قـوّة. إنّه الأكثـر رشـداً، والقيّم علـى الدائـرة الداخلية. اسـمه مشـتقّ مـن الكلمة اللاتينية دراغون ومـن مجموعة النجـوم التي احتضنت قبـل ثلاثة آلاف عام تقريباً النجم القطبي بالغ الأهميّة بالنسبة إلى العالم الشمالي.

"مـاذا يُقـال؟". ومضـت أسـنانه المتناسـقة تحـت قلنسـوته. "ماذا يفعلون؟".

كان يسـأل عـن الشـرطة؛ شـرطة ويلتشـر، أقـدم قـوّات الشـرطة البريطانية.

قال غـروس وهو رجـل أكثـر بدانة، وفـي أوائـل عقـده الخامس: "أطلق رصاصة على نفسه؛ انتحر".

راح موسـكا يمشـي مفكّراً، بينما ألقت الشـموع ظلالاً كالأشـباح على الجـدران الحجرية خلفـه. ومع أنّه الأصغـر بينهـم، إلاّ أنّ حضوره الجسـدي الضخم سـيطر على الغرفة. "لم أتوقّع منه قطّ فعل ذلك. فهو لم يكن يقلّ إخلاصاً عن أيّ منّا".

قال دراكو بنبرة لاذعة: "إنّه جبان. فقد عرف ما ننتظره منه".

تجاهل غروس الملاحظـة الغاضبة قائلاً: "سيُسـبّب لنا ذلك بعض المشاكل".

اقترب منـه دراكو، وقـال: "أنا أقرأ الإشـارات جيّداً؛ مثلـك تماماً.

لدينا وقت كافٍ لاجتياز هذه العاصفة قبل موعد الرابطة المبجّلة".

أضـاف غـروس: "ثمّـة رسـالة. يعـرف أكيـلا شـخصاً يعمـل فـي التحقيق، ولقد أفاد أنّه ترك رسالة لابنه قبل الانتحار".

"ابنه؟". عـاد دراكـو بذكرياته إلى الوراء، واسـترجع صـوراً باهتة: ناثانيال مع طفل؛ صبيّ نحيل ذي شعر أسود. "نسيتُ أنّ لديه ابناً. أصبح أستاذاً في أوكسفورد؟".

"بل في كامبردج. والآن سيرجع إلى البيـت". وراح غروس يُلمح إلى مضامين ذلك. "سـيعود إلى منزل أبيه، ومن يعرف ما الذي سـيجده هناك؟!".

قطّب دراكو حاجبَيه ونظر إلى موسكا وقال له: "افعل ما ينبغي لك فعله. كلّنا نُضمر الخير لأخينـا. كان في حياته أعظـم حلفائنا، وعلينا أن نضمن ألاّ يتحوّل في مماته إلى ألدّ أعدائنا".

5

ستونهنج

التـفّ ضبـاب المسـاء حول قاعـدة الأحجـار، فـي خدعـة مناخية صنعـت أرخبيـلاً في بحـر مـن الغيـوم. بالنسـبة إلـى راكبـي الدرّاجات المارّين على الطرقـات المجاورة، كان ذلك مشـهداً جميلاً. أمّا بالنسـبة إلى الأتباع، فهو أكثر بكثير.

إنّه الشفق؛ الساعة الزرقاء. فترة ثمينة تفصل مرّتَين يوميًّا بين الفجر وشـروق الشـمس، وبين الغروب والغسـق. فيها يتوازن النـور والظلام، حيث يعيش العالم الخفيّ تناغماً هشًّا.

يفهم سـيّد هانج مـا يجـري. فهو يعـرف أنّ الشـفق البحـري يأتي أوّلاً، مع انخفاض الشـمس بين سـتّ درجات واثنتي عشرة درجة تحت

الأفق، ويعطي البحّارة أولى القراءات الموثوق بها للنجوم. يتبعه الشفق الفلكي، مع انخفاض الشمس بين اثنتي عشرة درجة وثماني عشرة درجة تحت الأفق.

الدرجات، وعلم الهندسة، وموقع الشمس. مثلّث مبجّل أتقنه رجال مثله قرناً بعد آخر؛ وما كان ستونهنج هنا لولاهم. فموقعه ليس عرضياً. موقعه الذي بجّله أعظم الحفّارين القدماء وعلماء الفلك الأوائل، خطّطت له أذكى العقول. تمّ بناؤه بدقّة متناهية، إلى حدّ أنّ الدائرة استغرقت أكثر من نصف ألفيّة لتكتمل.

والآن، بعد انقضاء أربع ألفيّات، يجود الأتباع على الأحجار بالاهتمام بالتفاصيل عينها.

يتولّى سيّد هانج منصبه في اللحظة نفسها التي يدخل فيها الشفقُ البحري الشفقَ الفلكي، فيقف بثبات مثل جنود الحجارة الزرقاء الذين يحيطون به؛ يحرسون، ويحمون.

كان بمفرده.

مثل متوقّع روماني قديم، وقف ينتظر الكائنات الممجّدة بصبر.

قريباً، ستتكلّم في حفيف ناعم. امتصّ حكمتها وعرف ما عليه فعله الآن. لن يشغل باله أكثر بانتحار البروفيسور، بل سيفكّر في الابن. سيتحقّق من أنّ دفن القربان قد تمّ بطريقة صحيحة، وذلك لأنّ اكتشاف الرفات سيكون كارثة. وقبل كلّ شيء، سيحرص على أن تتمّ المرحلة الثانية من التجديد.

ينبغي إنهاء الطقوس.

ارتفع البخار الأبيض حول ساقَيه. في الضوء العجيب الشاحب، نبضت الحياة في أحجار السارسين. أهي خدعة بصريّة؟ لا يظنّ ذلك. كان الهلال بالكاد مرئياً بالنسبة إلى غير المتعلّمين. ولكن، بالنسبة

إلى عالِم فلك بدائي مثله، كان منارة الكون. تحت قبّة السماء، رتّبت الخرائط المدارية نفسها، ووُلدت الدورات السماوية، وأحسّ بكلّ ذرّة من جسده بتمام انتقال الشمس من بيلتان[1] إلى الانقلاب الشمسي.

سبعة أيّام تفصل عن الانقلاب الشمسي؛ لحظة سكون الشمس. وسينصبّ كلّ الاهتمام على الفجر. بينما ينبغي أن ينصبّ في الواقع على الغسق الذي سيليه.

خمسة أيّام كاملة ستمرّ بعد منتصف الليل على الانقلاب الشمسي. وعندها، في الشفق المسائي الخصب لذلك المساء الباطني، سيطلع أوّل بدر بعد الانقلاب الشمسي. تلك لحظة التجدّد؛ اللحظة التي يتعيّن عليه فيها العودة إلى المبجّلين وإتمام ما بدأه.

أظلمت السماء الآن. بحث السيّد عن النجم القطبي؛ نجم الشمال؛ النجم الهادي؛ أسطع ضوء في أورسا مينوريس (الدبّ الأصغر).

وقعت عيناه على ستارة السماء السوداء لأرض ما قبل التاريخ، على حجر المذبح، وارتعش وهو يسمع أوامر المبجّلين.

لن تسمح الكائنات الممجّدة بالفشل.

6

مركز شرطة ويلتشر، ديفايزيس

أرادت مفتّشة المباحث ميغان بيكر نسيان هذا اليوم، ولكنّه لن ينتهيَ قريباً. كان لدى المرأة النحيلة البالغة من العمر واحداً وثلاثين عاماً طفلة مريضة في المنزل، من دون زوج يساعدها لأنّها انفصلت عنه. ولقد أوكلتها كبيرة مفتّشي مباحث فظّة بقضيّة انتحار تعمّها

(1) كان مهرجاناً هاماً في التقويم السلتي. بالنسبة إلى القدماء، يعلن بيلتان مجيء الصيف والخصوبة.

الفوضى. والآن، عليها التأخّر لمقابلة الابن الحزين وجهاً لوجه. كان هذا - بالإضافة إلى مجموعة من الفواتير غير المدفوعة التي تملأ حقيبتها - كافياً لدفعها إلى معاودة التدخين مجدّداً. ولكنّها لن تفعل.

قال أبواها إنهما سيعتنيان بسامي مجدّداً، فهما يفعلان ذلك دائماً، وليست هناك مشكلة أبداً، ما لم تأخذ في الحسبان المحاضرة التي ستسمعها والنظرات الحادّة التي ستتلقّاها عندما تذهب لأصطحاب ابنتها المسكينة ذات الأعوام الأربعة بعد عدّة ساعات من الوقت المحدّد.

ولكنّها لن تستسلم. فلطالما أرادت أن تصبح شرطيّة، وما زالت راغبة في ذلك، حتّى بعد فشل زواجها.

جرعة قهوة وعدّة حبّات من اللبان ستُزيل توقها إلى النيكوتين. رنّ هاتفها المحمول فنظرت إلى اسم المتّصل. ن.غ، وهو اختصار لعبارة النذل الغشّاش. لم تتمكّن من إدخال الاسم الحقيقي لزوجها السابق. وبدا لها لقب النذل الغشّاش ملائماً أكثر. كان مفتّشاً نظاميًّا في قسم شرطة محلّي آخر، ولكنّ طريقَيهما ما زالا يتقاطعان كثيراً؛ في العمل، وخلال الزيارات المعذِّبة.

لم يقبل ن.غ بزيارات محدّدة. آه، لا. فهذا سيُربك نمط حياته الفوضويّ. وهو يتوقّع عوضاً عن ذلك زيارتها أنّى شاء لرؤية سامي. وهذا ليس عادلاً، ليس بالنسبة إلى ابنتها أو إليها.

كانت رغبتها في رمي الهاتف على الجدار لا تقاوَم. ولكنّها تناولته عن مكتبها غاضبة قبل أن يتحوّل إلى البريد الصوتي. قالت بنبرة حادّة: "نعم؟".

لم يكن لدى ن.غ الوقت للمزاح: "لماذا لم تخبريني أنّ سامي مريضة؟".

"ارتفعت حرارتها، هذا كلّ شيء. ستكون بخير".

"وهل أصبحتِ طبيبة؟".

"وهل أصبحتَ أباً؟".

تنهّد بسأم، ثم قال: "ميغ، أنا قلق على ابنتي. لو لم أتّصل لثار غضبك، وها أنتِ تغضبين لأنّني اتّصلت".

عدّت حتى الرقم عشرة، ثمّ لفظت اسمه بحدّة: "آدم، سامي بخير. الأولاد يلتقطون الأمراض في المدرسة دائماً. حرارتها مرتفعة، وكانت مريضة قليلاً ليلة أمس، هذا كلّ شيء".

"ليست مصابة بالحصبة أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟".

"كلاّ". وفجأة راودت الشكوك ميغان، ولكنها تابعت قائلة: "لا أظنّ ذلك. أمّي معها، ولا داعي للقلق".

"أنتِ من يجب أن يكون معها. عندما تمرض الفتاة، فهي تحتاج إلى أمّها وليس إلى جدّتها".

"اذهب إلى الجحيم، آدم". أغلقت الخطّ، وشعرت بنبضها يتسارع. إنّه يفعل ذلك دائماً، فهو يُغضبها ويُثير أعصابها.

رنّ هاتف المكتب وأجفلها تقريباً. إنّه مكتب الاستقبال. غيديون تشيس في الأسفل. أجابت أنّها في طريقها إليهم، وتناولت رشفة أخيرة من القهوة الباردة. لم يكن الحديث مع أحد أفراد أسرة ميت سهلاً يوماً.

كانت قاعة الاستقبال خالية إلاّ من رجل طويل القامة، داكن الشعر، بدت ملامح الصدمة على وجهه الشاحب. أخذت نفساً عميقاً وهي تقترب منه.

"أنا مفتّشة المباحث، بيكر. ميغان بيكر". مدّت يدها لمصافحته، ولاحظت على الفور أنّ الشريط اللاصق الأزرق الذي يحيط بسبّابتها كان على وشك السقوط.

تمتم مجيباً: "غيديون تشيس". وصافحها بحذر لكي لا يُسقط

الشريط اللاصق المريب. "آسف على التأخّر. ازدحام السير هو السبب".

ابتسمت متعاطفة وقالت له: "الطرقات مزدحمة دائماً، شكراً على مجيئك بسرعة. أعرف أنّ الأمر صعب". فتحت باباً ببطاقتها وتابعت قائلة: "فلنذهب إلى الجزء الخلفي، فهناك يمكننا أن نجد مكاناً هادئاً لنتكلّم".

7

ديفايزيس

بالنسبة إلى عالِم آثار، تُعتبر الأماكن والانطباعات الأولى غاية في الأهميّة. فمنبسط من الرمل المصري الأحمر الحارق، أو حقل إنكليزي أخضر داكن يبوح بالكثير عن الاكتشافات المحتملة التي تنتظره. والباب الخشبي البسيط الخالي من النوافذ الذي فتحته المفتشة بيكر وقادته عبره، يفعل الشيء نفسه.

كانت غرفة بسيطة أشبه بصندوق، أرضها مكسوّة بسجّاد أسود، فيما طُليت جدرانها باللون الرمادي. كانت الغرفة تبدو مثل قبر. الشيء الوحيد الزاهي في الغرفة هو المفتّشة. شعرها بنّي مائل إلى الاحمرار، وهي ترتدي ملابس بسيطة مؤلّفة من قميص خمريّ وسروال أسود. جلس غيديون على كرسي غير مريح، ووكز بداعي الفضول طرف الطاولة أمامه. كانت مثبّتة على الأرض.

الانطباع الأوّل هامّ لدى ميغان بيكر أيضاً. فاستناداً إلى معلوماتها الواسعة في مجال علم النفس والإجرام، بدأت تقيّم الرجل بشعره الداكن المسرّح على طراز هيوغ غرينت. كانت عيناه بنّيّتين، وفمه ممتلئاً، وعظام خدَّيه جميلة. لم يبدُ على أظفاره القصيرة غير المتآكلة أيّ أثر للنيكوتين. وليس فيها خاتم زواج. الكثير من الرجال المتزوّجين

لا يضعون خاتماً، على عكس من يملكون قيماً عالية، وهو يبدو تقليدياً جداً. يبدو ذلك من سترته الصوفية الزرقاء، ورقعتَي الجلد اللتين تغطّيان كمّيه عند المرفقَين؛ وهو نمط رائج في أروقة الجامعات. غير أنّ سترته لا تتناسب مع الكنزة الكشميرية السوداء أو القميص الأخضر. أيّ امرأة في حياته كانت لتخبره بذلك.

وضعت مغلّفاً مفتوحاً على الطاولة، ثم قالت: "هذه هي الرسالة التي تركها والدك".

نظر إليها غيديون ولكنّه لم يتحرّك. كان المغلّف مكسوًّا بعلامات داكنة.

لاحظت ما لفت انتباهه فقالت: "أنا آسفة. لم يبدُ لي وضعُها في مغلّف مختلف عملاً صائباً".

لم يبدُ عملاً صائباً.

لقد تمحورت معظم تربيته حول فعل الصواب. وكان ذلك إعداداً غير ملائم للحظة التي يستلم فيها المرء مغلّفاً ملوّثاً بدم أبيه الميت.

"هل أنتَ على ما يرام؟".

أبعد خصلة شعر عن وجهه ونظر إليها قائلاً: "أنا بخير".

كان كلاهما يعرفان أنّه ليس كذلك. نظر إلى المغلّف ورأى اسمه مكتوباً بخطّ والده.

غيديون

للمرّة الأولى في حياته يُسرّ لأنّ والده حافظ على أسلوبه الغريب، واستخدم الريشة عوضاً عن القلم العادي؛ مثلما يفعل بقيّة الناس.

فوجئ غيديون لأنّه يفكّر في العجوز بحنان، وتساءل ما إذا كانت تلك مجرّد لحظة عابرة، وما إذا كان الموت يدفع المرء فجأة إلى احترام

الأشياء التي كان يحتقرها. هل يبيّض الصفحة ويجعلك تفكّر إيجابيًّا في من كنتَ تمقتهم؟

لمس زوايا المغلّف، ثم رفعه قليلاً، ولكنّه لم يقلبه.

ليس بعد.

كان قلبه ينبض، كما كان يحصل عندما كان يتشاجر مع أبيه. بإمكانه أن يشعر بوجود الرجل العجوز من خلال الرسالة. يستطيع الإحساس بحضوره من خلال الورق النفيس. فتح المغلّف، وأخرج الرسالة. فتحها، وشعر بالانزعاج لأنّ الشرطة قرأتها قبله. كان يفهم السبب، فهم يحتاجون إلى قراءتها. ولكن، ما كان يجدر بهم فعل ذلك. فقد كانت موجّهة إليه؛ إنّها رسالة خاصّة.

حبيبي غيديون،

أتمنّى أن تكون المسافة التي تفصل بيننا في الموت أقلّ من تلك التي فصلت بيننا في الحياة.

ستكتشف أموراً كثيرة عنّي الآن، بعدما رحلت. ليست كلّها جيّدة، وليست كلّها سيّئة أيضاً. ولكنّ أحد الأمور التي قد لا تكتشفها هو مدى حبّي لك. لقد أحببتك في كلّ لحظة من حياتي وكنتُ فخوراً بك.

ولدي الغالي، سامحني لأنّني أبعدتك. كنتُ كلّما نظرتُ إليك أشعر وكأنّني أنظر إلى أمّك. فأنت تملك عينيها، وابتسامتها، ولطفها، وعذوبتها. حبيبي، كان من المؤلم جداً بالنسبة إليّ أن أراها في كلّ نفس من أنفاسك. أعرف أنّ هذا عمل أنانيّ. أعرف أنّني كنتُ مخطئاً بإرسالك إلى تلك المدرسة، وبتجاهلي توسّلاتك للعودة إلى البيت. ولكن، صدّقني أرجوك، خشيتُ أن أنهار لو أنّني فعلتُ العكس.

ابني الحبيب الرائع، أنا فخور بما أصبحتَ عليه وبما حقّقتَه.

لا تقارن بيننا. فأنت رجل أفضل منّي بكثير. وأتمنّى أن تصبح يوماً أباً أفضل منّي بكثير.

قد تتساءل لماذا وضعتُ حدًّا لحياتي. والجواب ليس سهلاً. ففي الحياة، يقوم المرء بخيارات. وفي الممات، يُحاكم عليها حكماً دائماً. وليس جميع القضاة عادلين. لذا، أتمنّى أن تُحسن الحكم عليّ وأن ترأف بي.

صدّقني، كان موتي لسبب نبيل، وليس عبثياً أو جباناً كما قد يبدو. لديك الحقّ في أن تفهم ما أتكلّم عنه، وألاّ تأبه به، وأن تعيش حياتك من دون التفكير فيّ مجدّداً.

أتمنّى أن تختار الطريق الثاني.

سيتّصل بك المحامون، وستجد أنّ كلّ ما جمعته قد أصبح ملكاً لك. افعل به ما تشاء. ولكن، أرجو ألاّ تكون مفرطاً في الإحسان.

غيديون، عندما كنتَ طفلاً، كنّا نلعب معاً. هل تذكر؟ كنتُ أخفي كنزاً وأنتَ تتبع الإشارات التي أتركها. وبعد موتي، تركتُ لك إشارات، وجواباً على لغز. أعظم الكنوز هو أن تحِبّ وتُحَبّ. وأتمنّى من كلّ قلبي أن تجد هذا الكنز.

من الأفضل ألاّ تبحث عن إجابات لألغاز أخرى، ولكنّني أفهم أنّك قد ترغب في ذلك. وإن فعلت، فأنا أمنحك بركتي، وأتمنّى أن تكون حذراً. لا تثق إلاّ بنفسك.

ابني الغالي، أنت ابن الاعتدال الربيعي. انظر خلف شمس الانقلاب الشمسي، وركّز على طلوع الهلال.

ما كنتَ تظنّه سيّئاً سيثبت أنّه حسن، وما كنتَ تظنّه حسناً سيكون سيّئاً. فالحياة توازنٌ وحكم.

سامحني لأنّني لم أكن إلى جانبك، ولم أخبرك أو أُظهر لك أنّني

أحببتك أنت وأمّك أكثر من أيّ شيء في حياتي.

والدك المحبّ، والمتواضع، والنادم،

ناثانيال

كان فيها الكثير ليتمكّن من فهمه واستيعابه دفعة واحدة.

مرّر أصابعه على الرسالة بلطف. تحسّس كلمتَي حبيبي غيديون، ووضع أصابعه على السطر الذي كُتب فيه ابني الحبيب الرائع، أنا فخور بما أصبحتَ عليه... أخيراً، وكأنّه يقرأ كتابة بريل، وجدَت أصابعه الكلمات التي أثّرت فيه كثيراً سامحني لأنّني لم أكن إلى جانبك، ولم أخبرك أو أُظهر لك أنّني أحببتك أنت وأمّك أكثر من أيّ شيء في حياتي.

فاضت عيناه بالدموع. شعر وكأنّ أباه يمدّ يدَيه نحوه. كان إحساسه مثل إحساس سجين وزائر يفصل بينهما زجاج، وهما يجمعان أيديهما في لحظة وداع، ويلمسان بعضهما عاطفياً وليس جسدياً. فالحياة والموت هما اللذان يفصلان بينهما الآن. أصبحت الرسالة جداراً زجاجياً؛ الطريقة التي اختارها والده لوداعه.

راقبته ميغان من دون مقاطعة، واكتفت بإلقاء نظرة بين الحين والآخر على ساعتها لقمع شعورها بالذنب المتعاظم بسبب تركها ابنتها المريضة منتظرة عند جدّتها. كان من الواضح أنّ رسالة الانتحار تُمزّق غيديون.

"هل ترغب في البقاء بمفردك لبعض الوقت؟".

لم يجبها. لفّ الحزن رأسه مثل كرة قطنية.

سعلت ثمّ قالت: "سيّد تشيس، لقد تأخّر الوقت كثيراً. هل يمكننا الاتّفاق على موعد غداً؟".

انتشل نفسه من حالة الخدر التي سيطرت عليه وسألها: "ماذا؟".

ابتسمت بتفهّم وقالت: "غداً". أشارت برأسها إلى الرسالة، وتابعت: "ثمّة أمور نودّ سؤالك عنها. وأظنّ أنّ لديك أسئلة أنت أيضاً".

كانت لديه أسئلة كثيرة، وبدأت الآن تتدفّق من فمه: "كيف مات أبي؟". بدا عليه الألم. "أعرف أنّه أطلق رصاصة على نفسه، كما قلتِ، ولكن ما الذي حدث بالضبط؟ أين كان؟ متى..." خنقَت الغصّة صوته قبل أن يتابع: "متى فعل ذلك؟".

ظلّت ميغان متماسكة وأجابته: "انتحر بمسدّس يدوي صغير". ولم تستطع سوى أن تضيف التفاصيل. "إنّه مسدّس من الحرب العالمية الأولى، ويبلي مارك 4".

"لم أعرف أنّه كان يملك مسدّساً".

"كان مسجّلاً باسمه، واستخدمه عدّة مرّات في ميدان رماية محلّي".

ازدادت صدمته.

انتقلت إلى الجزء الأصعب: "يمكنك رؤيته، إن شئت. تحقّقنا من هوّيته بواسطة عاملة المنزل، السيّدة التي اكتشفت الجثّة، لذا لا داعي لأن تراه. ولكن، إن كنت تريد رؤيته فبإمكاني ترتيب الأمر".

لم يكن واثقاً بما يجيب. فهو بالتأكيد لا يريد أن يرى ما تبقّى من أبيه بعدما فجّر رأسه برصاصة. ولكنّه شعر أنّ عليه القيام بذلك. أليس من الخطأ ألاّ يفعل؟ أليس هذا متوقّعاً منه؟

أبعدت المفتشة شعرها إلى الخلف ووقفت. إن لم تأخذ المبادرة، فسيبقى ابن الميت جالساً هنا حتّى منتصف الليل. "أنا آسفة، ولكن علينا حقاً إنهاء الأمر الآن".

"اعذريني، أعرف أنّ الوقت قد تأخّر". تناول الرسالة، ثمّ طواها وأعادها إلى المغلّف الملوّث بالدماء وقال: "أيمكنني أخذها؟".

"أجل. أجل، بالطبع". دسّها في سترته. "شكراً. آسف لأنني أخّرتك".

"لا بأس". أخرجت ميغان بطاقة تحتوي على معلومات عنها وأعطته إيّاها قائلة: "اتّصل بي في الصباح لنحدّد موعداً".

أخذ البطاقة وتبعها إلى خارج الغرفة. قادته عبر الأبواب المقفلة إلى ظلام الليل البارد والشوارع الخالية.

مع انغلاق الباب خلفهما، شعر غيديون بالخدر.

فتح سيّارة الأودي القديمة، وجلس على مقعد السائق وقد جمّد البرد أطرافه، فيما ارتجفت يده واهتزّت فيها المفاتيح.

8

تولارد رويال، كرانبورن تشيس، ساليسبوري

يقع المنزل على سهل تاريخي مرتفع وجميل يُطلّ على دورسيت، وهامشاير، وويلتشر، ولا يبعد كثيراً عن القصر الفخم الذي عاش فيه غي ريتشي ومادونا في ما مضى.

لم يسبق لغيديون أن زار هذا المكان من قبل. واستغرق منه إيجاده إيّاه في الظلام بعدما أنهكه التعب أكثر من ساعة. تمنّى لو أنّه فكّر في الأمر أكثر، وحجز في فندق أو طلب من الشرطة إيجاد مأوى له. والآن، ليس لديه مكان ينام فيه ما لم يدخل المنزل.

كانت نتائج العمل المريب الذي مارسه والده الراحل مثيرة للإعجاب. لا بدّ من أنّ القصر يساوي عشرة ملايين باوند، وربّما أكثر. ربّما كانت تجارة أبيه - سرقة القبور، كما يسمّيها غيديون - أحد أسباب انتحاره.

قاد غيديون سيّارته عبر البوّابة الحديديّة المرتفعة، ودخل حديقة مظلمة ومخيفة مثل مقبرة. سار في ممرّ مسافة نصف ميل قبل أن يصل إلى بركة رخامية مع نافورة مضاءة ولكنّها لا تعمل. كانت مصابيح الحديقة الصفراء تُلقي ضوءاً مصفرًّا بين أوراق الأشجار القديمة. أوقف عمل المحرّك، وجلس للحظة وهو يتأمّل المنزل القديم. كان أشبه بصدفة خالية من الحياة.

ترجّل من السيّارة، ومشى في طريق حول الجناح الشرقي. وبما أنّه لا يملك مفاتيح، فكّر في أنّه لن يواجه المشاكل لاقتحامه منزلاً ورثه للتوّ.

اجتاز مجموعة أخرى من مصابيح الأمان، وبهر الضوء الأبيض الساطع عينَيه. شعر بحركة سريعة بين الشجيرات والأعشاب، ليس بعيداً عن المنزل، وفكّر في أنّها ثعالب أو أرانب.

وقعت عيناه على صندوق أمان مثبّت على جدار بعيد. لا يبدو مشحوناً على الأرجح. فعندما يُقدم المرء على الانتحار، لا يُشغّل جهاز الإنذار. وبما أنّ الشرطة لم تُقفل البوّابات الأمامية، فمن غير الممكن أن تكون قد اتّصلت بالشركة للحصول على الرمز وعيّنت حارساً على الأملاك.

نظر من خلال بيت زجاجي إلى أشجار البرتقال، ولم يستطع حمل نفسه على الدخول. مشى قليلاً بعد، ونظر إلى داخل غرفة غسيل. كان الباب حديث الطراز، وإصلاحه أقلّ كلفة من أيّ شيء رآه حتّى الآن.

ستكفي ركلةٌ قويّة بعقب حذائه لفتحه. عليه توجيهها إلى نقطة ما حول القفل. ألقى نظرة عن كثب، فمن الأفضل أن يقوم بالأمور بشكل صحيح.

بدت عضاضة الباب المحيطة بالقبضة مكسورة أصلاً.

دفعها قليلاً، ففُتح الباب.

"تبًّا". شتم غيديون. بوّابات مفتوحة، وباب مخلوع كان ينبغي أن يكون مقفلاً.

كان هواء المنزل جافاً، والرائحة كريهة. هل دخلت الشرطة هكذا؟ هل ركلت الباب بجنون، واندفعت إلى الداخل بعد اتّصال من مدبّرة منزل في حالة هستيرية؟

أضاء المصباح وأدرك أنّ فكرته الأخيرة غير منطقيّة. فالخادمة التي عثرت على والده تملك مفتاحاً على الأرجح. وما من سبب يدفع الشرطة إلى خلع الباب.

لا بدّ من أنّ المكان قد تعرّض للسطو.

لا بل أسوأ من ذلك؛ لا بدّ من أنه يتعرّض للسطو.

9

لم يجد موسكا شيئاً.

فتّش غرفة الجلوس، وغرف النوم الثماني، وعدّة حمّامات، وقاعتَي الاستقبال، ولم يعثر حتّى الآن على شيء ذي قيمة بالنسبة إليه. إنّ منزل العجوز حافل بالتحف الثمينة بالتأكيد. ولا شكّ في أنّ لصًّا عادياً كان ليخرج وهو يؤرجح فوق كتفه كيساً مليئاً بالغنائم، ويصفر بحبور وهو يجتاز أروقة المنزل المترفة. ولكنّ تلك التحف لم تكن ما أتى موسكا من أجله.

فالكتب، والمذكّرات، والوثائق، والصور، والملفّات، والكمبيوتر، وأيّ شكل من أشكال أشرطة التسجيل هي ما يبحث عنه في عرين صيّاد الكنوز.

لقد سبق له أن خرّب المكتبة، وأخرج مئات ومئات من الكتب

القديمة، وفتحها، وهزّها. وهو الآن يتوجّه إلى المكتب؛ المكان الذي انتحر فيه البروفيسور.

اقترب من النافذة، وأغلق الستارة الحمراء السميكة. وجّه مصباحه إلى المكتب، فوجد مصباحاً نحاسياً قديماً وأضاءه. في الضوء الخافت، وقعت عيناه أوّلاً على كرسي فخم من خشب الجوز، ومن ثمّ على المكتب فيكتوري الطراز، وبقعة الدماء الحمراء الكبيرة المنتشرة على الورق القشدي.

ارتعش. بدا وكأنّ ظلام المنزل يُطبق عليه ويطوّقه.

ثمّ سمع صوتاً.

اندفع موسكا نحو الباب. أهي مجرّد أصوات طبيعية في منزل قديم؟

صدر صوت آخر.

أوقف عمل المصباح بسرعة، ثمّ ابتعد عن المكتب وانسلّ عائداً نحو الباب. اتّكأ على الجدار، وتمنّى لو أنّ قلبه لا ينبض بتلك السرعة.

خيّم الصمت.

ثمّ سمع مجدّداً طقطقة الخشب الخافتة.

عرف الآن بالضبط مصدر الصوت. فأرض الجزء الخلفي من المنزل مكسوّة بألواح خشبيّة، والكثير منها بالٍ ومقلقل. هذا ما اكتشفه حين دخل. أنزل حقيبته عن كتفه وأدخل يده فيها، وأحاطت أصابعه بعتلة حديدية صغيرة. كانت ممتازة لخلع باب خلفي غير متين أو لفتح جمجمة.

مرّت لحظة.

تبعتها أخرى.

ومن ثمّ أخرى.

بدأ يتساءل ما إذا كان بمفرده أم لا، وما إذا كان أحدهم قد أتى ورآه. ربّما اتّصل بالشرطة. لم يعد موسكا قادراً على الانتظار. بحث في جيبي سرواله ووجد قدّاحة. إن لم يستطع إيجاد شيء يورّطهم، فأقلّ ما يستطيع فعله هو ضمان ألاّ يقوم شخص آخر بذلك.

عاد نحو المكتب، وفتح بحذر أحد الأدراج ليجد رزمة من أوراق الطباعة. ممتاز. مزّق الغلاف وقرّب الشعلة من رزمة الأوراق إلى أن بدأ الدخان يتصاعد منها واشتعلت. حمل الأوراق المشتعلة إلى الستائر، وتوهّجت النار في الظلام. قرّب اللهب من القماش الطويل إلى أن اشتعل.

شكّلت الستائر عموداً من النار التي راحت تزأر بغضب في وهج برتقالي وأسود. تراجع موسكا خطوتَين، وتصاعد الدخان حوله.

حين التفت، رأى شخصاً طويلاً عند الباب.

شعر بوميض ضوء صغير، وكأنّ مصباح الغرفة أضيء وأطفئ بسرعة، ثمّ أغلق الرجل الغامض البابَ فجأة. أسقط موسكا الورق المشتعل، واندفع إلى الباب الماهوغاني المنيع. ولكنّ المفتاح استدار في القفل مرّتين.

لقد احتُجز في الداخل.

10

غيديون ليس بطلاً.

المرّة الأولى والأخيرة التي تشاجر فيها كانت في المدرسة، ولم تكن حتّى عراكاً فعليًّا. تلقّى يومذاك عدّة لكمات على وجهه من متنمّر الصفّ الذي تركه وأنفه ينزف وبلا مال.

تغيّرت بنيته كثيراً منذ ذلك الحين. فقد أصبح أطول قامة، وأكثر

عرضاً. يرجع طول قامته إلى مورّثاته، وعرض منكبَيه إلى سنوات من التجذيف في كامبردج. ولكن، منذ تلك الحادثة الأليمة، طوّر حسًّا حادًّا تجاه الخطر، وفهم أنّ سرعة الدماغ هي دائماً أفضل من سرعة اليدَين.

اتّصل غيديون برقم الطوارئ، وعاد إلى المكان بهدوء للتأكّد من أنّه لم يرتكب خطأ سخيفاً.

كان باب المكتب مفتوحاً بينما أظهر الضوء الآتي من الرواق المفتاحَ الكبير الموضوع في القفل. عندما رأى الرجلَ يُشعل الستائر، قرّر إقفال الباب وحبسه في الداخل حتّى تحضر الشرطة.

إلاّ أنّه بدأ يعيد التفكير في الأمر.

لقد حجز رجلاً في غرفة مشتعلة، وإن لم يخرجه منها فسيموت. ماذا إذاً؟ سأل نفسه فعلاً ذلك السؤال. ماذا إن مات؟ هل سيفتقد العالم إلى إنسان وضيع يقتحم منزل رجل ميت ويسرقه حتّى قبل أن يرتاح في قبره؟

فتح غيديون الباب.

أصدر اللهب زئيراً عندما هبّ تيّار الهواء. تراجع، وحمى وجهه من اللهب بذراعَيه. من خلال جدار النار البرتقالي، انقضّ عليه شكل بشريّ أسود، ورطمه بالجدار، فاهتزّ من قوّة الصدمة. وجّه إليه لكمة سحقت عظم خدّه الأيسر، ثمّ ضربه بركبته بين ساقَيه، فانحنى من شدّة الألم، ليتلقّى لكمة في وجهه.

تمدّد على الأرض، عاجزاً عن التنفّس، والدم يسيل من شفتَيه. آخر ما رآه غيديون، قبل أن يغيب عن الوعي، كان موجة عملاقة من النيران والدخان مندفعة نحوه.

11

انطلق موسكا يعدو هارباً عبر المروج الممتدّة خلف المنزل، وقلبه ينبض بجنون. علا صوت الصفّارات على أزيز النار، وبدا من الصوت أنّها سيّارة واحدة. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير، ويعرف أنّ الشرطة لن تأتي بكامل عتادها. لن يُرسلوا على الأغلب أكثر من سيّارة واحدة، تحتوي على عنصرَين على الأرجح.

مع ذلك، من الجيّد أنّه ركن سيّارته في ممرّ بعيد خلف القصر. المروج خالية ومفتوحة، وسيتمكّن قريباً من الابتعاد عن الأضواء. المشكلة هي أنّ الظلام دامس ولم يستطع أن يجد بالضبط المكان الذي تسلّق فيه الجدار، وهي النقطة التي سترشده إلى طريق العودة إلى السيّارة.

تعثّر بأجمة من أغصان الورد المتشابكة، وكاد أن يتعثر بتلّ خلد ضخم إلى حدّ أنّ مالكه يستطيع على الأرجح الترشّح لمنصب حاكميّة كاليفورنيا، ويسقط أرضاً. أخيراً، وجد المعلَم الذي سجّله في ذهنه؛ بيتاً بلاستيكيًّا، نصفه السفلي مبنيّ من القرميد، ونصفه الأعلى من الخشب والزجاج المزدوج. عدّ ثلاث عشرة خطوة على طول الجدار، ووجد الموقع الذي يجب عليه تسلّقه.

ولكن، واجهَته عقبة.

عندما دخل المكان، تسلّق شجرة صغيرة من الجانب الآخر. وقفز عن علوّ عشر أقدام؛ الأمر الذي لم يكن صعباً. فطوله يتجاوز ستّ أقدام، ما أتاح له أن يرمي حقيبته، ثمّ يُدلّي جسده متشبّثاً بأصابعه ويقفز المسافة الباقية.

الآن لا يستطيع العودة.

مهما قفز عالياً، أو ركض وقفز، فلن يتمكّن من بلوغ أعلى

الجدار. وضع موسكا حقيبته جانباً وبدأ بحثاً محموماً عن شيء يقف عليه؛ صندوق سماد قديم، أو ربّما مجرفة، أو شوكة حديقة يتكئ عليها، أو سلّم إن حالفه الحظّ.

ولكن، لا شيء.

ألقى نظرة عبر المروج المظلمة. كانت ألسنة النار تُطلّ عليه من جانب المنزل. سيكون لدى رجال الشرطة ما يشغلهم، وقد هدّأت تلك الفكرة أعصابه. لديه وقت كافٍ للهرب من دون ارتكاب أخطاء.

البيت البلاستيكي.

حرّك قبضة الباب، فوجده مقفلاً. رأى من خلال النافذة مناصب خشبيّة صُفّت عليها أصص النباتات. سيكون أحدها ممتازاً. عاد إلى حقيبته، وأدرك أنّه نسيَ العتلة في مكتب العجوز. لا بأس، قوّة جسده ستكفيه.

تراجع موسكا إلى الخلف، ثم وجّه ضربة بعقب قدمه إلى الزجاج والإطار الخشبي، ثمّ فتح الباب ودخل.

كان محقاً، فالمناصب الخشبيّة ممتازة. نزع أحدها من التراب الغارق فيه، وأتلف عشرات نباتات الطماطم وهو يجرّه إلى الخارج. ألقى نظرة أخرى على المنزل.

رأى في الظلام كرة متراقصة من الضوء. إنّه ضوء مصباح. ثمّة شرطيّ يحمل مصباحاً ويفتّش المكان، ويتّجه بسرعة نحوه.

سبق لموسكا أن قتل، وهو مستعدّ للقتل مجدّداً إن لزم الأمر. تراجع إلى يسار الضوء، ورمى حجراً ثقيلاً قرب البيت البلاستيكي.

"قف مكانك. الشرطة!".

ابتسم مع اندفاع الضوء نحو الصوت. وخلال ثانية، أصبح خلف الشعاع، وتهاوى الشرطيّ مغمًى عليه على الأرض.

عاد موسكا إلى المنصب الخشبي ووضعه بمحاذاة جدار الحديقة. وبعد عشرين ثانية، كان قد اختفى.

12

راحت ميغان تُصغي إلى ابنتها الصغيرة وهي تتنفّس بصعوبة. كانت تنهض كلّ نصف ساعة وتتحسّس جبين ابنتها بيَدها. حرارتها مرتفعة جداً. للمرّة الثامنة تلك الليلة، بلّلت فوطة قطنيّة ووضعتها بلطف على جبين سامي.

رنّ هاتفها المحمول، فأخرجها من شبه نوم متوتّر، فتناولته قبل أن يوقظ ابنتها.

"المفتّشة بيكر".

"حضرة المفتّشة، معك جاك بينتلي من غرفة العمليات".

همست وهي تنهض من السرير: "انتظر لحظة". خرجت من الغرفة، ثم قالت: "حسناً، تفضّل".

"وقع حادث في تولارد رويال، وطلب منّي ضابط الشرطة الاتّصال بك".

"اتركني وشأني، جاك". نظرت إلى الطرف الآخر من الرواق. كانت أمّها تقف أمام غرفة نومها عابسة.

"أعرف ذلك سيّدتي. اندلع حريق في أحد المنازل الكبيرة هناك. كما وقعت عمليّة سطو أيضاً، استناداً إلى التقرير. واعتدى المجرم على ضابط شرطة في أثناء هربه من مسرح الجريمة".

"وهل أنت بحاجة إلى الاتّصال بي بخصوص ذلك؟".

"تمّ نقل مدنيّ إلى المستشفى. وقد وجدوا بطاقتك معه".

تحاشت ميغان نظرة أمّها الاتّهامية وسألته: "هل لديك اسمه؟ ما

هي مواصفاته؟".

"لا أعرف مواصفاته، ولكنّنا مررنا بجانب سيّارة مركونة هناك، من نوع أودي أ 4 قديمة، مسجّلة باسم غيديون تشيس من كامبردج".

كانت تعرف الجواب، ولكنّها سألت مع ذلك: "من هو مالك المنزل؟".

طبع بينتلي المعلومات على حاسوبه ثم أجابها: "المنزل باسم ناثانيال تشيس. وهو مسجّل على أنّه المقيم الوحيد فيه".

"كان كذلك. الرجل الذي نُقل إلى المستشفى هو ابنه. رأيته قبل بضع ساعات، وقد أتى إلى هنا لأنّني اتّصلت به وأخبرته بموت والده".

"يا للمسكين! هذه ليست ليلة سعده، أليس كذلك؟ أهو البروفيسور نفسه الذي أقدم على الانتحار؟".

"هو نفسه".

"على أيّ حال، توجّه شرطيّان إلى المكان، هما روبن فيذربي وألان جونز. يتلقّى جونز علاجاً لإصابات عنقه، بينما طلب منّي فيذربي الاتّصال بك وإخبارك. قال إنّه يعتذر عن الإزعاج، ولكن من الأفضل إخبارك الآن عوضاً عن التعرّض للتوبيخ غداً".

"إنّه محقّ. شكراً جاك، تصبح على خير".

أغلقت هاتفها، بينما دخلت أمّها إلى غرفة النوم لرؤية سامي. عرفت أنّهما ستتشاجران، فنزلت إلى الطابق السفلي لإعداد فنجان من الشاي.

بانتظار غليان الماء، تذكّرت ميغان اجتماعها القصير مع غيديون، ورسالة والده التي سبّبت له الاضطراب. لا يمكن أن تكون حادثة تولارد رويال مجرّد عمليّة سطو فاشلة.

هذا مستحيل.

13

الثلاثاء 15 حزيران
ساليسبوري

عندما فتح غيديون عينَيه، كان قد حلّ الصباح، وظنّ أنّه عاد إلى بيته وينام في سريره. ثمّ أدرك على الفور أنّه مخطئ، فهو في المستشفى. لقد وقع حريق وحادثة سرقة في منزل أبيه الميت، وأصرّ أطبّاء ساليسبوري على تمضيته الليلة في المستشفى، تحت المراقبة.

جاهد للجلوس عندما ظهرت رئيسة الممرّضات، سوزي ويلوبي وقالت له: "استيقظتَ إذاً. كيف حالك؟".

لمس رأسه، وشعر بألم مبرح فأجابها: "رأسي يؤلمني".

تناولت لوحاً عن طرف السرير، وألقت عليه نظرة، ثمّ تفحّصت المريض عن كثب وقالت: "لديك رضّة في رأسك، وجرح في شفتك، وشقّ عميق في خدّك الأيسر. ولكن، لا توجد كسور، استناداً إلى صور الأشعّة".

"عليّ أن أكون ممتنًّا لذلك".

"شيء من هذا القبيل".

نظرت إلى الشق في خدّه ثم قالت: "وجهك أقلّ غضباً ممّا كان عليه، ولكنّنا قد نُضطرّ إلى وضع قطب هنا".

"سيكون بخير، فأنا أُشفى بسرعة".

كان من الواضح أنّ الفكرة سبّبت له التقزّز لذا قالت له: "لم تعد تسبّب الألم كما كانت في الماضي. هل تلّقيت حقنة كزاز مؤخّراً؟".

"ليس منذ أن كنتُ طفلاً".

"إذاً سنعطيك واحدة، وسنتحقّق من عدم إصابتك بأيّ إنتان، فالحرص واجب. كيف حال حلقك؟".

شعر وكأنّه عاد إلى المدرسة الداخلية، وأنّه يخضع لفحص القَيّمة للتأكّد من أنّه لا يحاول التهرّب من الدروس. "أشعر أنّه خشن بعض الشيء، ولكنّني بخير. في الواقع، أظنّ أنّني أستطيع العودة إلى البيت، إن كان هذا ممكناً".

بدا من النظرة التي ألقتها عليه أنّ هذا غير ممكن وللتأكيد على ذلك أجابته: "سيحضر الطبيب بعد نحو عشرين دقيقة ليكشف عليك. إن كان كلّ شيء على ما يرام، فسيعطيك الإذن بالخروج".

رتّبت الأغطية الرقيقة مضيفة: "سأحضر لك دواءً للصداع وبعض الماء من أجل حلقك. يجدر بك الإكثار من شرب الماء لتنظيف جسدك. فالحريق الذي حاصرك تسبب بدخول دخان كثيف إلى رئتَيك. وعلى الأرجح، ستعاني الألم والسعال لبضعة أيّام".

هزّ رأسه بامتنان: "شكراً".

ابتعدت الممرّضة، بينما راح يفكّر في كلامها. الحريق. تذكّر كلّ شيء الآن: الدخيل الذي وجده في مكتب أبيه، والستائر المحترقة، والشجار في الرواق.

عادت الممرّضة حاملة كوب ماء بلاستيكيًّا وظرفَين من الأقراص وسألته: "هل تعاني تحسّساً من الباراسيتامول أو الإيبوبروفين؟".

"كلاّ".

أخرجت له قرصَين من الباراسيتامول قائلة: "تناول هذين. وإن لم يخفّ ألم رأسك، فسيعطيك الطبيب شيئاً أقوى".

اضطرّ إلى شرب الماء بكامله لابتلاعهما. كانت فيكي، صديقته السابقة، تبتلع الأدوية أياً كان نوعها من دون نقطة ماء. أمّا هو، فيحتاج إلى صبّ نصف نهر التايمز في حلقه لابتلاع قرص واحد. من الغريب أن يفكّر فيها اليوم. لا بدّ من أنّ الضربة التي تلقّاها على رأسه هي

السبب. فقد انفصلا منذ أكثر من عام. عادت الملكة فيك إلى إدنبورغ بعدما أنهت الدكتوراه، كما كانت تهدّد أن تفعل، وجعلهما الانفصال يدركان أنّ الوقت قد حان لمتابعة حياتيهما كلّ على حدة. يا للعار! فكّر غيديون، فهو ما زال يفتقد إليها أحياناً، كما يفعل الآن.

كانت الممرّضة ويلوبي تحوم حوله.

"هل تشعر أنّك قادر على استقبال زوّار؟". بدا في صوتها شيء من الاعتذار.

لم يكن غيديون واثقاً بما يجيب، فسألها: "أيّ نوع من الزوّار؟".

"الشرطة. وصلت للتوّ مفتّشة مباحث إلى مكتب الاستقبال". ومض مكر في عينَيها وهي تضيف: "ليس عليك رؤيتها إن كنتَ غير مستعدّ. يمكنني صرفها".

"لا بأس، سأراها. شكراً". آلمه رأسه احتجاجاً. لم تكن ميغان بيكر الشخص الذي يريد رفقته الآن.

14

اجتمعت الدائرة الداخلية في إحدى الغرف الخارجية للهيكل. كانت حلقة من الشموع يبلغ ارتفاعها مستوى الخصر، مصنوعة من شمع النحل الصافي، تُلقي ضوءاً باهتاً على الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه القيّم.

وقف موسكا في الوسط، وقد سيطرت عليه مشاعر الخزي والعار.

هزّ صوت دراكو الجدران الحجرية: "لقد فشلت. خذلت إخوانك، وحرفتنا، وعرّضتَ كلّ ما نمثّله للخطر".

لم يجرؤ موسكا على الاعتراض.

أصبح صوت دراكو قاسياً: "من أجلنا جميعاً، اتلُ علينا لائحة

الهدايا التي تركتها للشرطة".

انصاع موسكا للأمر وقال: "حقيبة العدّة. كانت تحتوي على عتلة، مطرقة، شريط أنابيب لاصق، قطّاعات أسلاك...".

قاطعه دراكو: "وما يكفي من الحمض النووي لإدانتك بالسرقة، والإحراق المتعمّد، وربّما محاولة القتل".

"لا يمكنه إيصالهم إليّ".

"ليس بعد".

اعترض موسكا قائلاً: "ليس لديّ سجلّ إجرامي. وبصماتي أو بصماتي الجينية ليست موجودة في أيّ سجلّ".

صفعه دراكو على وجهه قائلاً: "لا تُضف الوقاحة إلى قلّة الكفاءة. تكلّم معي بالاحترام الذي أستحقّه كقيّم على الدائرة الداخلية".

وضع موسكا يده على خدّه قائلاً: "أنا أعتذر".

نظر دراكو عبر القاعة المظلمة وقال: "غروس، هل يمكننا محو هذا الدليل؟".

"أتقصد إزالته؟".

هزّ دراكو رأسه.

"ليس بعد. ثمّة أيضاً مسألة عنصر الشرطة الذي هاجمه. ولكن لاحقاً، أجل. أنا واثق أنّنا نستطيع ذلك".

"جيّد". التفت مجدّداً إلى موسكا وتابع: "هل رأى أحد وجهك؟".

"لم يرني الشرطيّ، فقد كان الظلام دامساً. ولكن، أنا واثق أنّ الابن قد رآني".

طرح دراكو سؤالاً عبر القاعة: "هل نعرف كيف هو، وأين هو؟".

أجاب أقصرهم قامة، وهو أخ أحمر الشعر معروف باسم فورناكس: "إنّه في المستشفى في ساليسبوري، استُبقي طيلة الليل،

ولكن من دون إصابات خطرة. سيتمّ إخراجه غداً، وربّما في وقت لاحق من هذا اليوم".

تكلّم غروس، وكان صوته هادئاً وناضجاً: "سيتعقّبه المراقبون عندما يغادر".

"جيّد". كان لدى دراكو سؤال آخر طرحه على موسكا: "لنكون واضحين، أنت لم تجد شيئاً في المنزل قد يلفت أنظار العالم إلينا؟".

"لا شيء. فتّشتُ كلّ الغرف، في الطابق العلوي والسفلي. ثمّة مئات، لا بل آلاف الكتب. ولكن، ليست هناك سجلاّت، أو وثائق، أو رسائل تذكر أسرار حرفتنا".

تكلّم غروس مجدّداً: "ربّما ظلّ وفياً حتّى النهاية".

لم يكن دراكو يعتقد ذلك فقال: "نحن نعرف العاطفة التي تُكنّها لأخينا الراحل، ولكنّها ليست في مكانها. فانتحاره سيّئ التوقيت جداً، وهو ينمّ عن أنانيّة، وقد يكون كارثياً. فهو يعرف المخطّط وما هو متوقّع منه".

حوّل القيّم انتباهه إلى موسكا وسأله: "هل أنت واثق تماماً أنّ المنزل لا يحتوي على أيّ إشارة إلى حرفتنا؟".

"إن كان يحتوي على شيء، فقد اختفى الآن. أنا واثق أنّ الحريق قد دمّر كلّ محتويات المكتب".

هدأ غضب دراكو وقلقه. ربّما كان خطأ نسيان الحقيبة هو الثمن الذي ينبغي دفعه مقابل حريق يُحافظ على سريّة الحرفة. ولكن، تبقى أمامهم مشكلة أكبر. فقد كان الدور المنتظر من ناثانيال تشيس حيوياً بالنسبة إلى مصير الحرفة. كان له دور أساسي في المرحلة الثانية من الطقوس.

وها قد رحل الآن، وينبغي ملء ذلك الدور.

سريعاً.

15

رتّبت ميغان بيكر تنّورتها الرمادية الداكنة متوسّطة الطول وهي تجلس على الكرسي الصلب قرب سرير غيديون وسألته: "إذاً، ما الذي حدث لك؟".

"لا أذكر الكثير على ما أظنّ".

نظرت إلى الممرّضة الواقفة إلى جانبها وقالت لها: "هل ثمّة مكان أكثر هدوءاً يمكنني التكلّم فيه معه؟".

فكّرت الممرّضة للحظة، ثم أجابت: "ثمّة غرفة معاينة في آخر الممرّ". أشارت بيَدها وتابعت: "استعملا تلك الغرفة، واقلبا الإشارة المعلّقة على الباب لكي لا يزعجكما أحد".

نظرت ميغان إلى غيديون مجدّداً وسألته: "هل يمكنك السير؟".

"بالتأكيد، أنا بخير". أنزل ساقَيه ببطء عن السرير، وحرص على ألاّ تكشف ملابس النوم غير المناسبة التي يرتديها أكثر ممّا ينبغي. "أعتذر عن مظهري". أشار إلى السروال القطنيّ المخطّط الذي ينتهي قبل كاحلَيه بمسافة بعيدة.

دخلا الغرفة وتركتهما الممرّضة.

قلبت ميغان الإشارة إلى الرجاء عدم الإزعاج، وأغلقت الباب، ثمّ سحبت كرسيَّين، أحدهما من خلف مكتب قائلة: "إذاً، ماذا حدث بعد أن غادرت مركز الشرطة؟".

شعر بالغباء ولكنه أجاب: "لم أكن قد خطّطتُ فعلاً لما سأفعله. بعدما تركتك، أدركت أنّه ليس لديّ مكان أذهب إليه لتمضية الليل. فخطر لي الذهاب إلى منزل أبي والنوم هناك. أفترض أنّني كنت منجذباً إلى هناك في أعماقي".

"هذا طبيعيّ جداً".

"ربّما. على أيّ حال، وجدت الباب الخلفي مخلوعاً، فاتّصلت بالطوارئ ودخلت لإلقاء نظرة".

وضعَت ساقاً فوق الأخرى وقالت: "كان عليك انتظار وصول الدوريّة. ألم يطلبوا منك الانتظار؟".

لا يذكر إذا كانوا قد طلبوا منه ذلك، ولكنّه لا يريد التسبّب بالمشاكل لأحد فقال: "أظنّ ذلك. كلّ ما أردته هو إلقاء نظرة على المنزل من الداخل للتأكّد من أنّني لم أعطِ إنذاراً خاطئاً".

"من الواضح أنّك لم تفعل".

"كلاّ. رأيت ذلك الرجل في مكتب والدي. كان يُشعل فيه النار".

"كيف؟ ماذا كان يفعل بالضبط؟".

كانت الصورة واضحة في ذهن عالِم الآثار الذي أجاب: "كانت إحدى يديه - اليسرى - مليئة بالأوراق التي أشعلها بقدّاحة سجائر، من النوع الرخيص".

"تلك التي تُرمى بعد الاستعمال، من نوع بيك؟".

"شيء من هذا القبيل. أشعل الأوراق، ثمّ الستائر، وكان على وشك فعل الشيء نفسه بالمكتب".

"عندما واجهته؟".

"كلاّ، ليس بالضبط. في البداية أغلقت الباب وحبسته في الداخل. ثمّ أدركت أنّه يجب عليّ إخراجه، وإلاّ سيموت على الأرجح".

"كان أي شخص آخر مكانك سيتركه هناك".

"أغرتني الفكرة".

"أحسنت لأنّك لم تفعل، وإلاّ لكنتُ أُدينك الآن بارتكاب جريمة".

"أعرف".

تأمّلته، ولاحظت أنّه أكاديمي، وليس مقاتلاً. إنّه من أولئك الرجال

الذين يبدون أقوياء البنية بما يكفي للدفاع عن أنفسهم ولكنّهم لم يتعلّموا كيفيّة القيام بذلك قطّ.

"إذاً، فتحتَ الباب وانقضّ عليك؟".

"بالضبط. دفعني عن طريقه فأمسكتُ بوسطه؛ على طريقة الركبي. ولكنّني لم أدفعه على الأرض، فبدأ يلكمني ويركلني".

نظرت إلى الكدمات، ووجدتها غريبة فقالت: "لقد تسبّب بشقّ عميق في خدّك. ومن الأثر، يبدو أنّه كان يضع مجوهرات في يده اليسرى؛ خاتماً ربّما".

"لم ألاحظ ذلك، لم أشعر سوى بالألم".

"أتخيّل ذلك". رفعت حقيبتها عن الأرض وسألته: "هل تمانع لو التقطتُ صورة للكدمة، فشكلها واضح جداً؟".

"لا أظنّ ذلك".

أخرجَت كاميرا سايبر صغيرة، ثمّ ومض ضوء باهر في وجهه وهي تأخذ له صورة. قالت: "آسفة، واحدة بعد".

ومض الضوء مرّة أخرى، ثمّ أوقفت عمل الكاميرا، وقالت وهي تعيدها إلى حقيبتها: "قد نطلب من عملاء مشهد الجريمة (SOCO) معاينة الأثر. إن تمكّنا من القبض على الرجل الذي لكمك، فسيُتّهم بالاعتداء، والسطو، وإحراق أملاك الغير. ثلاثيّ رائع قد يُدخله السجن مدّة لا بأس بها".

"قد؟".

"أخشى ذلك. فالقضاء الإنكليزي يُصغي إلى أيّ قصص دراميّة قد يرويها المتّهم عن أنّه كان يبلّل سريره وهو طفل، أو أنّ أباه كان مدمناً على الشراب، وما إلى ذلك. يسمّونها الظروف المخفّفة. هل رأيته بوضوح؟".

بدت الخيبة على وجه غيديون وقال: "كلاّ، مع الأسف. حدثت الأمور بسرعة، وكان الظلام دامساً".

تملك ميغان شهادة في علم النفس، وقد عملت عامَين كمساعِدة لأحد أهمّ علماء النفس في بريطانيا. يمكنها أن ترى الكذبة آتية حتّى قبل أن تعبر شفتي المرء. عبست وحاولت إظهار ملامح الارتباك: "لا أفهم تماماً. لاحظتَ بوضوح القدّاحة التي يحملها بيَده، ولكنّك لم ترَ وجهه".

شعر غيديون بالضيق وقال: "لا أعرف. أظنّ أنّ عينَيّ انجذبتا إلى النار".

"أفهم ذلك. ولكن، بالرغم من الضوء الصادر عن النيران – من الأوراق التي يحملها في يده ومن الستائر المشتعلة – فأنت لم ترَ منه ما يكفي لإعطائنا وصفاً بسيطاً!؟".

رفع كتفَيه قائلاً: "أنا آسف".

"سيّد تشيس، أودّ مساعدتك، ولكن عليك أن تثق بي".

بدا عليه الاستغراب فسارع إلى القول: "أنا أثق بك. ولِمَ لن أفعل ذلك؟".

تجاهلت السؤال وقالت: "هل أنت واثق أنّك لا تستطيع إخبارنا شيئاً عن الرجل؟ عن حجمه، ووزنه، ولون شعره، وملابسه، أيّ شيء؟".

شعر بعينَيها تخترقانه، ولكنّه ظلّ صامتاً. لديه صورة للرجل، التقطها بهاتفه المحمول، قبل أن يغلق الباب. لا بدّ من أنّ للسارق علاقة بأسرار أبيه، وهو ينوي أن يكتشف بالضبط ماهيّتها قبل أن تفعل الشرطة ذلك.

كانت ميغان تنتظر الجواب.

هزّ رأسه نافياً وقال: "أنا آسف، لا أستطيع مساعدتك".

نظرت إليه وقد ارتسمت ابتسامة مشرقة على ثغرها أجفلته تقريباً، وقالت ببرود جليديّ: "ستفعل، صدّقني ستفعل".

16

ستونهنج

تستلزم حماية الأحجار الثمينة منع الناس من تسلّقها أو تخريبها. ومن أجل ذلك، أحاطت منظّمة إنغليش هيريتاج المنطقة بأسيجة، وحواجز وحبال، ولم تسمح للناس بزيارة الآثار سوى في المناسبات الخاصّة أو بإذن خطّي.

كانت تلك المنظّمة المموّلة من قبل الحكومة تقوم بعملها على أكمل وجه، ولكنّها لا تملك فكرة عن مدى تفاني بعض رجال الأمن لديها. شون غُراب مثلاً هو أحد أتباع المبجّلين المخلصين. فبعد انتهاء دوامه مدفوع الأجر بوقت طويل، يواصل مراقبة الموقع الأثري الفريد.

يُعتبر غراب، البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، واحداً من أولئك الشباب النشاط، زائدي الوزن بعض الشيء، الذين يُتمّون عملهم دائماً، ولا يتردّدون في الثناء على من يعملون لأجلهم. كان يترأس فريقاً من المراقبين الذين تبقى أعينهم ساهرة على ستونهنج. ثلاثمئة وستون درجة، أربع وعشرون ساعة في اليوم، سبعة أيّام في الأسبوع، ثلاثمئة وخمسة وستّون يوماً في السنة.

لا يكفّ هو وفريقه عن المراقبة. وهم يقومون بذلك إمّا علناً خلال ساعات الدوام المدفوعة من قبل هيريتاج، أو سرًّا عبر الكاميرات الصغيرة والبعيدة المثبّتة في مواقع استراتيجيّة في أرجاء المكان.

غراب مراقب منذ عشرة أعوام. يُعرف بين أبناء الحرفة باسم

سيربنز، وهو يسير على خطى أبيه، وجدّه، وكلّ ذكر في سلالته. يُرافقه اليوم لي جونز البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، وهو مجنّد جديد نسبياً، لم يتمّ قبوله رسمياً بعد في صفوف أبناء الحرفة. إنّه شابّ طويل القامة ونحيل الجسد، بشرته شاحبة وكثيرة البثور، ويرتدي إلى جانب زيّ العمل الرسمي، سراويل الدنيم الزرقاء والقمصان القطنيّة. ليس شابًّا لامعاً جداً، وقد نال قسطه من المشاكل، بما في ذلك المخدّرات والتشرّد. في أوائل عقده الثاني، نبذه المجتمع نظراً لكونه مثيراً للمتاعب. ووجد العزاء لفترة في صحبة معارضين ومحرّضين آخرين، ولكنّه لم يشعر قطّ أنّه ينتمي إليهم.

بدأت حياته تصبح ذات معنى عندما أتى إلى ستونهنج في طريقه إلى غلاستونبيري، حيث كان يأمل كسب بعض المال من خلال تجارة رخيصة. ولكنّه لم يصل قطّ إلى الاجتماع الموسيقي. إذ كان الانقلاب الشمسي يخطف الأنفاس إلى حدّ أنّه عجز عن مغادرة النصب. فمكث هناك، وهو يساعد ويتطوّع في أيّ عمل يرتبط بالأحجار العجيبة.

إنّه يعمل الآن مع شون منذ ثلاثة أعوام تقريباً. وأصبحت علاقتهما أشبه بعلاقة أستاذ بتلميذه. إذ يرعاه شون ويزوّده بحكمه بانتظام، تماماً مثلما يزوّده بالشاي البنّي الداكن من قارورته المعزولة. وهو يمتحن تلميذه في كلّ مناوبة، لضمان قبوله في دائرة الأتباع المغلقة.

"السؤال الأوّل". حدّق غراب إلى تلميذه لكي يركّز اهتمامه عليه: "ما هي الأحجار؟ وماذا تعني بالنسبة إلى أبناء الحرفة؟".

ابتسم جونز، فالسؤال سهل وأجاب: "الأحجار مبجّلة بالنسبة إلينا. فهي مصدر كلّ طاقتنا. إنّها تحمينا وتحرسنا، وهي قوّة حياتنا".

كافأه غراب بصبّ الشاي في فنجانه البنّي وقال له: "جيّد. ولماذا تمنحنا الأحجار المبجّلة تلك البركات؟".

ارتشف جونز الشراب الداكن وهما يقفان بمحاذاة حاجز المرور عند مرأب السيّارات ثم أجاب: "نحن أتباع المبجّلين، نحن أبناء من وضعوا الأحجار العظيمة هنا قبل آلاف السنين. عظام أجدادنا ودماؤهم تُغذّي المبجّلين في مرقدهم، ويوماً ما ستتبعهم رفاتنا وتُتمّ الدائرة".

تصاعد البخار من الفنجان الفولاذي المعزول الذي يحمله غراب. ارتشف الشاي الساخن وسأله: "وكيف يباركنا المبجّلون؟".

"بواسطة طاقتهم. ينقلونها إلينا عبر الأحجار، وتحمينا بركتهم من تفشّي الأمراض ومن ذلّ الفقر".

شعر غراب بالسرور. فتلميذه يتعلّم مبادئ الحرفة جيّداً، وهذا يُعطي انطباعاً حسناً عنه. صبّ المزيد من الشاي في فنجان لي وسأله: "وماذا يتوقّع المبجّلون منا بالمقابل؟".

"الاحترام". لفظ الكلمة بصدق. "علينا الاعتراف بهم، واحترامهم، والاعتقاد بهم، واتّباع تعاليمهم من خلال حكيمهم؛ سيّد هانج".

"هذا صحيح يا لي. تذكّر الأشخاص الذين يرغبون في سرقة إرثنا. تذكّر الكاثوليك ووصاياهم المكتوبة على الحجر، والتي زعموا أنّ مصدرها علويّ. لقد ألّفوا تلك القصّة منذ ألفي عام بعدما استقرّ المبجّلون هنا في إنكلترا".

هزّ لي رأسه. إنّه يفهم. لا ينبغي أن تُغريه تلك الأنظمة المزيّفة التي تملك قصوراً مطعّمة بالذهب حيث يمارس أتباعها طقوسهم، والتي تجمع المال كلّ أسبوع من رعاياها لفتح مصارف وشراء أملاك خاصّة بها. قال لي متعطّشاً إلى الطمأنينة: "شون، أعرف أنّك تستطيع تعقّب سلالتك وصولاً إلى العظماء الذين حملوا الحجارة الزرقاء والسارسين. أفهم لماذا يجعلك ذلك تستحقّ حماية المبجّلين. ولكن، ماذا عن الأشخاص أمثالي؟ فنحن دخلاء. نحن لا ننتمي إلى هنا".

أدرك غراب إحساس عدم الأمان الذي يشعر به لي، فهذا أمر معتاد لديه لـذا أجابه مُطمئنـاً: "كلّنا ننتمـي إلى هنـا، يا صديقي. فمنذ خمسـة آلاف سنة، كان شعب بريطانيا صغيراً. ولو عدنا إلى تلك الأيّام، لوجدنا أنّنا أخوَين على الأرجح، أو قريبَين في أسوأ الأحوال".

أُعجب جونـز بالفكـرة، كما بـدت لـه منطقيّـة. إنهما أخـوان، هو وشون.

"أحسـنت فعلاً يا لي". أحاط غراب كتفَي الشابّ النحيلتَين بذراعه الضخمة ليريه كم هو فخور به.

ولكنّه كان قلقاً في الواقع. فكيف سيواجه تلميذه فظاعات التحدّي الذي ينتظره؟

17

بعـد أن أُعطـي غيديـون حقنـة كـزاز وأُجريت لـه تحاليـل دم غير ضروريّـة بنظـره، تـمّ إخراجـه مـن المستشـفى فـي أواخـر فترة مـا بعد الظهيرة. الجيّد في الأمر أنّ المفتشة تمكّنت من إرسال مفاتيح منزل أبيه إليه قبل خروجه.

مع اقتـراب سـيّارة الأجـرة التي أقلّتـه من المستشـفى إلـى المنزل الفخـم، رأى أنّ التلـف الذي لحـق بالمنزل كبيـر. فقد خرّبت سـيّارات الإطفـاء عشـب الحديقـة، واتّشـح جانب المبنـى بالسـواد نتيجـة دخان الحريق، كما تحطّمت النوافذ، وتكسّر القرميد.

في الوقت الحاضر، لم يأبه لذلك. فالمـكان لا يزال مجرّد أحجار بالنسـبة إليه. ولكـن، عندما دخـل من البـاب الأمامي الضخـم، تحرّكت مشاعره.

عندمـا توفيت والـدة غيديون، غمره حـزن كبير، وتحـوّل من طفل

واثق بنفسه ومنفتح؛ يثق بالعالم وبمكانه فيه، إلى طفل منغلق يخاف من الناس. والآن، تسـبّب موت أبيـه بتغيير آخر. لـم يكن أكيداً مـن ماهيّته، ولكنّه يشـعر بـه. كان في داخلـه مزيج متقلّـب من الغضـب، والإحباط، والاسـتياء، فضلاً عن الإحسـاس بالظلم. دوّامة من المركّبات أدرك أنّها ستُعدّل تكوين شخصيّته على نحو لا رجوع عنه.

تجـوّل في المنـزل الكبيـر الخالـي، وأحسّ بوحـدة كبيـرة. فهو لا يملك أشـقّاء، ولا شـقيقات، ولا أجداداً. أضف إلى ذلـك أنّ ليس لديه أولاد، وبه تنتهي سلالة تشـيس. ما سـيفعله في بقيّة حياته سيحدّد، ليس نظرة العالم إليه فحسب، بل مصير سلالة تشيس بأكملها.

خلع سـترته في الردهة، وصعد السـلّم الكبير، ووصل إلى مسـاحة مفتوحة في الطابق الأوّل. راح يبحث عن مكان يغتسل فيه ويرتاح قليلاً.

لـم يكـن المنـزل مناسـباً للعيش فيـه بعـد أربعمئة عـام مـن بنائه. فالغـرف الكبيرة، بأسـقفها العاليـة، تحتاج إلى ثـروة لتدفئتهـا. لا عجب في أنّ أباه عاش فـي اثنتين منهـا فقط كما يبـدو. فالنوافذ باليـة وتحتاج إلى تبديل، ومعظـم الجدران قـد شـوّهتها الرطوبة، والأرضيّـات تصدر صريراً أسوأ من أرضيّة سفينة قديمة في مهبّ الريح، ولا بدّ من أنّ طلاء الجدران لم يُجدّد منذ خمسين عاماً.

كانت غرفة نـوم أبيه هـي الصغـرى، وولّـدت لديه مشـاعر غريبة. أحسّ أنّهـا مليئة بالفراغ. فأشـياء العجوز تملأ المـكان، ولكنّها أصبحت بلا هويّة، وكأنّها تعرّضت لنشاط إشعاعيّ مسح عنها كلّ أثر له.

رأى كومة من الكتب قرب السـرير، وقربها فنجـان أبيض، لا يزال يحتوي على إنش من الشاي، وقد تكوّنت على سـطحه طبقة من العفن. لا بدّ من أنّ أباه قد تناوله في صباح يومه الأخير أو في الليلة السابقة.

كان الغطـاء مرفوعاً عن السـرير إلى أحـد جانبَي السـرير المزدوج

العالي، ذي الإطار الخشبي، فيما أظهر انخفاض الفراش القديم وتغضّن الملاءة ووسادة الريش أين كان ناثانيال ينام تماماً. كان الطرف الآخر من السرير مرتّباً. قطّب غيديون حاجبَيه. فبالرغم من ذكاء ناثانيال الأسطوري وثروته الطائلة، عاش مثل محتال ومات وحيداً.

ألقى نظرة أخيرة على أرجاء الغرفة الصغيرة، ولاحظ بقايا سلك جرس فوق الأرض، كان أسياد المنزل يستخدمونه لاستدعاء المربيّات أو الخدم الذين ناموا هنا في الماضي. تذكّر زيارة قام بها في صباه، في عطلة أسبوع ممطرة، إلى منزل ناشونال تراست، والملاحظة الوحيدة المثيرة للاهتمام التي نطق بها الدليل السياحي، إذ قال إنّ المكان مليء بالممرّات السرّية التي تتيح للخدم التنقّل بسرعة بين طابق وآخر ومن دون أن يراهم أحد.

تساءل غيديون إذا كان منزل أبيه يحتوي على سراديب من هذا النوع. خرج إلى الممرّ، وتطايرت حوله ذرّات الغبار. نظر ليرى إذا كانت هناك غرفة أخرى خلف غرفة نوم ناثانيال الصغيرة.

لم يجد شيئاً.

كان الممرّ يمتدّ وصولاً إلى نافذة تطلّ على الحديقة. سار نحوها ورأى إلى يمينه خطًّا فاصلاً غريباً في ورق الجدران. نقر على الجدار، وبدا من الصوت أنّه من الجصّ. نقر على نقطة تبعد متراً إلى اليسار ومن ثمّ على أخرى تبعد متراً إلى اليمين.

إنّه من الحجر.

نقر مجدّداً على لوح الجصّ، وربّت فوقه بأكمله وحوله. وجد أنّ لوح الجصّ كبير بما يكفي ليكون باباً. ما من قبضة مرئيّة، ولكنّه واثق من ذلك. ركع على ركبتَيه ونقر، كما يفعل في خنادق التنقيب الأثرية. عثر بأصابعه على الطرف الذي يلتقي فيه لوح الجصّ بالأرض. حاول

شدّه لفتحه، ولكنّه كان محكماً. تملّكه الإحباط، فدفعه عوضاً عن شدّه.

انفتح الباب فوراً، وهبّ معه هواء عابق بالرطوبة.

وقف غيديون أمام مدخل مظلم. مدّ يدَه إلى الداخل ووجد زرّ النور. ذُهل ممّا رآه: حجرة ضيّقة تبدو مثل خزانة طويلة. كان أحد الجدران مكسوًّا من الأرض إلى السقف بالكتب. والآخر يحتوي على شرطة فيديو، وبعض أقراص الفيديو الرقمية. وعلى الجدار المقابل، ثبّتت شاشة بلازما قديمة.

راح ذهنه يعمل بجنون. لماذا كان أبوه يملك حجرة سرّية؟ ما الذي سُجّل على الأشرطة؟ ولِمَ هي هنا؟ لماذا وُضعت عشرات الكتب هنا ولم تُعرَض في الأسفل؟

لماذا صمّم والده على الحفاظ على سرّية كلّ هذه الأشياء؟

القسم الثاني

18

الأربعاء 16 حزيران
سوهو، لندن

جايك تِمبرلاند في الحادية والثلاثين من عمره، ولكنّه يقول لكلّ من يجهل ذلك إنّه في السابعة والعشرين. فثمّة شيء يتعلّق بالثلاثين ليس جاهزاً بعد لتقبّله. في دائرة أصدقاء جايك، يُعتبر السنّ أشبه بِشارة ذكرى ميلاد كبيرة معلّقة على صدرك وأنت طفل، تُعلن فيها: أنا في الخامسة. ولكن، في الثلاثين، يمكن أن تكتب على الشارة أيضاً: أنا سجّاد، كلاب، عائلات، فولفو. أنا غبي.

وجايك ليس بغبي، لا سيّما في ليلة استخدم فيها دماغه أكثر من بيت دوهرتي وآيمي واينهاوس معاً.

هو ليس ثرياً، على عكس والده المصرفي. فوالده مصرفيّ وثريّ. ذاك الثراء الذي يرجع إلى جذور شجرة الأسرة. يوماً ما، سيرث جايك الكثير. ولكن، حتّى ذلك الحين، سيكتفي بمسكن مؤقّت بخمسة ملايين باوند في ماريلبورن، ومصروف يكفي لإدارة أستون، وتسديد فواتير النادي، والقيام باستثمار من وقت إلى آخر، والاستمتاع بليلة في البلدة.

جايك هو الابن الوحيد والوريث الوحيد للورد جوزيف تمبرلاند، وقد شوهد مع أشهر عارضات الأزياء، وجميلات المجتمع، وبنات نجوم الروك المتقدّمين في السنّ. بالطبع، من المفيد أن يكون لديك صديق يعمل مصوّراً في مجلّة هيت، وإلاّ، فما الغاية من الأصدقاء؟

الليلة، ارتدى ملابسه خصّيصاً للفت الأنظار. فقد ارتدى بذلة توبد زرقاء، مع قميص أزرق داكن، وانتعل حذاء جلديًّا إيطاليًّا أسود. منذ

بداية الأمسية، أُعجب بفتاة مثيرة فعلاً. إنها امرأة رشيقة دخلت قاعة الشخصيّات الهامّة في تشاياوايت وهي تتصرّف وكأنّها تملك المكان. عرف من أسنانها الجميلة أنّها أميركية قبل أن يسمع ضحكتها وحديثها إلى من حولها. لفتت نظره بعظام خدَّيها العالية، وعينَيها البنّيتين الدافئتَين، وشعرها الأسود الطويل المسرّح بعناية، وساقَيها الرائعتَين البادیتَين من تحت تنّورة قصيرة ملوّنة بالأخضر والوردي والمرجاني. بدت مثل نجمة فيلم هيبيّة.

بمجرّد النظر إليها، بدأ الدم يغلي في عروقه.

ثمّ اتّجه نظرها إليه.

يا الله! شعر جايك أنّه سينفجر مثل بئر من النفط. راح يطوف في المكان؛ تدفعه قوّة جاذبيّتها. كانت الفتاة الرشيقة محاطة بمجموعة من الإناث والذكور الجذّابين. ولكن يبدو أنّه الوحيد الذي يأسر اهتمامها.

"مهلاً، أيّها السيّد. قف مكانك".

فاجأه الصوت واليَد السوداء الكبيرة التي حطّت على صدره.

"عذراً". حدّق جايك بازدراء إلى الأصابع الكبيرة الممدودة قرب عنقه الأبيض مثل فكّ تمساح وقال: "هل تمانع؟".

تكلّم بتهذيب وبلكنة إنكليزية سليمة مع رجل ضخم إلى حدّ أنّه لم يستطع رؤية شيء خلف كتفَيه. "عليك أن تتراجع قليلاً، سيّدي. فالسيّدة الموجودة هناك تقيم حفلة، ويُمنَع الغرباء من الاقتراب".

ضحك جايك بعصبيّة وقال: "حفلة من دون غرباء؟! دعني فقط أقدّم نفسي للشابّة، أنا...".

أطبق التمساح فكّيه، إذ أحاطت الأصابع بعنق جايك ودفعته نحو مقعد في زاوية قاعة الشخصيّات الهامّة.

بينما جاهد للتنفّس، انحنى رجل أكبر سنًّا ذو شعر أشيب قصير

ينظر إلى عينَي جايك قائلاً له: "بنيّ، نحن آسفان على ذلك. والآن، سنطلب لك زجاجة الشراب الذي تريده اعتذاراً وستشربها هنا. اتّفقنا؟".

اعترض جايك قائلاً بصوت منزعج: "أنا مالك هذا النادي".

فوجئ بنفسه وهو يقف. ولكن، ما إن أصبح على قدمَيه، حتى أدرك أنّه لا يعرف ما الذي سيفعله بعد ذلك. كان طريقه مسدوداً بالرجل التمساح والشخص الآخر الذي يرتدي بذلة سوداء. وكان يحتاج إلى سلّم ليصل إليهما.

وراء جبال العضلات، وقع نظره مجدّداً على الشابّة الأميركية الجميلة. تمتمت إلى شقراء واقفة قربها، وفوجئ بها وهي تشقّ طريقها نحوه.

لم يكن لديه شكّ في مقصدها، فعيناها لم تتركا عينَيه. أياً تكن، فهي آتية للتكلّم معه.

اقترب الجبلان منه مهدّدين، ولكنّه لم يأبه. يقال إنّ الحبّ مؤلم، وفكّر جايك في أنّه على وشك اختبار ذلك بنفسه.

19

راح هاتف غيديون يرنّ في الأسفل مثل عصفور محبوس في مدخنة.

كان يعرف أنّه لن يصل إليه قبل أن يتحوّل إلى خدمة الرسائل الصوتية، ولكنّه خرج بسرعة من حجرة أبيه السرّية وحاول الوصول إلى الهاتف.

تأخّر عنه لثوان.

تحوّل الهاتف إلى خدمة الرسائل الصوتية بينما كان غيديون يبحث عن قلم وورقة. فوجد مجموعة من الأوراق اللاصقة قرب البرّاد.

كُتبَت على الصفحة الأولى لائحة مشتريات - جبن، بسكويت، فاكهة، شوكولاته - آخر وجبة لم يتناولها أبوه.

بحث عن رقم المتّصل، ووجده في الوقت الذي انتهت فيه الرسالة.

كان الصوت عائداً لامرأة. "المفتّشة بيكر".

خاب أمله. "معك غيديون تشيس، اتّصلت بي للتو".

"سيّد تشيس، شكراً لك على اتصالك. أردت تحديد موعد من أجلك لكي ترى جثّة والدك".

فاجأه كلامها. كان يخشى هذا الأمر. صحيح أنّها سألته عن ذلك، ولكنّه شعر الآن أنّه غير مستعدّ إطلاقاً ولكنه أجابها: "أجل، شكراً".

"مؤسّسة أبراهامز وكانينغهام الواقعة في شارع بلاك في شافتسبيري هي منظّمة الجنازة. هل تعرف المكان؟".

"كلاّ. فأنا لستُ من هنا، لا أعرف المنطقة إطلاقاً".

"في الواقع، من السهل إيجادها. إنها تقع إلى اليمين، قريباً من مستديرة أيفي كروس. اقترحوا موعداً عند العاشرة من صباح يوم غد. إن كان الوقت لا يناسبك، أستطيع إعطاءك رقم الهاتف لتحدّد موعداً بنفسك".

ما من وقت سيبدو مناسباً لكي يرى المرء فيه جثّة أبيه التي انطمست معالمها. ولكن، على الطريقة الإنكليزية، قال غيديون عكس ما يفكّر فيه: "أجل، يناسبني ذلك".

"جيّد. سأؤكّد لهم الموعد".

"شكراً".

أحسّت ميغان بتوتّره فقالت له: "إن شئت، يمكنني أن أطلب من شرطيّ مرافقتك. هل ترغب في ذلك؟".

"يمكنني الذهاب بمفردي".

"أفهم". بدت متعاطفة، وتابعت قائلة: "اتّصل بي إن غيّرت رأيك".

أغلق غيديون الخطّ واتّجه عائداً إلى الطابق العلوي.

دخل الحجرة السرّية مجدّداً، بشيء من الذعر، إذ خشيَ أن تكون الأشرطة إباحيّة. قال لنفسه إنّه يستطيع تقبّل ذلك لأنّ الأمور قد تكون أسوأ. فربّما ترتبط بأعمال سرقة القبور التي كان ناثانيال يمارسها، وتجارته المربية في الغنائم.

وقف للحظة يتأمّل الحجرة. فقد علّمته سنوات من التدريب تفحّص المكان قبل أن يبدأ بالتنقيب فيه. والمثل القائل إنّ عليك أن تكشف كذبة الأرض يصحّ في علم الآثار، فمن شأن الأرض أن تكذب مثل عشيق خائن وتسلبك سنوات من حياتك.

عرف أنّ أباه كان آخر شخص دخل هذا المكان قبله، وهو من تركه بهذا الشكل. كان مرتّباً عموماً، باستثناء علبتَي أقراص فيديو رقمية DVD مفتوحتَين. كان ثمّة كرسي مكتب جلدي موضوع أمام التلفاز المثبّت على الجدار، وكانت هناك طاولة منخفضة في وسط الغرفة. كان جانبها ملوّثاً بملمّع الأحذية، ما يعني أنّ أباه كان يضع قدمَيه عليها وهو يشاهد الأفلام. رأى كأساً من الكريستال تفوح منها رائحة الشراب، ولكنّه لم يجد أثراً للزجاجة. شكّ في أن يكون الشراب مخزّناً في إحدى الخزائن أسفل الرفوف التي تملأ الحجرة. رأى صناديق فوق الرفوف، فتساءل كم كان أبوه يشرب. كان هناك حاسوب محمول قديم؛ من ذاك النوع الذي يستقبل أقراصاً ليّنة، ودفتر ملاحظات، وحمّالة أقلام رصاص صغيرة وقبيحة مصنوعة من الطين عرفها على الفور. كان قد صنعها في المدرسة وأحضرها إلى المنزل في عيد الأب.

من الواضح أنّ الحجرة قد استُعملت للتسجيل، والمراجعة، والأرشفة. ولكن، علامَ تحتوي؟ وجد جهاز التحكّم عن بعد قرب الكرسي، فشغّل التلفاز. كان التلفاز موضوعاً على الرف الثالث من الرفوف المثبّتة في الجدار. كان أحدها يحمل جهاز فيديو قديماً، والآخر جهازاً لتشغيل أقراص الفيديو الرقمية، بينما بدا السفلي وكأنّه مستوعب للأسلاك والعلب المفتوحة والقطع المعدنية.

بثّ التلفاز صورة بيضاء مشوّشة، قبل أن يبدأ جهاز الفيديو الرقمي بالعمل. ظهرت على الشاشة صورة غير واضحة. بدت نسخة رقميّة عن شريط سوبر 16 ملم. ثمّ بدأت تتوضّح ليظهر والده في سنّ أكثر شباباً، وهو يتكلّم بثقة، ويلقي محاضرة من حيث يقف على المنبر: "ستونهنج هي معجزة العالم القديم. وبناؤها اليوم، بكلّ آلاتنا ومعرفتنا الرياضية سيكون مثيراً للإعجاب. من أجل ذلك، فإنّ بناءها، الذي بدأ قبل خمسة آلاف عام، من دون حواسب، ومن دون برامج تصميم بمساعدة الحواسب CAD، أو رافعات أو جرّارات أو مراكب لنقل أحجار المنليث[1] العملاقة تلك، يُعتبر أعجوبة".

بدأ غيديون يشعر بالملل منذ الآن. فقد كانت طفولته حافلة بنظريّات غير منطقيّة عن كون ستونهنج هيكلاً، ومقبرة للملوك القدماء، وأوّل مرصد فلكي في العالم، ورابطاً كونياً بأهرامات مصر. وأكثرها جهلاً، هي تلك النظرية القائلة إنها مسقط رأس رجال الدين الدرويد[2].

أوقف الشريط وشغّل جهاز الفيديو القديم. فصدرت عنه جلبة بينما كانت الرؤوس الآلية تدور وتُقفل حول شريط موجود فيه. ظهرت

(1) حجر ضخم مفرد على شكل عمود.

(2) رجل دين عند قدماء الإنكليز.

صورة قريبة لوجه امرأة جميلة. كانت جميلة إلى حدّ أنّها خطفت أنفاسه.

إنّها أمّه.

كانت تضحك، وترفع يدها أمام الكاميرا وهي تشعر بالارتباك. رفع الصوت فسمعها تقول: "كفى نات. أكره هذا الشيء، رجاءً كفى".

جعله صوتها يرتجف. لم يستطع منع نفسه من الاقتراب ووضع أصابعه على الشاشة.

"نات. كفى الآن!".

ابتعدت الكاميرا. كانت ماري تشيس جالسة في غوندول في البندقية بينما امتدّت خلفها السماء الزرقاء. أشاحت بوجهها مدّعية مخاصمة زوجها. كان شعرها أسود، طويلاً، وكثيفاً، مثل شعر غيديون تماماً، وكان يتراقص على كتفَيها بفعل نسيم الصيف. راح المراكبيّ بقميصه المخطّط يجذّف، بينما ابتعد تمثال سان مارك خلفها. أظهرت اللقطة لغيديون بوضوح أنّها كانت حاملاً.

أوقف الشريط ونظر دامع العينَين إلى الرفوف المزدحمة. إنها بالتأكيد ليست مليئة بأفلام الأسرة. كان هذا آخر ما شاهده أبوه لأنّه أراد تذكّر أوقات أكثر سعادة؛ هي على الأرجح أسعد أيّام حياته. فهذا ما يفعله الناس عندما يمرّون بأوقات عصيبة، أصعب أيّام حياتهم.

كلُّ ما هو موجود على الرفوف كان مهمًّا بالنسبة إلى أبيه. كان مهمًّا إلى درجة دفعته إلى تصنيفه وحمايته. ولكنّه لم يكن مهمًّا بقدر تلك الذكريات الغالية المتعلّقة بالمرأة الوحيدة التي أحبّها فعلاً.

اقترب غيديون من الكتب. كانت كلّها دفاتر مذكّرات ذات أغلفة جلدية حمراء، من النوع غير المسطّر الذي يفضّله الفنّانون والكتّاب. حاول سحب أحدها من الزاوية العلويّة اليسرى، ولكنّ الأغلفة كانت

ملتصقة، ففصلها عن بعضها.

فتح الصفحة الأولى من الكتاب وتحرّكت مشاعره مجدّداً. كانت مؤرّخة في يوم ذكرى مولد أبيه الثامنة عشرة.

كان خطّ اليَد هو نفسه، ولكنّه بدا متردّداً بعض الشيء:

اسمي ناثانيال تشيس، واليوم ذكرى مولدي الثامنة عشرة؛ يوم بلوغي سنّ الرشد. وقد أخذت عهداً على نفسي منذ هذه اللحظة فصاعداً أن أسجّل بالتفصيل حياتي التي آمل أن تكون طويلة، ومثيرة، وسعيدة، وناجحة. سأدوّن الأحداث الجيّدة والسيّئة، والمشرّفة والمخزية، سواء أكانت تثير اهتمامي أم لا. يقول الكثير من المدرّسين إنّنا نتعلّم الكثير من التاريخ. لذلك، ربّما مع مرور السنوات، سأتعلّم الكثير عن نفسي من خلال تدوين ما يمرّ عليّ بصدق. ومن دون شك، إن أصبحت مشهوراً، فسأنشر هذه الرسائل الأدبية الصغيرة. وإن لم يَذِع صيتي، فسأجد على الأقلّ في أواخر عمري شيئاً من الدفء حين أفكّر في التفاؤل الذي كنت أشعر به في شبابي. أنا في الثامنة عشرة، وتنتظرني مغامرة عظيمة.

وجد غيديون أنّ متابعة القراء مؤلمة جداً. نظر إلى الرفوف. أهذه هي كلّها؟ هل تحتوي على كلّ حدث، وكلّ إحساس، وكلّ تفصيل من مغامرة ناثانيال تشيس العظيمة؟

مرّر إصبعه على الدفاتر الحمراء وعدّ السنوات. ذكرى ميلاد أبيه العشرون، الحادية والعشرون، السادسة والعشرون - العام الذي التقى فيه زوجته - الذكرى الثامنة والعشرون - أي في سنّ غيديون الآن؛ في الثلاثين - العام الذي تزوّج فيه ناثانيال غريغوري تشيس وماري إيزابيل

بريتشارد في كامبردج، الذكرى الثانية والثلاثون عندما وُلد غيديون.

توقّفت أصابعه، فقد دخل مجاله الخاصّ. تحوّلت عيناه إلى العام الثامن والثلاثين؛ العام الذي ماتت فيه ماري.

امتدّت يده إلى الدفتر الرقيق وهمّ بإخراجه من بين الدفترين المحيطَين به، ولكنّه لم يستطع دفع نفسه إلى القيام بذلك. وعوضاً عنه، تناول دفتراً بعده بعامَين؛ العام الذي بلغ فيه والده الأربعين.

سحب دفتر المذكّرات. بعد عامَين من موت أمّه. شعر أنّه مستعدّ لمواجهة ما يخبّئه العام الثامن من حياته.

ولكنّه لم يجد ما توقّعه؛ فالمذكّرات لم تكن مكتوبة بالإنكليزية. لم تكن مكتوبة بأيّ لغة يعرفها.

كانت مكتوبة بالرموز.

سحب غيديون مجلّد العام التالي.

رموز.

والعام الذي يليه.

رموز.

اندفع إلى آخر الحجرة ومدّ يدَه إلى المجلّد الأخير. وقف جامداً. هذا الكتاب يحتوي على آخر أحداث حياة ناثانيال تشيس.

كان قلبه ينبض بجنون مثل ثور هائج في قفص. ابتلع ريقه بصعوبة، ثمّ سحب المجلّد عن الرفّ وفتحه.

20

سوهو، لندن

كان عطرها برائحة القرفة، وكانت عالية مثل طائرة ورقية.

لاحظ جايك تمبرلاند ذلك بينما كانت الأميركية الجميلة تعطيه

قبلة وداع على الرصيف. بدت في الحادية والعشرين على الأكثر. ولم تكن قبلتها قبلة عابرة، بل كانت قويّة بالفعل. فقد أمسكت وجهه بأصابعها مطليّة الأظفار، ولامست شفتاها شفتَيه بلطف. ولكنّه تركها تفعل ذلك.

تراقصت عيناه تحت أجفانه المغمضة. تراجعت قائلة: "وداعاً". وابتسمت وهي تبتعد.

"مهلاً".

ابتسمت مجدّداً وهي تنحني بأناقة لتجلس على مقعد الليموزين الخلفي. أغلق التمساح الأسود الباب وألقى عليه نظرة تعني أكثر من مجرّد تهديد؛ كانت إعلان حرب.

تبًّا. وقف جايك بثقة، واقترب من النافذة الخلفية السوداء. وللمرّة التالية في تلك الأمسية، حطّت يَد قويّة مثل قنبلة على وسط صدره، ودفعته على الأرض. ثمّ جلس الحارس الشخصي على المقعد الأمامي، وانطلقت الليموزين قبل أن يتمكّن جايك من النهوض. أجمل امرأة رآها على الإطلاق رأته يسقط على قفاه. لم تكن تلك نهاية أمسية جيّدة.

شعر أنّه محطّ نظرات غريبة من المارّة. كان الرصيف مبلّلاً بسبب الأمطار التي تساقطت منذ فترة، فابتلّت ملابسه. نفضها وبحث في جيبه عن منديل لمسح الوحول عن يدَيه.

طار شيء على الأرض، فانحنى والتقطه. كان منديلاً ملفوفاً، فتحه ووجد فيه ورقة كتب عليها بقلم حبر: "اتّصل بي غداً على الرقم الوارد في الأسفل x". كان قرب القبلة رسم مبسّط لقفل.

حدّق جايك إلى الرسم، وعرف معناه. ربّاه. الآن فهم سبب كلّ تلك التدابير الأمنية.

21

حمل غيديون دفتر المذكّرات بيدَين مرتجفتَين، وجلس على أرض الحجرة، وأسند ظهره إلى رفوف الكتب، وهو يشعر بالخوف من القراءة. شعر أنّه مهزوم، وكأنّه تعرّض للاعتداء والضرب من عدوّ غير مرئي. وكأنّ شبح أبيه قد طرحه أرضاً.

نظر إلى جميع دفاتر المذكّرات المكتوبة بخطّ اليَد حوله. كانت تاريخاً شخصيًّا كاملاً للأب الذي لم يعرفه قطّ. وقد شفّر الأب أكثر من عشرين عاماً منها بالرموز.

لماذا؟

هزّ رأسه وأغمض عينَيه. شعر وكأنّ الظلام يلتفّ حول المنزل ويضغط على نوافذه. أحسّ وكأنّه مدفون. فتح الغلاف بحذر، ورأى إلى اليمين داخل الصفحة الأحرف: ΓΚΝΔΜΥ ΚΛΥ.

ابتسم، ومرّر أصابعه فوق أعلى الصفحة، وعادت به الذكريات إلى الطفولة. لم يلعب معه أبوه قطّ بالطابة، أو الكريكت، أو يصطحبه للسباحة، بل كان يلعب معه ألعاباً ذهنية. كان ناثانيال يُمضي ساعات في تصميم أحجيات، وألعاب عزّزت لدى الصبيّ قواه المنطقيّة وجذور التعلّم الكلاسيكي.

كانت الأحرف ΓΚΝΔΜΥ ΚΛΥ أحرفاً يونانية قديمة، اعتبرها أبوه أوّل أبجديّة حقيقيّة، ومنبع الأبجديّات الأوروبية، واللاتينيّة، والشرق أوسطيّة. وعرف أهميّتها في الرياضيات، والفيزياء، وعلم الفلك. فعلّمها لابنه جيّداً. ولاختبار معلومات الصبيّ، وتجنّب الملل، وضع البروفيسور شيفرة بسيطة. فكان لأحرف الأبجديّة اليونانية الأربعة والعشرين مقابلاً بالأحرف الإنكليزية، ولكن بترتيب معكوس، بحيث يُمثّل الحرف أوميغا الحرف A، وهكذا دواليك وصولاً إلى الحرف ألفا

الذي يقابله الحرف الإنكليزي X. ومثّل الحرفان اليونانيان المهملان ديغامّا وكوبا الحرفَين الإنكليزيين الأخيرين Y وZ. وظلّ ناثانيال لسنوات يترك لابنه ملاحظات مشفّرة في أرجاء المنزل، إلى أن أصبحا قادرَين على التواصل بسهولة بواسطتها.

جاهد غيديون لتذكّر الشيفرة، فقد مضى على ذلك أكثر من خمسة عشر عاماً. ثمّ فهم الكلمات. كانت ΓΚΝΔΜΥ ΚΛΥ تعني المجلّد الأوّل. نظر إلى الأعلى مجدّداً حيث اصطفّت عشرات الكتب، وتساءل كم من الكلمات المشفّرة كُتبت فيها. سيستغرق فكّ شيفراتها حياة كاملة.

حياة كاملة لترجمة حياة كاملة.

قلب صفحة أخرى، وشعر بالغثيان. كان خطّ اليَد يذكّره بقوّة برسالة الانتحار. حاول فهم الفقرة الأولى، ولكنّه لم يتمكّن من استيعاب أكثر من بضع كلمات. تناول عن طاولة القهوة المنخفضة بعض الأوراق وقلمَين: أسود وأحمر. رسم جدولاً، وكتب الأحرف اليونانية إلى اليسار والأحرف الإنكليزية إلى اليمين.

Q	Qoppa	Z	M	Mu	M
F	Digamma	Y	N	Nu	L
A	Alpha	X	Ξ	Xi	K
B	Beta	W	O	Omicron	J
Γ	Gamma	V	Π	Pi	I
Δ	Delta	U	P	Rho	H
E	Epsilon	T	Σ	Sigma	G
Z	Zeta	S	T	Tau	F
H	ETA	R	Y	Upsilon	E
Θ	Theta	Q	Φ	Phi	D
I	Iota	P	X	Chi	C
K	Kappa	O	Ψ	Psi	B
Λ	Lambda	N	Ω	Omega	A

استخدم الطاولة، وراح يتأمّل الصفحة الأولى. ترجم بسرعة ΛΩΕΡΩΛΠΥΝ إلى ناثانيال وXPΩZY إلى تشيس. كانت المذكّرات تحتوي على خواطر أبيه اليومية.

تصفّح مجموعة من الأوراق، من دون أن ينظر إلى شيء معيّن، معجباً بالقدرة على التنقّل ذهاباً وإيّاباً بين أيّام، وأشهر، وسنوات حياة أبيه. في منتصف الدفتر، أصبحت الكتابة أكثر جرأة. بدت النصوص وكأنّها كُتبت بحماسة وإثارة. سنوات التدريب على القراءة السريعة جعلت عينَي غيديون قادرتَين على القفز بشكل منحرف عبر النصوص بحثاً عن الكلمات الرئيسة.

قفزت أمامه كلمات ZEKΛΥΡΥΛΣΥ، وΨNKKΦ، و ZΩXHΠΤΠXY.

أمِل أن يكون مخطئاً. تمنّى أن يكون التعب قد جعله يتوصّل إلى نتيجة خاطئة. فكلمة ZEKΛΥΡΥΛΣΥ بحدّ ذاتها قد لا تكون خطرة، ومن الممكن لأبيه أن يذكرها. فهي تعني ستونهنج.

ولكنّ الكلمتَين الأخريَين أثارتا ذعره.

ΨNKKΦ التي تعني دم.

وZΩXHΠΤΠXY التي تعني قربان.

22

ماريلبون، لندن

رمى جايك تمبرلاند سترته في إحدى زوايا الغرفة، وجلس على طرف سريره الجلدي الأسود الكبير. ثُبّتت أمامه شاشة بلازما كبيرة بحجم خمسين إنشاً، وغمرت الغرفة إضاءة خافتة. لم يكن يشعر بالنعاس لينام، والغريب أنّه لم يكن في مزاج يسمح له بتمضية الليلة مع

أحد. على أيّ حال، لم ينتهِ الموعد بعد. فبفضل هاتفه النقّال، سيواصل اللقاء افتراضياً. تلك ميزة التكنولوجيا.

كان يحمل في يده اليسرى هاتف أيفون، وبيَده اليمنى الورقة التي رُسم عليها القفل، والتي أعطته إيّاها الأميركية الجميلة، أو بالأحرى كاتلين. كاتلين لوك. (كلمة Lock تعني بالإنكليزية قفل).

الاقتراب من لوك لم يكن مسموحاً. فكّر في أنّها تقوم الآن بواحد من ثلاثة أشياء. ربّما ما زالت تحتفل، وهذا أمر يشكّ فيه لأنّ الغوريلات لن تسمح لها على الأرجح بكلّ تلك الحريّة. أو تتناول شراباً مع بعض الجميلات اللواتي كنّ معها؛ وهذا محتمل. أو ربّما تكون فتاة مطيعة، وهي الآن في السرير، هذا مرجّح. أياً يكن ما تفعله، فلا بدّ من أنّها تفكّر فيه. فلا يمكن لفتاة أن تقبّل شخصاً كما فعلت، ثمّ تنسى أمره.

إذاً، عليه أن يستغلّ تلك النقطة وهي ساخنة. ستكون الأساس الذي يبني عليه علاقة رومانسية صغيرة. وأفضل أداة لتحقيق تلك الخدعة الصغيرة هي بعث رسائل مثيرة. لن يرسل شيئاً صعباً، بل مجرّد جملتَين قصيرتَين ليقول إنّه لا يكفّ عن التفكير فيها. سيبدأ بشكل مهذّب وبسيط ثمّ يشقّ طريقه، ويكشف بعض مشاعره. لا جدوى من كشف كلّ شيء من الرسالة الأولى. إن فعلتَ ذلك، فلن تجيب الفتاة، بل ستتركك معلّقاً حتّى تُحاول مرّة أخرى.

بدأ جايك بالطباعة. أتمنّى أن تكوني قد عدتِ إلى البيت بخير. سررتُ بلقائك الليلة. جايك. كلاّ، لم تعجبه. فأعاد الكتابة: أتمنّى أن تكوني قد عدتِ إلى البيت بخير. سررتُ كثيراً بلقائك الليلة. جايك.

ما زالت غير ملائمة.

تذكّر سنّها، فهي تصغره بعدد لا بأس به من السنوات. عدّل

الرسالة مجدّداً: مرحباً، سررتُ بلقائك. جايك x.

ابتسم راضياً وضغط على زرّ الإرسال. الهواتف رائعة. رأى المغلّف الافتراضي الصغير على الشاشة وهو ينغلق، قبل أن يظهر له جناحان ثمّ يطير متّجهاً مباشرة إلى قلب المرأة التي يحبّها. حسناً، ربّما. فما يشعر به الآن هو الانجذاب بكلّ بساطة. ولكن، لنواجه الأمر، من دونه، لن يجد الحبّ فرصة على الأرجح.

صدرت رنّة قصيرة عن الهاتف. يا الله! لقد أجابت بسرعة. إشارة جيّدة.

يمكنك الاتّصال إن شئت x.

لم يكن هذا ما توقّعه أو ما أراده. فتبادل بعض الرسائل القصيرة والمثيرة كان فكرة ممتازة لهذه الليلة، ولكنّ الحديث مباشرة سيُفسد الأمور. فكّر قليلاً. عندما تقول فتاة يمكنك الاتّصال إن شئت، فهذا ليس طلباً، بل إنّه أمر.

خلع جايك جوربيه وقميصه، ثمّ تناول كوب ماء من الحمّام وصعد إلى السرير. شعر بشيء من الذعر وهو يتّصل.

"مرحباً، أنا جايك".

"مرحباً". كان صوتها ناعماً وناعساً بعض الشيء وهي تقول: "تساءلتُ إذا كنتَ ستتّصل أو تبعث رسالة".

"حتّى بعد أن رأيتني وأنا أقع في بركة وحل؟".

ضحكَت قليلاً وهي تجيب: "لا سيّما بعدما بللت قفاك في بركة وحل".

"في الواقع، لستُ أنا من تسبّب بذلك، بل أحد الغوريلاّت التي كانت بصحبتك".

"لا بدّ من أنّه إريك، فهو يخاف عليّ. رأيته يعامل شبّاناً غيرك

بخشونة أكثر؛ أكثر بكثير، مع أنّني لم أقبّلهم حتّى".

"ذكّريني بعدم دعوة إريك إلى حفلة الميلاد".

"إنّه يحبّ حمايتي وحسب".

"هذا ما لاحظته. لماذا فعلتِ ذلك؟".

"ماذا فعلت؟".

"لقد قبّلتني".

"آه، هذا لأنّني أردتُ ذلك". كان صوتها ناعساً تقريباً وهي تقول: "ولنواجه الأمر، أنت أردتني أيضاً".

"حقاً؟".

"لم أرَ يوماً رجلاً يرغب في قبلة إلى هذا الحدّ".

ضحك قائلاً: "لا فكرة لديكِ كم أردتُ تلك القبلة".

"آه، بل لديّ فكرة واضحة...".

تظاهر بأنّه مصدوم: "ربّاه، حقاً؟".

"أجل، وكأنّك لا تعرف".

"لنغيّر الموضوع قبل أن يشعر أحدنا بالإحراج".

"لن أكون أنا".

"أصدّقكِ. كيف يمكنني رؤيتك مجدّداً؟".

"سؤال وجيه".

"والجواب؟".

"الجواب هو أنّه عليك أن تكون صبوراً. يمكنك الاتصال بي على هذا الرقم، ولكن سيمضي بعض الوقت قبل أن نتمكّن من اللقاء".

"وماذا عن رغبتي؟".

"كن مبدعاً. طابت ليلتك".

أُغلق الهاتف.

جلس وهو يحدّق إليه، وتساءل كيف سيتحمّل نبضات قلبه العنيفة.

23

بعد ليلة أمس التي لم تعرف فيها طعم النوم، شعرت ميغان بالراحة لدى رؤيتها ابنتها نائمة في سريرها هذه الليلة. وبالرغم من نفورها من آدم، إلاّ أنّه كان محقاً. جعلت غرفة النوم مظلمة، وأغلقت الباب على ابنتها النائمة وجيش الألعاب المحيط بها. كانت حرارة سامي قد انخفضت، وبدت أكثر ارتياحاً. ربّما تستعيد عافيتها مع حلول الصباح.

دخلت ميغان المطبخ المفتوح على غرفة الجلوس في منزلها الصغير، وأفرغت ما تبقى في زجاجة شراب في إحدى الكؤوس. فكّرت في تشغيل التلفاز ومشاهدة أيّ شيء لتفريغ رأسها من همومها بخصوص سامي، والمال، والمشكلة الدائمة المتمثلة في الموازنة بين أمومتها ووظيفتها.

ولكنّ قضيّة تشيس لم تفارق ذهنها. فالناس يُصوّبون المسدّسات إلى رؤوسهم، ويلوّثون الجدران بدمائهم لأحد الأسباب الثلاثة التالية: إمّا لعجزهم عن العيش مع شعورهم بالذنب والعار بسبب عمل مخزٍ ارتكبوه، أو لخوفهم من افتضاح أمرهم ودمار سمعتهم، أو لأنّهم يعانون مرضاً عضالاً؛ جسدياً أو نفسياً.

ولكن، لا يبدو أنّ أياً من هذه الأسباب ينطبق على ناثانيال تشيس. لقد راجعت جميع المعلومات المتعلّقة به، والتي تمكّنت من الحصول عليها: السجلاّت المصرفية، حسابات الرهن العقاري، معاملات البورصة، جميع المسائل المالية والشخصيّة المتعلّقة بالأب والابن، ولكنّها لم تجد أسباباً فعليّة. فالرجل ينتمي إلى أسرة عريقة، وثريّة جداً،

أو على الأقلّ أصبح الابن كذلك الآن. فهو سيحصل على الميراث بأكمله، كما أخبرها المحامون. واستناداً إلى المعلومات التي لديها، يفوق حجم الثروة عشرين مليون جنيه موزّعة بين أملاك، وسيّارات، وأسهم، ومدّخرات. بالإضافة إلى المنزل والسيارتَين المركونتين فيه - سيارة رانج روفر ترجع إلى سبع سنوات، ورولز رويس تُقدّر بأكثر من مليون جنيه - واللوحات، والقطع الأثريّة الموضوعة في غرف تحت الأرض، والتي تتجاوز قيمتها خمسة ملايين جنيه. ناهيك عن ملفّ ناثانيال تشيس للاستثمارات الشخصيّة والشؤون المصرفية الخاصّة، وجميعها موزّعة عبر شركة UBS في سويسرا. وتلك ستّة ملايين أخرى. الغريب أنّ UBS لم تتولَّ نشاطات شركته، بل تركت ذلك لكريدِت سويس، وتُظهر أرقام هذا العام أرباحاً تتجاوز مليون جنيه. يملك البروفيسور العجوز أيضاً قطعة أرض في المنطقة، ولا شكّ في أنّها ذات قيمة أثريّة غامضة.

والآن، آلت كلّ تلك الثروة إلى غيديون.

فكّرت مجدّداً في المال. إن ساورك الشكّ، فابحث عن المال. إن لم يكن الجنس هو السبب، فلا بدّ من أن يكون المال. إن لم يكن ثمّة دافع آخر، فابحث عن المال. دائماً المال.

هل من الممكن أن يكون الابن قد لفّق قصّة انتحار والده؟ لديه الكثير ليكسبه، وتعرف أنّه يكذب عليها. قد يُفسّر ذلك سبب عدم إعطائه مواصفات الرجل الذي اعتدى عليه في مكتب أبيه. قد يكون المعتدي متآمراً معه. ربّما كان غيديون تشيس مجرماً ومزوّراً بالفعل.

مع ذلك، ربّما هي متعبة ولا تفكّر بشكل منطقي. فاستسلمت وأدارت التلفاز. ممتاز، ستشاهد بعض التفاهات. هذا ما تحتاج إليه لنسيان كلّ شيء عن العمل.

حلّ منتصف الليل ولم يستطع شون غراب النوم.

كان يعرف أنّ الراحة التامّة ما زالت بعيدة؛ على بعد سنوات. أخرج زجاجة شراب من الثلاجة، ثمّ فتحها واحتسى ربعها تقريباً من دون إحضار كأس. ليس مغفّلاً إلى حدّ عدم فهم ما يجري. وأيّ إنسان عاقل سيفعل ما فعله الآن؛ سيشرب زجاجة من الشراب مثله تماماً.

هكذا فسّر الأمر، وهو يُحضر أخيراً كأساً من خزانة المطبخ. في بعض الليالي، كانت الذكريات لا تُحتمل، فتعاوده مثلَ صورٍ خاطفة في فيلم رعب. وهذا ما جرى معه الليلة. لم تفارقه صورة جمجمة القربان المسحوقة، أو صورة عينَيه الفارغتَين أو جلده الأبيض النازف.

شرب غراب كأساً أخرى. لقد فعلوا ذلك من أجل خير أعظم. كان يفهم ذلك. ولكنّ هذا لا يُبعد الصور المرعبة التي تتوالى في ذهنه. كانت تعيده إلى هناك في لمحة عين؛ ليجد نفسه أمام الجثّة. لحم ميت، هكذا سمّاه موسكا. قال له إنّه يجب أن يتعامل مع الشابّ على هذا الأساس، بأن يتخيّل أنّ الجثّة قطعة من حمَل، أو ساق عجل.

ألقيا الجثّة المشوّهة في صندوق شاحنة موسكا الصغيرة، ونقلاها إلى المسلخ الذي كان يملك مفاتيحه. شعر أنّ الشابّ يزن طنًّا وهما يرفعانه على الآلات. علّقه موسكا رأساً على عقب، مثل بقرة مصعوقة، وشقّ حلقه لتصريف ما بقي من دماء.

ما زال غراب يسمع قرقعة السلاسل، ودويّ المحرّك الكهربائي، وصدى الآلات وهي تتحرّك وتجرّ الجثّة فوق سطحها. ثمّ أتى التشويه الشنيع؛ قطع الرأس، وإزالة الأعضاء، وسلخ الجلد بالآلات الهيدروليكية. كاد أن يتقيّأ عندما راح موسكا يزيل اللحم العالق بمخالب الآلات المتواطئة معهما.

تناول جرعة شراب أخرى، ولكنّ الصور لم تفارقه. كانت ملتصقة بذاكرته، مثل كتل اللحم المريعة التي سدّت الآلات بعناد. قال لنفسه إنّ الذكريات ستتلاشى، ولكنّه أدرك في أعماقه عدم صحّة ذلك؛ فهي ستبقى حاضرة دائماً. كانت الموجة الناعمة، والدافئة آتية. ليس بسرعة، ولكنّها آتية. وكان يشعر بها وهي تتقدّم، ولكنّها لن تغسل شعوره بالذنب، أو خوفه من افتضاح أمره.

جرّدت الآلات عظام الشابّ من آثار اللحم والأدلّة التي يمكن أن تستخدم ضدّهم أو ضدّ أيّ كان. فالمصنع يحتوي على نظام متطوّر لجمع اللحم وتوضيبه بشكل جاهز للاستهلاك البشري أو الحيواني. كان النظام فعالاً على نحو فظيع، فهو ينتج علباً مرتّبة من العظام والدهن والشحم. أما الدم والبراز، فيتمّ التخلّص منهما.

ظلّ موسكا يردّد: "لا داعي للقلق، لا داعي للخوف".

ولكنّه كان قلقاً وخائفاً. ليس من الكوابيس، أو من شعور بالذنب، بل لأنّه يتحتّم عليه فعل ذلك كلّه مجدّداً.

قريباً.

25

الخميس 17 حزيران
لندن

حدّقت كاتلين لوك بعينَين نصف مغمضتَين عبر ضباب الصباح إلى مياه التايمز البرّاقة. كانت ممدّة على السرير الناعم الدافئ في شقّة أبيها، وهي من بين أملاك عديدة تملكها أسرتها. فثمّة منزل في روما، وآخر في باريس، واثنان أو ربّما ثلاثة غيرها في إسبانيا وسويسرا؛ لديهم منازل كثيرة لا تتذكّرها. هذا بالإضافة إلى منازلهم في الوطن: في لوس

أنجلوس، ونيويورك، وواشنطن. فوالدها مشهور وثري. وكاتلين على وشك أن تصبح أكثر شهرة وثراءً منه، أو من أمّها.

من الممكن أن تتكلّم عن أبيها، ولكن ليس عن أمّها. آه، كلاّ. أمّها تجاوزت كلّ الحدود. كيلي لوك نجمة هوليوود صغيرة هجرتهما من أجل نجم شابّ آخر. وكاتلين غير مستعدّة إطلاقاً لإعطائها دعاية مجّانية. إن أرادت أن تكون صادقة، فربّما تقرّ بأنّها تفهم ما الذي أعجب أمّها في فرانسوا، ذاك الفرنسي أسود العينَين بطوله البالغ ستّ أقدام وجسده الرائع.

أبعدت الغطاء وخرجت من السرير عارية. وضعت يدَيها على خصرها، وراحت تتأمّل نفسها في المرآة الطويلة قرب النافذة الكبيرة المطلّة على لندن. استدارت، وألقت نظرة إعجاب من فوق كتفها، ثمّ أتمّت دورة كاملة. أمّها مستعدّة للقيام بأي شيء من أجل الحصول على جسد مثل جسدها.

استدارت جانباً، وتأمّلت وشم العلم البريطاني على ردفها. لم يره أحد بعد سواها هي والواشم الذي رسمه. مشت فوق السجّادة البيضاء نحو الطاولة المنخفضة التي وضعت عليها هاتفها. ضحكت وهي تتناوله، إذ لا يمكن لأحد تتبّعه، ولا يعرف بوجوده أحد سوى صديقاتها. شغّلته وأدخلت الرمز. وبينما كانت تنتظر أن يلتقط الشبكة، نظرت إلى ردفها مجدّداً، وفكّرت كم سيضربها عليه أبوها لو عرف بما ستفعله.

وجد الهاتف إشارة، فتناولته وشغّلت الكاميرا. استغرقت بعض الوقت قبل أن تتوقّف عن الضحك وتلتقط بعض الصور. كان معظمها ضبابياً وغير واضح، ولكنّها التقطت أخيراً صورة مناسبة.

جلست على طرف السرير، وبحثت عن رقم جايك، ثمّ أضافت

رسالة قصيرة إلى الصورة، وضغطت على زرّ الإرسال، وانهارت على السرير وهي تضحك.

26

يبدو تشيبستو وهوكس أقرب إلى محلّ أثريّات منه إلى مكتب محاماة. قال بروفيسور القانون في جامعة كامبردج لغيديون مرّة إنّ بإمكانه تصنيف الزبون وفقاً للمحامي الذي يوكّله، ويبدو أنّ تشيبستو وشركاءه يُثبت وجهة النظر تلك. فهو تقليدي وموثوق به من دون شكّ، ولكنّه مكان قديم الطراز، عفا عليه الزمن. إنّه يناسب ناثانيال تماماً.

أخبرته امرأة في العقد الخامس، وذات شعر رمادي بتهذيب أنّ السيّد تشيبستو جاهز لاستقباله، وقادته إلى باب من خشب الماهوغاني يحمل لوحة نحاسية كُتِب عليها اسم شاغله. وقف رجل خلف مكتب من خشب الجوز وُضع أمام نافذة بلا ستائر. "لوسيان تشيبستو". ومدّ يدَه التي يضع فيها ساعة روليكس بدت من تحت كمّ سترته الزرقاء.

"غيديون تشيس. سررتُ بلقائك". ولعن في نفسه تهذيبه الآلي.

"أنا آسف جداً بخصوص أبيك. تفضّل بالجلوس".

جلس غيديون على أحد المقاعد الجلدية الموضوعة قرب المكتب الكبير، بينما عاد المحامي رماديّ الشعر، الذي بدا في أوائل عقده الرابع إلى مقعده، وسوّى سترته، ثم جلس.

"هل قدّموا لك الشاي؟ أو الماء؟".

"لا بأس، شكراً".

وضع تشيبستو يدَه على الهاتف قائلاً: "هل أنت واثق؟".

انزعج غيديون لسؤاله مرّتين. أرجع حدّة طباعه إلى عدم معرفته بالرجل، وإلى الظروف الصعبة التي يمرّ بها. "شكراً. ولكن، حقاً لا

داعي لذلك".

فُتح الباب، ودخل رجل عجوز، كتفاه محدّبتان بعض الشيء. لا شكّ في أنّه والد لوسيان؛ مؤسّس هذه الشركة. تمتم قائلاً: "سيدريك تشيبستو". قال ذلك كأنّه يجيب عن سؤال. ومن دون أن يصافح غيديون، جلس قربه قائلاً: "أتمنّى ألاّ تمانع دخولي، فأنا أودّ أن أقدّم تعازيّ. كنتُ أعرف والدك جيّداً. كان شخصاً رائعاً، وكنتُ محاميه لمدّة عشرين عاماً".

فكّر غيديون في القول إنّ ناثانيال لم يكن يوماً مؤهّلاً لصفة رائع ولكنّه تجاهل الأمر وقال: "كلاّ، على الإطلاق. شكراً". أضاف، وفوجئ قليلاً لدى طرحه السؤال: "إلى أيّ حدّ تعرف والدي؟ ماذا كنتَ تفعل له بالضبط؟".

تبادل الأب وابنه النظرات. من الواضح أنّ السؤال قد فاجأهما، وهذا ما أثار اهتمام غيديون.

أقرّ العجوز قائلاً: "كانت علاقتنا مهنيّة أكثر من كونها شخصيّة. فقد تولّينا جميع الوثائق القانونية المرتبطة بأعماله، كالمذكّرات التجارية، والعقود، والاتّفاقات، وبعض وثائق الاستيراد والتصدير؛ هذا النوع من الأمور. كان واحداً من أهمّ زبائننا".

"أنا واثق من ذلك". قال ذلك بحدّة أكثر ممّا قصد.

شعر لوسيان أنّ عليه التدخّل فقال: "كان والدك شخصاً مفعماً بالحياة، وناجحاً جداً، سيّد تشيس، وقد سرّنا العمل معه".

ظلّ غيديون يوجّه حديثه إلى تشيبستو الأكبر وسأله: "وعلى الصعيد الشخصي؟".

زمّ العجوز شفتَيه الجافّتَين وهو يجيب: "أحبّ التفكير في أنّنا كنّا صديقَين. فقد جمعَنا حُبّ التاريخ، واحترام الأجيال الماضية".

أخرج لوسيان مغلّفاً من درج مكتبه، وبدا متحمّساً للتطرّق إلى الجانب العملي. غير أنّ غيديون لم يكن كذلك فقال: "ترك لي أبي رسالة".

أجفل المحامي العجوز.

"رسالة انتحار. هل تعرف أيّ شيء قد يدفعه إلى وضع حدّ لحياته؟".

اتّسعت عينا سيدريك.

نظر غيديون من الأب إلى ابنه قائلاً: "هل يستطيع أحدكما إخباري بما فعله وجعله يشعر بالعار إلى حدّ إصابته بهذا القدر من اليأس والإحباط؟".

كانت أصابع تشيبستو الأب تعبث بذقنه المزدوج المترهّل. أجاب: "كلاّ، لا أظنّ أنّنا نستطيع ذلك. لا يوجد شيء من هذا القبيل، وبالتأكيد ليس على الصعيد القانوني. كما أنّه ليس بمقدورنا كشف معلومات كهذه، حتّى إن كنّا نعرف شيئاً، وذلك حفاظاً على سرّية الزبائن".

لم يستطع غيديون إخفاء انزعاجه هذه المرّة وهو يقول: "لقد مات. لذلك، أفترض أنّ هذه السرّية لم تعد ضروريّة".

هزّ العجوز رأسه نافياً، مثل بروفيسور يودّ الإشارة إلى خطأ أساسي: "نحن لا نعمل هكذا، بل نحترم التزاماتنا تجاه موكّلينا إلى الأبد". رمق غيديون من رأسه إلى أخمص قدمَيه، ثم قال: "سيّد تشيس، أؤكّد لك، على حدّ علمي - شخصيًّا ومهنياً - أنّه ليس في حياة والدك ما يدعو إلى الخجل. ليس لديه ما يُخفيه".

ضحك غيديون وهو يقول: "كان والدي لصّ قبور. نهَبَ قبوراً في سوريا، وليبيا، والمكسيك، والله أعلم أين بعد. باع قطعاً أثريّة لا يمكن استبدالها إلى حكومات أجنبية أو جامعي تحف ليس لديهم الحقّ

بالحصول عليها وامتلاكها. أنا واثق أنّه يُخفي مدينة موتى كاملة".

سنوات الخبرة علّمت سيدريك تشيبستو كيف يعرف متى يربح الجدال ومتى يخسره فقال موجّهاً حديثه إلى ابنه: "لوسيان، رجاءً أبلغ السيّد تشيس بوصيّة والده، واحرص على إعطائه نسخة عنها". رافق وقوفه صرير صدر عن الكرسي. "أتمنّى لك نهاراً سعيداً، سيّدي".

لم يتكلّم لوسيان تشيبستو إلى أن رحل والده وأغلق الباب خلفه. قال: "كانا مقرّبَين. كان والدك واحداً من بين بضعة أشخاص أمضى أبي وقتاً معهم".

ظلّ غيديون منزعجاً وهو يقول: "كانا يناسبان بعضهما على ما يبدو".

لم يجبه المحامي الخجول، بل أعطاه رسالة مختومة، وأخرج نسخة أخرى وضعها فوق مكتبه قائلاً: "هذه آخر وصايا ناثانيال تشيس. وقّع عليها أمام شهود، وهي مطابقة لأحكام القانون الإنكليزي. هل تريدني أن أقرأها لك؟".

تناول غيديون المغلّف بيدَيه. كان عقله لا يزال مشغولاً بسيدريك تشيبستو. على الأرجح، إنّ العجوز يعرف ما كان أبوه يُخفيه. وإلاّ لماذا تصرّف على هذا النحو؟ لماذا احتمى بالسرّية، واستخدم غطاء على حدّ علمي، المثير للشفقة؟

"سيّد تشيس، هل تريدني أن أقرأ لك الوصيّة؟".

نظر إليه وهزّ رأسه بالإيجاب.

"عليّ أن أحذّرك من أنّ أحد مطالبه ليس معتاداً. فقد قام أبوك بترتيبات قبل موته مع محرقة ويست ويلتشر".

قطّب غيديون جبينه وسأله: "أهذا أمر غير اعتيادي؟".

"ليس بحدّ ذاته، فالكثير من الناس يقومون بترتيبات جنازتهم

ويدفعون تكاليفها قبل موتهم. ولكن بعد إحراق الجثّة في ويست ويلتشر، يوصي والدك بذرّ رماده في ستونهنج".

27

لندن

نظر جايك تمبرلاند إلى نفسه وهو يخرج من حوض الاستحمام هذا الصباح، وأوشك على الإغماء. سحب الميزان من تحت المغسلة ووقف عليه. 89 كلغ. تبًّا. نزل عنه، ثمّ وقف عليه مجدّداً. لم يُخطئ الميزان. بطوله البالغ 5.11 أقدام، يمكنه الوصول إلى 83 كلغ. ولكن، بهذا الوزن، سيبدو قريباً رجلاً بديناً.

تحوّل يأسه إلى تصميم. وبعد ممارسة تمرين الجلوس والنهوض خمسين مرّة، شعر أنّه بحال أفضل وأحسّ بالرضى.

كان جالساً الآن على كرسي أنيق في النادي الذي يملكه، ويشرب فنجان الكابوتشينو الثالث خلال لقاء صباحي. أصغى إلى ضيفه، ماكسويل دالتون، وهو يتحدّث عن مشاكل تدفّق النقد، والتراجع الاقتصادي، وانخفاض عائدات الإعلانات، وكيف يحتاج إلى استثمار لكي لا يخسر عمله. دالتون رجل ممتلئ، يضع نظّارة كبيرة سوداء اللون، بلون شعره، ويرتدي بذلة فضفاضة. كان يُدير موقعاً إلكترونياً يعرض أفلاماً قصيرة أعدّها أشخاص لم يجدوا وظائف مناسبة في التلفزيون.

"كم تريد؟ وما هو المبلغ الذي سأحصل عليه بالمقابل؟".

ضحك دالتون بعصبيّة وهو يجيب: "مئة ألف، مقابل عشرة بالمئة".

أوضحت ملامح جايك أنّه لن يوافق على هذا العرض.

"أتريد عشرين بالمئة؟".

لم يقل شيئاً. كان ذهنه مركّزاً على البيضة المقليّة الموجودة في طبق دالتون.

تابع دالتون متوسّلاً: "خمسة وعشرون؟". ثمّ أضاف: "يمكنني الوصول معك حتّى الثلاثين بالمئة".

أحبّ جايك فكرة القول إنّه دخل مجال الإعلام. لا شكّ في أنّ هذا الأمر سيزيد من جاذبيّته. حتّى إنّه يمكنه، بشيء من المبالغة، أن يقول عن نفسه إنّه منتج وموزّع أفلام. "ربّما نستطيع التوصل إلى اتّفاق. ولكن ليس بمبلغ مئة ألف، وليس مقابل ثلاثين بالمئة".

اجتاحت الخيبة ملامح دالتون.

مئة ألف ليست شيئاً بالنسبة إلى جايك. حتّى إنّه يستطيع دفع والده إلى إعطائه المبلغ بأكمله. وإلاّ، فيمكنه تأمينه إن أخفض نفقات فندق كريستال، وامتنع عن الذهاب للتزلّج شتاءً، وسحَب مالاً يفوق رصيده. "اسمع، ماكس. سأعطيك خمسين ألفاً، ولكنّني أريد مقابل ذلك واحداً وخمسين بالمئة".

"تريد حصّة غالبة؟".

"بالضبط".

أخيراً، أجاب دالتون بجفاف: "أنا آسف. لستُ مستعدًّا لتقديم أكثر من تسعة وأربعين بالمئة، ومقابل ذلك أريد خمسة وسبعين ألفاً".

ابتسم جايك قائلاً: "أريد مساعدتك، وليس استغلالك، ولكنّ تلك النسبة لا تستحقّ خمسة وسبعين ألفاً. سأُعطيك خمسين ألفاً مقابل تسعة وأربعين بالمئة. هذا عرض نهائي".

كان دالتون يمرّ بظروف صعبة، فالمالك يدقّ بابه يوميًّا طالباً الإيجار. لذا وافق قائلاً: "حسناً". وقف جايك لختم اتّفاقهما

بالمصافحة، وهنا رنّ هاتفه. "عذراً". كانت كاتلين، عرف رقمها على الفور. فتح الرسالة، وعندما رأى الصورة المرفقة بها، أوشكت عيناه أن تخرجا من محجرَيهما.

ابتسم جايك لدالتون عبر الطاولة ومدّ يدَه لمصافحته. هل من الممكن أن يعقد صفقتَين في يوم واحد؟

28

كانت سامي قد تحسّنت وأصبحت قادرة على الذهاب إلى الحضانة، ولكنّ والدة ميغان، غلوريا، أصرّت على المجيء للعناية بحفيدتها. هذه المرّة، تمكّنت مفتّشة المباحث من الخروج من دون سماع محاضرة، وشعرت بالامتنان لذلك. بعدما قادت سيّارتها في المسافة القصيرة التي تفصلها عن مركز شرطة ديفايزيس، جلست في مكتبها وهي تشرب فنجان الشاي الأسود، وتقرأ التقريرين اللذين وضعهما كل من فيذربي وجونز.

كان غيديون تشيس محظوظاً، محظوظاً جداً. فلو أنّ الشرطيَّين كانا على مسافة أبعد عند تلقّيهما اتّصال الطوارئ، لوصلا بعد فوات الأوان. فقد وجده فيذربي غائباً عن الوعي في رواق المنزل، وتمكّن من جرّه إلى الخارج قبل الاتّصال بالإسعاف وبرجال الإطفاء.

تأمّلت صور مسرح الجريمة التي أظهرت جدراناً سوداء ونوافذ محترقة. بدا تقرير فريق الإطفاء متّفقاً مع رواية تشيس. لا شكّ في أنّ مركز الحريق كان منطقة الستائر في المكتب الواقع في الطابق الأرضي، في الجهة الغربية من المنزل. لا شك في ذلك على الإطلاق. فقد التهمت النيران تلك الغرفة، والجزء الأكبر من الرواق وقاعة الاستقبال المحاذية. وسيُكلّف إصلاح ذلك الجزء مبلغاً كبيراً من المال.

يُفيد التقرير الذي بين يدَيها أنّ تشيس وقع وظلّ غائباً عن الوعي إلى أن حضر المسعفون، ونقلوه إلى سيّارة الإسعاف، ونظّفوا رئتَيه بالأوكسجين الصافي. ويبدو ذلك متعارضاً مع نظريّتها أنّه قد يكون متورّطاً في مقتل أبيه، ولديه شريك لفّق معه الاعتداء. إلاّ بالطبع إن كان شريكه في الجريمة قد طمع بالمزيد. في تلك الحالة، تصبح محاولة قتله منطقيّة.

ولكنّها ليست كذلك، لا شيء في القضيّة يتّسم بالمنطق. وضعت الأوراق، وتساءلت مجدّداً لماذا كذب عليها غيديون؟ فقد بدا محترماً جداً، وذكيًّا، ولائقاً، ومهذّباً، وربّما غريب الأطوار بعض الشيء. ولكن، هكذا هم الأكاديميون.

إذاً لماذا الكذب؟

هل يعرف الرجل الذي فاجأه؟ هذا غير محتمل. فاستناداً إلى معلوماتها، أمضى غيديون معظم سنوات طفولته في مدرسة داخلية، ولم ينتقل أبوه إلى تولارد رويال سوى منذ بضع سنوات. وحتّى ذلك الحين، عاشا في منازل أكثر تواضعاً، إمّا شرق تولارد رويال أو في كامبردج التي كان ناثانيال مدرِّساً فيها.

إذاً لماذا؟ ثمّة احتمالات قليلة أخرى. قد يكون خائفاً. فالكثير من الضحايا يخافون من كشف هويّة المعتدين عليهم خشية عودتهم، أو عودة شخص آخر. فهم يخافون من اعتداء آخر، وهذا منطقي.

بالتأكيد، تشيس ليس شخصاً لا يعرف الخوف. ولكنّه لا يبدو جباناً أيضاً. ثمّة احتمال آخر. ربّما كان يعرف أنّ العجوز متورّط في أمر ما على علاقة بالدخيل. ربّما كان غيديون قد رتّب للقائه هناك، ثمّ تشاجرا، وهدّده الرجل أو اعتدى عليه، فاتّصل تشيس بالشرطة.

لا يبدو ذلك منطقياً. نظرت إلى التقرير مجدّداً. لا شكّ في أنّه

كان غائباً عن الوعي، وتُرك على اعتبار أنّه ميت. فالرجل الذي اتّصل بالطوارئ كان هادئاً ومتماسكاً، ولم يكن مضطرباً من أثر الاعتداء، ولم يكن صدره محتقناً بالدخان.

ولكنّها شعرت بأنّها اقتربت من الحقيقة. كانت واثقة أنّ ناثانيال تشيس على علاقة بأمر سيّئ.

"بيكر!".

نظرت ميغان إلى الأعلى وغاص قلبها. كانت رئيسة قسم المباحث جود تومبكينز تتقدّم نحوها. هذه الأيّام، كانت الشقراء البالغة من العمر أربعين عاماً قد فقدت عقلها رسميًّا. فهي تقفز من مكان إلى آخر مثل صندوق مليء بالضفادع. كان زواجها الوشيك - الثاني - هو سبب ذلك التحوّل في شخصيّتها.

"ألم تنتهي من قضيّة الانتحار بعد، بيكر؟". وأسندت ردفيها المترهّلَين بفعل الحمية على طرف مكتب ميغان.

"كلاّ، سيّدتي". جمعت ميغان تقريري الشرطيَّين مُجيبة: "كنتُ أراجع التقريرين، فقد اندلع حريق في منزل المتوفى".

"سمعتُ بذلك. من الفاعل؟ أهم لصوص؟".

شرحت المفتّشة قائلة: "ذهب الابن إلى هناك بعدما طلبنا منه المجيء للتحدّث إلينا، فوجد دخيلاً في المكتب على وشك إضرام النار في المنزل".

"ومن كان؟ أهو مدمن على المخدّرات؟".

"لا نعرف. لقد ضرب الابن وتركه بعد أن أُغمي عليه، اعتقاداً منه أنّه مات. ولو أنّ دوريّة الشرطة لم تكن في الجوار، لانتهت سلالة تشيس في أربع وعشرين ساعة".

فهمت تومبكينز ملابسات القضيّة. عمليّة سطو، وإحراق منزل،

ومحاولة قتل لم يُعرف فاعلها، ليس هذا ما تريده في سجلاتها. القسم بأكمله يتعرّض للضغط من أجل تحسين أدائه. "الأمر أكثر تعقيداً ممّا ظننت. هل يمكنك تولّي قضيّة أخرى بالإضافة إلى هذه؟".

لم يكن سؤالاً بالفعل، فقد وضعت رئيسة قسم المباحث ملفًّا على مكتب ميغان قائلة: "آسفة، إنّه شخص مفقود. ألقي نظرة على الملفّ بدلاً عنّي".

راقبت رئيستها وهي تستدير وتغادر. إمكانيّة تفويض شخص آخر بمهامك أمر رائع. هكذا، تُلقي مهامك على كتفَي غيرك وتتركه يجاهد لحمل الوزن بمفرده. "سيّدتي، هل يمكنني الحصول على يدَين إضافيتَين؟".

توقّفت تومبكينز واستدارت، وعلت ابتسامة وجهها الكبير المستدير.

كانت ميغان تدرك مدة صعوبة التوسّل لطلب مساعدة في مكتب مفتوح. ألقت نظرة يائسة على رئيستها، وأضافت: "لمجرّد يوم أو يومَين؟".

أشرق وجه تومبكينز وقالت: "جيمي دوكيري. يمكنك الحصول على الرقيب دوكيري لثمانٍ وأربعين ساعة، ثمّ يعود إلى عمله".

أغمضت ميغان عينَيها. جيمي دوكيري؟ وضعت يدَيها على أذنيها، ولكن لم يتغيّر شيء، فقد ظلّت تسمع ضحكات المكتب بأكمله.

29

كان سيّد هانج يتوقّع الاتّصال.

غير أنّها كانت مسألة وقت. استأذن وابتعد بضع خطوات عن الأشخاص رفيعي المستوى الذين كان بصحبتهم. كان يحمل هاتفَين

في جيبه؛ هاتف بلاكبيري يستخدمه علناً، وهاتف نوكيا زهيد الثمن لا يمكن تتبّعه، ويُزوّده برصيد يشتريه من أيّ مكان. تناول هاتف نوكيا. كان سيتوس هو المتّصل.

"هل يمكنك الكلام؟".

"انتظر لحظة". خرج السيّد إلى باحة مفتوحة ثم قال: "تفضّل".

"أتى تشيس الابن منذ قليل من أجل وصيّة والده".

بحث السيّد في جيب سترته عن سجائر وسأله: "وماذا حدث؟".

"سأل إذا كان لدى ناثانيال ما يخجل منه".

"هل استخدم تلك الكلمة؟ هل فعل؟ أم أنّه تفسيرك لما قاله؟".

"بل استخدمها. قال للوبوس إنّ أباه قد ترك له رسالة. يبدو أنّ الشرطة قد وجدتها في مسرح الحادثة".

أشعل السيّد سيجارة دانهيل بواسطة قدّاحة ذهبية تحمل حرفَي اسمه الأوّلَين. "وماذا فيها؟ هل تحتوي على اتّهامات أو اعترافات؟".

حاول سيتوس تهدئة مخاوفه فأجاب: "لا شيء من هذا القبيل. لو أنّ فيها معلومات واضحة، لكان رجال الشرطة في مكتبي الآن يطرحون أسئلة مربكة".

نفخ السيّد الدخان ونظر عبر الباحة قائلاً: "ولكنّهم اتّصلوا بك. قلتَ ذلك، كما قال غروس إنّه ثمّة مفتّشة مباحث تظنّ أنّ بين يدَيها قضيّة".

"هذا صحيح، ولكنّه إجراء روتيني. فقد عثروا على فواتير في مكتب ناثانيال وأرادوا أن يعرفوا إذا كنا نعمل باسمه. لا تقلق بخصوص المفتّشة".

"لن أفعل". مشى السيّد بضع خطوات ثم قال: "استناداً إلى ما قاله لي ناثانيال، لم تكن علاقتهما جيّدة. لسوء الحظّ، لا يمكن لابنه أن

يكون صديقاً لنا".

"هذا يتناسب مع سلوكه في مكتبي".

فكّر السيّد بضع لحظات ثم قال: "هذا مؤسف. كان سيكون مكسباً لنا، نظراً إلى مساهمة أبيه في الحرفة. هل سألتك الشرطة عن الوصيّة؟".

"بالطبع".

"وهل ورث كلّ شيء؟".

"كلّ شيء".

"لا بدّ من أنّك جنيتَ مبلغاً كبيراً من ذلك".

شعر سيتوس بالإهانة فقال: "كنتُ أعامل ناثانيال معاملة حسنة. كان صديقي، تذكّر أنّه كان صديقي".

لام السيّد نفسه، فالملاحظة لم تكن في محلّها. لذا سارع إلى الاعتذار قائلاً: "سامحني، ما كان ينبغي لي ذكر الموضوع". نظر إلى زميل له أصغر سنًّا منه يقف في طرف الباحة، ويشير إلى ساعته، ثم قال: "عليّ الذهاب".

"هل تفكّر في التأجيل؟".

"لا نستطيع ذلك". سحب السيّد نفساً أخيراً من سيجارته قبل أن يلقيها ويدوس عليها قائلاً: "التعليمات واضحة. ينبغي إتمام ما بدأناه في منتصف المدّة الفاصلة بين شفق الغروب في يوم الانقلاب الشمسي وشفق الشروق في اليوم التالي، وإلاّ فلا معنى لذلك".

صمت سيتوس وشعر السيّد بوجود خطب ما فسأله: "سيكون القربان الثاني جاهزاً، أليس كذلك؟".

"أجل، ستسير الأمور حسب المخطّط. ولكن، ماذا عن تشيس الابن؟".

هزّ السيّد رأسه باتّجاه زميله الواقف على مسافة منه، وحرّك شفتَيه

بصمت مشيراً إلى أنّه سيأتي خلال دقيقة. وبعد انصراف الرجل، ختم الاتّصال قائلاً: "سأهتمّ بأمر الابن. واحرص أنت على إتمام الترتيبات الأخرى حسب المخطّط".

30

كانت تعليمات كاتلين واضحة. استأجر غرفة، وبرّد زجاجة شراب. ضع مثلّجات من بين وجيري في الثلاجة لشخصين، من أيّ نكهة تريدها باستثناء كايك باتر. املأ حوض الاستحمام حتّى ثلاثة أرباعه بالماء الساخن، من دون معطّرات.

من الواضح أنّ كاتلين تحصل على كلّ ما تريده. ولا بأس بذلك بالنسبة إليه. على الأقلّ، لن يُسيء أحدهما فهم الغاية من هذا الموعد. لا حاجة إلى الأحاديث، والمقدّمات المؤلمة. ألغى كلّ ما خطّط له لذلك النهار، مع أنّه لم يكن شيئاً هامًّا.

لم يجد عناءً في إحضار ما طلبته. فأعدّ الشراب، والمثلّجات، ثمّ قصد هايد بارك وحجز جناحاً في فندق إتيه، وهو فندق كتوم معروف بمطبخه الفرنسي. وكان على وشك أن يُفاوض على سعر الجناح البالغ ألف باوند، ثمّ تذكّر أنّه يعمل الآن في الإعلام وعلى وشك القيام بأمر ما مع ابنة أحد المشاهير.

تبيّن أنّ الجناح يستحقّ ما دُفِع، إذ كان يحتوي على سرير كبير مكسوّ بغطاء ذهبي، مع نافذة ذات ستائر مشابهة للغطاء، ومخطّطة بالبرتقالي ومطلّة على شرفة صغيرة وُضعت عليها مقاعد معدنية بيضاء. أسدل الستائر، وأضاء المصباحَين ذوَي الطراز المصري الموضوعين على جانبي السرير.

وضع جهاز الآيبود في أحد المقابس. أيّ أغنية يُشغّل؟ أفزعه

السؤال المفاجئ. فالمرء يعرف الكثير عن الشخص الآخر من اختياره للموسيقى. بحث بين آخر الأغاني التي حمّلها، واستقرّ اختياره على ألبوم بلان بي، The Defamation of Strickland Banks. كانت أغنية لوف غوز داون على وشك الانتهاء عندما سمع طرقة على الباب.

كانت الساعة الثانية ظهراً. كان واثقاً أنّها ستتأخّر، ولكنّه أخطأ. فتح الباب. كانت تحمل على ذراعها معطفاً قشدياً خفيفاً وترتدي فستاناً شفّافاً تقريباً. "لا تحدّق إليّ هكذا، دعني أدخل".

خطا جانباً وقال: "آسف، ولكنّك تبدين...". أدرك أنّها تخشى أن يراها أحد، فأغلق الباب بسرعة وهو يتابع كلامه: "... جميلة جداً". استدار ليجدها قربه تماماً. ألقت من يدها المعطف وحقيبة اليد التي تماثله لوناً وقبّلته. شعر وكأنّه تعرّض لصعقة كهرباء خفيفة، سرت في كامل جسده. كانت دليلاً على اللحظات الرائعة التي ستأتي لاحقاً.

توقّفت كاتلين لالتقاط أنفاسها وابتسمت قائلة: "لديّ ساعة فقط، ستّون دقيقة. فلنبدأ".

31

ديفايزيس

التحرّي الرقيب جيمي دوكيري هو هوراشيو كين[1] ويلتشر، أو هكذا يظنّ نفسه. فهو يتكلّم بوتيرة أبطأ من رجل يُحتضر، ويعاني الربو، ويضع نظّارة شمسية في أحلك الأجواء؛ من ذاك النوع الذي لم يعد رائجاً منذ فيلم توب غان.

تعرّض الصبيّ بنّي الشعر للمضايقات في طفولته من قبل زملائه، فحمى نفسه بأن أصبح شرطيًّا. المشكلة الوحيدة هي أنّه ليس جذّاباً

(1) بطل مسلسل بوليسي خيالي.

وبارعاً مثل تحرّي الأفلام. ولكنّه ابن نائب رئيس الشرطة، وهذا أمر كاف ليمنحه ثقة زائدة بالنفس.

"سمعتُ أنّك بحاجة إلى مساعدتي، حضرة المفتّشة". وقف أمامها، ثمّ جلس على كرسي ورسم ابتسامة عريضة على وجهه قائلاً: "يسرّني أن أكون في خدمتك".

شعرت ميغان برعشة اشمئزاز غير أنّها قالت: "شكراً، جيمي". تناولت بعض الوثائق، مع ملفّ سميك وتابعت: "تحتوي هذه الأوراق على ظروف انتحار تشيس. أنت على علم بالقضيّة، أليس كذلك؟".

بدا عليه الذهول.

قاومت رغبتها في الصراخ وقالت بهدوء: "البروفيسور ناثانيال تشيس. إنّه كاتب عالمي، وعالِم آثار، وتاجر أثريّات، ولديه منزل في كرانبورن تشيس، في تولارد رويال حيث يعيش الأثرياء".

"آه، أجل، عرفتُ من تقصدين".

كانت تعرف أنّه يكذب، ولكنّها تابعت: "قم ببعض الأبحاث حوله، فثمّة معلومات عنه هنا، فضلاً عن حادثة الانتحار". فتحت ملفًّا وأشارت إلى لائحة بأرقام هواتف. "هذا رقم هاتف غيديون تشيس، ابن ناثانيال. طلب رؤية الجثّة، فهل لك أن تحرص على أن يتمّ التعامل معه بلطف؟". تساءلت إذا كان جيمي قادراً على القيام بذلك.

"اعتبري الأمر منتهياً". ابتسم ابتسامة عريضة واتّسعت عيناه. كانت خدعة صغيرة التقطها من أحدهم. طريقة مثيرة للأعصاب ليجعلها تعرف أنّه مستعدّ لأكثر من القيام بواجباته في العمل.

لم تصدّق أنّه يحاول إغراءها. أمالت رأسها، وكأنّها تتفحّص [redacted] خرجت من تحت صخرة، ثمّ سألته: "ماذا تنتظر يا جيمي؟ [redacted] لن أحصل على شرف رفقتك أكثر من يومَين، لذا الوقت

مناسب تماماً لنبدأ الآن".

فهم الإشارة، فخرج على نحو أخرق وهو يقول: "إلى اللقاء، سيّدتي".

فتحت ميغان قبضتَيها. عليها أن تتعلّم الاسترخاء. بإمكانها عدم احتمال المغفّلين، ولكن لا داعي لاستخدام العنف معهم. أعدّت الشاي الأسود في المطبخ الصغير الملحق بوزارة الداخلية وعادت إلى مكتبها في الوقت المناسب للردّ على الهاتف. في محاولتها للاستعجال، سكبت بعض الشاي الساخن على الأوراق. "التحرّية بيكر. تبًّا".

تردّد المتّصل قبل أن يجيب: "معك الشرطيّ روبن فيذربي من شافتسبيري. طلب منّي الرقيب الاتّصال بك".

"آسفة، روب، فقد سكبتُ شيئاً للتوّ. لحظة واحدة". أبعدت الأوراق عن بقعة السائل الداكنة وراحت تمسحها بمناديل أخرجتها من حقيبتها وهي تقول: "أنا معك. أعتذر مجدّداً، ماذا كنتَ تقول؟".

"حقّقنا أنا والشرطيّ جونز في جريمة السطو التي وقعت في تولارد. وقد طلبتُ من غرفة العمليات الاتّصال بك. لقد اتّصلوا، أليس كذلك؟".

"أجل، شكراً جزيلاً. كيف حال زميلك؟".

"بخير. فقد صوته لبعض الوقت، ولم يكن ذلك سيّئاً".

ضحكت. شأنها شأن معظم عناصر الشرطة، المزاح هو ما يبقيها متوازنة. "قرأتُ تقريرك للتوّ، ووجدته مفصّلاً جداً. أنت بارع حقاً".

شعر بالإطراء فأجابها: "شكراً، أحاول أن أتذكّر قدر الإمكان".

"بمَ أساعدك؟".

"أما زلتِ مهتمّة بالقضيّة؟ أعني قضيّة السطو، فأنا أعرف أنّك تحقّقين في حادثة الانتحار".

"ماذا لديك؟".

"في الواقع، قام فريق الطبّ الشرعي برفع مجموعة من آثار الأقدام عن العشب والتربة هذا الصباح وهي تناسب تلك التي وجدناها داخل المنزل".

"ممتاز". تفاءلت وأضافت: "هل لديكم مشتبه فيه؟".

ضحك قائلاً: "أتمنى ذلك، ولكنّ الأمور تتقدّم. فقد ترك المعتدي حقيبة عدّة من قماش القنّب، مليئة بالأدوات".

"روب، أنا على بعد أربعين ميلاً تقريباً من منزل تشيس. هل تظنّ أنه بإمكاننا اللقاء هناك، لنقُل بعد ساعتَين؟ أرغب فعلاً في أن ترافقني لرؤية الأماكن التي تمّ العثور فيها على تلك الأشياء، وإخباري كيف حدثت الأمور برأيك".

"سأسأل الرقيب، ولكن لا أظنّ أنه سيمانع. سأتّصل بك في حال استجدّ شيء، اتّفقنا؟".

"ممتاز، شكراً". أغلقت السمّاعة. كانت سعيدة لحصولها على فرصة لرؤية تشيس مجدّداً، ومعرفة السبب الذي دفعه إلى الكذب.

32

هايدبارك، لندن

انتهت الساعة. كانت كاتلين قد ارتدت ملابسها ووقفت عند الباب جاهزة للرحيل.

حصلَت على كلّ ما أرادته. فالشابّ ظريف ومطيع، ورفقته ممتعة جداً. بالطبع، يمكنه أن يكون أكثر صبراً. ولكن، هذا درس يتعلّمه جميع الرجال مع الوقت.

لم يتكبّد جايك عناء ارتداء ملابسه، بل لبس رداء حمّام أبيض.

كان سيستحمّ بعد ذهابها، وربّما يترك رائحتها عليه طيلة النهار. اقترب منها والرغبة ما زالت بادية في عينيه وقال لها: "هل لي بقبلة وداع؟".

"أجل".

"إذاً، هل أعجبك الشراب...".

قاطعته قائلة: "ما الذي لم يعجبني؟ لقد أحسنتَ فعلاً".

ابتسم وهو يقول: "ومتى أحصل على فرصة الإعداد للقاء آخر؟".

"لا تكن لجوجاً، لا أحتمل ذلك".

بدت عليه الصدمة.

"في المكان والزمان نفسيهما في الأسبوع المقبل. احجز غرفة، وجهّز كلّ شيء بالطريقة نفسها. ولكن، أنا من سيدفع في المرة المقبلة. هل اتّفقنا؟".

هنا، شعر أنه رخيص فقال لها: "هذا ليس ضرورياً. ماذا لو خرجنا في موعد عادي أكثر؟ إلى السينما، أو النادي، أو لتناول طعام العشاء. أنت تقومين بهذا النوع من السخافات، أليس كذلك؟".

انفجرت ضاحكة وأجابت: "أيها الرجل، لا فكرة لديك عن العوائق التي سيضعها أبي أمامك قبل أن يسمح لك بشراء فنجان قهوة لي".

نظر إليها صامتاً.

أغلقت أزرار معطفها وهي تقول: "اسمع، عليّ الذهاب. نلتقي في الزمان نفسه في الأسبوع المقبل؟".

هزّ رأسه موافقاً.

"الأمر يستحقّ، فأنت تعجبينني. لنرَ كيف ستسير الأمور في الأسبوع المقبل. بعدها سنفكّر في المخاطرة بإثارة غضب أبيكِ من أجل تناول العشاء أو احتساء فنجان من القهوة".

كانت لديه تجاعيد جميلة حول زاويتَي عينَيه، وكانت ابتسامته ودودة حقاً. استسلمت للحظة من الرقّة، وأحاطت عنقه بيدَيها، وقبّلته كما لم تقبّل رجلاً من قبل؛ باسترخاء، ومن دون استعجال أو تطلّب؛ بحميميّة.

"عليّ الذهاب".

بالكاد تمكّن جايك من فتح عينَيه قبل أن تفتح الباب وتخرج إلى الممرّ. "مهلاً!".

التفتت إليه.

"سأفاجئك". جعل إبهامه وخنصره على شكل هاتف، ووضعهما قرب أذنه اليمنى قائلاً: "أصغي إلى هاتفك، وكوني مستعدّة لرسالتي".

33

قادت ميغان سيّارتها الفورد وتوقّفت قرب سيّارة الشرطة المركونة خارج بوّابة منزل تشيس، ثمّ فتحت نافذة المقعد المجاور قائلة: "أظنّ أنّك روبن فيذربي؟".

ابتسم لها شابّ وسيم داكن الشعر في أوائل عقده الثاني وأجاب: "أنا هو، وصلتُ للتوّ. هل ندخل؟".

أشارت نحو المنزل وهي تقول: "سأتبعك".

ابتسم الشرطيّ، ثمّ شغّل المحرّك ودخل.

ركنا سيّارتَيهما خلف سيّارة الأودي المتوقّفة في الباحة، وخرجا إلى أشعّة الشمس الدافئة. أحضر فيذربي معه مغلّفاً سميكاً يحتوي على صور للأدلّة التي وُجدت في مسرح الحادثة.

ضغطت ميغان على زرّ الجرس، وطرقت على الباب بواسطة القبضة الحديدية، احتياطاً. بعد دقيقة تقريباً، نظرت إلى سيّارة الأودي.

"لا بدّ من أنّه في الداخل، فتلك سيّارته".

رنّ الشرطيّ الجرس مرّة أخرى. وبينما كان يرفع يدَه عنه، فُتح الباب. ظهر غيديون تشيس، وحدّق إليهما عبر فتحة بعرض قدم. بدا شاحباً، ومضطرباً.

قالت ميغان: "نأسف على إزعاجك، ولكنّنا نحتاج إلى طرح بعض الأسئلة".

لم يكن غيديون قادراً على مواجهة ذلك فقال: "هذا ليس مناسباً". وبدأ يغلق الباب.

أعاقته بقدمها وقالت له: "أقدّم لك الشرطيّ فيذربي. لقد التقيتما من قبل، ولكنّك لا تذكره. هو الذي أخرجك من الحريق ليلة أوّل أمس".

توقّف غيديون عندما سمع ذلك، وسيطر على سلوكه، ومدّ يدَه مصافحاً: "شكراً لك. أنا ممتنّ جداً". نظر إليها، ثمّ فتح الباب مرغماً وقال: "من الأفضل التوجّه مباشرة إلى الجزء الخلفي من المنزل. فالمطبخ هو المكان الوحيد الذي أعرفه حتّى الآن".

دخلا وأغلق الباب. كان رأسه يستغيث بعدما فكّ شيفرات عدّة دفاتر مذكّرات، ولم يكن يرغب في وجودهما قطّ.

صاحت ميغان محاولة تلطيف الأجواء: "يا له من مطبخ كبير!". مرّرت يدها فوق فرن قديم من ماركة آغا. كان الشيء الوحيد الذي يفتقد إليه المطبخ هو العنصر الأنثوي. فهو يخلو من الستائر، أو آنيات الزهر، أو أحواض النباتات، أو عبوات التوابل، ويقتصر على أسوأ شيء يمكنها التفكير فيه؛ الذكورية العملية.

انضمّ إليهما غيديون وهو يعتذر: "أشعر بالإحراج قليلاً". نظر إلى فيذربي وتابع: "يجب على المرء أن يقدّم للشخص الذي أنقذ حياته

فنجان شاي أو قهوة على الأقلّ، ولكن لا يوجد حليب. يمكنني إعداده من دون حليب إن كان هذا يناسبكما؟".

قال الشرطيّ: "لا ضرورة لذلك، شكراً".

أضافت ميغان: "شكراً لك".

شبك غيديون ذراعَيه وكأنّه يحتمي خلفهما، واتّكأ على إحدى الخزائن، وحاول أن يبدو مرتاحاً وهو يقول: "إذاً، كيف أساعدكما؟".

لاحظت أنّ عينيه حمراوان، وافترضت أنّ الإجهاد قد بدأ يفعل فعله. "وجد فريق شافتسبيري من مركز روب بعض الأدلّة االمرتبطة باقتحام المنزل. فطلبتُ منه مرافقتي إلى هنا لإطلاعي عليها، لكي أتمكّن من جمع كلّ المعلومات المتعلّقة بالمعتدي. هل تمانع ذلك؟".

بدا عاجزاً وأجاب: "كلاّ بالتأكيد. بماذا أساعدكما؟".

"لا شيء". حاولت أن تكون لطيفة فتابعت موضّحة: "كلّ ما نحتاج إليه هو دخول المكتب والحدائق. هل تعطينا الإذن للقيام بذلك؟".

كان يفضّل عدم دخولهما، ولكنّه شعر أنّه لا يستطيع الاعتراض فوافق: "بالتأكيد. كنتُ أرتّب بعض أشياء والدي في الأعلى. أرجو منكما مناداتي إن احتجتما إلى شيء ما".

هزّت رأسها موافقة وقالت له: "شكراً، سنفعل". ذهب، وشعر وكأنّه يُطرَد.

تقدّمها فيذربي إلى المكتب المتفحّم. نظرت ميغان إلى اللجدران، والسقف، والأرض السوداء. "يا له من خراب!". كانت رائحة الحريق عابقة في المكان. "قلتَ إنّ مصدر الحريق كان الستائر والمكتب،؟".

صنع دائرة وهميّة بيَده حول بقعة متفحّمة على الأرض ،شارحاً: "هنا تماماً. هذا ما قاله المحقّق في الحريق".

دوّنت ملاحظات ذهنية. ارتكب المعتدي جريمته في المكتب، وليس في قاعة الاستقبال. كان هذا مقصوداً. لا بدّ من أنّه كان يبحث عن شيء ما. وإمّا أن يكون قد وجده وأحرقه، أو داهمه الوقت. وفي الحالة الثانية، أراد التأكّد من أنّ أحداً غيره لن يعثر على ما فشل في إيجاده. "هل تمّ استعمال مادّة مشتعلة؟ بنزين، أو زيت من المطبخ؟".

هزّ فيذربي رأسه نافياً وأجاب: "كلاّ، حسبما قيل لي".

خرجت إلى الممرّ ونادت نحو الأعلى: "غيديون! هل يمكنك المجيء بضع لحظات؟".

أطلّ عالِم الآثار من فوق "الدرابزين".

"هل كان والدك مدخّناً؟".

فكّر للحظة ثم أجاب: "كلاّ، لا أظنّ ذلك. حسبما أذكر، كان يعارض ذلك بشدّة". بدت على وجهه نظرة استسلام، وهو يتابع: "من المحتمل أن يكون قد بدأ بالتدخين في السنوات الأخيرة، بعدما فقدتُ الاتّصال به، ولكن هذا مستبعد. هل من شيء آخر؟".

ابتسمت مجيبة: "كلاّ، لا شيء حالياً".

اختفى وعادت إلى المكتب. نظر إليها الشرطيّ طالباً تفسيراً. استغرقت بعض الوقت لإعطائه إيضاحاً. "المعتدي مدخّن. فقد استخدم قدّاحته الخاصّة، من نوع بيك، المعدّة للرمي بعد الاستعمال. قال الابن إنّه رآها بيَده قبل أن يحبسه في الداخل. هذا الشخص ليس مجرم حرائق متعمّدة، ومن غير المحتمل أن يكون قد أضرم حريقاً من قبل. لو كان كذلك، لاستخدم مادّة قابلة للاشتعال. كما أنّه لا يملك سجّلاً إجرامياً. ولكن، نظراً إلى الطريقة التي ضرب بها شريكك، فربّما كانت له سوابق".

ذُهل فيذربي وسألها: "كيف يمكنك أن تكوني واثقة؟".

"لا يمكنني، ولهذا السبب أقول من غير المحتمل. ولكن، استخدم المنطق. هذا ما يُسمّى المسرح المختلط، بحيث يكون جزء من العمل احترافياً جداً والجزء الآخر تعمّه الفوضى. إذ يخرق المعتدي القانون ويحتاج إلى عنصر الحظّ لتنفيذ مخطّطه، وإلاّ تفلت الأمور من يده ويحدث أيّ شيء. هذا المعتدي لم يكن محظوظاً على الإطلاق. فقد عاد مالك المنزل بينما كان يُضرم فيه النار، وقبض عليه على حين غفلة، ثمّ اتّصل بالشرطة وأوشك أن يحتجزه في غرفة تحترق. هنا، أفلتت الأمور من يَد الرجل، ولم يفكّر سوى بالنجاة والهرب، لهذا السبب ضرب الشرطيّ جونز من دون أن يقتله، ونسيَ حقيبة العدّة".

كان فيذربي قد رأى الكثير من عمليّات السطو وسرقة السيّارات بحيث صار يعرف أنّ كلامها منطقي.

تابعت ميغان: "لم يكن الحريق هو مقصده الأساسي، بل كانت فكرة مرتجلة. كان يبحث عن شيء ما، ولكن لا يبدو أنّه وجده".

"إذاً لماذا أضرم النار؟".

فكّرت ثمّ أجابت: "لكي لا يجده شخص آخر، فيهدّده أو يهدّد شركاءه به".

أشار فيذربي برأسه نحو الردهة والسلّم قائلاً: "هل أعطاك مواصفات؟".

قطّبت جبينها وهي تقول: "لا تذكّرني. لم يستطع تذكّر شيء من مظهر الرجل".

"هذا مؤسف".

"انسَ الأمر الآن، وركّز على المعتدي. بالإضافة إلى أنّه لا يملك سجلاً إجرامياً، فهو ليس ذكياً. ولكنّه جريء. فاقتحام منزل مات فيه شخص للتوّ، يحتاج إلى الشجاعة. إذاً، لنفترض أنّ المجرم شخص

واثق من نفسه، وقويّ، وناضج نسبياً. أظنّ أنّ عمره يتراوح بين الثلاثين والخامسة والأربعين، وعمله يحتاج إلى مجهود جسدي. وبما أنّ نحو ستّة بالمئة فقط من سكّان ويلتشر متنوّعون عرقياً، يمكننا الافتراض أنّه أبيض". جمع الشرطيّ المعلومات معاً. "رجل أبيض، يعمل بيدَيه، بين الثلاثين والخامسة والأربعين من عمره، مدخّن، ومن دون سجلّ إجرامي. هذا مذهل، كونكِ جمعتِ المعلومات بمجرّد النظر إلى غرفة محترقة".

كانت على وشك أن تُخبره أنّ الغرفة هي آخر ما نظرت إليه. فما تدرسه فعلاً هو الآثار غير المرئية التي يُخلّفها المجرمون وراءهم.

"ما هي برأيك علاقة الرجل بالمتوفى؟".

صمتت قليلاً ثم أجابت: "إنّه سؤال ذكي. ولو تمكّنا من الإجابة عنه فسنحلّ جميع ألغاز هذه القضيّة".

"ولكن، ثمّة رابط، أليس كذلك؟".

"واحد على الأقلّ، وعدّة روابط على الأرجح".

بدا عليه الارتباك.

شرحت له ميغان قائلة: "قد تكون هناك علاقات مهنية بين الدخيل والمتوفى. قد يكون الجنائني، أو عامل تنظيف النوافذ، أو الميكانيكي الذي يصلح له السيّارة. وهو يعرف البروفيسور على الأرجح لأنّه يقوم بأعمال من أجله بانتظام أو يوصل أشياء إلى منزله. وهذا ما يُعطيه أيضاً ثقة أكبر بحيث يأتي إلى هنا ويقتحم المنزل. ولكن، أظنّ أنّه كان يعرف ناثانيال تشيس، لأنّه على علاقة بما كان الرجل يفعله، أياً يكن ذلك".

"لا أفهم".

وضّحت له قائلة: "يملك تشيس أموالاً طائلة؛ طائلة جداً بالنسبة إلى رجل مثله. أنا واثقة أنّه كان متورّطاً بأعمال قذرة. والسؤال الوحيد،

هو أيّ نوع من القذارة؟".

كان غيديون جالساً في أعلى السلّم، وشعر وكأنّ شخصاً ما قد طعنه في صدره. إلاّ أنّه أدرك في أعماقه أنّها محقّة. كان والده متورّطاً بعمل سيّئ، سيّئ بما يكفي ليحيطه بالكتمان.

34

قبل منتصف الليل بقليل، أتوا من أجله.

أتوا بسرعة ولم يتكلّموا. لا عودة إلى الوراء الآن. قريباً، سيُعرف لي جونز باسم لاسيرتا فقط. ولكنّ تغيير الاسم سيكون مؤلماً. تمّ عصب عينَيه ونُقل أميالاً لإعداده. سيتمّ تلقينه قريباً.

لقد استحقّ أن يعرف بوجود الهيكل، ولكن سيمرّ بعض الوقت قبل أنّ يؤتمن على مكانه. قادته أيدٍ قويّة لرجال غير مرئيين عبر الممرّ المنحدر إلى الحجرة المجاورة. بقيَ معصوب العينين، ولكنّه جُرّد من ملابسه، وغُسل، وتمّ اقتياده عارياً إلى القاعة الكبرى. كانت شاسعة، وأشبه بكهف، تبلغ مساحتها أكثر من مئة متر مربّع. وكان السقف عالياً إلى حدّ أنّه بدا غير مرئي، وأشبه بضباب أسود في الأعلى.

عبق الهواء برائحة مئات الشموع المشتعلة. ضاعف الخوف والعري من حدّة حواسّه، وشعر أنّ الألواح الحجريّة تحت قدمَيه صلبة وباردة كالجليد.

رفع سيّد هانج مطرقة؛ وهي ترمز إلى حرفة القدماء الذين شيّدوا مرقد المبجّلين والهيكل. ثم نظر إلى الجمع، وأخفضها. دُفعت كتلة رخامية هائلة عبر المدخل الوحيد وأُغلقت الحجرة.

"فلترُفع العصابة عن عينَي الشاب".

نُزعت العصابة، وبدأت مراسم التلقين.

راح قلب لي ينبض بشدّة. كان في غرفة مستديرة تماماً. رأى أمام عينَيه المبهورتَين مجسّماً بحجم واقعي لستونهنج؛ مجسّماً كاملاً تماماً كما كان حين انتهى العمل به. ورأى في وسطه شخصاً يرتدي عباءة ويضع قلنسوة. كان وجهه مختفياً في الظلّ وغير واضح.

تكلّم سيّد هانج: "انظر إلى تجسيد المبجّلين. لقد رقدوا هنا قبل قرون من الزمن، عندما قام أجدادنا؛ الأتباع الأوّلون، ببناء هذه الدائرة الكونية وهذا الهيكل. هنا، أنت في حضرتهم. ومن باب الاحترام، ستحرص بعد تلقينك على أن يكون رأسك مغطًّى دائماً وعيناك تنظران نحو الأسفل. هل تفهم؟".

كانت يعرف بما يجب أن يجيب: "أجل، سيّدي".

"تمّ إحضارك للمثول أمامنا لأنّ أعضاء في حرفتنا وجدوك مؤهّلاً لتُصبح تابعاً مدى الحياة. أهذه رغبتك؟".

"أجل، سيّدي".

"هل أنت مستعدّ لتنذر حياتك وروحك ووفاءك للمبجّلين ومَن يحمونهم؟".

"أجل، سيّدي".

"يجدّدنا المبجّلون ما دمنا نجدّدهم. نكرّمهم بلحمنا ودمنا، وبالمقابل يحموننا ويجدّدون لحمنا ودمنا. فهل تنذر لحمك ودمك لتمجيدهم؟".

"أجل، سيّدي".

خلفه، بدأ البخور يحترق داخل أوانٍ نحاسية تتأرجح من سلاسل ثقيلة. عبق الهواء بروائح التوابل الحلوة والأونيكا والغالبانوم[1]. بسط سيّد هانج ذراعَيه قائلاً: "أحضروا من يرغب في الانضمام إلينا إلى

(1) من مكونات البخور المذكور في التوراة.

حجر المذبح".

اقتيد لي جونز عبر الدائرة إلى الحجر. شعر برغبة في النظر إلى من حوله، ولكنّ شون حذّره من القيام بذلك، وطلب منه عدم النظر إلى وجه أيّ من الموجودين داخل القاعة الكبرى، لا سيّما وجه السيّد.

أمَرَه صوت في أذنه بالركوع، كانت الأرض صلبة. أجبرته يدان على الاستلقاء. وقام أربعة أتباع بتقييد قدمَيه ويدَيه، بحيث استلقى على بطنه منشور اليدَين والساقَين، فوق حجر المذبح المرقّط. اقترب منه سيّد هانج، يتبعه خمسة من حاملي البخور؛ وجميعهم أعضاء في الدائرة الداخلية. "هل تثق بقوّة المبجّلين وكلّ من يتبعهم؟".

"أجل، سيّدي".

"هل تثق من دون أيّ ريب أو تردّد بقدرتهم على الحماية، والمساعدة، والشفاء؟".

"أجل، سيّدي".

"هل تكرّس حياتك لخدمتهم؟".

"أجل، سيّدي".

"وهل تُقسم بحياتك، وحياة أفراد أسرتك ومن تحبّهم على عدم كشف أسرار حرفتنا خارج أخويتك ما لم تُعطَ الإذن للقيام بذلك؟".

"أجل، سيّدي".

تأرجح البخور في سلسلة من الدوائر فوق أطرافه المقيّدة، وصدره، ثمّ ابتعد. حمل سيّد هانج سيفاً طويلاً داكن اللون صُنع من حجارة حادّة قُطعت من أوّل تريليتون شُيّد في المكان وقال: "أهدي هذا الدم، واللحم، والعظام البشرية آملاً أن تقبلوه كواحد من أتباعكم وتقدّموا له الحماية والمباركة. أتوسّل إليكم بتواضع أن تخصّصوا لأخينا شيئاً من عطفكم". اقترب من حجر المذبح، وشقّ خطوطاً من

الرسغ إلى الكتف، ومن الكاحل إلى أعلى الساق، ومن العنق إلى أسفل العمود الفقري.

توتّر لي، وصعقته الصدمة. قاوم لكي لا يصرخ. في البداية، غطّى تدفّق الأدرينالين شعوره بالألم، ثم شعر أنّ الجروح قد أصبحت حارقة، قبل أن يتحوّل شعوره إلى ألم مع تقدّم عمليّة التشويه في جسده.

شكّلت الخطوط النازفة شكل نجمة أمام أعين الناظرين. لقد مرّوا بالطقوس نفسها، وعانوا ذلّ العري نفسه، وهم يعرفون الألم الذي يوشك على معاناته.

ركع سيّد هانج. ومن تحت عباءته، أخرج المطرقة التي تُستخدم في تلك الطقوس. ثمّ وضع السيف الحجريّ على جمجمة الملقّن.

"نضيف إلى الدم الذي نسفكه من أجلكم اللحم والعظام لإثبات ولائنا وتفانينا".

رفع سيّد هانج المطرقة ثمّ أخفضها لترتطم بطرف السيف. وهكذا، اقتطع السيف جزءاً من فروة الرأس والجمجمة.

الآن، صرخ.

داهمه الظلام وضرب حوله طوقاً محكماً.

عندما استعاد لي جونز وعيه، كانت القاعة الكبرى خالية، وكان ممدّداً في مكانه، وما زال مقيّداً، ووجهه نحو الأسفل. كانت الكتلة الرخامية قد سدّت باب القاعة مجدّداً. إنّه يعرف مصيره.

35

الجمعة 18 حزيران

كان صباحاً صافياً، بداية يوم توقّعت النشرات الجوية أن يكون أدفأ أيّام العام حتّى الآن. ألبست ميغان ابنتها ملابس خفيفة، ثمّ أعدّت لها

حقيبة الطعام، وأوصلتها إلى الحضانة.

كانت متلهّفة للذهاب إلى العمل وكتابة المعلومات التي جمعتها عن المعتدي على تولارد رويال. شكّلت الرحلة التي قامت بها أمس إلى هناك مصدراً غنياً بالمعلومات النفسية، ومعظمها يرتكز على الأدلّة المادّية التي جمعها روبن فيذربي وفريق شافتسبيري من مسرح الجريمة.

أوّل ما فعلته عند وصولها إلى مكتبها هو مراجعة لائحة الأدلّة: (1) حقيبة العدّة التي تمّ إيجادها قرب السور الخلفي للحديقة. (2) دم وُجد على زجاج البيت البلاستيكي المكسور. (3) قطعة قماش صغيرة عُثر عليها بين الورود البرّية. (4) قدّاحة معدّة للرمي وُجدت على الأرض قرب تلّة خلد. (5) آثار أقدام أُخذت عن تراب الحديقة وأعشابها، وعن أرض المنزل.

درست ميغان الأدلّة بترتيب عكسي. كانت آثار الأقدام تعود لحذاء مطّاطي بحجم عشرة، سيتمّ تحديد ماركته لاحقاً. كان حجمه أكبر من مقاس قدم الرجل البريطاني متوسّط الطول، ما يُشير إلى - مع أنّه لا يضمن ذلك - أنّ طول صاحبه يفوق طول الرجل البريطاني متوسّط الطول، والبالغ خمس أقدام وتسعة إنشات. فافترضت أنّ طوله يبلغ نحو 5.11 أقدام. ثمّة أيضاً الانخفاضات التي صنعتها آثار الأقدام في التربة. ففي أماكن عدّة، بدت القدم مسطّحة، وآثار عقب القدم واضحة. وكانت تلك الآثار عميقة، ما يشير إلى أنّه انزلق أو اختلّ توازنه. لا شكّ في أنّه واجه صعوبة في المشي بسبب الظلام، أو ربّما كان يحمل وزناً كبيراً جعل حركته ثقيلة. فالرجل متوسّط الطول الذي يبلغ طوله نحو 5.11، يوازي وزنه نحو 82.5 كلغ. فافترضت أنّ وزن المعتدي في حدود 86 كلغ. بهذا الوزن والطول، لا بدّ من أنّ محيط صدره على الأرجح يبلغ نحو اثنين وأربعين إنشاً، ومحيط خصره نحو ستّة وثلاثين إنشاً أو سبعة

وثلاثين إنشاً. والمقاس مهمّ لأنّه ربّما يكون قد رمى ملابسه أو تبرّع بها لمؤسّسة خيرية، كما يفعل الكثير من المعتدين.

فكّرت ميغان في القدّاحة. من المحتمل جداً أن تكون هي نفسها تلك التي استخدمها الرجل. وعليها بالتالي أن تثق بما قاله غيديون تشيس بهذا الخصوص على الأقلّ. كانت من نوع بيك، وملوّنة بألوان الميلاد. وبما أنّه شهر حزيران، فهذا قد يشير إلى أنّ الشابّ لا يدخّن بانتظام. وربّما يكون قد اشتراها في رزم تحتوي على عدّة قطع، فغالباً ما تأتي هذه الأشياء في مجموعة من ثلاث قدّاحات؛ وهذا يجعل منه مدخّناً أكثر انتظاماً. أملت أن تكون بصماته عليها. فحتّى إن استعمل قفّازات داخل المنزل، فمن الممكن أن تكون آثار بصماته باقية على دولاب القدح وأجزاء أخرى منها.

كان العنصر الثالث في اللائحة قطعة صغيرة من القماش عُثر عليها بين الورود. كانت مصنوعة من القطن الأسود مئة بالمئة. ولكن، استناداً إلى الشرطيّ فيذربي، تحمّس فريق الطبّ الشرعي لأنّ اللون قويّ جداً. وبرأيهم، الملابس جديدة، وفي أسوأ الأحوال، لم تُغسل أكثر من مرّتين. ولكنّ ميغان كانت أكثر حذراً في استنتاجاتها. فربّما تمّ ابتياع الملابس قبل أشهر، وتُركت في أحد الأدراج. مع ذلك، ثمّة فرصة كبيرة لتعقّب صاحب الملابس إن كان قد اشتراها حديثاً.

بالنسبة إلى الدماء التي وُجدت على البيت البلاستيكي، فهي تخضع للتحليل، ولكنّها عرفت من المختبر أنّها من فئة O RH (D)+، التي يملكها أربعون بالمئة تقريباً من سكّان البلاد. ولكنّ الاختبارات الإضافية قد تُعطي معلومات عمّا إذا كان لديه إدمان معيّن.

تناولت قضمة من لوح شوكولاته وتساءلت عن نكهته. فكّرت أنّه أقرب إلى الطبشور والسخام، واستغربت حين قرأت على الغلاف اسماً

حالماً. التهمته، ثمّ انتقلت إلى أهمّ الأدلّة المادّية: حقيبة العدّة.

كانت ميغـان قـد رأت العديد من حقائب السـطو في أثنـاء عملها، وهـي تحتـوي عـادة علـى أدوات لكسـر الزجـاج، وأشـرطة لاصقـة، وملاءات خفيفـة للمسـاعدة على الهبـوط مـن النوافذ مـن دون إحداث ضجّة كبيرة أو التسـبّب بإصابات. وغالبـاً ما كانت تحتـوي على أكياس إضافيّة لوضع المسروقات، وقفّازات طبّية احتياطية تجنبًّا لترك بصمات. وكان اللصوص الأكثر احترافاً يحملون معهـم قطّاعات أحزمة، ومطارق صغيـرة، وأزاميـل فولاذية لكسـر الخزنـات. ويحمـل البعـض مصابيح، وحتّى متفجّرات بلاستيكية.

ولكنّ هذا الرجل لم يكن يحمل شـيئاً منها. فقـد أحضر معه عتلة، ومطرقة، وزرّة معدنية ذات قبضة، وشـريط أنابيب لاصقاً، وفأسـاً مخيفة الشـكل. أثبتت هذه الأدوات شـكوكها في أنّه ليس محترفاً. كما أشارت إلى أنّه لـم يحصل على الأرجح علـى وقت كاف للاسـتعداد، بل اكتفى بجمع ما وجده في خزانة العدّة أو في مرأب منزله.

تساءلت عن سبب عجلته. لماذا تحرّك بسـرعة وبتهوّر؟ هل طلب منـه أحدهم ذلـك؟ أو أجبـره عليـه؟ فغيـاب الأكياس يشـير إلـى أنّه لم يقتحم المنزل بهدف سـرقة أشـياء متعدّدة، بل كان يسـعى وراء شيء أو شيئَين محدّدَين.

نظرت مجـدّداً إلى الصور التـي أعطاها إيّاها روبـن فيذربي. كانت الفأس هـي أكثرهـا إثـارة للاهتمـام. بالتأكيد، لـم تكن مخصّصـة لقطع الحطب، بل بـدت وكأنّها أداة مطبـخ ثمينة. لم تسـتطع تحديد ذلك قبل رؤيتها بـأمّ العين، ولكنّها قد تكون سـاطوراً. ربّمـا كان الرجل يعمل في مطبخ.

فكّرت في طريقة هربـه. كانوا قد وجـدوا منصباً خشـبيًّا من البيت

البلاسـتيكي قرب جدار خلفي تمتدّ خلفه أرض عامّة ومن بعدها الطريق ب. كان العشـب البرّي مسـحوقاً، كما وُجدت عدّة آثـار إطارات موحلة على الطريق. يُشـير كلّ ذلـك إلى أنّ الدخيـل كان يعرف المـكان جيّداً. فقد عرف أين يركن سـيارته بعيداً عن الأنظار، وكان مرتاحاً لأنّ الطريق ليس مزدحماً.

افترضـت ميغـان أنّه عسـكري سـابق، متوسّـط الـذكاء، ولا يملك شهادة جامعية. إنّه مجرم يُظهر إشـارات التنظيم والتخطيط، ولكنّه يفتقر فعلاً إلى القدرة على تنفيذها. لخّصت مواصفاته:

- رجل أبيض.
- 30–45.
- عامل؛ ربّما في مجال الطعام في نادٍ أو مطعم.
- عسكري سابق، في الجيش على الأرجح، رتبة متدنية.
- يعيش في الجوار.
- يقود سيّارة أو شاحنة صغيرة.
- 5 أقدام و11 إنشاً.
- 82.5–90 كلغ.
- الصدر: 42 إنشاً على الأقلّ.
- الخصر: 36 إنشاً على الأقلّ.
- ليس لديه سجلّ إجرامي.

تردّدت ميغان قبل أن تضيف سـطراً آخر يحتوي على كلمة أخيرة: "لا يرحم".

كانت واثقة أنّ المجرم ليـس لصًّا معتاداً؛ فهو لـم يتردّد في ضرب شرطيّ والتسبّب بإغمائه، كما ترك غيديون تشيس لتلتهمه النيران.

أياً يكن، فهو مستعدّ للقتل كي لا يُقبض عليه.

36

تولارد رويال

أيقظ صياح الإوزّ البرّي غيديون من نومه.

مشى مترنّحاً، وآلمه جسده بأكمله وهو يمشي نحو الحمّام.

رأى من النافذة أربعة طيور تتنافس على الأرض حول بركة الحديقة الصغيرة. راحت الطيور تهاجم بعضها في قتال بالمناقير. وبعد صيحة حادّة، طار الخاسر وشريكته فوق الحقول المجاورة.

تحقّق من حنفيّة الدشّ القديمة فوق حوض الاستحمام الصدئ. كانت مكسوّة بالكلس، ولكن بالرغم من قدم الأنابيب، فقد تدفّقت المياه بسرعة عجيبة. لم يجد "الشامبو"، ولكنّه وجد لوح صابون على المغسلة. تناوله، ودخل حوض الاستحمام، ثمّ أغلق الستارة البلاستيكية الرثّة خلفه لحجب رذاذ الماء.

أشعره الماء الساخن بالاسترخاء، وخفّف من توتّر كتفَيه. وقف تحت المياه المتدفقة وهو يتذكّر ما اكتشفه في المذكّرات التي قرأها في الليلة الفائتة.

بعد ثلاثة عشر شهراً على وفاة والدته، التحق أبوه بأتباع المبجّلين. اعتقد غيديون في البداية أنّها جمعيّة تاريخية محلّية، ولكنّها لم تكن كذلك، بل تبيّن أنّها شيء مختلف تماماً. فهم أنّ أباه وجد راحة روحيّة يائسة في الأحجار، كتلك التي يجدها الحزانى في دور العبادة. سمّاهم ناثانيال مبجّلين واعتبر كلّ حجر محكّ ذهب، ومصدر عون. وشرح في مذكّراته كيف يمنح أحد الأحجار تجدّداً روحياً ويزيل الاكتئاب، بينما يُعطي الآخر قوّة ومقاومة جسدية. وثمّة أحجار أخرى أيضاً.

ضحك غيديون لفكرة أن يكون ستونهنج دائرة سحريّة شافية. فمن كان ليصدّق أنّ والده، ذاك الكاتب اللامع، يُصدّق أمراً كهذا؟ لا بدّ من

أنّ موت ماري سبّب له اضطراباً كبيراً. هذا يفسّر كلّ شيء.

برد الماء فجأة، فخرج غيديون من الحوض، وتناول منشفة رمادية سميكة. جفّف نفسه وارتدى ملابسه القديمة. كانت رائحتها عابقة بدخان الحريق، ولكنّه لم يستطع حمل نفسه على فتح خزانات والده وأدراجه، أو البحث عن ملابس داخلية.

وجد في الأسفل صندوقاً مفتوحاً من رقائق الحبوب، ولكنّه لم يجد حليباً. وضع قبضة منها في فنجان وتناولها جافّة وهو ينظر من نافذة المطبخ. راحت عدّة طيور تدرُج تتنقّل في المكان وكأنّها تملكه، وتُلقي عليه نظرة من وقت إلى آخر وهي تتابع عملها. أنهى تناول فطوره البسيط، ثمّ ملأ كوباً بماء الحنفيّة وأخذه إلى الأعلى. كانت الكتب منتشرة في كلّ مكان، ولكنّه لم يكن في مزاج يسمح له بترتيبها. كلّ ما أراده هو القراءة؛ التهام النصوص إلى أن يفهم شيئاً. تناول آخر دفتر كان يقرأه ليلة أمس، وتابع قراءة الشيفرات المفكّكة التي كتبها بقلم الرصاص فوق أسطر أبيه:

طرائق الحرفة رائعة البساطة، ونقيّة تماماً. كان أجدادنا على حقّ، فما من كائن ممجّد واحد بل إنّها كثيرة. ولا عجب أنّ قادة كلّ عقيدة وأتباعها اعتقدوا أنّهم هم وحدهم على حقّ. فهم لم يكتشفوا سوى واحد. وقعوا على أثر روحيّ للمبجّلين، لحياة لمسوها، وهبات أعطوها.

من المخجل أن يسير أولئك الأتباع وراء واحد من دون أيّ تمييز. فقط لو عرفوا أنّه قادر على إعطائهم نعمة واحدة وحسب. رغبة الإنسان في احتكار المعتقد أغلقت عقله عن هباته المتنوّعة.

حاول غيديون أن يبقى منفتحاً. من الواضح أنّ أباه قد اعتقد أنّ

الأحجار بمثابة شرايين؛ منازل للكائنات الممجّدة. أكان هذا جنوناً مطلقاً؟ ملايين الناس اعتقدوا أموراً مشابهة، وظنّوا أنّ الكائنات الممجّدة تعيش في أماكن العبادة، وأنّها تحوم بشكل غامض في معابد ذهبية فوق مذابح عالية، أو يمكن استحضارها بطقوس معيّنة جماعية. وفكّر في أنّ معتقدات أبيه ليست أكثر سخافة.

نظر إلى الدفتر الذي يحمله بين يدَيه، وإلى الحبر الأسود الذي كُتبت به كلمات أبيه. كانت الصفحة تجلّياً مادّياً لأفكار أبيه. وحتّى بعد عقود من كتابة تلك الكلمات، فهي ما زالت تنقل أمراً لا يستطيع استيعابه تماماً؛ اتصالاً عاطفيًّا مع أبيه. فهو يشعر وكأنّه يلمسه تقريباً.

تساءل غيديون إذا كان هذا ما يحدث عندما تُلمس الأحجار؟ هل يمتصّ المرء الأفكار والأحاسيس، هل يمتصّ حكمة الأشخاص الذين عاشوا قبله بزمن بعيد - حكم القدماء - أشخاص عظماء إلى حدّ أنّهم اعتُبروا بمثابة كائنات ممجّدة؟

الآن فقط، عندما لم يعد مفهوم المبجّلين يبدو له جنونياً تماماً، استعاد الكلمتَين اللتين سبّبتا له الاضطراب.

ΨNKKΦ

دم.

ZΩXHΠTΠXY

قربان.

الآن فقط قرأ المقطع بأكمله:

يحتاج المبجّلون إلى التجديد. وينبغي أن يكون دائماً، وإلاّ داهمهم التلف والزوال. والدليل موجود أساساً. فمن الحماقة التفكير في أنّنا نستطيع أن نستمدّ منهم من دون أن نعيد ملأهم. فهم متجذّرون

في دماء أجدادنا وعظامهم. يُعطوننا أنفسهم، وعلينا إعطاؤهم أنفسنا.

لا بدّ من تقديم قربان، لا بدّ من سفك الدم. دم من أجل الأجيال القادمة؛ من أجل الجميع، ولا سيّما من أجل ابني الحبيب.

صُدم غيديون حين قرأ ما يشير إليه. ولكنّ صدمته كانت أكبر عندما تابع القراءة:

أعطي بكامل إرادتي دمي، وحياتي. وأتمنّى أن يكون جديراً، جديراً بما يكفي لتغيير الأمور. لتغيير المصير الذي أعرف أنّه ينتظر ابني المسكين، يتيم الأمّ.

37

"هل عثرتِ على الشخص المفقود، أم ليس بعد؟". باغتت رئيسة قسم المباحث جود تومبكينز ميغان بالسؤال وهي تجتاز الممرّ حاملة فنجاناً من الشاي في طريقها إلى مكتبها.

"كلاّ سيّدتي، ليس بعد".

"ولكنّك تبحثين، أليس كذلك؟ هل قرأتِ الملفّ الذي أعطيتك إيّاه وقمتِ ببعض الخطوات؟". حرّكت يدَيها بتفاخر مضيفة: "أنا واثقة أنّك اتّصلتِ بأسرته ووضعت يدك على صورة واحدة على الأقلّ".

تجاهلت ميغان السخرية قائلة: "سيّدتي، ما زلت أعمل على قضيّة ناثانيال تشيس".

"أعرف، فأنا لستُ مصابة بالخرف. وأذكر تماماً أنّك تعملين أيضاً على قضيّة شخص ضائع فوّضتك بها. لذا، قومي بذلك". ألقت عليها نظرة كاوية ثمّ دخلت مكتبها.

راحت ميغان تشتِم في سرّها. جلست خلف مكتبها، وانسكب بعض الشاي الساخن من الكوب البلاستيكي على أصابعها، فشتمت مجدّداً.

مسحت يدَيها بمنديل ورقي، ثمّ فتحت الملفّ الذي رمته لها رئيستها. كانت تأمل تفويض جيمي دوكيري به ولكنّه اختفى.

قرأت الملخّص: اتّصلت الأخت التوأم لشابّ في الخامسة والعشرين من عمره، يُدعى طوني نايلور وأبلغت عن غيابه. ويبدو أنّ هذا الأمر تكرّر عدّة مرّات. نايلور عاطل عن العمل ومدمن على الشراب، ويبدو أنّه يحصل على المال لقاء عمله في مواقع البناء.

كان من النوع الذي يعيش يوماً بيوم، بلا أمّ وأب، وبلا مسكن ثابت. وهو يتنقّل من مكان إلى آخر، ويعمل للحصول على قوت يومه. تابعت القراءة. يبدو أنّ الشخص الوحيد الذي يتّصل به بانتظام هو أخته ناتالي. فهو يتّصل بها - على حسابها - مرّة في الأسبوع.

نظرت ميغان إلى الرقم، ثمّ طلبته.

أجاب صوت متردّد: "ألو".

"آنسة نايلور".

"من معي؟".

"معك مفتّشة المباحث بيكر من شرطة ويلتشر. أنا أتابع البلاغ الذي قدّمته عن اختفاء شقيقك".

"هل وجدتموه؟".

"كلاّ، أنا لا أتّصل لهذا السبب. هل لديك بضع دقائق للتكلّم؟".

تنهّدت الشابّة بانزعاج وقالت: "سبق لي أن قلتُ لكم كلّ شيء. أعطيتُ رجال الشرطة في المركز المحلّي جميع التفاصيل. لِمَ لا تتحدّثين إليهم؟".

"أنا من دائرة المباحث الجنائية، آنسة نايلور. أنت تتكلّمين مع ضابط نظامي".

"آه، فهمت". يبدو أنّها فهمت الفرق. "حسناً إذاً، ماذا تريدين أن تعرفي؟".

"متى تكلّمت معه للمرة الأخيرة؟".

"منذ ثلاثة أسابيع".

دوّنت ميغان الملاحظة، وقالت لها: "قيل لي إنّه يتّصل بك عادة كلّ أسبوع".

صحّحت لها ناتالي: "ليس عادة، بل دائماً. لا ينسى الاتّصال بي أبداً".

"هل تعرفين أين كان؟ وماذا كان يعمل عندما اتّصل بك في المرة الأخيرة؟".

تردّدت ناتالي ثم أجابت: "اسمعي، لا أريد أن أسبّب المتاعب لطوني. هل أستطيع إخبارك شيئاً من دون أن أسبّب له الأذى؟".

كانت ميغان تعرف أنّه لا يجدر بها عقد اتّفاقات فقالت: "آنسة نايلور، أنت اتّصلت بنا لأنّك قلقة، وليس بمقدوري مساعدتك على إيجاد أخيك ما لم تكوني صادقة معي".

صمتت قليلاً، ثمّ تكلّمت أخيراً: "عندما كلّمني للمرة الأخيرة قال إنّه كان في سويندون. يساعد بعض الإيرلنديين في أعمال حفر وإسمنت وما إلى ذلك. قال إنّه يعمل قريباً من ستونهنج، وإنّه يرغب في زيارة المكان لأنّه لم يسبق له أن رآه".

"ألم تسمعي عنه شيئاً منذ ذلك الحين؟".

"إطلاقاً".

"هل لديك أسماء أولئك الإيرلنديين؟".

"كلاّ. ذكر شخصاً يدعى ميك، ولكنّني لست واثقة إذا كان اسم ميك تصغيراً لميكاييل، أو ميك فحسب؛ أنت تعرفين الإيرلنديين".

"وليس لديك أيّ رقم للاتّصال به؟".

"ليس لديّ رقم آخر سوى رقم هاتفه النقّال، وهو مغلق. آسفة".

تابعت ميغان: "في آخر مرّة تحدّثتما، هل تشاجرتما بخصوص شيء ما؟".

"كلاّ". وبدا عليها الانزعاج.

"آنسة نايلور، إن كان ثمّة خلاف قديم أو جديد بينك وبين أخيك، فأنا أريد أن أعرف".

ضحكت الأخت ساخرة وقالت: "أنا وطوني مختلفان عن بعضنا، ولكنّنا لا نتشاجر أبداً. لم يسبق أن وقع عداء بيننا مطلقاً".

لم تجد ميغان سبباً يدفع شقيقة طوني إلى الكذب، فقالت: "حسناً، هل لديه أصدقاء آخرون؟ وتحديداً، هل لديه صديقات تعرفينهنّ؟".

"كلاّ، ليس لديه أصدقاء معيّنون. فهو ما زال مراهقاً من بعض النواحي ولكن..." صمتت قليلاً ثمّ تابعت: "لنقل إنّ طوني ليس من نوع الشباب الذي ترغب امرأة في قضاء وقت طويل معه".

"لماذا؟".

أخذت نفساً طويلاً وأجابت: "من أين أبدأ؟ إنّه لا يهتمّ كثيراً بنظافته. فالاستحمام مرّة في الأسبوع أكثر من كافٍ بالنسبة إلى طوني. كما أنّه ليس رومانسياً. وعلى الأرجح، إنّه لا يعرف كيفيّة تهجئة كلمة رومانسي".

أنهت ميغان الكتابة وقالت لها: "إن أرسلتُ شرطيًّا إلى منزلك فهل يمكنك إعطاؤه بعض الصور الحديثة لطوني؟".

فكّرت الشقيقة قليلاً، ثم قالت: "آخر ما أملكه هو صور جواز سفر. تعرفين، تلك التي تلتقط في محطّة قطار".

"منذ متى التقطت؟".

"منذ خمس سنوات تقريباً. ولم تكن من أجل جواز سفر حتّى، بل كنّا نلهو وطلبتُ منه أن نتصوّر معاً".

"ينبغي أن تكون كافية. أعطي الشرطي الذي سأرسله إيّاها، وسأبدأ بملاحقة بعض الخيوط لنرى ما إذا كنّا سنجده. هل اتّفقنا؟".

"أجل، شكراً".

أنهت ميغان الاتصال واحتساء الشاي. تكوّن لديها إحساس سيّئ بخصوص طوني نايلور. فشقيقته هي ملاذه الوحيد، وما لم يقع شجار بينهما، فلا سبب لابتعاده عنها. وهذا يعني أنّه من السهل إيجاده. فهو إمّا في السجن، أو في المشرحة.

38

كانت المسافة الفاصلة بين تولارد رويال وشافتسبيري لا تتجاوز خمس عشرة دقيقة، ولكنّها استغرقت مع غيديون تشيس ضعف تلك المدّة. فقد تحقّق من الخريطة مراراً، وقاد ببطء شديد في أشمور وإيست ميلبوري.

في كان كومون، ركن سيارة الأودي القديمة جانباً قرب أش تري لاين، ثمّ أغلق الباب، ومشى خمس دقائق. لم يكن فيها الكثير لرؤيته؛ مجرّد منازل للاستراحة، وكوخ أبيض، ودخان أسود يتصاعد من نار مشتعلة في إحدى الحدائق، وحقول خضراء مترامية الأطراف.

لم يكن غيديون يأبه فعلاً بما يحيط به، بل يفكّر في ما لا يريد رؤيته؛ والده الميت، الراقد في دار جنازات على بُعد دقائق. ولا شكّ

في أنّ حانوتياً ما قد قام بتمويه آثار الرصاصة التي فجّرت رأسه.

فجأة، تقيّأ غيديون، ولوّث أرض الزقاق الهادئ. تقيّأ مجدّداً، وشعر بالسوء لأنّه لم يفعل ذلك جانباً. إن كان ثمّة من رآه، فهو يعرف بماذا سيفكّر؛ فهو سيظنّ أنّه أفرط في الشرب.

شعر بالارتباك، إذ لم يكن يحمل حتّى منديلاً لمسح فمه. استخدم يدَه، ثمّ مسحها بالعشب. شكراً لأمّنا الطبيعة. التفت ورأى سيّدة مسنّة تحدّق إليه بغضب من حيث تقف قرب باب منزلها. فاتّخذ عندها قراراً سيتسبّب بتأخّره. ليكن ذلك. صعد إلى السيّارة مصمّماً، وقادها بسرعة عبر كان كومون. وصل إلى مستديرة ورأى فرعاً لأحد المخازن الكبرى.

في الداخل، راح يدفع عربة أمامه بين الأجنحة، ويُلقي فيها الحليب، والخبز، ومعلّبات الحبوب، والمعكرونة، وعصير الليمون، وكلّ ما يخطر في باله. ثمّ، الأهمّ من ذلك كلّه، وضع معجون أسنان، وشامبو، ومعجون حلاقة، وآلة حلاقة، وشفرات. تناول أيضاً بعض الملابس الداخلية، والجوارب، ومزيل الرائحة، وفرشاة شعر.

بعد أن دفع الحساب، دخل أحد الحمّامات مسرعاً، وبدأ ينظّف نفسه. شعر بالترف لأنه يستخدم فرشاة أسنانه الخاصّة، وليس واحدة تركها أحد ضيوف أبيه المجهولين. تذكّر شيئاً، فعاد إلى المخزن واشترى الجبن، وعلبة بسكويت، وبعض الشوكولاته، ومجموعة من الفاكهة المتنوّعة؛ وهي الأشياء التي كانت مكتوبة على لائحة المشتريات المعلّقة على الثلاجة؛ تلك التي لم يعش أبوه ليشتريها.

في طريقه إلى الخارج، ألقى غيديون نظرة على مقهى صغير وهو يشعر بالجوع. كان يحلم بتناول فطور إنكليزي كامل. ربّما لاحقاً. سأل عجوزاً عن الطريق إلى شارع بلاك.

بعد دقيقتين، كان هناك، يدقّ على باب الموت.

تُعتبر مؤسّسة أبراهامز وكاينغهام بالنسبة إلى منظّمي الجنازات مثل تشيستو وهوكس بالنسبة إلى المحامين. فهي تقليدية، وقديمة الطراز، وكئيبة. للحظة، شعر بأنّه يقف في مدخل منزل عمّة عجوز. قاده ورق الجدران المخملي المخطّط والسجّاد الأخضر الداكن السميك إلى قاعة استقبال مزرية.

كانت القاعة خالية. قرأ لافتة معلّقة على الجدار: الرجاء قرع الجرس عند الدخول، ورأى تحتها لوحة نحاسية لامعة مع زرّ أبيض رخامي. لم يقرع الجرس، بل راح يتجوّل في المكان. مشى في الرواق، من دون أن يعرف السبب فعلاً. كان مدفوعاً للقيام بذلك. أراد أن يرى ماذا يوجد خلف الواجهة الكئيبة. أراد أن يفهم قليلاً قبل أن يتطرّق إلى الموضوع المكتب المتعلق بالتخلّص من الجثة وإحراقها. خلف الباب الأوّل، وجد غرفة مليئة بالتوابيت. صالة عرض. هنا تبدأ من دون شكّ عمليّة الإقناع اللطيفة. خشب السنديان أو الأرز عوضاً عن خشب الصنوبر أو غيره من أنواع الخشب الأقلّ ثمناً. كان الباب المجاور هو الباب المؤدي إلى غرفة الموظّفين؛ حيث توجد بضعة كراس، وطاولة كبيرة، وفرن ميكروويف، وحوض جلي، وآلة قهوة. تستمرّ الحياة، حتّى بجوار الموت.

صدمته الغرفة الثالثة. أوّلاً، بسبب الرائحة الصادرة عن سائل التحنيط. وثانياً، بسبب المعادن الكثيرة. فالأحواض، والحمّالات المتحرّكة، والأدوات الفولاذية كلها معدنية. نظر إليه شابّ يرتدي معطفاً أبيض، كان واقفاً أمام لوح مُدّد عليه جسد رمادي. "المعذرة، ولكن لا ينبغي أن تدخل هذه الغرفة". تردّد، ثمّ اقترب من الجسد الخالي من الحياة والمُمدّد فوق اللوح. "هل أنت قريب لأحدهم؟ هل يمكنني مساعدتك؟". اقترب منه الرجل، وحاول أن يحجب عنه الرؤية في أثناء

تقدّمه وقال لـه: "هلاّ عدتَ إلى قاعة الاستقبال. سأُرسل إليك أحدهم لمساعدتك".

هزّ غيديون رأسه موافقاً، ولاحظ أنّ الرجل وضع يدَيه خلف ظهره ليُخفي آثار الدماء الموجودة على زوج القفّازات المطّاطي الذي يلبسه.

"آسف". اعتذر غيديون وهو يخرج عائداً نحو الجرس، وضغط عليه هذه المرّة. خلال دقيقة، ظهر رجل قويّ البنية، في أواسط العقد الرابع من عمره، ذو شعر أجعد، ويضع نظّارة مستطيلة الشكل وبنيّة اللون. أخذ يسوّي سترته داكنة اللون وهو يقترب.

"كريغ أبراهامز. هل أنت السيّد تشيس؟".

مدّ يدَه مصافحاً وقال: "غيديون تشيس".

"أقدّم لك تعازيّ الحارّة، سيّد تشيس. هل تودّ رؤية أبيك على الفور، أم تفضّل الجلوس أوّلاً والتكلّم عن الترتيبات؟".

"أودّ رؤيته وحسب، من فضلك".

"كما تشاء. اتبعني رجاءً".

لحق بالرجل عبر ممرّ طُليت جدرانه باللون الأزرق، ثمّ دخلا باباً في آخره يؤدّي إلى ممرّ آخر خافت الإنارة. توقّف أبراهامز أمام إحدى الغرف. سعل، وغطّى فمه باحترام. "قبل أن ندخل، أودّ أن أذكر أمرَين. لقد قمنا بإلباس والدك ملابس أعطتنا إيّاها الشرطة. إن وجدتها غير ملائمة، فسيسرّنا بالطبع استبدالها بما تريده".

"شكراً".

ألقى على غيديون نظرة جادّة ثم قال: "ثانياً، بذل خبير التجميل مجهوداً كبيراً، ولكن أخشى مع ذلك أنّك ستُفاجأ قليلاً عندما تراه".

"أفهم ذلك".

"يتوقّع الكثير من الزبائن أن يكون أحبّتهم كما عهدوهم تماماً.

ولكن، أخشى أنّ هذا الأمر ليس ممكناً ببساطة. أردتُ تنبيهك إلى هذا الاحتمال".

ابتسم أبراهامز بتعاطف وفتح الباب. فوجئ غيديون عندما شمّ رائحة الأزهار الزّكية. كانت الستائر مسدلة، والشموع الكبيرة تتوهّج في كلّ أرجاء القاعة. رأى غيديون أباه ممدّداً في تابوت من الماهوغاني، مبطّن بقماش الكريب، وظهر رأسه من غطاء التابوت المفتوح. اقترب غيديون من الجثّة، ولاحظ أنّ الخبير قد قام بعمل جيّد. للوهلة الأولى، لم يرَ ما يشير إلى أنّ أباه قد وجّه مسدّساً إلى رأسه وضغط على الزناد.

ولكن، تدريجياً، بدأ يلاحظ التفاصيل. إذ كانت البشرة برتقالية جداً، والشعر مسرّحاً باتّجاهات غريبة. كان رأس أبيه مشوّهاً من جهة الأذن اليسرى، وهو المكان الذي خرجت منه الرصاصة.

لمس أبراهامز ذراعه بلطف قائلاً: "هل تريد أن أتركك بمفردك لبعض الوقت؟".

لم يجبه غيديون. أحسّ بمشاعر مختلطة تعصف فيه؛ الندم، الحبّ، الغضب. هزّته تلك الأحاسيس في الأعماق، وعاودته ذكريات عابرة عن جنازة أمّه: الدموع، الملابس السوداء، الرجال في سيّارة طويلة وغريبة الشكل. وقوفه في المقبرة وهو يتمسّك بشدّة بيَد أبيه لأنّه شعر وكأنّه يسقط من حافّة الأرض. عادت إليه كلّ تلك الذكريات.

"رأيتُ ما يكفي، شكراً". ابتسم لأبيه، وقبّل أطراف أصابعه، ووضعها على الرأس المشوّه. شعر أنّ ذاك الاحتكاك الوجيز ليس كافياً. لا يمكنه الرحيل عند هذا الحدّ. فانحنى فوق التابوت ووضع شفتَيه على رأس أبيه. لا يذكر أبداً أنّه قد فعل ذلك من قبل. انهارت جدران في لا وعيه، وسالت الدموع من عينَيه. أحاط غيديون بذراعَيه الرجل الذي أنجبه، وراح يشهق باكياً.

انسحب كريغ أبراهامز من الغرفة بصمت، ولكن ليس بدافع اللياقة. فقد توجّب عليه إجراء اتّصال؛ اتّصال هامّ جداً.

39

بقيَت تسعة أيّام.

كان سيّد هانج يتذكّر ذلك كيفما التفت. إذ كان يرى ذلك على الروزنامة الموضوعة على مكتبه الكبير القديم في العمل، وعلى الصفحة الأولى لصحيفة التايمز التي طواها أحد مساعديه. إنّه في كلّ مكان.

خلال أيّام معدودة، عليه إتمام الجزء الثاني من طقوس التجديد. عليه أن يُعدّ الأتباع من أجل الرابطة، غير أنّهم ليسوا جاهزين بعد. تمنّى لو أنّ تشيس لم يُفسد كلّ شيء، ليته تمالك نفسه وقام بما كان متوقّعاً منه. عندها، كان كلّ شيء سيسير على خير ما يرام. ولكن الوضع مختلف تماماً الآن.

شردت عينا السيّد نحو إطار ذهبي يحيط بوجه زوجته الرقيق. تصادف اليوم ذكرى زواجهما الثلاثون. لكانت الأمور مختلفة كثيراً لو أنّها لم تتحدَّ الأطبّاء وآراءهم العلمية المزعومة. فقد أشار تشخيصهم المؤكّد، المرتكز على تقنيّات عالية إلى أنّها مصابة بارتفاع الضغط الرئوي. وهي عبارة ما كانت لتعني شيئاً لأيّ منهما قبل عشرين عاماً. حدّق كلاهما إلى الطبيب غير مصدّقَين. وحدها نظرته أوحت بأن المرض خطر.

كان مرضاً عضالاً.

ارتفاع الضغط الرئوي.

كانا يعتقدان أنّ قصر النفس والدوار ناتجان عن تعبها. فهي تُجهد نفسها، ولا تُحافظ على التوازن بين حياتها وعملها؛ إذ جمعت بين

عملها في المحاماة وتربية أسرة شابّة. وهذا ما استنفد طاقتها.

"إنّه مرض عِضال".

أوشك على أن يصحّح للطبيب، السيّد سانجاي. لم يكن يختلف مع الطبيب الجادّ حول معنى كلامه، بل حول لغته الركيكة. أراد أن يشير إلى أنّه مرض عُضال وليس مرضاً عِضالاً. ينبغي لرجل بمستوى سانجاي، بغضّ النظر عن أصوله، ألاّ يرتكب خطأ كهذا، ولكنّه فعل. راحت زوجته الرقيقة، والجميلة، تُكرّر بينها وبين نفسها.

"عِضال".

ارتفاع الضغط الرئوي.

ثمّ وجد الحلّ الخارق؛ المبجّلين. خلال أسابيع من اعتناق الحرفة، لم يعد لكلمة عِضال أيّ وجود. فقد اختفى ارتفاع الضغط الرئوي، وزال بالسرعة والغموض اللذين ظهر فيهما. أمضى أطبّاء المستشفى ثلاثة أشهر في إجراء الفحوصات قبل أن يقرّوا أخيراً بذلك؛ بشيء من الحقد تقريباً.

لقد خدعهم المرض. وضعوا السمّاعات على صدرها الجميل، حلّلوا دمها، وراجعوا الجداول والملاحظات. اتّفقوا جميعاً على أنّهم لم يخطئوا في التشخيص، ومع ذلك اختفى المرض. لقد شُفيت.

رنّ الهاتف النقّال الموضوع على مكتبه. نظر إليه للحظة قبل أن يجيب: "نعم".

"معك دراكو. الابن موجود في دار الجنازات".

"هل حدث أمر غير معتاد؟".

"كلاّ. ولكن قيل لي إنّه تأثّر عندما رأى أباه".

طرق سيّد هانج بأصابعه على المكتب وقال: "ربّما ردم الزمن الهوة التي فصلت بينهما".

"ربّما".
"كن لطيفاً معه. توقّع كلّ الاحتمالات".
"هذا ما أفعله دائماً".
"وبالنسبة إلى المسألة الأخرى؟".
"نعم".
"المبجّلون هم الذين سيقرّرون".
شعر دراكو بالقلق فسأله: "هل أنت واثق أنّنا نملك الوقت؟".
"المبجّلون واثقون. أبلغ المراقبين".

40

عاد غيديون إلى المنزل في بداية العصر. كان يشعر بالإنهاك عاطفياً، ولكنّه يعرف أنّ هذا طبيعي بعد رؤيته أبيه ممدّداً في تابوت، بعد أن استطاع خبير التجميل بالكاد إخفاء آثار الرصاصة التي اخترقت رأسه. ولكنّه لن يقع فريسة الحزن، هذه ليست طبيعته. فالحياة تخبّئ لنا صدمات كثيرة، ولكن علينا النهوض والاستمرار.

أدرك أنّه يردّد نصيحة والده. حاول طويلاً إنكار الرجل، ولكنّه فوجئ حين أدرك أنّ للعجوز تأثيراً أكبر ممّا تخيّل. أعدّ غيديون لنفسه فنجان قهوة، وجلس في غرفة المعيشة وهو ينظر بشرود إلى الحديقة. لم يسبق له أن رأى والده يهتمّ بالحدائق. على الأرجح، استأجر عاملاً لصيانتها والعناية بها.

كان على وشك الاستغراق في النوم عندما رنّ جرس الباب وفاجأه بصوته الغريب. ذهب وفتحه، وكانت السلسلة ما زالت معلّقة. رأى أمامه رجلاً أصلع قويّ البنية، في الأربعين من عمره تقريباً، يرتدي سروال جينز وقميصاً قطنياً أزرق اللون.

"مرحباً، أنا ديف سميثسين". أشار برأسه إلى شاحنة بيضاء مركونة قرب سيارته، والتي كُتِب عليها اسمه بفخر باللون الأسود. "أنا أملك شركة بناء. سمعتُ من أحدهم في البلدة أنّ حريقاً قد اندلع في منزلك، وظننتُ أنّك قد تحتاج إلى المساعدة".

نزع غيديون السلسلة وقال: "هذا صحيح. ولكن، بصراحة لستُ واثقاً أنّ الوقت مناسب. فقد توفي والدي منذ مدّة قصيرة".

مدّ سميثسين يدَه عبر الفتحة قائلاً: "أعرف، وأقدّم لك تعازيّ. كان يُفترض بي القيام ببعض الأعمال من أجله". تصافحا وأخرج البنّاء أوراقاً مالية من جيبه. "كان السيّد تشيس قد دفع لي المال من أجل إصلاح السور الحديدي القديم خلف المنزل وبلاطة مكسورة. من الأفضل أن أعيد المال إليك. أنا آسف جداً".

تناول غيديون المال ونظر إليه - كان المبلغ نحو مئتي باوند - ثمّ أرجعه إليه. "احتفظ به. ربّما يمكنك إصلاح السقف عندما تُصلح التلف الذي تسبّب به الحريق".

"شكراً". وضع الرجل المال في جيبه وابتسم بتعاطف. "دعني أحضر لك بطاقتي من الشاحنة. يمكنك الاتّصال بي حين تصبح مستعدًّا. لقد توفي والدي منذ عام، وأعرف ما تشعر به. كم هذا غريب! فالأهل يثيرون جنونك حين يكونون بجوارك. ولكن، عند رحيلهم، تشعر وكأنّ عالمك قد انهار".

بدأ غيديون يفكّر في أنّ تأجيل العمل ليس فكرة جيّدة. لن يكسب شيئاً من التأجيل. "آسف، أنا أتصرّف بسخافة. يمكنك إن أردت إلقاء نظرة على حجم الأضرار التي لحقت بالمكان لتقدير ما يحتاج إليه من أعمال، وسأكون ممتنًّا إن أتممتَ ذلك".

تأمّله سميثسين ثمّ قال: "هل أنت واثق؟ يمكنني العودة لاحقاً".

"كلاّ، تفضّل". وخرج قائلاً: "سأدخلك من الباب الخلفي. هل ترغب في شراب؟ فأنا أُسخّن الماء".

"سيكون هذا عظيماً. أريد كوباً من الشاي مع ملعقتَي سكّر، من فضلك".

دخل غيديون المنزل، وشعر باطمئنان غريب لوجود شخص آخر معه. فقد أشعره وجود العامل بأن الأمور قد عادت إلى طبيعتها، وأنّ الحياة مستمرة. فتح الباب الخلفي.

لم يستغرق البنّاء وقتاً طويلاً لتقدير حجم الأعمال اللازمة. فقد كانت الجدران مصنوعة من الحجر الثقيل، ولم يُصبها ضرر كبير. ستحتاج إلى الغسل بضغط الماء من الداخل والخارج، وإلى إعادة طلائها في بعض الأماكن على الأرجح. أحضر له غيديون كوباً من الشاي. شكره سميثسين وتابع تدوين الملاحظات بقلم الرصاص على ورقة مطويّة.

كان المكتب غارقاً بالفوضى. فالأرض المكسوّة بالخشب احترقت تماماً، وينبغي استبدال الألواح الخشبية، وتغيير النافذة. أمّا الجصّ الذي يكسو السقف فقد تشقّق وظهرت العارضات الخشبية المحترقة. دخل المطبخ الذي وقف فيه غيديون وهو يقرأ بريد الصباح، وقال له: "آسف على المقاطعة. هل تمانع لو ألقيتُ نظرة على الطابق العلوي، فوق المكتب؟ أظنّ أنّ الأرض لم تعد آمنة بسبب الحريق".

"بالتأكيد، تفضّل".

"شكراً".

تساءل غيديون كم من الرسائل بعد ستصل باسم والده؟ وإلامَ سيشعر بالخسارة كلّما رآها؟ باغتته فكرة أخرى، أكثر إثارة للاضطراب. فباب الحجرة مفتوح. ترك الرسائل، وراح يعدو على السلالم.

لم يرَ الرجل في أيّ مكان.

دخل غرفة النوم، ولكنّ سميثسين لم يكن هناك.

اندفع غيديون في الممرّ ودخل الحجرة الصغيرة. كان البنّاء راكعاً في الزاوية. نظر إليه وعلى وجهه شبه ابتسامة وقال: "ثمّة شقّ في الوسط، ولكنّه ليس خطراً على الأرجح. هل يمكنني نزع هذه السجّادة وفحص الأرض؟".

"كلاّ. كلاّ، لا يمكنك ذلك". لم يستطع إخفاء ارتباكه فتابع قائلاً: "اسمع، كان هذا خطأ. أنا آسف، ولكنّ الوقت ما زال مبكراً. أرجو أن ترحل".

وقف سميثسين وهو يقول: "أفهم ذلك، ليست هناك مشكلة. ولكن، ما كنتُ لأُمضي هنا وقتاً طويلاً قبل أن يتمّ فحص المكان كما يجب. فالحريق أتلف على الأرجح عارضات الدعم، ومن الممكن أن تتعرّض لحادث سيّئ إن كانت الأرضيّات غير آمنة".

"شكراً. ولكن حالياً، أريد منك أن ترحل".

نظر إليه الرجل بتعاطف مرّة أخرى وقال: "بالطبع. سأضع تلك البطاقة في صندوق بريدك. اتّصل بي عندما تكون واثقاً من أنّك مستعدّ لإجراء الإصلاحات".

تبعه غيديون إلى الأسفل وودّعه عند الباب الخلفي. كان قلبه ينبض بقوّة. ربّما كان يبالغ في الخوف، ويرعبه أيّ شيء. فقد بدا الرجل صادقاً، لا بل ولطيفاً. كان يحاول المساعدة وحسب.

ولكنّ أمراً ما يزعجه. راقب البنّاء وهو ينطلق بسيّارته ثمّ عاد إلى الحجرة.

كانت كتب أبيه قد حُرّكت من مكانها.

41

تملك كاتلين لوك قاعدة بسيطة في ما يتعلّق بالرجال: موعد واحد، ووداع واحد. الأمر بتلك البساطة.

جلست في شقّة أبيها، وراحت تذكّر نفسها بكلّ الأسباب الداعية إلى الالتزام بتلك القاعدة. ولكن، ثمّة شيء ما في جايك تمبرلاند يجعلها راغبة في رمي الحذر عرض الحائط.

لم يكن الأمر يتعلّق بوسامته، فهم دائماً كذلك. ولم تكن له علاقة بثروته أيضاً، إذ يجب أن يكونوا جميعاً كذلك. السبب هو أنّه... في الواقع... بريطاني جداً. وهذا ما دعاها إلى المجيء إلى هذه البلاد أساساً؛ لتذوّق قطعة من بريطانيا، ولرؤية شيء أقدم من منزل جدّتها؛ لرؤية حضارة غيّرت العالَم، وشعب سيطر على نصف الكرة الأرضية: الملكة، والإمبراطورية، وكلّ تلك الأمور الغريبة عنها.

لكن، في أعماقها، أجل، فكّرت في لقاء رجل مثله. ذلك النوع العميق وغير الاعتيادي على نحو غريب؛ الأخرق. عرفت أنّ ما يخفيه من جايك هو أكثر ممّا يبدو للعين. ربّما سعت أيضاً وراء الرومانسية، فانفصال أبويها أبعد عنها تلك الفكرة، ولكنّها عادت الآن، مع الرسالة التي بعثها للتوّ. كانت تحتوي على صورة لشروق جميل، كتب تحتها: تعالي معي لنشاهد هذا المنظر. رافقيني ليلاً إلى مكان مليء بالسحر القديم. شاهدي معي شروقاً بلون الكرز، واضحكي معي حتّى الغروب.

كان العرض مشوّقاً؛ فهو يحثها على الابتعاد عن النوادي وذئاب البابارازي، وعن أعين رجال الأمن الذين يعملون لدى أبيها؛ إنّه هروب لا تعتريه شائبة. حرّكت الرسالة روحها المتعطّشة للحريّة، وكان ردّها بسيطاً: "موافقة!".

لم تكن تدري كيف ستهرب من الرجال ذوي البذلات السوداء

الذين يراقبونها دائماً، حاملين أجهزة اللاسلكي والمراقبة، ولكنّها ستفعل. ستهرب الليلة من قفصها الذهبي وتطير.

42

إثر زيارة البنّاء المفاجئة والجلبة التي أحدثها، شعر غيديون بالضعف. فالمنزل الكبير معزول. سبق له أن تعرّض للاعتداء مرّة، ولم يشأ تكرار التجربة. وبالطبع، لا يرغب في فقدان الكتب والأسرار الموجودة فيها عن أبيه. عليه بالتالي أخذ الاحتياطات. فأغلق البوّابات، وشغّل جهاز الإنذار.

احتاج إلى إجراء عدّة اتّصالات، وإلى أكثر من ساعة من الزمن لإقناع الشركة بأنّه ليس لصًّا. أخيراً، أخبروه كيف يعيد ضبط الجهاز، وفوجئ بصوته المرتفع. بالطبع، لا أهميّة لذلك. فبإمكان المرء تفجير قنبلة نووية صغيرة هنا من دون أن يلفت انتباه أحد على الأرجح.

لهذا السبب، بحث في المكان عن أشياء يستخدمها للدفاع عن نفسه. فوجد فأساً في السقيفة، وأخذ سكّيناً كبيرة من علبة خشبية في المطبخ. هذا أفضل ما يستطيع استخدامه. جعله ذلك يشعر بأنّه مهووس بعض الشيء، وهو يحملهما بينما يحضّر غداءه المتأخّر، ولكنّ الهوس أفضل من الخوف.

بعد ذلك، وجد أداة ضبط يدوية لإقفال بوّابات الحديقة فشغّلها، ثمّ ضبط جهاز الإنذار لتغطية الطابق السفلي، وصعد إلى حجرة أبيه السرّية مع كوب من الشاي، وزجاجة ماء، وسكّينه، وفأسه. عرف أنّ الحياة لا يمكن أن تستمرّ على هذا النحو، ولكنّه يحتاج الآن إلى الشعور بالأمان وليس بالخوف. تذكّر ما قاله البنّاء عن عدم متانة الأرضيّات. ماذا لو كان محقاً؟ ماذا لو كان الحريق قد أتلف الدعائم

الخشبية بحيث أصبح المنزل معرّضاً للانهيار في أيّ لحظة؟ عندها سيسقط وقد يكسر ظهره على الأرجح. شعر غيديون أنّه على وشك الإصابة بالجنون. فالخوف ينتشر في نفسه كالفيروس، ويجب أن يقضي عليه.

أبعد تلك الأفكار منهجياً وعملياً من خلال تفكيك شيفرة المذكّرات. وفي أواخر الأمسية، أصبح قادراً على الترجمة آلياً عوضاً عن كتابة معاني الرموز أوّلاً. قرأ كيف صدّق ناثانيال أنّ أتباع المبجّلين نجوا من وباء الإنفلونزا الآسيوية، والإنفلونزا الروسية عام 1889؛ حين لقيَ مليون شخص حتفهم. كما نجوا من الإنفلونزا الإسبانية التي تفشّت عام 1918 وقضت على نحو خمسين مليون شخص. وتكرّر الأمر نفسه عام 1957، عندما اجتاحت الإنفلونزا الآسيوية العالَم وراح ضحيّتها نحو مليوني شخص. وعام 1968، عندما قضت إنفلونزا هونغ كونغ على مليون شخص. ومجدّداً عام 2009، عند تفشّي إنفلونزا الخنازير القاتلة، أو فيروس H1N1. لم يمت أيّ من الأتباع.

شكّ غيديون في صحّة الادّعاءات، ولكنّها أذهلته، وفكّر في أنّها ممكنة. قد يكون ذلك ردّ فعل جسديًّا ونفسيًّا تجاه الأحجار نتيجة معتقدات راسخة. تذكّر مدينة لورد في فرنسا. فحسبما يذكر، زار المكان أكثر من مئتي مليون شخص طلباً للشفاء. جمع ذهنه بين الاثنين، القوى الشافية للأحجار مقابل القوى الشافية لمياه مغارة في سفوح جبال البيرينيه. كلاهما لا يُصدّقان.

نظر إلى ساعته التي قاربت الواحدة من بعد منتصف الليل. كان يشعر بالجوع والإنهاك. ولكنّه كان متعباً وقلقاً جداً لينزل إلى الطابق السفلي أو يُعدّ شيئاً لتناوله، فقرّر قراءة صفحة واحدة قبل أن يخلد إلى النوم.

تمنّى لو أنّه لم يفعل. فالمقطع الذي قرأه جمّد الدم في عروقه:

كلّ ما يعرفه غيديون هو أنّ أمّه قد أصيبت بمرض قاتل. فالشيء الوحيد الجيّد المتعلّق بكلمة سرطان هو أنّها تخيف الناس وتردعهم عن طرح المزيد من الأسئلة، لا سيّما الأطفال. أتمنّى أن يُتابع حياته من دون أن يعرف أنّه CLL[1]، أو يُدرك أنّه وراثي. أضع ثقتي في المبجّلين وفي الرابط الذي أُقيمه معهم، في دمي النظيف الذي أنذُره لتطهير دم ابني.

قرأ المقطع مجدّداً، واضطرب وهو يحاول استيعاب ما فيه. لم يستطع ذهنه أن يميّز سوى ثلاث كلمات: سرطان، وراثي، CLL.

CLL.

ما هذا المرض؟ هل ورثه؟

هل سيقتله؟

43

مشى سيّد هانج في دائرة المبجّلين المظلمة والمريحة، وعيناه على النجوم. كانت سماء الليل أشبه بموجة هائلة من السخام الأسود، وبإعصار مظلم يعصف فوق رؤوس الجاهلين النائمة؛ بغموض لا حدود له. كان واجبه هو العناية بهم، والفهم من أجلهم، وإنقاذهم من جنونهم.

في التيارات غير المرئية والمظلمة فوقه، شعر بالتحوّل،

(1) لوكيميا لمفاوية مزمنة.

وبـدوران النجوم، وبخمـول القيثـارات[1]، وبنفاد صبر دلتـا الدلويات[2] الداهمة والقاتلة. شـعر بقـوّة جذب المـدّ والجزر، وبتحـوّل الرياح فوق المحيطات، وبالشقوق المتنامية في أعماق الأرض.

كالعادة، سـيأتي الأبرياء وهـم يركضون باتّجاه الانقـلاب الصيفي. آمالهـم المزيّفة بالحـبّ الجامح والنشـوة ناتجة عن العقاقير. سـتخنقهم سـذاجتهم. كلّهم، حتّى من يظنّون أنّهم حكمـاء، لا يعرفون ولا يفهمون أنّ الانقلاب والشمس ليسا المهمَّين؛ بل البدر الذي يعقبهما.

التوازن، دائماً التوازن. فمعظم الناس لا يرون سوى ما هو بديهي. وتماماً كمـا يخدعنـا السـحرة العظمـاء بإلهائنا، كذلـك تفعـل الكائنات الممجّدة. ولكنّ المختارين وحدهم يسـتطيعون أن يـروا ما يوجد خلف الأوهام الكونيّة. ليركع العميان كما شاءوا أمام العرض الباهر للضوء في الاعتدال. فالخلاص هو في الشفق.

كان السـيّد يعرف أهميّة مـا هو غير منظـور. فقد تعلّـم المزارعون هذا الـدرس البدائي منـذ الأزل. المحاصيل التي نراهـا تعتمد على ما لا نسـتطيع رؤيته. وينبغي أن نحتـرم ظـلام الأرض، ونحبّه تمامـاً مثل نور السـماء. أدرك القدماء أيضـاً، وكذلك فعـل أبناؤهم، أنّ قـوى النموّ غير المرئية للأرض تحتـاج إلى الغذاء، وتحتاج إلـى أن تتغذّى بالدم، وبغنى العظام، وبـرودة القبر. يقـول العلمـاء إنّ الـدم الممزوج بالتـراب يُعطي النيتروجين الحيوي، إلاّ أنّه يحتوي على أكثر من مجرّد كيميائيّات.

خلال ثمان وأربعين سـاعة، سـيجلب الانقلاب الشمسـي الصيفي عشـرات الآلاف إلـى سـتونهنج. سـيتنقّل الجهّال فـي المـكان كالقردة، وسيتسـلّقون الأحجـار مثـل رجال الكهـوف، وسـيدّعون أنّ طاقـة كانوا

(1) زخّات شهب تستمر من 16 إلى 26 نيسان من كلّ عام.
(2) زخّات شهب.

يتوقون إلى الشعور بها قد مسّت روحهم.

فقط لـو أنّهـم يعرفـون الحقيقـة؛ الحقيقـة القاسـية. لأنّه فـي تلك اللحظة، ستكون الدائرة خالية، وسيكون المبجّلون في الهيكل.

ابتسـم السـيّد وهو يبتعد. سـيعود غداً ويبدأ زيارته. سـيتضرّع أمام كلّ كائن ممجّد ويتشـرّب قواه الخارقة. سـيكون شـريانهم؛ بوّابتهم عبر الأرض السوداء إلى الهيكل القديم في الأسفل.

44

كان إريـك دنفـر هـو المسـؤول عـن الأمـن لدى أسـرة لـوك منذ عشـرين عاماً تقريباً. أوّلاً الـزوج والزوجـة، والآن الابنـة. كان توم لوك رجـلاً عصامياً، جمـع ثروته بنفسـه. وعندما عُيّـن نائباً لرئيـس الولايات المتحدة، لم يكن لديه خيار سـوى قبول حماية المخابـرات. ولكنّه أصرّ على موقفه في ما يتعلّق بكاتلين، وصمّم على أن تحصل ابنته على شيء شخصيّ وخاصّ أكثر؛ أي إريك. ونظراً إلى سـلوكها الجامح، كان ذلك قراراً حكيماً. فألسنة واشـنطن ما كانت لترحمه لو أنّ الوجوه الجادّة في أروقة السـلطة عرفت نصـف ما تفعلـه تحت غطـاء متابعة دراسـاتها في بريطانيا.

كان إريك يـزوّد نائـب الرئيـس بتقارير يوميـة، ولكنّـه يُغفل بعض الأمـور. إذ يجـب أن يتـرك للفتـاة مجـالاً للتنفّـس. فهـو يـرى أنّ كثـرة الاهتمام بهـا ومراقبتها تخنقانهـا أحياناً. لذا، كان يغـضّ البصر من وقت إلى آخر، كما يفعل الآن.

قبل منتصـف الليـل بقليـل، جـاءت سـتّ مـن صديقـات كاتلين، ووقفن في الرواق خارج شقّتها. كنّ يحملن حقائبهنّ وزجاجات شراب، ويتأبّطن بأذرعهنّ النحيلة ذات السـمرة المزيّفة أذرع سـتّة شباب مفتولي

العضلات، وكأنّهم خرجوا من ملصق للجيش.

رؤوسهم بنّية ضخمة، وعضلاتهم مثل كرات الركبي، وأعنهم تلمع بفعل الشراب والعقاقير.

تقدّم إريك ومساعده ليون إلى الأمام وأعاقا مسيرتهم. قال بعد أن تعرّف على اثنتين من الفتيات: "لقد تمّ إلغاء نادي الوظائف المنزلية أيّها الأولاد. ويجب عليكم أن تذهبوا الآن".

تقدّم أطول الشباب مترنّحاً، وكان ذا شعر أشقر وجسد لا يرغب كثيرون في اختباره، وقال: "اسمع يا أخي، نحن لا نريد إزعاج أحد. أتينا لكي نحتفل مع كاتلين".

رفع إريك أحد حاجبَيه. كلمة أخي لا تمرّ عنده بسهولة؛ لا سيما إن كانت صادرة عن من شابّ أبيض. كرّر ما قاله سابقاً: "لن يُقام احتفال الليلة، يا صديقي. لدى الآنسة لوك موعد هامّ أساساً؛ مع فجان من الكاكاو وبرنامج تلفزيوني".

كان الشاب الأشقر على وشك المحاولة مجدّداً عندما فتحت كاتلين باب الشقّة. صاحت أربع فتيات بحماسة واندفعن نحوها. تقدّم الشابّ خلفهنّ، ولكنّ الحارسَين وقفا في طريقه. فجأة، صدحت الموسيقى من جهاز مثبّت في الجدران.

حاول الشباب استراق النظر إلى الداخل عندما خرجت اثنتان من الفتيات مجدّداً من الشقّة. قفزت إحداهما بين ذراعَي إريك وحاولت تقبيله بقوّة، فدفعها بعيداً. توسّلت إليه قائلة وهي تسوّي فستان السهرة الأزرق اللامع الذي ترتديه: "أرجوك يا إريك، دعنا ندخل جميعاً، أرجوك. لا يمكنك أن تُبقي كاتلين محبوسة هكذا، فهي بحاجة إلى بعض المرح".

كانت تفوح من الفتاة رائحة الشراب، والعطر، ومعطّرات الفم،

ومزيل الرائحة. "آنسة جاني، يجب عليك العودة مع أصدقائك إلى المنزل، فأنت تعرفين القانون. لقد احتفلت كاتلين معكم أوّل أمس".

تغيّر الوضع خلال ثانية.

استدار أحد الشباب وصاح قائلاً: "دعيه وشأنه جاني، فلنذهب". وقاد مع أصدقائه اثنتَين من الفتيات إلى المصعد مجدّداً قائلاً: "لنذهب إلى المطعم الصيني". استجابت لندائه الفتيات اللواتي دخلن الشقّة. ضحكت إحداهنّ ثمّ تعثّرت وكسرت كعب حذائها. فساعدها ليون، وسارت وهي تعرج حاملة فردة الحذاء بيَدها.

بينما كان باب الشقّة يُغلق، علا صوت كاتلين من ورائه: "شكراً جزيلاً".

ابتسم إريك وأصغى إلى صوت المصعد، ثمّ عاد إلى باب الشقّة وطرق عليه بخفّة وقال: "كاتلين، نحن نعتني بكِ وحسب".

"تبًّا لك، سأذهب إلى السرير". انغلق باب آخر بقوّة في أعماق الشقّة. نظر إريك إلى ليون وقال له: "كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ".

"وكيف ذلك؟".

ابتسم إريك مجدّداً وهو يجيب: "لو أنّنا سمحنا لهم بالدخول، لواجهنا المتاعب فعلاً".

45

أوقفوا سيّارة تاكسي على الطريق خارج شقّة كاتلين، وتوجّهوا شمال النهر عبر الأراضي الضبابية مترامية الأطراف. أعدّ إريك وليون القهوة في شقّتهما المجاورة، وشاهدا التلفاز الموضوع بين عدد من الشاشات الموصولة بكاميرات أمان توزّعت في الرواق، والمصاعد،

والسلالم، ومحيط المبنى. استرخيا لأنّ كاتلين في غرفتها وليسا مضطرَّين إلى أن يجوبا سوهو أو الجزء الغربي حتّى عودتها. كما أنّ أياً منهما لم يكن راغباً فعلاً في السهر هذه الليلة. «ولكن، غداً سيُفكّران بشكل مختلف. غداً، سيعرفان أنّهما، بين الصياح، والقبلات، والداخلين، والخارجين، فقدا شيئاً؛ شيئاً هامًّا.

كاتلين.

لم يكن الصوت الغاضب الذي سُمِع من داخل الشقّة، صوتَها، بل صوت آبي ريتشير. كانت الأميركية الشابّة ممدّدة الآن على سرير كاتلين الكبير، مستعدّة للنوم ولتوبيخ قاسٍ من إريك في الصباح عندما يكتشف أنّهما تبادلتا الأدوار.

جلست كاتلين على المقعد الأمامي في سيّارة فولز فاغن من نوع كامبرفان، استأجرها جايك تمبرلاند خصّيصاً لتلك المناسبة. قال متفاخراً: "فينتاج من نوع 2". وأضاف ساخراً: "محرّك سريع سيأخذك إلى مكانك السرّي بسرعة ستّين ميلاً في الساعة. ألقي نظرة على المقعد الخلفي المتحرّك".

مثل طفل صغير، نهضت من مكانها لاستكشاف الجزء الخلفي من السيارة. وجدت خزائن مملوءة بالوجبات السريعة، وجهازاً لتشغيل أقراص الفيديو الرقمية، وشاشة تلفاز مسطّحة، وفرناً، وثلاجة مليئة بالشراب الفراولة، وأنواع مختلفة من المثلّجات. صاحت وهي تستكشف النكهات: "يا الله!". ونظرت إلى المقعد الخلفي الذي يمكن تحويله إلى سرير مزدوج.

عادت كاتلين إلى مقعدها وطبعت قبلة على خدّه قبل أن تجلس، وقالت له: "أعجبني جداً، جداً".

"يسرّني ذلك".

"أنا متحمّسة جداً! إلى أين نحن ذاهبان؟".

"إلى مكان لم تسبق لك رؤيته. زوّاره قليلون، ولكنّ الكثيرين حلموا به".

قرصت ذراعه مداعبة وقالت: "هيّا، أخبرني".

ضحك قائلاً: "كلاّ، إنّها مفاجأة".

عبرا النهر، وتوجّها غرباً نحو هامر سميث، عبر برانتفورد، ومنها إلى شمال هيثرو، ثمّ جنوباً فوق نهر الإسفلت الأسود اللا متناهي. تمشّيا قليلاً في محطّة قرب فليت، ثمّ استقلاّ السيّارة مجدّداً، وسرعان ما استغرقت كاتلين في النوم.

قاد جايك السيّارة ساعة أخرى، وقاوم التعب بالإصغاء إلى المذياع وإلقاء نظرة من وقت إلى آخر إلى الجميلة النائمة على المقعد المجاور. كان في بعض الأحيان يُمسك بيَدها، ويهرب في عقله معها، ويتخيّل أنّ علاقتهما قد تجاوزت ما هي عليه. أخيراً، رأى اللافتة التي يبحث عنها وانعطف عن الطريق. أوقف السيّارة، ثمّ أطفأ المحرّك واتّجه إلى الجزء الخلفي لفتح السرير.

أقلق السكون المفاجئ نوم كاتلين. فمال نحوها ومرّر يده على شعرها هامساً: "لقد وصلنا".

تمتمت، ثمّ فتحت عينَيها، ولكنّها وجدت صعوبة في مقاومة النعاس.

"تعالي للاستلقاء على السرير. يمكنك النوم بشكل أفضل لبعض الوقت".

فهمت ما يكفي للنهوض والمشي نحو السرير. تكوّرت عليه بسرعة، ثمّ استلقى قربها وشدّ الغطاء فوقهما. سألته وعيناها مغمضتان: "أين نحن؟".

أجابها وهـو يطبع قبلـة خفيفة على شـفتيها: "انتظري حتّى تشـرق الشمس".

46

فقدَ لي جونز إحساسـه بالزمن. لم يعد يعرف كـم مضى عليه وهو يغيب عن الوعي ويستفيق؛ ربّما سـاعات وربما أيّام. لم يكن يعي سوى اللحظات الطويلة التـي كان الألم يسـتبدّ فيها بأطرافـه، ويتعالى الصراخ من حلقه.

تُرك عاريـاً، ووجهه علـى أرض القاعة الكبرى. أوشـك هناك على الموت وخسر الكثير من دمه. برّد حجر المذبح الجليدي جسده، وجعل حرارته تهبط إلى مستويات متدنّية.

اسـتيقظ، وشـعر بضـرب إيقاعـيّ عميق فـي رأسـه، ولكنّـه أحسّ بالسـرور لكونه على قيد الحياة. كان بإمكانه تحريك يده، وهذا يعني أنّ قيوده قد فُكّت. رآه مساعدان يرتدي كلّ منهما عباءة ويضع قلنسوة وهو يتحرّك، فاقتربا منه، ورفعاه عن الأرض بحذر، ولفّا جسده بالبطّانيات.

لقد انتهى الأمر.

شـعر جونز بتصلّب فـي جسـده، وكان بالـكاد قـادراً على السـير. أصبحت حواسّه حادّة جداً. صحيح أنّه لم يشعر بشيء في قدمَيه، ولكنّه سـمع أصداء خطواته العالية، وكأنّه يسير على سـطح طبل ضخم. أسنده المسـاعدان وهو يترنّح في سـيره عبـر الممـرّات البـاردة والمظلمة. قال صوت بعيد: "سـنصطحبك إلى غرفة الاغتسال. سـيتمّ غسلك وإلباسك الثياب، ثمّ ستُعطى التعليمات".

شعر وكأنّ الكلمات تُطبع في الهواء؛ مثل موجة صوتيّة على شاشة تسـجيل. نظر جونز من فـوق كتفه ورأى مقاطـع الكلمات خلفـه وكأنّها

ذيل متمايل لطائرة ورقية ملوّنة.

لا شكّ في أنّهم أعطوه عقاقير. إنّه يهلوس؛ هذا كلّ شيء.

أخذوه إلى خنـدق حجري عميـق مليء بميـاه شـلاّل متدفّق. كان لون الميـاه أحمـر؛ بلـون الـدم. وكان البخـار يتصاعد مـن الميـاه مثلما يتصاعـد من قـدر من حسـاء الطماطـم. وقـف جونز عاريـاً، ومذعـوراً، وتجمّد في مكانه.

"لا بأس، ثق بنا". مدّ أحد المسـاعدَين يدَه تحت الدمـاء المتدفّقة وعندما لامسـت بشـرته أصبحت شـفّافة؛ شـفّافة مثـل الكريسـتال، مثل جدول يجري في جبل.

نـزل جونز فيهـا وأغمـض عينَيه. كانـت رائحـة البخار مثـل رائحة الحديد الصدئ. شـعر وكأنّ آلاف الإبر تُغرز في رأسـه. راح قلبه يطرق بعنف فيما ضرب الرذاذ رأسه كالأشواك.

تدريجياً، بـدأت أعصابه المخـدّرة من أثـر البرد ترجع إلـى الحياة تحت السـائل الدافـئ. أخيراً، فتـح عينَيه، ونظـر إلى يدَيه وجسـده. كان الماء الذي يجري على بشـرته نظيفـاً، ولا وجود للدماء. كان كلّ شـيء طبيعياً.

وقف المسـاعدان على طرف الخنـدق، وهما يحملان المناشـف. خرج من المـاء، وخلّفت قدمـاه آثاراً رطبـة علـى الأرض الأردوازية[1]، بينما تصاعد البخار من غرفة الاغتسال. رأى أمامه ملابسه وعباءة خشنة. كانت له. لقد أصبح عضواً في الحرفة. تمّ قبوله.

كانت هنـاك مرآة طويلـة موضوعة فـي الزاويـة. أدار جسـده ليرى الشقوق التي أحدثها السيّد، والتي كانت ممتدة على جسده. غريب. نظر إلى ذراعه اليمنى ومن ثمّ اليسرى بحثاً عن شقوق التلقين. ثمّ تحقّق من

(1) صخر يسهل قطعه إلى ألواح.

المرآة مجدّداً.

"ماذا يجري؟".

لم يقل المساعدان شيئاً.

"كنتُ أنزف، ولكنّني لا أرى أيّ أثر للندوب". نظر إلى جسده مجدّداً في المرآة وتابع: "لا شيء، لا أرى أيّ علامة".

وقف رجل يرتدي عباءة عند الباب.

نظر إليه جونز وعرف الوجه الذي تعلوه القلنسوة. كان ذلك الشخص شون غراب، سيربنز، أخاه في الحرفة.

ابتسم الناصح الفخور لمحميّه وقال له: "ارتدِ ملابسك، لاسيرتا. تنتظرنا واجبات هامّة".

السبت 19 حزيران

بعد الساعة الرابعة صباحاً بالضبط، بدأت السماء تُضاء. فأيقظ جايك كاتلين بلطف.

ساعدها على النزول من الشاحنة فبدأت ترتجف في هواء الصباح البارد. أسرع عائداً إلى الشاحنة لإحضار بطّانيتَين مع حقيبة الطعام التي ملأها من الثلاجة.

تمتمت وهو يُحيطها بذراعه وبالغطاء الدافئ: "أين نحن؟ ما زلتُ لا أرى شيئاً".

"سترين بعد دقيقة. نحن في جزء من إنكلترا القديمة. غداً، سيمتلئ المكان بآلاف الهيبيّين أمثالك. ولكن، هذا الصباح، وفي هذه اللحظة، المكان لنا. لي ولكِ فقط، فقد حجزته".

"حجزته؟".

"يمكن شراء كلّ شيء هذه الأيّام. فثمّة من دفعوا لزيارة الموقع، ولكنّني دفعت لهم المال؛ فقط من أجلك".

كانت شديدة التأثّر والتعب بحيث لم تتمكن من قول أيّ شيء.

مشيا فوق العشب الرطب في أثناء تلاشي الظلام، وبدأت ترى تدريجياً. بدأ شيء ضخم يظهر تحت ضوء الفجر الدافئ والوردي. اتّسعت حدقتاها وهي تشاهد النصب وقالت: "يا الله! ما هذا؟! يبدو وكأنّه سفينة فضائية عجيبة".

وهو كذلك بالفعل. كان أشبه بحجر يوفو ضخم سقط على الأرض. بسط جايك ذراعَيه بجلال، وقال: "أهلاً بك في ستونهنج".

"إنّه... رائع". صمتت وراحت تتأمّل المشهد، ثمّ عادت إلى ذراعَيه وقبّلته بعمق. احتضنا بعضهما تحت النجوم، ونسيا كلّ ما حولهما.

"تعالي". أمسك بيدها قائلاً: "فلنذهب إلى الوسط".

ركضا معاً، ولم تتذكّر متى كانت آخر مرّة شعرت فيها على هذا النحو؛ حرّة ومفعمة بالطاقة إلى هذا الحدّ.

تراجع جايك لالتقاط الصور. أخرج من جيبه كاميرته القديمة، وعرف أنّه سيحتفظ بالصور إلى الأبد. يوماً ما، سيصبحان عجوزَين، وسيشاهدانها ويتذكّران هذا اليوم. تاريخ يصنع نفسه.

وقفت كاتلين وهي تلهث، ثمّ أحاطت بذراعيها أحد أحجار السارسين. بدت مثل طفلة تتعلّق بساق عملاق. ضحكت ووقفت أمامه ليصوّرها.

كليك.

وضعت يدها خلف شعرها ولوت شفتَيها.

كليك.

قبّلت الحجر وداعبته.

كليك. كليك. كليك.

صاح قائلاً: "واحدة أخرى!". فلبّت طلبه، واتّكأت على الحجر، وأرسلت قبلة نحوه.

كليك.

توقّف عن التصوير واستسلم مجدّداً للرغبة في تقبيلها.

احتضنا بعضهما، واتّكأت بظهرها على الحجر الضخم بينما راح يقبّلها بشغف.

أغمضت عينيها واستسلمت لأحاسيسها. طغى عليها غموض هذه المفاجأة الرومانسية وسحرها.

تشنّج فجأة، ولم يكن الأمر رومنسياً كما تخيّلت. في الواقع، كان محبطاً ومربكاً، أقرب إلى ارتطام مفاجئ وغريب لجبينه برأسها. أجفلت كاتلين ورفعت يدها إلى رأسها. ابتعد جايك عنها.

صاحت غاضبة: "آخ!".

ولكنّ يداً أغلقت فمها؛ يداً غريبة.

تمكّنت من إلقاء نظرة خاطفة ومذعورة على جايك الذي أغمي عليه قبل أن تُعصب عيناها ويُحاط فمها بشريط لاصق.

خلال ستّين ثانية، أصبحت الحقول خالية وهادئة، باستثناء أولى زقزقات الطيور التي أعلنت ولادة يوم جديد، فيما أنهت الشمس صعودها البطيء في سماء النصب.

48

قاد سيربنز سيارة الكامبرفان، بينما استلقى جايك تمبرلاند على الأرض في الجزء الخلفي من السيّارة، معصوب العينَين ومقيّداً. تبع

لاسيرتا الذي كان يقود سيّارة الميتسوبيشي القديمة صديقه، وكانت كاتلين لوك مقيّدة ومكمّمة بإحكام وموضوعة في الصندوق.

كانت التعليمات المعطاة إلى المراقَبين واضحة. راقبا الموقع وانتظرا حتّى يختار المبجّلون. كونا صبورَين. تماماً مثل الضحيّة السابقة، ستكون مشيئتهم. وهكذا كان. وصل الرجل والمرأة في لحظة الشفق. اجتاحا الدائرة، ولمسا الحجر الذي قال السيّد إنّه سيُلمس. انجذبا إليه؛ تماماً كما قال السيّد.

يُلقي الأتباع على ذاك التريليتون اسم حجر السعي، ولم يُساور سيربنز أيّ شكّ في أنّ هذين الحبيبين قد سعيا إليه. لقد اختارا قدرهما، وسيُسرّ دراكو بذلك. سيشعر جميع أعضاء الدائرة الداخلية بالسرور. لقد أحسنا صنيعاً هو ولاسيرتا.

عادة، لم يكن سيربنز يأخذ القرابين من الدائرة مباشرة. فعندما يتمّ اختيارهم، كان يتتبعهم، لأسابيع أحياناً، أو لأشهر. عادة، كان يلتزم جانب الحذر قبل تنفيذ أيّ عمليّة خطف. ولكنّ الوقت ليس لصالحهم. فالنجوم تتنقّل، ولم يعد أمامهم سوى أسبوع واحد قبل الانتقال إلى مرحلة القمر. ينبغي إتمام التجديد، وبالكاد لديهم الوقت لتنظيف القربانين وتنقيتهما.

بدأ الشابّ المُلقى في الخلف يركل بقدمه الأرضيّة مثل طفل يلعب بالطبل. سيتعلّم كيف يكون هادئاً، سيعرف قريباً كيف يصمت. شغّل سيربنز المذياع. وبعد فترة قصيرة، انعطف بسيارة الكامبرفان ودخل أرضاً يملكها أصحاب الحرفة، عبر غابات ووديان كانت في ما مضى موطن قبائل العصر الميزوليتي، والعصر الحجري الحديث، والعصر البرونزي.

توقّف سيربنز في مكان هادئ يقع قرب الطريق المعزول الذي

يؤدّي إلى المدخل السرّي للهيكل.

أوقف لاسيرتا السيّارة خلف سيارة الكامبرفان، وانتظر ناصحه للقيام بالخطوة التالية. كلّ ما يعرفه هو أنّهما سيتركان القربانَين هنا، وسيقودان سيارة الكامبرفان إلى أحد المخازن لتبقى فيه حتّى حلول الظلام. لاحقاً، ستؤخذ بلا ريب إلى مكبّ للخردة وتُسحق.

أوقف سيربنز عمل المحرّك وذهب إلى الخلف. على الأقلّ، توقّف الرجل عن الركل، تعلّم درسه. من الأفضل عدم القتال. من الأفضل عدم مقاومة ما سيحدث لاحقاً.

49

مشى لاسيرتا نحو سيارة الكامبرفان المركونة، وتساءل لماذا لم يخرج سيربنز بعد. لم يكن هناك شيء يحدث. رآه عبر النافذة راكعاً في الخلف، ففتح الباب وأطلّ برأسه قائلاً: "هل كلّ شيء على ما يرام؟".

"كلاّ". التفت سيربنز قائلاً: "لا شيء على ما يرام".

صعد لاسيرتا إلى سيارة الكامبرفان وأغلق الباب، وسأله: "لماذا؟ ما الخطب؟".

تراجع سيربنز بحيث بدا الجسد الممدّد على الأرض، وقال: "لقد مات".

"مات؟".

إنّها واحدة من الكلمات التي يحتاج المرء إلى تكرارها. "لقد مات".

أثبت كلامه حين رفع ذراع جايك تمبرلاند وتركها تسقط.

"تبًّا".

"أجل، تبًّا".

صُدم لاسيرتا. اقترب وحدّق إلى الجسد المكوّم على الأرض وهو يسأل: "ما خطبه؟".

"تعني باستثناء أنّ قلبه قد توقّف ولم يعد ينبض؟".

"أعني، كيف مات؟".

هزّ سيربنز رأسه وأجاب: "لا أدري. ربّما ضربتُه بقوّة، وربّما كمّمتَه بإحكام زائد فاختنق".

وقفا يحدّقان إلى الجثّة لدقيقة تقريباً، وغمرهما شعور بالذنب وهما يتساءلان عن المسؤول بينهما.

كان الاثنان يدركان المصير الذي ينتظر الرجل والمرأة؛ إذ ستتم التضحية بهما.

ما كان ينتظر الشابّ أسوأ بكثير، ولكنّه كان سيُنفّذ أمام أعين الكائنات الممجّدة، وببركتها، وتكريماً لها، وبحمايتها. تحت ظروف مراقبة، وبعمليّات خُطّط لها بعناية لحماية جميع المعنيين. ليس هكذا إطلاقاً. هذا فشل ذريع.

كسر لاسيرتا الصمت سائلاً: "ماذا سنفعل؟".

جلس الرجل الأكبر سنًّا وأحاط رأسه بيدَيه ثم قال: "أنا أحاول التفكير، أحاول إيجاد حلّ".

"يمكننا إلقاؤهما معاً". أشار برأسه إلى سيارة الكامبرفان وتابع: "لا أحد يعرف بأمر الفتاة أو بأمره، يمكننا أخذهما إلى مكان ما بعيداً عن هنا وتركهما هناك".

فكّر سيربنز في ذلك، ثم سأل: "هل رأت وجهك؟".

"كلاّ، لا أظنّ ذلك". فكّر مجدّداً، ثم قال: "ربّما. ولكن حتّى إن فعلَت، فلم يكن ذلك لأكثر من نصف ثانية".

ابتسم سيربنز وقال: "هذا كلّ ما يلزم، فالمرء يرى الكثير في نصف

ثانية". خطرت له فكرة أخرى. "كما أنّها تعرف أين كانت، ومتى حدث ذلك. هذا خطر جداً".

"إذاً، فلنقتلها". هزّ لاسيرتا كتفَيه مضيفاً: "كانت ستموت على أيّ حال. يمكننا أن نجعل الأمر يبدو وكأنّ صديقها كان قاسياً معها. وستعتقد الشرطة أنّه هو من فعل ذلك".

هزّ سيربنز رأسه غير موافق وقال: "لقد تمّ اختيارها. لمست الأحجار المبجّلة، ومن واجبنا تقديمها كقربان".

بدأ لاسيرتا يصاب بالذعر: "من واجبنا البقاء خارج السجن اللعين".

ظلّ سيربنز هادئاً، وحاول استجماع أفكاره: "علينا قيادة سيّارته إلى مكان ما، وإبعادها عن الأنظار. وبعد ذلك سأتّصل بشخص في الدائرة الداخلية. والسيّد هو من سيقرّر".

"وماذا عن الفتاة؟".

هزّ رأسه قائلاً: "ابقَ معه، وأنا سآخذها إلى الهيكل".

لم يُسرّ لاسيرتا بهذا الاقتراح. فحتّى في هذا المكان النائي، بعيداً عن أيّ طريق أو منزل، لم يكن يريد البقاء وحده مع جثّة. "أسرع".

ركض سيربنز نحو سيّارة الميتسوبيشي. كانت الفتاة حمراء الوجه، وتُصارع داخل صندوق السيّارة. ما زالت حيّة على الأقلّ.

رأت كاتلين الذعر على ملامحه. وبما أنّ الخوف معدٍ، فقد جعلها تركل وتقاوم لفكّ القيود.

فكّر سيربنز في نزع الشريط اللاصق عن فمها ومحاولة تهدئتها، ولكنّه بدّل رأيه. من الأفضل إدخالها بأسرع ما يمكن، وحبسها، ومن ثمّ الاتّصال بدراكو وإخباره بالورطة المريعة التي وقعا فيها.

أمضى غيديون ليلة من الأرق بعد ما اكتشفه أمس.

.CLL

كانت الأحرف تعني سرطان الدم الليمفاوي المزمن، وهو مرض مرعب يظهر عندما يتحوّل الحمض النووي في الخلايا الليمفاوية. ومع مرور السنوات، تتكاثر الخلايا التالفة وتتحوّل إلى جيش يقتل الخلايا الطبيعية في العقد الليمفاوية والنخاع العظمي. ونتيجة لذلك، تموت الخلايا المنتجة للدم وينهار الجهاز المناعي في الجسد، ويعجز عن محاربة الأمراض.

هكذا ماتت أمّه.

يعرف كلّ ذلك لأنّه أمضى الليل بطوله وهو يقرأ عن الموضوع على شبكة المعلومات. وجد أيضاً أنّ المرض وراثي، ولكن ليس دائماً. فانتقاله أشبه بلعبة حظّ طبّية. ربّما ورثه، وربّما لا. الزمن وحده سيُثبت ذلك.

عادت إليه ذكريات بعيدة. قامت من تحت رمال كوابيس منسيّة. فهو لم يتمتّع بصحّة جيّدة في طفولته، وكثيراً ما كان يصاب بالزكام، والحمّى، والسعال، والدوار. في إحدى المرّات، أُصيب بمرض شديد، فارتفعت حرارته كثيراً، وأخذ يتصبّب عرقاً. كانت حالته سيّئة إلى حدّ أنّ أباه أخرجه من المدرسة، وأدخله المستشفى ليهتمّ به أخصّائيون. كان محاطاً بالآلات والشاشات، وكانت الإبرُ مغروزة في ذراعَيه، بينما حامت فوقه الوجوه الكئيبة التي راحت تتكلّم بعيداً عن مسمعه. ثمّ أُعيد إلى المنزل. وكانت عينا أبيه حمراوَين، وكأنّه كان يبكي.

كما تذكّر أمراً آخر. وللحظة، رغب في إيقاف تفكيره، والتأكّد من أنّ عقله لا يخدعه. فالمذكّرات قد أنهكته وجعلته سريع التأثّر. ربّما كان

يعاني من متلازمة الذاكرة المزيّفة، التي تغرس في الماضي أحداثاً لم تحصل.

ولكنّه لا يظنّ ذلك.

جعله والده يتمدّد في حوض الاستحمام المعدني البارد في منزلهم القديم. تذكّر تلك الحادثة جيّداً لأنّه شعر بالإحراج. فقد كان عارياً والحوض فارغاً. ثمّ صبّ ناثانيال مياهاً رمادية باردة على جسده بأكمله. غمره بها من رأسه وحتّى أخمص قدمَيه، وطلب منه أن يغسل بها وجهه وشعره، وحثّه على عدم إضاعة أيّ نقطة سدى.

كان يرتجف من البرد والخوف عندما خرج. فلفّه أبوه بمنشفة، واحتضنه بقوّة، وطلب منه ألاّ يقلق، لأنّ الماء مميّز وسيُبعد عنه المرض. وهكذا كان. شُفيَ على الفور تقريباً، وعاد إلى المدرسة بعد أيّام وكان بصحّة ممتازة.

قطعة أخرى من أحجية طفولته سقطت في مكانها. لم يمرض منذ ذلك الحين قطّ. لم يُصب حتّى بالزكام. وكلما جرح نفسه، كان يُشفى بسرعة.

دخل غيديون غرفة نوم أبيه القديمة، ونظر إلى المرآة المعلّقة على الجدار. لقد زالت الإصابات التي خلّفها شجاره مع الدخيل في الأسفل. وضع يدَه على وجهه. كانت بشرته صافية، ولا أثر للشقوق في شفته أو خدّه. وكأنّها لم تكن قطّ.

51

وقفت غربان سوداء في طرف مخزن حبوب قديم لم يتلقَّ الكثير من العناية خلال السنوات العشرين الفائتة. أشار دراكو إلى سرب الطيور وهو يسير بين الأعشاب الطويلة مع موسكا. طرق على الباب الخشبي

الداكن للمخزن، فطارت الغربان في السماء، ثمّ هبطت واستقرّت على قمم الأشجار المنتشرة في الحقل الواسع.

تناهى إليهما من الداخل صوت شخص مسرع. سمعا صوتاً ناتجاً عن احتكاك معدن بآخر، وعن أشياء تُحرّك. كان سيربنز قد رآهما من خلال الشقوق الموجودة في ألواح المخزن وفتح الباب. بدا عليه الإحراج. "آسف لما حدث".

لم يقل دراكو شيئاً، فقد كان يشعر هو أيضاً بالأسف. أسِف على الفشل، وعلى اضطراره إلى المجيء من أجل حلّ المشكلة. دخل الرجلان أمام سيربنز الذي أقفل الباب مجدّداً، ثمّ دفع أمامه أغراضاً قديمة، ووضع الذراع المعدنية الطويلة الموصولة بجرّار بحيث تسدّ إحدى عارضات الباب قائلاً: "شكراً لكما على مجيئكما".

ألقى دراكو نظرة سريعة على المكان وسأله: "هل نحن بمفردنا؟".

هزّ سيربنز رأسه بالإيجاب وقال: "أرسلتُ لاسيرتا إلى بيته".

قال موسكا: "حسناً فعلت. قمتَ على الأقلّ بعمل صحيح".

دخل دراكو في الموضوع على الفور: "أين الجثّة؟".

أشار سيربنز إلى سيّارة الكامبرفان قائلاً: "إنّه هناك".

"والمرأة؟".

"إنّها بأمان في الهيكل. في إحدى غرف التأمّل". كانت تلك تسمية ملطّفة، لأنّ الغرف عبارة عن مجرّد حجرات منحوتة في الجدران الحجرية، لا تتجاوز الواحدة منها حجم خزانة مكنسة. لا يستطيع الموجود فيها أن يركع، فما بالك بالجلوس أو الاستلقاء. كما يدخل إليها الهواء عبر شقوق بحجم الشقوق الموجودة في علب البريد عند مستوى القدمَين والرأس. "هل قالت شيئاً؟".

"لم تقل شيئاً مفهوماً، مجرّد صراخ".

ابتسم موسكا وقال: "ستتوقّف بعد ساعة أو اثنتين".

فتح سيربنز باب السيارة وصعدوا إليها. انحنى دراكو فوق الجثّة وسأله: "هل فتّشته؟".

هزّ سيربنز رأسه نافياً. أخرج موسكا من لوح السيّارة الأمامي وثائق الاستئجار، فوجد بينها إجازة قيادة، وكيساً حمله أمام الزجاج. "توجد أقراص؛ حفنة لا بأس بها". رمى الكيس على مقعد السائق. "ثمّة اسم هنا". بحث في العقد. "إدوارد جاكوب تمبرلاند، يقطن في شارع نيو كافندش، ميريلبون". تناول إجازة القيادة ونظر إلى الصورة قائلاً: "أجل، هذا هو. يبلغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً". قلبها على الجهة الأخرى وتابع: "وهناك ستّ نقاط قرب اسمه".

قال دراكو: "لن يقلق بهذا الخصوص بعد الآن". أخذ نفساً عميقاً. "إذاً، استأجر هو وصديقته سيّارة فولز للقيام برحلة هيبية إلى ستونهنج. هذا يعني أن أحداً لن يفتقد إليهما قبل يوم أو اثنين". ابتسم لهما. "ليس الأمر سيّئاً كما ظننت. لقد اختار المبجّلون القربانين المناسبين؛ روحَين حرّتَين تستطيعان الابتعاد وتخيُّل أنّهما طفلان من الستّينيات".

بدا الارتياح على سيربنز وسأله: "إذاً، ماذا تريد أن أفعل به؟".

"لا شيء. سنُبقي السيّارة هنا حتّى انتهاء المراسم، ثمّ نتخلّص من الجثّتَين معاً. اذهب وتناول فطورك، واسترخِ. واترك أمر الفتاة لنا".

52

دخلت جود تومبكينز المكتب بوجه مكفهرّ قائلة: "بيكر، دوكيري، اتبعاني إلى قاعة الاجتماعات بعد خمس دقائق. لا تتأخّرا".

خرجَت بالسرعة التي ظهرت بها. نظر جيمي عبر مكتبه إلى ميغان وسألها: "ما الأمر؟ يجب عليّ رؤية مخبر خلال عشر دقائق".

"أظنّ أنّ هذا الأمر أكثر أهميّة، جيم. من الأفضل أن تتّصل بالرجل وتؤجّل موعدك معه".

"تبًّا". تناول سمّاعة الهاتف وطلب رقماً.

أنهت ميغان بهدوء مراجعة الوثيقة التي تعمل عليها، ثمّ حفظتها وأقفلت حاسوبها. تناولت كوب ماء بلاستيكيًّا من الزاوية المخصّصة للمشروبات، وسارت في الممرّ باتّجاه قاعة الاجتماعات.

كانت القاعة مزدحمة، وتغصّ بالناس. حاولت وضع رتب وأسماء على الوجوه. كان ثمّة خمسة أو ستّة رقباء، وثلاثة مفتّشين على الأقلّ، ورئيسا مفتّشي المباحث، ورئيس المباحث جون رولاندز، وعلى رأس الطاولة جلس والد جيمي، نائب رئيس الشرطة، غريغ دوكيري. كان يقف إلى جانبيه مدنيّان يرتديان ملابس أنيقة، لم تتعرّف عليهما ميغان.

سأل تشارلي لانينغ، وهو مفتّش نظامي، جلس قربها: "ما الخطب؟ هل للأمر علاقة بالانقلاب الشمسي؟ فالأسيجة امتلأت منذ الآن بالمتفرّجين. سيكون الأمر أسوأ من أيّ وقت مضى".

"ظنّك في محلّه". أشارت ميغان إلى طرف طاولة الاجتماعات قائلة: "تبدو البذلات بالغة الجدّية بالنسبة إلى الانقلاب الشمسي، فهي رسميّة جداً. من الممكن أن نكون قد دُعينا إلى هنا من أجل نشرة وزارة الداخلية، أو ربّما من أجل تدابير تقشّف جديدة".

"لم يعد هذا ممكناً في وحدتي، فنحن متقشّفون أساساً".

لم يدم انتظارهما طويلاً.

رفع نائب الرئيس صوته قائلاً: "أريد انتباهاً من فضلكم". صمت قليلاً حتّى ساد الهدوء، ثم تابع: "تمّت دعوتكم للاجتماع من أجل مسألة عاجلة. يجلس إلى يساري درو بلايك من السفارة الأميركية، وإلى يميني سيباستيان إنغرام من وزارة الداخلية". تناول صورة كبيرة

كانت مقلوبة على الطاولة. "هذه كاتلين لوك، تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً. إنّها مواطنة أميركية تدرس في جامعة لندن، وهي مفقودة". حمل الصورة يميناً ويساراً ليراها الجميع. "ربّما يعرف بعضكم هذه الشابّة، فالآنسة لوك شخصيّة معروفة. فازت في برنامج تلفزيون الواقع الأميركي سرفايفر (الناجي)، وهي ابنة نجمة هوليوود كيلي لوك، وبالطبع ابنة نائب رئيس الولايات المتحدة، توم للوك". كان معظم مَن في الغرفة يدوّنون الملاحظات، فصمت دوكيري قليلاً قبل أن يتابع: "في هذه المرحلة، لا سبب يدعونا إلى الاعتقاد أنّ كاتلين قد أُصيبت بمكروه. فحتّى الآن، لم يصلنا أيّ طلب لنفدية. من المعروف عنها أنّها تتمتّع بروح حرّة، وقد يكون هذا مجرّد اختفاء بريء مع صديقها الجديد. ولكن، لم يرها أحد منذ منتصف ليل أمس ومن الأهميّة بمكان أن نعثر عليها". تفحّص الوجوه المحيطة بالطاولة، وتركهم يستوعبون المطلوب، ثمّ أشار إلى رئيس قسم التحرّيين.

وقف جون رولاندز. كان رجلاً نحيلاً، يتجاوز الخمسين من عمره بقليل، وتبدو عليه ملامح الجدّية. كان الضابط الوحيد في المنطقة الذي عمل على جرائم القتل، والاختطاف، والإرهاب. "قبل منتصف الليل تماماً، خدعت كاتلين لوك فريقَ الحراسة الشخصيّة، ودفعته إلى الاعتقاد بأنّها نائمة في سريرها، بينما تسلّلت في الواقع خارج شقّة أبيها في وسط لندن، الواقعة جنوب النهر تماماً، للخروج مع رجل يعرفه أصدقاؤها باسم جايك فقط. اتّصلت لاحقاً بإحدى صديقاتها من محطّة وقود في فليت، وكانا يتوجّهان غرباً، وقالت إنّها لا تعرف إلى أين يصطحبها، وإنّ الأمر مفاجأة. قالت صديقتها إنّها بدت سعيدة ومتحمّسة، وذكرت سيارة كامبرفان قديمة، ولكنّها لم تعطِ أوصافها أو لونها". صمَت ليُعطيهم وقتاً لتدوين المعلومات. "نظراً إلى اقتراب

موعد الانقلاب الشمسي، ونظراً إلى السيارة والتوقيت، من الممكن أن تكون تلك الشابّة في منطقتنا. وفي هذه الحالة، أريدها أن تعود إلى لندن قبل أن يُغيّر الخدم ملاءة سريرها". التفت إلى يساره وتابع قائلا: "سأترأس التحقيق، وستكون رئيسة قسم المباحث تومبكينز مساعدتي. ستعطيكم التفاصيل العمليّة، وستحدد واجبات كلّ منكم بعد هذا الاجتماع مباشرة. تقوم القوّات في المناطق المجاورة بتحرّياتها الخاصّة، كما تمّ إبلاغ الصحافة الوطنية عن اختفاء كاتلين".

سمع أنين تذمّر في أرجاء الغرفة.

"كونوا أذكياء أيّها الشباب. بإمكان الناس والصحافة العثور على الفتاة أسرع منّا. إنّهم أعيننا وآذاننا. استعينوا بهم ولا تستغلّوهم، ولا ترتكبوا الحماقات. ينبغي أن تمرّ جميع تحقيقات الصحافة عبر مكتب الاتّصالات. والآن، اذهبوا وتناولوا شيئاً، لأنّها ستكون وجبتكم الأخيرة لبعض الوقت".

53

سمع دراكو الخبر على المذياع؛ ليس بأكمله، بل ما يكفي منه. كان الخبر يتحدث عن ابنة ممثّلة من هوليوود وسياسي أميركي فُقدت مع صديقها، في سيارة كامبرفان. رفع الهاتف واتّصل بموسكا وسأله: "هل سمعتَ الأخبار في الساعة الأخيرة؟".

"كلاّ، لم أكن قرب تلفاز أو مذياع".

بدأ دراكو يفكّر. "انتظر". فتح محرّك بحث على هاتفه، وذهب إلى صفحة أخبار بي بي سي. وجد القصّة بأكملها، تحت صورة للفتاة. "أصغِ إلى هذا". قرأ بصوت عال: "اختفت نجمة الواقع الأميركية كاتلين لوك، ابنة نائب الرئيس توم لوك والممثّلة كيلي لوك، من منزل

والدها في جنوب لندن مع رجل مجهول. يُعتقد أنّ الآنسة لوك، البالغة من العمر 22 عاماً، موجودة جنوب غرب البلاد، وقد أصدرت الشرطة نداءً لكلّ من يراها للاتصال بها على الفور على الرقم الوارد أدناه. تتمتّع الفتاة بجسد رياضي، ويبلغ طولها 5.9 أقدام. شعرها داكن اللون يصل طوله حتّى الكتفَين، وعيناها بنّيتان". دسّ الهاتف في جيبه وسأله: "أنت ذهبت إلى الهيكل بعد أن افترقنا هذا الصباح، هل تبدو الفتاة نفسها؟".

كان موسكا بالكاد قادراً على الإيجاب. "أظنّ ذلك".

أجفل دراكو وسأله مجدّداً: "لماذا؟ لماذا تظنّ ذلك؟".

"إنّها أميركية، لا شكّ في ذلك. وتبدو رياضيّة، وشابّة أيضاً".

أغمض دراكو عينَيه وتمنّى لو أنّها لم تكن هي. "اذهب إلى هناك الآن، سأتّصل بالسيّد". أغلق الخطّ، ولم يكن واثقاً ممّا يفعله. إن كانت الفتاة فعلاً ابنة نائب رئيس الولايات المتحدة، فسيُجَنّ الأميركيون لاستعادتها. وربّما يستخدمون تقنيّات تجسّس، ويستمعون إلى الاتّصالات الهاتفية من جميع أنحاء العالَم.

نظر إلى السماء، وتوقّع قريباً رؤية طائرة تحوم فوقه. إن كانوا يستطيعون ذلك، فقد قال الكثير حتّى الآن. طلب الرقم. "معك دراكو. عليّ رؤيتك لأمر ضروري".

"أفهم. سأكون هناك بأسرع ما يمكن".

كلاهما يعرفان أين سيلتقيان إن كان الأمر متعلقاً بمسألة بهذه الأهميّة. لم يكن لدى دراكو الوقت للياقات: "عندما تُقفل الخطّ، تخلّص من هاتفك في مكان عامّ، كي نُبعد عنّا الشبهات".

عندما أقفل الخطّ، فتح هاتفه وأخرج البطّارية وبطاقة الهاتف ليُتلفها بشكل منفصل. من دون إضاعة الوقت، استقلّ سيّارته وقادها مسرعاً باتّجاه الهيكل، ولكن ضمن حدود السرعة المسموح بها. انعطف

ثلاث مرّات في طريقه للتخلّص من الهاتف. وفي كلّ مرّة، كان ينظر حوله ويتساءل إذا كان مراقباً.

54

يدخل سيّد هانج الهيكل ويخرج سرًّا عبر مدخله الخاصّ. وهو مدخل لا يعرفه أحد غيره، أُشير إليه في الكتب المبجّلة التي ورثها.

دخل الدهليز غير المراقب الذي قاده إلى غرفته وانتظر دراكو. سرعان ما سمع طرقة على الباب الثقيل، فصاح: "ادخل".

دخل دراكو متردّداً.

"اجلس". بدا الانزعاج في صوت السيّد لاستدعائه بتلك السرعة. أشار إلى المقعد الممتدّ على شكل نصف دائرة حجرية أمامه.

رتّب دراكو عباءته وهو يجلس. كان صوته منخفضاً: "تبيّن أنّ الفتاة التي اختارها المبجّلون هي ابنة نائب الرئيس الأميركي. هذا ما يُذاع في النشرات الإخبارية".

ظهرت الصدمة على وجه السيّد، ثمّ اختفت وقال: "قد يكون هذا صحيحاً. ولكن، كما قلتَ للتوّ، تمّ اختيارها".

بدا الخوف في عينَي دراكو وسأله: "سيّدي، ألا يجدر بنا تحاشيها؟ ستبحث عنها أجهزة المخابرات الأميركية وكلّ ضابط شرطة في بريطانيا".

"وهل هم أكثر أهميّة ممّن نتبعهم؟".

"كلاّ، سيّدي".

"أُكرّر، لقد تمّ اختيارها، أليس كذلك؟".

"بلى، سيّدي، ولكن...".

"كفى". قاطعه السيّد بنبرة حادّة. "لم تكشف الشرطة معتقداتنا

ونشاطاتنا المتواصلة منذ قرون. ظلّ وجودنا سرًّا لآلاف السنوات، وهذا لا يرجع إلى الحظّ. نحن نسير حسب مشيئة المبجّلين، وهم قوّة أعظم من أيّ مركز شرطة أو حكومة في الوجود".

فهم دراكو فقال معتذراً: "أنا آسف، فكّرت في أنّ الحذر واجب".

هزّ السيّد رأسه وأجابه: "أحسنتَ بالتفكير في ذلك، وبإبلاغي". نظر من فوق أصابعه المتشابكة وتابع: "هل الفتاة هي نفسها التي ذُكرت في الأخبار، كاتلين لوك؟".

"أجل".

"وصديقها، ماذا عنه؟".

ابتلع دراكو ريقه. خشيَ من أن يُعتبر الخطأ خطأه. "مات صديقها. لقد مات عندما اختُطف هو والفتاة من قبل المراقبين. كان حادثاً".

لم يبدُ الاكتراث على السيّد وقال: "أو ربّما هي مشيئة المبجّلين. ربّما لم يكن الرجل جديراً بذلك. وماذا عن جثّته والسيّارة التي تتكلّم عنها الصحافة؟".

"إنّهما في مخزن حبوب قريب من هنا على أرض نسبطر عليها".

"تخلّص من الاثنين، بسرعة". نهض السيّد عن مقعده الحجري قائلاً: "لقد أنهينا، ويُفترض بي العودة. اتّصل بالدائرة الداخلية، وأخبرهم عن اجتماعنا وعن رغباتي. النجوم تتراصف، والقمر يتبدّل. سنستمرّ بتطبيق المخطّط".

55

طُلب من ميغان القيام بأبحاث حول الكامبرفان وتنديم تقاريرها إلى تومبكينز مباشرة. وبالإضافة إلى جيمي دوكيري، وُضِع تحريان

برتبة رقيب - تينا وارن وجاك جينكنز - لمساعدتها. وارن لا فائدة منها، عرفَت ميغان ذلك منذ البداية، فهي تصلح لإعداد الشاي، والقيام بالمشتريات، وملء السيّارة بالوقود. أمّا جينكنز، فهو واعد أكثر. تمّت ترقيته حديثاً، وهو أخرق بعض الشيء ولكنّه ذكيّ.

وزّعت ميغان المهامّ: "جاك، خُذ إفادة صديقة كاتلين، تلك التي تكلّمَت معها للمرة الأخيرة، واسألها مجدّداً عن السيّارة. أعرف أنّها لا تملك مواصفتها، ولكن اسألها. فقد تتذكّر شيئاً".

تابعت قائلة: "جيم، اذهب إلى محطّة فليت على طريق M3. نحن نبحث عن تسجيلات لكاميرات المراقبة من باحة المحطّة، أو من موقف السيّارات، فمن الممكن أن يكونا قد استخدما الحمّامات أيضاً. اسأل العاملين في المتاجر والمطاعم، أرهم الصور، وحاول تنشيط ذاكراتهم. فعلى الأرجح، لقد اشتريا شيئاً من هناك. حاول أن تعرف ماذا اشتريا، ومن باعهما إيّاه. إن كنّا محظوظين، فقد نجد أنّهما اشتريا خريطة أو حتّى سألا عن الاتّجاهات. اسأل جميع أقسام الأمن. ربّما حصلوا على صور للرجل والفتاة بواسطة كاميرا من هنا أو هناك. تينا، اصطحبي معك فريقاً لاستجواب المحطّات الموزّعة قبل وبعد فليت. حاولي أن تعرفي إذا كانا قد توقّفا هناك".

وقف الثلاثة ينتظرون المزيد من التعليمات.

"الآن، من فضلكم. وتعاملوا مع الموضوع وكأنّ حياة الفتاة تعتمد على ذلك".

قبل انصرافهم، اتّصلت ميغان بصديق لها في دائرة السير وطلبت لائحة بسيّارات الكامبرفان. في أثناء انتظارها، دخلت شبكة الإنترنت وقامت ببحث حول السيّارات. ثمّة عشرات الأنواع من الكامبرفان: فيات شيان، دوكاتو وكوميت، فورد ترانزيت أوتوسليبير، وينباغو، فولز

www.rewity.com Dahja

فاغن ترانسبورتر، تويوتا هياس، هايمر، بيدفورد، مرسيدس. ثمّ توقّفت. شغّلت حدسها وبدأت تفكّر. ليس في السيّارة، بل في راكبَيها. إنهما شخصان اندفاعيّان وثريّان. من المستبعد أن تتنقّل كاتلين في دائرة الفقراء. لا بدّ من أن يكون حبيبها ثريًّا، وسيرغب في التأثير فيها، ومفاجأتها.

لم تكن أيّ من الشاحنات التي ظهرت على شاشتها من هذا النوع. فطبعت كامبر فان المشاهير، وظهرت لديها ثلاثة وخمسون ألف نتيجة في أقل من ثانية. أكثر من خمس وخمسين صفحة من النتائج، ولكن على رأسها سيّارات الفولز فاغن. ضغطت على رابط: كامبر فان فولز فاغن للإيجار.

ابتسمت. إنّها سيّارة الغموض. سيّارة سكوبي دو وشاغي. طبعت كامبر فان فولز فاغن للإيجار في لندن. فغاص قلبها، إذ وجدت نصف مليون نتيجة. تفحّصتها واكتشفت أنّ الأمر ليس بهذا السوء، لأنّها أخطأت في كتابة الكلمة الرئيسة، إذ يجب أن تكتب كامبرفان وليس كامبر فان. وجدت رقماً لشركة كامبرفان فولز فاغن وسرعان ما جمعت لائحة بأسماء التجّار في منطقة لندن.

بعد ساعتَين أصبحت اللائحة أقصر. فقد قام عدّة أشخاص باستئجار سيّارات كامبرفان خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، ولكنّ أحدهم فقط تنطبق عليه مواصفات الرجل الذي تبحث عنه. فقد دفع ببطاقة أميكس غولد واسمه جايك تمبرلاند. قفز قلبها، كما يحدث دائماً عندما تعرف أنّها وجدت ضالّتها. وقبل أن تخبر رئيستها، قامت باتّصال واحد بعد؛ الاتّصال الذي تخشاه. فسامي ستكون بحاجة إلى من يرعاها مجدّداً.

كانت كاتلين عاجزة عن الحراك، ولا يمكنها أن ترى أو تتنفّس كما يجب.

شعرت وكأنّها دُفنت واقفة، في قبر حجري. فهي بالكاد قادرة على رفع يدَيها إلى وجهها ومسح العرق الذي يتصبّب منها بسبب الخوف.

"جايك!". صاحت باسمه، ولكنّها عرفت أنّه لن يُجيب.

فقد حُفرت في ذاكرتها صورة له وهو ملقًى على الأرض داخل دائرة حجرية غريبة. ثمّة شيء في الطريقة التي تمدّد فيها بلا حراك جعلها تشعر بالغثيان. "جايك!". كان الصياح باسمه يُبقيه حيًّا؛ في ذهنها على الأقلّ.

تحسّست أصابعها الحجر الخشن أمامها، فعثرت على شقّ ضيّق يدخل منه الهواء الضئيل الذي يُبقيها على قيد الحياة. تمنّت فقط أن يكون خاطفوها محترفين ويعرفون ما يفعلونه، وليسوا مغتصبين غريبي الأطوار أو قتلة متسلسلين. فإن كانوا عصابة خطف، فلا شكّ في أنّهم يسعون وراء المال، وبالتالي حياتها ليست في خطر. حسناً، ليس بشكل مباشر. سيأتون قريباً، وسينظّفونها، ويُطعمونها، ثمّ يُسجّلون فيلماً؛ رسالة إلى أبويها على الأغلب، وعندها، ستبدأ اللعبة. لقد تمّ تدريبها على ذلك. سبق أن درّبها إريك دنفر وكذلك والدها. حتّى أمّها ناقشت معها احتمال تعرّضها لذلك.

رأت الآن كم كانت متلهّفة للخروج مع جايك، وللتسلّل من أمان قوقعتها. ثمّ خطرت لها فكرة سيّئة، سلبتها ما بقيَ لديها من اعتبار. ربّما كان جايك هو من نصب هذا الفخّ. ربّما كان يفكّر فيه منذ اللحظة التي التقاها فيها. والفكرة البديلة ليست أقلّ سوءاً. إن لم يكن هو الفاعل، فأين هو الآن؟ كانت تعرف أنّ الخاطفين نادراً ما يأخذون رهينتَين في

وقت واحد. الأمر معقّد جداً، ومربك جداً. شعرت بالغثيان مجدّداً.

"جايك!". تواصل صراخها وتحوّل إلى أنين. فهي محتجزة هنا منذ ساعات، ولم يتحدّث إليها أحد. كان ظهرها يؤلمها، بينما جُرحَت كتفاها، ومؤخّر رأسها، وركبتاها بسبب الاحتكاك بالجدران الحجرية. وإن لم تكن مخطئة، وهي واثقة أنّها ليست كذلك، فقد بلّلت نفسها.

بالرغم من الألم، والتعب، والذلّ، استغرقت كاتلين في النوم تكراراً. ففي غياب أيّ محفّز، كان ذهنها مُفرط النشاط ينطفئ ببساطة، فتهرب وتبتعد إلى مكان لا يشبه إطلاقاً هذه الزنزانة الرطبة. وكانت في إحدى تلك الغفوات عندما فُتح باب الحجرة وهوت إلى الأمام. التقطها رجال يرتدون عباءات بنّية ويضعون قلنسوات ومدّدوها على الأرض.

استلقت على ظهرها. حدّقت عيناها الزائغتان إلى سقف أسود عالٍ وشمعدان حديدي ضخم اشتعلت فيه شموع كبيرة.

ظهرت أربعة رؤوس مقلنسة أمام كاتلين، وسمعت صوتاً منخفضاً ومزعجاً يُصدر تعليمات مرعبة: "جرّدوها من ملابسها واغسلوها. سنتابع الطقوس".

57

هذه المرّة، بدا طليق ميغان سعيداً برعاية سامي في تلك الليلة، حتّى إنّه وعد بإطعامها عشاءً معدًّا في البيت وليس وجبة جاهزة. وهكذا رفع ثقلاً عن كاهل الأمّ العاملة.

عادت إلى قضيّة الكامبرفان، والصور التي تملأ مكتبها والتي وجدتها لجايك تمبرلاند على الفايسبوك بعد تتبّع الخيط الذي أعطتها إيّاه أميكس. التعاون يسرّع مجريات التحقيق. ففي لندن، أكّد لها فريق يعمل هناك أنّ الإنكليزي الشابّ ليس في منزله في ماريلبون، بينما قام

فريق آخر بإطلاع حرّاس كاتلين على صورته، وذهب ثالث لزيارة والدَي جايك، اللورد والليدي تمبرلاند. وفي هذه الأثناء، يتمّ فحص سجلاّت الهاتف الخلوية والأرضية بخطوطها كافّة. كانت عجلة التحقيق تدور بسرعة.

وضعت ميغان صور تمبرلاند وكاتلين لوك جنباً إلى جنب، فبدَوا مناسبَين لبعضهما. ستُجنّ الصحافة بهما، وستمارس عليهما ضغطاً فظيعاً. نظرت إلى وجهيهما وفكّرت في أنّ قصّتهما الرومانسية - في حال كان لها وجود - لا بدّ من أن تكون جديدة. فلو أنّها بدأت منذ مدّة، لكانت الألسن تتناقلها الآن.

فجأة، ساورها الشكّ. ربّما أخطأت بخصوص الشابّ، وما من علاقة تجمع بين جايك وكاتلين. ربّما قرّر أخذ عطلة لمدّة ثلاثة أيّام على الأقلّ في كامبرفان أزرق اللون في اليوم نفسه الذي قامت فيه بخدعة الاختفاء. ربّما هي تُمضي الوقت على سفح تلّة في كوخ مع شخص آخر ولا علم لها بوجود رجل يُدعى إدوارد جاكوب تمبرلاند.

ربّما كان الأمر برمّته مجرّد مصادفة.

كانت ميغان تكره المصادفات، وتعتبرها اختباراً لقدرة ضبّاط الشرط على القيام بعملهم. تمنّت أن تعود الفِرَق بتسجيل فيديويّ للشابّ والفتاة مع الكامبرفان يُثبت وجود ترابط.

نظرت مجدّداً إلى صور كاتلين وتحقّقت من صفحة الفتاة على الفايسبوك. من الواضح أنّها تخضع لإشراف وكيل إعلامي ولرقابة والدها. لم تجد أموراً شخصيّة جداً هناك، بل مجرّد كلام عن الموضة، والموسيقى، وأحاديث فتيات؛ مجرّد سخافات.

جرّبت موقع تويتر، وكانت خيبتها أكبر. ثمّ تحقّقت من صفحة جايك على تويتر. فمن الصعب على أيّ رجل التكتّم في ما يتعلق

بمواعدته امرأة مثل كاتلين لوك. ولكنّها لم تجد شيئاً من اليوم االفائت؛ ولم تجد أيّ إشارة إلى الرحلة إلى ويلتشر. بحثت في الساعات الأربع والعشرين الماضية، وفجأة أحسّت بقلبها يثب من مكانه، إذ وقعت عيناها على جملة غامضة فيها تفاخر واضح: "وضعتُ خطّة لأفوز بفتاتي الجديدة، لأفتح قفل قلبها وأمتلكه".

هذا مشجّع، لا بل مثير. ولكنّه ليس كافياً. تابعت بحثها ووجدت جوهرة أخرى: "رأيتُ تلك الأميركية وأسرتني. إنّها تجسّد كلّ ما حلمتُ به".

كانت جميع الملاحظات تشير إلى أنّه سيهرب إلى ستونهينج مع كاتلين لتمضية وقت جميل بعيداً عن أعين حرّاسها. الرغبة تثير جنون الناس، حتّى إن كانوا أبناء لوردات بريطانيين وبنات نجمات أفلام أميركيات، لا بل على الأخصّ هؤلاء. لا بدّ من أنّهما قد هربا معاً، واختفيا عن الأنظار، وربّما تزوّجا.

كلاّ، إنّها تبالغ. بالطبع لم يتزوّجا. فقد تمّ استئجار الكامبرفان لثلاثة أيّام فقط. لقد اختفيا عن الأنظار وحسب. لا بدّ من أنّهما دبّرا مؤامرة لخداع حرّاس الفتاة والحصول على بعض الوقت معاً.

ولكن، ثمّة أمر غريب، أمر لم تستطع وضع إصبعها عليه بعد. ثمّ اتّضح لها أخيراً. لا بدّ من أن تتصل كاتلين بحارسها قبل أن ينطلق الإنذار وتُثير جنون الجميع. لماذا لم تفعل ذلك؟ هذا هو البروتوكول الذي لا بدّ من أن يكون والدها وجميع من حولها قد علّموها إيّاه. اتّصلي دائماً، مهما كنتِ تفعلين، اتّصلي دائماً. وكان يجدر بها القيام بذلك. بالتأكيد كانت ستفعل ذلك.

ولكنّها لم تتّصل، وهذا يعني وجود خطب ما؛ خطب كبير.

عصف الخوف بكاتلين وشعرت به مثل طعنة في قلبها. فقد ثبّتتها مجموعة من الرجال المقلنسين على الأرض. ستتعرّض للاغتصاب، كانت واثقة من ذلك. حسناً، ستُمزّقهم بأسنانها قبل أن تسمح بحدوث ذلك.

أمسك أحدهم برسغها الأيسر، وآخر برسغها الأيمن. راحت تركل، ثمّ شعرت بقدمها تحتكّ بلحم طريّ. "اتركوني وشأني أيّها الأنذال!". كانت تعرف في أعماقها أنّ الصراخ والمقاومة لا يجديان نفعاً، ولكنّها لن تستسلم بسهولة. "ابتعدوا عنّي!".

أمسكت أيدٍ غير مرئيّة بكاحلَيها. فتحوا أزرار قميصها وخلعوا عنها سروال الجينز. قلبوها على بطنها، وجرّدوها من ملابسها الداخلية. راحت تقاوم وتصيح إلى أن تقرّح حلقها وخسرت طاقتها. أخيراً، انهارت ولم تعد قادرة على المقاومة.

سيتناوبون على الاعتداء عليها، عرفت ذلك.

أبعد أحدهم شعرها عن وجهها ووضع قلنسوة على رأسها. ثمّ أوقفوها على قدمَيها وكبّلوا يدَيها. لم تكن واثقة ممّا يجري، ولكنّها ارتاحت لأنّها لم تتعرّض للاغتصاب. أمسكت أصابع قويّة بذراعَيها وكتفَيها، ثمّ دفعتها إلى الأمام، وأجبرتها على السير. أخذ قلب كاتلين يطرق بعنف حتّى شعرت أنّها على وشك الموت. لا تصابي بالذعر. ابقي هادئة. راحت تكرّر في ذهنها تعليمات إريك. مهما حدث، تعاملي مع الوضع. تعاملي معه ثانية تلو الأخرى، وإلاّ فستموتين.

أجبروها على السير عبر متاهة من الممرّات المظلمة، ثمّ جعلوها تنزل إلى مكان يشبه الحفرة. نزعوا القلنسوة عن رأسها، ومن الظلام الذي يخيّم فوقها، بدأ شلاّل من المياه الساخنة يتدفّق فوقها. حبست

أنفاسها من أثر الصدمة. إنّها في حمّام، أليس كذلك؟

ثمّ أدركت كاتلين شيئاً. هذا ليس ماءً، بل دماً.

كانوا يغسلونها بالدم.

59

عندما وصل دراكو وموسكا إلى موقف السيّارات في ستونهنج، كان مزدحماً بأشخاص أتوا ليروا الانقلاب الشمسي. انتشر الناس في كلّ مكان، وبُنيت حمّامات إضافيّة، ووُضعت سلال نفايات على الأعمدة، استعداداً لاستقبال الأعداد الهائلة التي ستتدفّق قريباً.

مشى سيربنز بعيداً عن المجموعة التي يراقبها، وصعد إلى سيّارة المرسيدس من الباب الخلفي. لم ينتظره دراكو حتّى يجلس، بل بادره بالقول: "علينا التخلّص من الكامبرفان والجثّة الليلة".

تحرّكت رغبة البقاء لدى المراقب وقال: "لن أقودها. فالشرطة منتشرة على الطرق الرئيسة".

سأله موسكا: "ماذا عن الشابّ؟ هل يوافق على القيام بذلك؟".

"لاسيرتا شابّ ولكنّه ليس غبياً. سيتمّ توقيفه، أنت تعرف ذلك".

قال دراكو: "ستعثر الشرطة على السيّارة عاجلاً أم آجلاً. فهم يفتّشون كلّ الطرقات، ومواقف السيّارات، وأيّ مكان قد يختبئ فيه المنحرفون. إنّها مسألة وقت وحسب".

قال موسكا: "ماذا لو استخدمنا الأقراص التي وجدناها في السيّارة؟ ماذا لو جعلنا الأمر يبدو وكأنّه تناول هو والفتاة جرعة مفرطة؟".

هزّ دراكو رأسه غير موافق وقال: "لا يمكنك حشو فمه بالعقاقير

وحسب، فهو لن يتمكّن من ابتلاعها وهضمها، ولن يتمّ امتصاص أيّ من الكيميائيّات. سيُظهر التشريح أنّك فعلتَ ذلك بعد موته".

أصرّ موسكا قائلاً: "ماذا لو لم يتبقَّ منه شيء لتشريحه؟ يمكننا حرق السيّارة وهو بداخلها، وسيبدو الأمر وكأنّه حادث".

أثارت الفكرة اهتمام دراكو فسأله: "وكيف سنفعل ذلك؟".

"حسناً، كانا متعبَين، فتوقّفا، وركنا السيّارة في الحقول لتمضية الليل". جاهد موسكا لإتمام الصورة، ثمّ أضاف: "ربّما كان الشابّ يُعدّ فنجاناً من الشاي وانفجر الفرن. ربّما انفجرت قارورة الغاز. لا بدّ من أنّك تحصل على انفجار لا بأس به من قارورة بهذا الحجم".

"هل يمكنك فعل شيء كهذا؟".

هزّ سيربنز رأسه قائلاً: "هذا ممكن. ولكنّهم لن يجدوا سوى جثّة الشابّ، وسيتساءلون عمّا حلّ بالفتاة".

حاول موسكا ملء الفجوة: "تشاجرا، فتركته ورحلت، وأوقفت سيّارة مارّة في الطريق. نزلت عند محطّة القطار وهي الآن خارج المنطقة". هذا أفضل ما استطاع ابتكاره. "إن كانت خارج المنطقة، فسيصبح إيجادها مسؤوليّة أشخاص آخرين، وهكذا ستصرف الشرطة النظر عن القضيّة".

"هل يمكنك التعامل مع الجثّة؟". نظر دراكو إلى عينَي سيربنز بإصرار وقال: "نحتاج إلى أن تفعل ذلك".

أحسّ أنّ لا خيار أمامه، فموت الرجل كان خطأه. أراد تناول الشراب، أراد ذلك بشدّة. أخيراً، هزّ رأسه موافقاً.

تطوّع موسكا قائلاً: "سأساعدك، لن تُضطرّ إلى القيام بذلك بمفردك".

60

فتحت كاتلين عينيها وشهقت. الظلام دامس. كانت واقفة، وقد عادت إلى الفراغ الذهني الذي أصبح سجنها الخاصّ. لا تذكر أنّهم أعادوها إلى ذلك الجحر اللعين. لا بدّ من أنّها قد غابت عن الوعي في أثناء الحمّام؛ حمّام الدم.

تسلّلت إليها أشعّة صغيرة من الضوء عبر ما بدا لوحاً خشبياً أمام عينَيها تماماً، لوحاً يمكن نزعه ليتمكّنوا من رؤيتها، وربّما إطعامها. أدركت الآن أنّها ليست في الزنزانة السابقة عينها، بل في زنزانة مختلفة بعض الشيء، أكبر حجماً. ليست أكبر بكثير، ولكنّها أكبر مع ذلك.

بدأت تلاحظ تدريجياً فوارق أخرى. فقد تخلّصت من الأصفاد، وصار بمقدورها رفع ذراعَيها. تحسّست الجدران حولها. كانت الحجارة تحيط بها من الأمام، ومن الجانبَين، ومن الخلف. هي بالتأكيد في جحر آخر، هذا مؤكّد. مدّت ذراعَيها إلى أقصى ما تستطيع. كان عرض الحجرة على الأرجح أقلّ من متر ولكنّها لم تستطع رفع يدَيها فوق مستوى مرفقَيها.

شعرت بشيء يلامس ساقَيها، عند مستوى الركبة. أهو مقعد؟ حاولت الجلوس ووجدت أنّه يحتمل وزنها. وجدته نعمة. ما زالت حافية، ولكن، تمّ إلباسها شيئاً يشبه العباءة مع قلنسوة. حرّكت رأسها، وكتفَيها، وردفَيها، وتركت القماش يحتكّ بها. كانت خشنة. شعرت وكأنّها ورق زجاج يحتك ببشرتها.

بدأت تجمع الأجزاء المفقودة من الليلة السابقة. جرّدوها من ملابسها، وغسلوها بالدم، وألبسوها ملابسهم. استرجعت بضع كلمات قالوها أيضاً، مع أنّها لم تكن كثيرة للتحليل، ولكنّ إحداها كانت كافية.

الطقوس.

هذا ما قاله أحدهم. "سنتابع الطقوس".

ولكن، أيّ نوع من الطقوس؟ وما الذي ينوون فعله بها بالضبط؟

61

شعر رئيس المباحث جون رولاندز وكأنّ أسبوعاً قد مضى عليه بلا نوم. فالوقت يمرّ بسرعة، وخيوط البحث تصله أبطأ ممّا توقّع. فالضغط هائل، ورئيس الشرطة، ووزارة الداخلية، ونائب رئيس الشرطة البريطانية، وأمين السرّ الخاصّ بنائب الرئيس، جميعهم يضغطون عليه. كانت فرق التحرّيين والمفتّشين تتوافد إلى مكتبه، وتضع على طاولته القديمة المعلومات الضئيلة التي حصلت عليها. كانت جود تومبكينز وميغان بيكر آخر الوافدين. حيّاهما بما تبقّى لديه من لياقة: "أهلاً بكما في بيت الفوضى. ماذا لديكما من أجلي؟".

"بعض الأنباء الجيّدة". رفعت تومبكينز طبقاً وقطعة من البيتزا عن أحد المقاعد وتابعت: "توصّلت المفتشة بيكر إلى معلومات عن السيّارة وصديق الفتاة". اتّسعت عيناه الزرقاوان وقال لها: "أخبريني إيّاها".

وضعت ميغان قرص فيديو رقميًّا على مكتبه وقالت: "هذه مجموعة من تسجيلات كاميرات المراقبة، سيّدي. التسجيل الأوّل من محطّة الوقود في فليت. إنّه ملوّن، ويمكنك أن ترى بوضوح لوك وجايك تمبرلاند، الرجل الذي استأجر الكامبرفان".

لم يكن رولاندز بحاجة إلى ملاحظاته وقال: "ابن اللورد جوزف تمبرلاند".

"هذا صحيح".

تناول القرص ودسّه في آلة موضوعة على رفّ تحت شاشة التلفاز خلفه. تابعت ميغان كلامها بينما راح يضغط على جهاز تحكّم عن بعد

لإيجاد القناة. "السيّارة التي ستراها، سيّدي، سيّارة مستوردة، مقودها إلى اليمين من نوع 2 فينتدج. إنها زرقاء اللون، ومحاور إطاراتها مصنوعة من الكروم، تمّ تجديد داخلها". ظهرت صورة السيّارة على الشاشة. توقّفت الكامبرفان عند المحطّة، ونزل منها شخصان، ثمّ اتّضحت صورتهما. أطلع جايك كاتلين على مكان المضخّة وشغّلها لها، ثمّ تركها تملأ الخزّان وذهب ليدفع.

"جمّد الصورة من فضلك، سيّدي".

أوقف رولاندز الصورة بواسطة جهاز التحكّم.

قالت ميغان وهي تبتسم: "انظر إلى يده اليمنى. يحمل بطاقة اعتماد ذهبية، أميكس. ولقد استعملها ليدفع إيجار السيّارة".

هزّ رولاندز رأسه وأوقف عمل الجهاز والشاشة قائلاً: "هذا كاف بالنسبة إليّ. جود، اطلبي من أحدهم إعداد نسخ عن التسجيل من أجل فرق التحقيق والصحافة. تكلّمي مع مكتب الاتّصالات وادعي إلى مؤتمر عند الثامنة صباحاً". التفت إلى ميغان مضيفاً: "أحسنتِ. تأكّدي من أنّ فريقك يعرف أنّنا فوّضناه بعمل من الدرجة الأولى".

"سأفعل. شكراً، سيّدي". نهضت لترحل، ولكنّها توقّفت.

"سيّدي، إن كان ثمّة مؤتمر صحفي في الصباح، فأنا أودّ المشاركة فيه. أودّ أن أخوض هذه التجربة، سيّدي".

ابتسم والتفت إلى التحرّية تومبكينز قائلاً: "يا الله! لديكِ مفتشة طموحة".

هزّت تومبكينز رأسها مجيبة: "طموحها يقتلها".

نظر إلى ميغان وأجابها: "كلاّ، حضرة المفتّشة، لا يمكنك ذلك".

"لماذا لا، سيّدي؟".

كان دور تومبكينز لتبتسم الآن، وقالت: "لسببَين، ميغان. أوّلاً،

أنت تقومين بعمل ممتاز في التحقيق ممّا لا يسمح لك بإضاعة الوقت في الجلوس أمام الكاميرات. ثانياً، لا خبرة لديك إطلاقاً لتجلسي أمام أولئك الذئاب. فأنت لا تعرفين كيفيّة التعامل مع الصحافة، أفهمتِ السبب؟ الوقت متأخّر، لِمَ لا تذهبين إلى البيت، وتحصلين على قسط من الراحة وترين طفلتك؟".

جاهدت ميغان لكبح غيظها، وقالت: "شكراً لك سيّدتي، على لطفك واهتمامك، ولكنّ ابنتي تتلقّى العناية اللازمة من أبيها. لذا إن لم يكن لديكما مانع، فسأعود إلى فريقي لمتابعة العمل الذي تظنّ رئيسة قسم المباحث أنّني ممتازة فيه".

بعد أن سجّلت موقفها، استدارت وانصرفت قبل أن تكون لهما الكلمة الأخيرة.

تحقّق سيربنز من ساعته. إنّه منتصف الليل، لقد حان الوقت.

وقف وانتظر خارج المخزن القديم، وخيّمت على رأسه أفكار سوداء، كسماء الليل. كانت الضغوط النفسية تتراكم، وتسحقه، وترخي بثقلها عليه، فلم يشعر بالارتياح مطلقاً.

أنهكه التخلّص من القربان في أوائل الشهر. فقد سبق له أن شارك في عمليات الاختيار التي تسبق تقديم القربان، ولكنّه لم يشارك قطّ في المذبحة الدموية التي تتبع ذلك. والآن، تخطّى الحدود أكثر، وسلب شخصاً حياته.

كان الشعور بالذنب لقتله الرجل في الكامبرفان يتآكله. صحيح أنّه شابّ قويّ، وتورّط في الكثير من الشجارات في ما مضى، حتّى إنّ لديه سجلاً إجرامياً، ولكنّه لم يرتكب جريمة قتل مطلقاً.

ربّما إن سلّم نفسه للشرطة، فسيكتفون بإدانته بجريمة قتل غير متعمّد. إن سلّم نفسه الآن وأخبرهم بكلّ ما يعرفه فسيعقدون معه صفقة. وربّما يمتنعون عن ملاحقته. ولكنّ أعضاء الحرفة سيفعلون ذلك؛ سيجدونه وسيقتلونه. كان يعرف ذلك. فهم يملكون إخوة في الشرطة، وفي المحاكم، وفي السجون. سيصلون إليه على الفور.

أحاط سيربنز رأسه بيدَيه. إنّها أزمة عابرة، لا شكّ في ذلك، فكلّهم يمرّون بأزمات من هذا النوع بالتأكيد. ظهر موسكا في ضوء القمر الضبابي، حاملاً كيساً بلاستيكياً بيَده اليمنى. سأل وهو يحيط كتفَي سيربنز بذراعه ويدخلان: "هل أنت بخير؟ لا تقلق، سينتهي كلّ شيء خلال نصف ساعة. سنذهب بعدها مباشرة إلى منزل أوكتانز، الذي سيقوم بالتغطية علينا. سيقول إنّنا كنّا عنده طيلة الليل، وإننا كنا نلعب الورق. سيكون كلّ شيء على ما يرام".

يقول موسكا دائماً إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. وكذلك دراكو. وبالنسبة إليهما، هذا صحيح. فالاطمئنان يتعايش مع ضميريهما، وهما لا يشعران بتأنيب الضمير إطلاقاً.

كان المخزن مضاءً بقنديل كاز موضوع على صندوق خشبي على بعد مترَين عن الكامبرفان. ألقى القنديل مثلّثاً أصفر من الضوء على عارضات السقف الخشبية المكسوّة ببيوت العنكبوت. أزعج الرجلان مجموعة من الخفافيش وهما يدخلان الكامبرفان، فضحك موسكا وأشار إلى الطيور المرفرفة. "يا لها من مخلوقات صغيرة بشعة! أتمنّى لو كنتُ أحمل بندقية لأقتلها".

أغلق سيربنز باب الكامبرفان المنزلق، ثمّ أضاء مصباحاً في الداخل كشف عن الجثّة المكسوّة بالذباب. استجمع قوّته للقيام بالمهمّة التي تنتظرهما. "ماذا تنوي أن تفعل به".

"انتظر. ضع هذه". ناوله موسكا زوجاً من القفّازات البلاستيكية وتابع: "الحرص واجب".

مطّ سيربنز زوج القفازات، وحشر يديه فيه بصعوبة.

قال موسكا: "حسناً، راقبني وتعلّم". تناول من المطبخ سلّة الطعام التي تركتها شركة تأجير السيّارات كهديّة وابتسم. "هذا ما نحتاج إليه بالضبط". أخرج من الخزائن طبقاً، وسكّيناً، وشوكة، وقِدراً، وآلة لتحميص الخبز. فتح علبة حبوب من السلّة، ثمّ أفرغها في القدر، ووضع القدر على الغاز. وضع شريحتين من الخبز في آلة التحميص، وأخرج زجاجة شراب من الكيس الذي أحضره معه. فتحها وصبّ القليل منها في الكأس قائلاً: "أوشكنا على الانتهاء، يا صديقي، أوشكنا على الانتهاء".

راقبه سيربنز شارداً بينما فتح موسكا خزانة تحت الفرن وفتح قارورة الغاز. أشعل عود ثقاب، وأضاء أحد رؤوس الفرن ثمّ أطفأه وابتسم راضياً وقال: "ها قد أنهينا الاستعدادات". أشار إلى الجثّة، وأضاف: "حضّرنا المشهد. لدينا الرجل الذي تُرك بمفرده في الكامبرفان بعد شجار مع صديقته". أشار إلى الشراب وتابع: "يُفرط الرجل في الشراب، وهذا ردّ فعل منطقيّ بعد الانفصال خلال موعد رومانسي، أليس كذلك؟". أشار إلى سلّة الطعام. "وبما أنّه شرب كثيراً، فقد شعر بالجوع، وحاول أن يعدّ لنفسه بعض الطعام". تناول موسكا زجاجة الشراب وراح يصبّها في أرجاء المكان. "لسوء الحظّ، وبما أنّ صديقنا مجروح القلب وغير متوازن، فقد أحدث الفوضى وسكب الشراب على نفسه، وعلى الأرض، وعلى الفرن". رفع موسكا ذراعَيه بعنف. "فووم! فجأة، يتحوّل إلى كرة من النار، فيصاب بالذعر، ويسقط على الأرض، ويُغمى عليه. وخلال ثوان، يشتعل الكامبرفان، وحتّى المخزن، فيحترق

حتّى الموت". تظاهر موسكا بالحزن، وأضاف: "في بعض الأحيان، ينتهي الحبّ غير المتكافئ نهاية تعيسة".

لم يكن سيربنز في حالة تسمح له بالاعتراض على الخطّة فقال له: "إذاً، الحريق يُدمّر الأدلّة؟".

"صحيح". لوّح بإصبعه مضيفاً: "ولكن علينا أن نكون حريصَين". أشار إلى الجثّة. "أوّلاً، نصبّ نصف هذه الزجاجة في فم السيّد مكسور القلب، ثمّ نجعله يبدو وكأنّه سقط. نضرب رأسه بشيء ما، في المكان نفسه حيث ضربته. بتلك الطريقة، يجد التشريح أنّ الإصابة - كما يقولون - متطابقة مع السقطة، وليست نتيجة لاعتدائك". ابتسم. "أخيراً، نُبلّله بما تبقّى من الشراب، ونُشعل النار ونهرب".

بدا الاضطراب على سيربنز، ولكنّه هزّ رأسه موافقاً.

"حسناً، لننفّذ الخطّة. ساعدني على إجلاسه".

كانت جثّة تمبرلاند ثقيلة ومربِكة. صدرت عنها أصوات مثيرة للغثيان وهم يشدّونها إلى وضعيّة الجلوس. أرجع موسكا الرأس إلى الخلف، ثمّ فتح الشفتَين وصبّ الشراب في فم الرجل. شعر سيربنز بالرغبة في التقيؤ.

قال موسكا: "من الأفضل أن نترك الشراب يستقرّ في أحشائه، وإلاّ فسيخرج مجدّداً". ترك سيربنز مُمسكاً بالجثّة بينما ذهب لإشعال الغاز وتسخين الحبوب وتحميص الخبز. "أنهيت، فلننقله، ولنضعه قرب تلك الأدراج هناك، عند الجدار المقابل للفرن. افتح الدرج السفلي، يمكننا أن نجعل الأمر يبدو وكأنّه انزلق ورطم رأسه".

فتح سيربنز الدّرج، وأخذ نفساً عميقاً. جاهد الرجلان مجدّداً لرفع الجثّة. كان تمبرلاند أقصر منهما ولكنّه أشبه بدمية قماشيّة تزن طنًّا. أخيراً، أمسكه موسكا من إبطَيه وجرّه إلى الخلف، ثمّ وضع مؤخّر

جمجمته فوق الدرج السفلي.

أفلت الجثّة ووقف يتأمّل عمله.

كان بعض الشراب قد خرج من فم تمبرلاند، ولوّث قميصه والأرض. وباستثناء ذلك، كان كلّ شيء ممتازاً.

"المرحلة الأخيرة. هل أنت جاهز؟".

"أظنّ ذلك".

تناول موسكا زجاجة الشراب المفتوحة وصبّها على الرأس والصدر، ثمّ وضع الزجاجة الفارغة قرب اليدَين. أطفأ النار تحت الحبوب، وعندما تأكّد من أنّ النار قد انطفأت، أشعل الغاز مجدّداً ورفعه إلى الدرجة القصوى.

ألقى نظرة على سيربنز، ثمّ تناول الحقيبة التي أحضرها معه وفتح زجاجة الشراب الأخرى. بلّل بها الجثّة مجدّداً، كما صبّ بعضاً منها على الفرن، ثمّ أشار إلى الباب قائلاً: "يُستحسن بنا الوقوف في الخارج".

خرجا من الكامبرفان إلى المخزن البارد وضوء القنديل الأصفر. راقب سيربنز موسكا وهو يصبّ آخر قطرة من الشراب على أرض السيّارة ويُعيد الزجاجة الفارغة إلى حقيبته ويقول: "ثلاثة، اثنان، واحد". قدحَ عود ثقاب، وانتظره حتّى اشتعل، ثمّ رماه على الأرض قرب الجثّة.

"اركض!".

فرّا مثل طفلَين مذعورَين عبر المخزن ومنه إلى الحقول. من أمان الظلام، شاهدا النار وهي ترتفع عالياً نحو السماء. بدأ الخشب القديم يتحطّم بين ألسنة اللهب. وفجأة، سُمع دويّ مكتوم، ثمّ انفجرت قارورة الغاز.

تطايرت شظايا الخشب وانهار المخزن. مزّق صراخ الخفافيش صمت الليل، وانطلقت في السماء بعيداً عن ألسنة النار البرتقالية.

63

الأحد 20 حزيران

سبق لكاتلين أن سمعت عن نساء احتُجزن لسنوات. حُبسن في زنزانات، وحتّى في صناديق خشبية. عرفت عن تلك الفظاعات من إريك الذي أخبرها كلّ شيء عنها. قال إنّ ذلك سيُعلّمها الحذر، وسيُذكّرها بضرورة البقاء آمنة. والدرس الذي لم تتعلّمه يرعبها.. ربّما عانت نساء أخريات مثلها، وربّما دُفن خلف جدار حجري منيع، لا يسمعهنّ أحد مهما علا صراخهنّ.

عادت إليها تحذيرات إريك. تذكّرت القصص المرعبة التي اعتقد أنّها ستدفعها إلى التزام الحذر. المراهقة دانيال كرامر من كونكتيكت، التي سُجنت في غرفة سرّية تحت سلّم لمدّة عام. نينا فون غالفتس، التي احتُجزت لمدّة 149 يوماً إلى أن دفع والداها أكثر من مليون مارك ألماني لاستعادتها. فوساكو سانو من اليابان، التي ظلّت أسيرة عشر سنوات، عقداً كاملاً من الزمن.

تذكّرت القصص كلّها، تذكّرت وجوههنّ جميعاً. وقد كنّ محظوظات. إذ أراها إريك لائحة طويلة بأسماء نساء ألمانيات، وأميركيات، وبريطانيات، وإيطاليات لم يحالفهنّ الحظّ. نساء خُطفن، واحتُجزن، وقُتلن، حتّى بعدما دُفعت الفدية.

عادت إليها كلماته ولاحقتها: "قد يختطفونك من أجل الجنس، أو المال، أو التعذيب، أو حتّى للانتقام منك أو من والدَيك. هؤلاء أشخاص خطرون يا كاتلين. بعضهم غير أسوياء إلى حدّ أنّهم قد يختطفونك لمجرّد أن يذيع صيتهم. مهما فعلتِ، لا تعبثي مع حرّاسك".

ولكنّها فعلت. عبثت معهم ولم يعد بإمكانها إصلاح الأمر. أرادت البكاء بقوّة، ولكنّها لم ولن تفعل. قالت لنفسها إنّها لم تبكِ قطّ خلال

الأيام التسعة والثلاثين التي عاشتها في برنامج سرفايفر، وهي واثقة أنّها لن تبدأ بذلك الآن.

حاولت كاتلين التفكير في شيء مختلف. تذكّرت الأوقات التي أمضتها في ذلك البرنامج الواقعي: حفل الاستقبال، والمهامّ الأولى، والشبّان الذين كانوا معجبين بها. تسعة وثلاثون يوماً، عشرون متبارياً، خمس عشرة حلقة جعلت منها شخصيّة معروفة. في إحدى المرّات، سبحت عارية خلال البثّ الحيّ. أثار ذلك جنون الرقابة، وأوشكوا على حذف الحلقة بأكملها.

كانت مستعدّة لتكرار ذلك، في أيّ وقت. فهي مولعة بالصدمة والسحر. دفعتها أفكارها إلى الابتسام تقريباً. حتّى في هذه الزنزانة القذرة ما زالت تتذوّق حلاوة حياتها القديمة؛ المال، والشهرة، والجدل الذي تثيره روحها الجامحة. ولكن، إلى متى؟ سألت نفسها؛ إلى متى قبل أن يُفقدها خاطفوها عقلها؟!

64

بقيَ لدى غيديون شريطان أخيران.

شاهد أربعين تسجيلاً تقريباً، وبالرغم من الأفكار التي تعصف في رأسه، فقد كان مصمّماً على مشاهدتها حتّى النهاية.

أدخل أحدهما في الجهاز، وظهر أبوه على الشاشة. لم يكن البروفيسور الشابّ أكبر سنًّا من غيديون الآن. بعد بضع ثوان، سُمع صوت ماري تشيس خلف الكاميرا: "أظنّ أنّه يعمل، نات. أجل، أجل، الضوء الأحمر يومض. يمكنك أن تبدأ متى أردت".

أخذ ناثانيال نفساً وأبعد عن وجهه خصلة من شعره الذي عبث فيه الهواء. كان يرتدي كنزة صوفية زرقاء سميكة، وسروالاً داكن اللون،

وينتعل حذاء. كان الثلج يغطّي الأرض، بينما ظهر خلفه مشهد مألوف جداً. ستونهنج. أعلن، وهو يمدّ يدَه نحو النصب: "سأصطحبكم في جولة عبر خمسة آلاف سنة تقريباً، إلى الأيّام التي حفر فيها أجدادنا هذا الخندق الدائري، الذي يبلغ قطره نحو ثلاثمئة قدم، وعرضه عشرين قدماً، وعمقه سبع أقدام". قرفص على الأرض ووضع يدَيه في ثلم حيث كان الخندق. "تحت هذه البقعة، عثر علماء الآثار على عظام حيوانات ماتت قبل مئتي عام من حفر هذا الخندق. لماذا وضعها أجدادنا هناك؟ لماذا استخدموا كومة من العظام القديمة لملء خندق جديد؟ الجواب بالطبع هو أنّ تلك العظام أتت من قرابين خاصّة قُدّمت للكائنات الممجّدة القديمة".

ابتسم غيديون. فقد كان والده، الذي صنع شهرته بنفسه، معروفاً بأنّه يُنكّه المحاضرات الجامعية الجافّة بأفلام أعدّها بنفسه. على الشاشة، ترك البروفيسور الشابّ الخندق، وراح يمشي حول الأحجار وهو يعرض نظريّة أصبحت مألوفة الآن عن اكتشاف أكثر من مئتي هيكل عظمي بشري في الموقع. "وجد عالِم التاريخ جون أوبري الذي عاش في القرن السابع عشر هذه العظام البشرية المحروقة في ستّ وخمسين حفرة مختلفة. هل كانت هي أيضاً قرابين؟ هل كان ستونهنج محرقة، وهيكلاً، ومذبحاً على السواء؟".

بعدما قرأ غيديون مذكّرات أبيه بعد عقد من ذلك التاريخ، استغرب مشاهدته وهو يطرح تلك الأسئلة بتشكّك. والأغرب هو التفكير في ما قد يكون حقيقة بالفعل. قدّم الشريط إلى المرحلة الأخيرة من البناء: "قبل نحو ثلاثة آلاف عام، قامت أيدٍ مجهولة بنقل هذه الحجارة الزرقاء من جبل بريسيلي، وما زلنا نجهل كيف تمكّنوا من القيام بذلك. استخدمت هذه الأحجار لبناء نصب دائري، وتمّ توجيه

مدخله نحو الشروق في الانقلاب الصيفي". اقترب ناثانيال من الأحجار الرملية الأكبر حجماً، ويداه ممدودتان إلى السماء. "هذه هي أحجار السارسين الضخمة، التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أضعاف طولي، وتزن نحو أربعين طنًّا. ثُبّتت على أطرافها بأيدي بنّائين قدماء غاية في المهارة، ووُضعت فوقها أحجار سارسين أفقيّة، واستُعمل فيها النُقر[1] واللسان، وهي تقنيّة متطوّرة تبدو سابقة لعصرها". مشى نحو نقطة أعمق داخل الدائرة وتابع قائلاً: "هنا في قلب النصب، نجد محور حدوة الفرس، خمسة أزواج من السارسين المنتصبة مع أحجار أفقيّة عملاقة؛ التريليتون".

شاهد غيديون بقيّة التسجيل بسرعة مضاعفة، فراح والده يتنقّل بسرعة مضحكة في أرجاء النصب، مشيراً إلى حجر العقبيّة، وحجر الذبح، والمدخل الشمالي الشرقي.

أخذ استراحة قصيرة، وأعدّ فنجاناً من الشاي، ثمّ عاد لمشاهدة آخر شريط غير مفهرس. أخرجه من مغلّفه ورأى ملصقاً في الوسط لم يُكتب بخطّ أبيه. قرأ عليه: "إلى غيديون، ابني الحبيب، ومصدر فخري وفرحي".

لم يكن قد رأى هذا الخطّ منذ عقود، ولكنّه عرفه على الفور. كان خطّ أمّه.

65

ارتدى جيمي دوكيري سترة وراح يحتجّ في سرّه لأنّه الشخص الذي اتّصلوا به في منتصف الليل. يبدو دائماً وكأنّه هو الذي يُفوَّض بأسوأ المهامّ. أوّلاً، طُلب منه البحث عن أشخاص مفقودين، ومن

(1) تجويف مستطيل في قطعة خشب أو نحوها يَدْخل فيه لسان.

ثـمّ التحقيق في انتحـار رجل عجـوز، والآن يرسـلونه إلـى موقع مخزن حبوب يحتـرق. برأيـه، هو محقّـق أفضل مـن ذلـك. ولو عـرف والده، نائب الرئيس، بطبيعة الأعمال التافهة التي يُرسـلونه للقيام بها فسيطردهم جميعاً.

أخـرج دوكيـري بطاقتـه وتجـاوز الشـريط الأصفـر. أعطى اسـمَه لشـرطيّ يبـدو عليه الإرهـاق، ودخـل المخـزن الذي لـم يبقَ منه شـيء سـوى أضلاع سـوداء. أضاءت الأنوار البقايا المعدنية المتفحّمة لسـيّارة الكامبرفان. كانت نسـخة محترقة عن تلك التي رآها في تسـجيل الفيديو الذي أخذه من محطّة الوقود، ذاك الذي تبحث عنه نصف شـرطة البلاد. شـقّ جيمي طريقـه إلـى داخـل السـيّارة مـن دون أن يُتلـف الأدلّـة. في الداخل، رأى رجلاً وامرأة راكعَين وهما يتفحّصان الجثّة.

سألهما جيمي: "أهي الفتاة؟ الفتاة المفقودة؟".

فاجأ السؤال الطبيبة الشرعية ليزا هاملتون من وزارة الداخلية.

عرفَت الصوت وأجابت: "كلاّ، إنّه رجل. حضرة الرقيب، أحذّرك، لا تزعجني، ولا تضغط عليّ، ولا تُثر أعصابي، ولا تقم تحت أيّ ظرف بالعبث بمسرح جريمتي".

"مفهـوم". أثار كلامهـا غضبـه. يعطيه الجميـع دائماً لائحـة بما لا يجب عليـه القيام بـه. أضف إلى ذلـك أنّ لديـه نقطة ضعف تجـاه ليزا. فحتّى عنـد السـاعة الثانية مـن بعد منتصـف الليل، تُحـرّك فيه إحساسـاً بدائياً.

رأى من فـوق كتفهـا أنّ الجثّة تبدو مثـل لحم محتـرق؛ مزيج مثير للغثيان من الأشـلاء الوردية والسـوداء. التصقت بقايا الملابس المهترئة بالعظـم المتفحّـم، وانتشـرت الدهـون البشـرية على مـا بقيَ مـن أرض الكامبرفان. لاحظ جيمي أنّ جزءاً من إطار السـيّارة المعدني مقوّس إلى

الأعلى فسألها: "هل وقع انفجار؟".

أجاب شـابّ من عملاء مشـهد الجريمة (SOCO)، وجهه مكسـوّ بالنمش، وشـعره مسـرّح في خصل ناتئة: "انفجرت قارورة الغاز على ما يبدو. استناداً إلى شـكل الانفجار، يبدو وكأنّها انفجرت تحت رأس غاز مشـتعل". تنقّل جيمي حولهما وتفحّص بقيّة السيّارة المحترقة. سأل من خلف كتفه: "إذاً لا أثر للفتاة. هل أنتما واثقان أنّ أشـلاءها ليست مبعثرة في المـكان؟". رفعت ليزا هاملتون رأسـها عـن الجثّة قائلـة: "هل تعني بجدّية أنّني ربّما أكون قد أغفلتُ امرأة بأكملها؟".

شـعر بأن سـؤاله غبيّ فسـارع إلى القول: "بالطبـع لا، ولكنّنا نكاد أن نُجنّ لإيجادها". استمرّت الطبيبة الشـرعية بالعبوس. "ما وقع هنا لا علاقة له بأيّ امـرأة مفقودة. فـي الوقت الحالـي، ينصـبّ اهتمامي على هذا الرجـل، هنا. وأحـاول أن أمنحه الاحتـرام الذي يسـتحقّه من خلال التحقيق كما يجب في أسباب موته".

فهم جيمي الرسالة وتراجع. انهمك عناصر آخرون من SOCO في رفع كلّ ما يمكن رفعـه أو نزعه عـن الأرض والجـدران. رأى مجموعة من الأكيـاس الورقية التـي تحتوي على كأس مكسـورة، وقـدر محترقة، وزجاجة شراب رخيص فارغة، وأدوات مائدة، وأوانٍ متفحّمة.

اقتربت منـه امرأة مـن SOCO تحمـل كيس أدلّـة بلاسـتيكيًّا وهي تقـول: "عثرنـا علـى إجـازة قيـادة، ووثائق اسـتئجار السـيّارة فـي اللوح الأمامي. لقد اسودّت بفعل الدخان ولكنّها لم تُتلف".

رفع جيمـي الكيس نحو الضـوء ليتمكّن مـن القراءة عبـر الغلاف. كانت الكتابـة بالـكاد مقـروءة. "إدوارد جاكـوب تمبرلانـد". وهو يلفظ الاسـم، شـعر بموجة من الحـزن. دائمـاً تتغيّر الأمـور عند إعطـاء الجثّة اسماً. توجّه إلى الطبيبة الشـرعية قائلاً: "بروفيسورة، سأعود إلى المركز.

متى سيكون التقرير جاهزاً؟".

أجابت من دون أن توقف عملها: "بعد الفطور. سأرسل تقريراً وسأكون جاهزة في منتصف فترة الصباح إن كنتَ تريدني أن أقرأه بنفسي".

"شكراً". كان يودّ ذلك. جلسة لطيفة يحتسيان خلالها القهوة. من يعرف ماذا يمكن أن ينتج عنها. لوّح جيمي بيَده مغادراً: "تصبحون على خير".

تناهت إليه أجوبة خافتة وهو يغادر مخزن الحبوب.

صاحت البروفيسورة ممازحة: "صباح الخير. استعدّ أيّها التحرّي، فقد طلع الصباح".

66

شعر غيديون بقلبه ينبض بعنف بين أضلاعه وهو يُدخل شريط الفيديو القديم في الجهاز.

بالكاد عرف أنّ المرأة التي ظهرت على الشاشة هي أمّه التي أحبّها نفسها. توقّع أن يرى الجميلة التي ظهرت في شريط البندقية، ويسمع ضحكتها التي تنبض بالحياة. ولكنّها لم تكن كذلك.

جلست في سرير المرض، متّكئة على جبل من الوسائد البيضاء، وبدا من زاوية الكاميرا أنّها تُصوّر نفسها بنفسها. رأى وجهها النحيل كالهيكل العظمي، وشعرها المجعّد الذي شاب قبل أوانه، وعينَيها الحمراوَين اللتين قلّصهما الألم.

كانت ماري تشيس على فراش الموت، تبتسم لابنها عبر الشاشة وعبر الزمن وهي تقول: "غيدي، حبيبي، سأشتاق إليك كثيراً. أتمنّى أن تعيش حياة طويلة وسعيدة جداً وتعرف فرحة الأبوّة. فعندما وُلدتَ،

شعرتُ أنّ حياتي قد اكتملت.لم أرغب مطلقاً في شيء آخر سوى أن تكون سعداء معاً". قاومت أحاسيسها ثم تابعت: "حبيبي، لن يتحقّق ذلك. لم يعد لديّ وقت طويل الآن، ولكن ثمّة ما أودّ قوله لك. لذلك، سأترك لك هذه الرسالة حتّى تصبح أكبر سنًّا، وقادراً على رؤيتي بهذه الحالة من دون أن تشعر بالخوف".

مسح غيديون الدموع عن وجهه. أدرك للمرّة الأولى أنّه لم يُسمح له قطّ برؤية أمّه في أيّامها الأخيرة، في الفترة التي كانت تُحتضر فيها وتشعر فيها بالألم. كانت ماري تشيس تبكي أيضاً وهي تتكلّم مع ابنها الوحيد: "غيدي، لا أحد غيرك شاهد أو سيشاهد هذا الشريط. فوالدك لم يشاهده، وكذلك لن يشاهده أيّ كان، بل أنت وحدك. لديّ ما أودّ إخبارك به شخصيًّا، ووالدك يحترم ذلك. فهو رجل طيّب ويحبّك أكثر ممّا تُدرك.. وأتمنّى أن تعتنيا ببعضكما بعد رحيلي". مدّت يدَها إلى الطاولة المجاورة للسرير وتناولت كأساً من الماء رفعتها إلى شفتَيها الجافّتَين، ثمّ اغتصبت ابتسامة شجاعة أخرى.

ابتسم غيديون. كان يفتقد إليها، أكثر ممّا اعترف به لنفسه يوماً.

أتمّت، ماري تشيس رسالتها من حافّة قبرها، ولفظت كلماتها الأخيرة لابنها الذي لم تره وهو يكبر. ثمّ قالت ما كانت تقوله له دائماً كلّ ليلة وهي تُطفئ المصباح قرب سريره وتُقبّل رأسه: "لا تخف من شيء، حبيبي. أنا أحبك وسأكون دائماً إلى جانبك".

ابيضّت الصورة وبدأ الشريط يلتفّ إلى الوراء مُصدراً ضجيجاً خافتاً. جلس غيديون وهو يُحدّق إلى الشاشة البيضاء، وقد شلّته الصدمة بعد السرّ الذي باحت به أمّه.

67

كانت الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل عندما وصل جيمي دوكيري إلى مكتب ميغان بيكر حاملاً كوباً مكسوراً يحتوي على القهوة الساخنة وسألها: "هل لي بدقيقة، سيّدتي؟".

"بالتأكيد". أشارت إلى أحد المقاعد وتابعت: "ماذا لديك؟".

جلس، وبدا عليه تعب شديد وأجابها: "بخصوص الشابّ الذي لقيَ حتفه في الكامبرفان".

"تمبرلاند".

"أجل".

"لا تقلق، لن أطلب منك إبلاغ والدَيه، ستتولّى شرطة العاصمة القيام بذلك. فقد اتّصلوا بهما بعدما عثرنا على فواتير أميكس التي «دفعها ابنهما»".

"لا أعني ذلك".

"إذاً ماذا؟".

تنهّد بعمق وأخذ رشفة من قهوته وقال: "كان مسرح الحريق تعمّه الفوضى. فهناك أجزاء مفقودة من الجثّة؛ تطايرت على الأرجح، وجلد ذائب، وكان رأسه كرة سوداء كبيرة. كان المنظر شيئاً لا يُصدّق".

فهمَت ما يرمي إليه. لقد كان مضطرباً ولا يريد التكلّم مع زملائه الرجال عن مدى تأثّره. سألته: "هل تريد أنّ أحدّد لك موعداً مع اللخبير النفسي؟".

بدا عليه الذهول.

"جيمي، عندما كنتُ أتدرّب، رأيتُ شابًّا صدمه قطار. كان انتحاراً. جافاني النوم لأيّام. أخيراً، وجدتُ أنّ التكلّم مع خبير نفسي قد ساعدني حقاً".

"شكراً، ولكن، ليس هذا ما عنيته. كنتُ أقصد أنّ المسرح لا يُصدّق. ما يُفترض أن يكون قد حدث هو الذي لا يُصدّق".

استغربت قوله وسألته مجدّداً: "كيف ذلك؟".

تساءل فجأة إذا كانت ستسخر منه، ولكنّه أجابها قائلاً: "ستقرئين تقرير البروفيسورة خلال بضع ساعات، وربّما من الأفضل الانتظار".

"كلاّ، تابع كلامك، جيم. إن كانت لديك نظريّة بخصوص الحادث، أو حدس ما، فأنا أودّ سماعه".

"حسناً". أسند مرفقَيه على مكتبها وتابع: "المكان، المكان، المكان. أليس كذلك؟".

بدا عليها الارتباك.

"قيل لنا إنّ هذا أهمّ العناصر".

هزّت رأسها موافقة، ولكنّها غير واثقة ممّا يقصده.

حاول أن يشرح: "لديكِ كامبرفان، وهي بمثابة منزل صغير بعيد عن المنزل. يمكنك الذهاب بواسطتها إلى أيّ مكان، فهي تحتمل كلّ عناصر الطبيعة. ولكنك تختارين أن تركنيها داخل مخزن حبوب، في مبنًى بعيد جداً عن الطريق، وأنا واثق أنّ أبناء المنطقة لا يعرفون حتّى بوجودها".

فهمت ما يعنيه فقالت له: "أنا معك، الأمر غريب. فمخزن الحبوب ليس مكاناً مناسباً لكامبرفان".

استرخى قليلاً وتابع: "هذا أوّلاً. تمبرلاند هذا شابّ أنيق ورفيع المنزلة، رجل ثري، ابن لورد، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح".

"إن قام شابّ كهذا باستئجار كامبرفان لاصطحاب صديقته، فما الذي سيأخذه معه للقيام بهذه الرحلة؟".

فكّرت قليلاً ثم قالت: "سيأخذ عصيراً يشربانه في الطريق، وربّما وجبات خفيفة. سيأخذ طعاماً على الأرجح، وشراباً غالي الثمن، وربّما أكواباً ثمينة". استغرقت في تخيّلاتها وتابعت: "ملاءات للجلوس عليها، سلّة طعام، نظّارتين شمسيتين، وربّما هديّة يفاجئها بها".

ابتسم جيمي وقال: "عظيم، لم أذهب إلى هذا الحدّ. ولكن، انظري إلى اللائحة التي وجدها فريق الطبّ الشرعي". وضع أمامها ورقة مطبوعة حديثاً، وراقبها وهي تقرأ. أضاف: "ستجدين فيها عبوة مشوّهة تحتوي على بقايا حبوب محترقة، وأجزاء من رقاقات فضّية من القصدير؛ ربّما من لوح شوكولاته، وزجاجتَي شراب رخيص فارغتَين، وبعض الأطعمة العاديّة، كالخبز والزبدة. لا شيء غير متوقّع. ربّما اشترى بعضه. ولكن، يبدو أنّ معظمه كان في سلّة الطعام التي تأتي كهديّة عند استئجار السيّارة". أشار بإصبعه إلى أسفل الصفحة وتابع: "الثلاجة الصغيرة المذكورة هناك حمت محتوياتها من الانفجار. توجد فيها مثلّجات منتقاة، وزجاجة مليئة بالشراب الفاخر".

"إلامَ ترمي؟".

"لقد شربا الشراب الرخيص. هل من الممكن أن يكونا قد شرباه وتركا الشراب الفاخر؟ بالتأكيد إن اشتريتِ شراباً فاخراً، فهو ما ستشربينه أوّلاً".

توصّلت ميغان إلى استنتاجها الخاصّ: "من الصعب إشعال حريق بالشراب الموجود في الثلاجة، على عكس الشراب الرخيص. هل تظنّ أنّه تمّ استعماله كمادّة مشتعلة؟".

هزّ كتفَيه وأجاب: "لستُ واثقاً حتّى إن كان من الممكن إشعال حريق بذاك الشراب غالي الثمن، هل هذا ممكن؟".

"لا أدري". شرد نظرها بعيداً، وتذكّرت عالَماً آخر، والشراب الذي تناولته يوم زواجها. "لن أضيع الوقت في محاولة معرفة ذلك". فكّرت في إحساسه. "أنت محقّ، فوجود زجاجتي الشراب الرخيص وزجاجة الشراب الفاخر معاً ليس أمراً منطقياً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ركن السيّارة داخل مخزن الحبوب، وكون الفتاة ما زالت مفقودة يُثير ريبتي أكثر".

تأرجح جيمي في كرسيّه أمام مكتب ميغان وسألها: "هل تظنّين أنّ الاثنين قد تشاجرا حول شيء ما، فدفعته بعنف أكثر ممّا أرادت، ثمّ أصيبت بالذعر؟".

هزّت ميغان رأسها نافية: "ليس هي. تذكّر من تكون، فابنة نائب الرئيس لا تتصرّف بهذا الغباء وتحاول حرق مسرح الجريمة، بل ستتّصل بوالدها لتطلب المساعدة".

اقتنع بكلامها وقال: "ولا أظنّ أنّ ذلك يُفسّر دور زجاجتَي الشراب أيضاً".

"هذا صحيح. ما يثير استغرابي هو عدم وجودها في الكامبرفان معه".

"تشاجرا، فتركته ورحلت؟".

"لا يُقنعني ذلك. لو حدث هذا، لاتّصلت بالمنزل. فهي لا تبدو كفتاة تستقلّ قطاراً للعودة إلى لندن".

جلسا بصمت، ودارت في رأسَيهما الأفكار نفسها. لقد مات جايك تمبرلاند لأنّ أحدهم قتله. وفُقدت كاتلين لوك لأنّ أحدهم قد اختطفها. إن عثروا على كاتلين، فسيعثرون على القاتل. تمنّيا أن يتمّ ذلك قبل أن يقتل مجدّداً.

68

ذهب سيربنز وموسكا إلى منزل أوكتانز كلّ بسيّارته. استحمّا بينما وضع فولانز ملابسهما وحذاءَيهما في كيسَين منفصلَين، استعداداً لحرقها في الصباح. ارتديا ملابس نظيفة، وانتعلا أحذية جُهّزت من أجلهما.

كانت طاولة لعب الورق مجهّزة بأطباق البيتزا الباردة وزجاجات الشراب المثلّجة. لم يتكلّم أيّ منهما عمّا حدث. لعبوا الورق، وشربوا، وأكلوا حتّى تسلّلت أشعّة الضوء عبر النافذة المغبرّة في الغرفة الخلفية. أربعة أصدقاء قدامى أمضوا معاً ليلة سمر.

لم يلمس غراب الطعام مع أنّه شرب كثيراً. كان التخلّص من الجثّة قد خفّف من شعوره بالذنب. فهو لم يضرب الشابّ سوى بحجر صغير، لا يتجاوز حجمه حجم كفّ اليَد، ما كان ينبغي أن يقتله. ذلك. لا بدّ من أنّ الشابّ لديه عيب في جمجمته أو خطب ما في دماغه.

ولكنّ سيربنز لم يستطع الهروب من هذا الواقع. إنّه قاتل، وهذا أمر لا يمكن تقبّله بسهولة. إن تمّ القبض عليه، فستكون نهاية أبوَيه. فهما في العقد الثامن من العمر، وبالكاد يستطيعان السير، ويعيشان في دار العجزة. ظلاّ إلى جانبه عندما حُكم عليه بالسجن، وتظنّ أمّه أنّه يتجنّب المشاكل منذ ذلك الحين، وأنّه أصبح مستقيماً وناضجاً؛ شخصا يفخران به.

"هل تريد أن نلعب جولة أخرى؟".

نظر سيربنز إلى موسكا ورفع يده قائلاً: "أودّ الذهاب للحصول على بعض الراحة". التفت إلى الرجلَين الآخرَين وتابع: "شكراً على هذا؛ على الطعام وعلى كلّ شيء".

نهض موسكا، وتبعه إلى الباب وسأله: "هل أنت قادر على

القيادة؟ هل تريدني أن أصطحبك إلى المنزل؟".

هزّ رأسه نافياً وأجاب: "أنا بخير".

لقد انكسر شيء ما بينهما، شعر موسكا بذلك. "لِمَ لا تعود لتمضي معي بقيّة النهار؟ قد أساعدك".

"قلتُ لك إنّني بخير". كان صوته مشوباً بالتوتّر.

نظرا إلى بعضهما قليلاً، ثمّ فتح سيربنز باب المنزل وخرج إلى ضوء الفجر البارد.

تبعه موسكا قائلاً: "مهلاً".

لم يتمهّل سيربنز، بل فتح باب سيّارته.

أوقفه موسكا بيَد حازمة على كتفه وقال: "انتظر لحظة، علينا حقاً...".

كانت اللكمة التي وجّهها إليه سيربنز سريعة، وكان يرغب في القيام بذلك منذ ثلاثة أشهر. أوجدها الإحباط، وغذّاها الاستياء، وفجّرها الغضب. أصابت موسكا في فمه، فأخذ يترنّح إلى الخلف قبل أن يسقط على الرصيف.

عندما رفع موسكا يدَه إلى شفتَيه ورأى الدماء، كانت السيّارة قد انطلقت ونفثت دخانها في الشارع.

وقف أوكتانز وفولانز عند الباب، وبدا عليهما القلق. فمن الممكن جداً أن يكون أحد الناس قد رأى الشجار وسمع الجلبة. ولكنّ قلق موسكا كان أكبر بكثير، فهو يعرف أنّ سيربنز سيُسبّب مشكلة؛ مشكلة كبيرة.

69

كان رئيس الشرطة ألان هانت يُحبّ رؤية مكتبه مرتّباً. فالمكتب المنظّم دليل على تفكير منظّم. لذلك، كان يرتّبه دائماً في آخر النهار،

www.rewity.com Dafgia

ولا يترك أموراً عالقة. يظنّ جون رولاندز، الجالس أمامه، أنّ السبب يعود إلى تعليمه الحديث، فهو حائز على شهادة ماجستير في الحقوق، وترقّى بسرعة عبر المراتب. كان رئيس جمعيّة ضبّاط الشرطة، والابن المدلّل في وزارة الداخلية وهو يتمتّع بعقل سياسي وخبرة مالية في كيفيّة استغلال الميزانيّات إلى الحدّ الأقصى.

جلس إلى جانب الرئيس الأعلى، وأمام نائب رئيس الشرطة البريطانية غريغ دوكيري، بوجهه المكسوّ بالتجاعيد. كانت الساعة السادسة صباحاً، ولم يكن أمام الرجال الثلاثة سوى مهمّة عالقة واحدة تُعكّر صفاء سطح المكتب الخالي: صورة كبيرة لكاتلين لوك.

لمست أصابع هانت الصغيرة والنظيفة الصورة وقال: ""إذاً، أين هي يا جون؟ لماذا لم نسمع شيئاً عنها من أحد؟".

مرّر رولاندز أصابعه على لحيته الرمادية وأجاب: "أتوقّع من الخاطفين الاتّصال في وقت لاحق اليوم. يبدو أنّهم محترفون، فقد قتلوا صديق الفتاة من أجل خطفها. وهي الآن لديهم، وأنا واثق أنّهم سيطلبون فدية قريباً".

قال دوكيري: "أنا أوافق على ذلك. أظنّ أنّ سبب االصمت يعود إلى انشغالهم. فهم يراقبون الوضع على الأرجح، ويحاوالون اكتشاف كيف سيكون ردّ فعلنا إزاء اختفائها. ربّما نقلوا الفتاة بسيّارة أخرى إلى مكان آمن".

راح رولاندز ينقر على ساعته بأصابعه قائلاً: "الساعات الثماني والأربعين الأولى تنطبق على الخطف أكثر من أيّ جريمة أخرى".

رأى دوكيري الرئيس يُقطّب جبينه. يبدو أنّ خبرته لا تشتمل على العبارات العامّية فشرح قائلاً: "جون يعني الساعات الثماني والأربعين الأولى، سيّدي. استناداً إلى الإحصاءات، فإنّ حظوظ الكشف عن

خيوط جريمة كبيرة، لا سيّما الخطف أو القتل، تنخفض إلى النصف إن لم نعثر على المجرم خلال اليومَين الأوّلين".

ابتسم هانت قائلاً: "أنا لا أصدّق سوى الإحصاءات الجيّدة، غريغوري، عليك أن تعرف ذلك". سُمع ضحك مهذّب حول الطاولة، ثمّ أضاف: "بعدما تلقّيت رسالتك بخصوص الشابّ تمبرلاند، اتّصلت بسيباستيان إنغرام في وزارة الداخلية لإطلاعه على آخر المستجدّات. طلبوا من القوات الجوية الخاصّة الاستعداد للتدخّل عند الحاجة، وطلبوا من شرطة العاصمة إرسال فريق من مديريّة الجريمة المتخصّصة".

كان دوكيري يعرف أنّه لا ينبغي له التشكيك في جدوى خطوة كهذه. إلاّ أنّ رولاندز كان أقلّ دبلوماسية فسارع إلى القول: "سيّدي، هذا التحقيق هو مسؤوليّتنا. نحن قادرون تماماً على تولّي الأمور، ولديّ خبرة مباشرة في التفاوض بخصوص الرهائن".

حاول الرئيس تهدئته: "الأمر لا يتعلّق بالمقدرة، جون، بل بالمسؤوليّات السياسية والميزانيّات. فنحن ننفق المال لإبقاء سيّارات الشرطة على الطرقات. تحقيق كهذا سيستنفد ميزانيتنا لبقيّة السنة".

حاول دوكيري تلطيف الأجواء فقال: "سنحرص على إبقائكم في أجواء التحقيق. مهما يحدث، سنبذل ما في وسعنا، وسنعمل بجهد يوازي جهدكم أنتم وفريقكم".

رنّ هاتف المكتب. عرف الجميع أنّ اتصالاً في هذه الساعة المبكرة لا يمكن أن يحمل أخباراً جيّدة. رفع هانت السمّاعة وتكلّم مع السكرتيرة قبل أن يتمّ تحويله إلى شخص هامّ إلى حدّ أنّه نهض واقفاً وتوتّرت ملامحه.

بعد أقلّ من دقيقة، أعاد السمّاعة إلى مكانها ونقل إليهم الأنباء:

"أيّها السيّدان، استقلّ نائب الرئيس لوك وزوجته السابقة طائرة خاصّة من نيويورك للتوّ، وسيكونان معنا قريباً".

70

كان دراكو عاري الصدر، وحافي القدمَين، ويمارس التمارين الرياضية في القاعة المخصّصة لهذا الغرض في منزله الريفي الفخم. أتاحت له الجدران العالية المكسوّة بالمرايا مراقبة عضلاته التي كلّفته جهداً كبيراً. كان يبدو أصغر بعشر سنوات، وربّما بعشرين سنة، من سنواته الخمسين الفعليّة. راح يفكّر في سيربنز، ذاك الرجل الذي لم يُحبّه قطّ، والذي يستحقّ برأيه لقبه: الثعبان.

على بُعد عدّة أمتار، رنّ هاتفه. كان الاتّصال الذي ينتظره؛ المستجدّات. ترك آلة المشي الوئيد التي سجّلت ستّة أميال، وأوقف الموسيقى التي تبثّها شاشة بحجم ستّين إنشاً، ثمّ أجاب على الهاتف: "هل كلّ شيء على ما يرام؟".

"ليس كلّ شيء". بدا موسكا متوتّراً وتابع: "أتممنا العمل حسب المخطّط، ولكنّ صديقنا أصيب بالمرض".

فهم دراكو المقصود وسأله: "هل من شيء مثير للقلق بالنسبة إلينا؟". تناول منشفة بيضاء عن أحد المقاعد ومسح العرق عن وجهه.

"هذا محتمل".

ترك دراكو المنشفة وتناول زجاجة مياه قائلاً: "أين هو الآن؟".

"في المنزل".

"تحقّق من وضعه، وتأكّد إن كان يشعر بتحسّن".

فرك موسكا فكّه، لتدليك المنطقة حيث لكمه سيربنز وقال: "سأنتظر حتّى الغداء، وأتركه ينام قليلاً، ثمّ أزوره وأتحدّث إليه".

"لا تؤخّر الأمر كثيراً". فكّر دراكو للحظة ثم تابع: "من الأفضل عدم المخاطرة حالياً بلا ضرورة. إن كان مريضاً بالفعل، فعلينا أن نجد له علاجاً؛ علاجاً دائماً".

71

شعر غيديون بإنهاك شديد منعه من مغادرة فراشه. فرسالة أمّه المسجّلة وسرّ الوداع الذي باحت به كانا القشّة التي قصمت ظهره. راح الحزن، والأرق، والاضطراب العاطفي تفعل فعلها. أوّلاً، أتت مذكّرات أبيه التي تكلّم فيها عن المبجّلين، والأتباع، والقرابين. ثمّ تبعها السرطان، سرطان الدم الليمفاوي المزمن الذي قتل أمّه. وأخيراً، رسالتها السرّية التي كانت مثل سيف غُرز في قلبه.

نزل إلى الأسفل، فانطلقت أجهزة الإنذار. أطفأ الجهاز الذي نسيَ أنّه قد شغّله في الليلة السابقة، وكان لا يزال تحت الصدمة. ظلّ قلبه يطرق وهو يحضّر فنجاناً من الشاي، ثم جلس قرب نافذة المطبخ لمراقبة اللحظات الأخيرة من شروق الشمس.

للحظة وجيزة، ومع سقوط الأشعّة الذهبية على الأشجار والأزهار، نسيَ فظاعات حياته. ولكن، عندما انتهى الشاي واستفاق من شروده، عادت إليه همومه. هل جيناته قنابل موقوتة، جاهزة للانفجار في أيّ لحظة كما حدث مع أمّه؟ أم أنّ طقوس الطفولة الغريبة التي أدّاها والده بواسطة الماء الذي أتى به من الأحجار قد شفته؟ تذكّر الكلمات التي كتبها في يوميّاته: "أعطي بكامل إرادتي دمي، وحياتي. وأتمنّى أن يكون جديراً، جديراً بما يكفي لتغيير الأمور، لتغيير المصير الذي أعرف أنّه ينتظر ابني المسكين، يتيم الأمّ. أضع ثقتي في المبجّلين وفي الرابط الذي أُقيمه معهم، في دمي النظيف الذي أَنذُره لتطهير دم ابني".

عاد غيديون إلى الأعلى متعباً لقراءة المذكّرات. كانت مبعثرة حيث تركها، ومفتوحة عند صفحات بدت هامّة. الكثير منها يشير إلى الأحجار؛ إلى ستونهنج، وهو موقع كتب والده كتباً عنه، وعن علاقته بالاعتدال الربيعي، ودورة الأرض التقدّمية، وعلاقاتها الباطنية بخطّ الاستواء الشمسي، وأفلاطون، وأبي الهول.

مجرّد هراء، هذا ما اعتقده دائماً. ولكنّ بعض الأجزاء التي اكتشفها تتناسب مع بعضها، وتُشكّل طريقاً جنونياً يؤدّي إلى قلب طفولته الغريبة والمضطربة. فقد أجبره والده على تعلّم اليونانية، وكتب رموزاً بها، وقدّم له أسوأ هديّة يتلقّاها صبيّ في العاشرة من عمره: نسخة عن كتاب الجمهوريّة لأفلاطون. لم يهده الدرّاجة التي حلم بها، بل كتاباً فلسفياً غامضاً عن السعادة، والعدالة، وجدارة الناس بالحكم.

حين ينظر إلى المذكّرات، يرى طيف الفيلسوف القديم في كلمات أبيه. فالنصوص التي كتبها تُركّز على دور المبجّلين في السنة الأفلاطونية؛ وهو الوقت اللازم لتمام دورة كاملة من تقدّم الاعتدالَين. ويساوي ذلك بالأرقام نحو 25800 عام. وهي المدّة نفسها التي يظنّ غيديون أنّه يحتاج إليها لتفكيك الشيفرات بالكامل وفهم كلّ ما كتبه أبوه.

72

ترأس رئيس الشرطة ألان هانت المؤتمر الصحفي الذي عُقد عند الساعة الثامنة صباحاً. كانت الأنباء عن وفاة جايك تمبرلاند والوصول الوشيك لوالدَي الفتاة قد ضاعفت من حجم الضغط. لا يمكن أن يسمح بالفشل. ليس وهو يستعدّ للتقدّم إلى وظيفة مفوّض شرطة العاصمة. وهو يعرف أنّ كيفيّة إدارة هذا التحقيق ستُحدِّد ما إذا كان

سينال الوظيفة أم لا.

استقرّ المراسلون حول غابة من الكاميرات التلفزيونية والميكروفونات. جلس بين دوكيري ورولاندز، وطرق على ميكروفون المكتب ليسمع الصوت يتردّد في أرجاء القاعة. تعلّم منذ وقت طويل فائدة معرفة مستويات الصوت قبل التكلّم. "سيّداتي وسادتي، شكراً على حضوركم العاجل. عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، عثر أفراد الشرطة على رجل يبلغ الحادية والثلاثين من عمره في سيّارة محروقة. وهي السيّارة نفسها التي كنّا نبحث عنها بخصوص اختفاء كاتلين لوك، التي يعرف معظم الناس أنّها ابنة كيلي لوك ونائب الرئيس الأميركي توم لوك". صمت الرئيس لمنح الصحفيين وقتاً لتدوين ملاحظاتهم ثم تابع: "بسبب هذا التطوّر، طلبتُ أن تحصل قوّاتنا على مساعدة من ضبّاط خبراء في شرطة العاصمة". رفع يدَه محذّراً. "أودّ التشديد على أنّ هذه الخطوة مجرّد تدبير وقائي واحترازي. ففي هذه اللحظة، لا نملك أيّ معلومات عن مكان الآنسة لوك، ولم نتلقَّ أيّ اتّصال منها أو من أيّ شخص آخر يشير إلى أنّ حياتها في خطر. إنّ قيادة عمليّات التحقيق حالياً بين يدَي رئيس قسم التحرّيين جون رولاندز، المسؤول أمام نائب رئيس الشرطة، دوكيري. وهما جاهزان، ضمن المعقول، للإجابة عن أسئلتكم، ولكنّهما يطلبان أوّلاً مساعدتكم".

سعل رولاندز، ثمّ تناول جريدة حملها عالياً ليتمكّن الجميع من رؤية صورة كاتلين التي تظهر على الصفحة الأولى. "ستحصلون جميعاً على نسخة من هذه البيانات. وهي تضمّ قرص فيديو رقميًّا يحتوي على تسجيل لكاميرات مراقبة، فضلاً عن صور للآنسة لوك، والرجل الذي سافرت معه من لندن، جاكوب تمبرلاند، وسيّارة فولز فاغن من نوع

كامبرفان التي استقلاّها. يهمّنا أن نعرف ما إذا كان أيّ شخص قد رأى السيّارة أو الرجل والمرأة خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية. ومهما تكن المعلومات تافهة برأي الناس، فنحن نشجّعهم على المجيء وإخبارنا بالضبط بما رأوه".

سأله أحد المراسلين: "هل يمكنكم تأكيد أنّ الرجل الميت هو جايك تمبرلاند، ابن اللورد والليدي تمبرلاند؟".

أجابه رولاندز: "لم تتعرّف أسرة الضحيّة رسمياً على الجثّة بعد، لذا لستُ مستعدًّا لذلك".

"هل يمكنكم تأكيد أنّ الضحيّة قد قُتلت؟".

مجدّداً، أجاب بحذر: "لم أحصل بعد على التقرير الكامل من الطبيبة الشرعية التابعة للمركز الرئيس والتي قامت بفحص الجثّة. لا يمكنني أن أعطي أحكاماً مسبقة عمّا توصلت إليه".

"أين تمّ العثور على الضحيّة؟".

تردّد رولاندز: "لسنا مستعدّين حالياً لكشف معلومات عن الموقع الدقيق. أتمنّى أن تفهموا أنّنا مضطرّون إلى الحفاظ على سرّية بعض جوانب هذه القضيّة لأسباب عمليّاتية".

سأل أحد الصحفيين بسخرية: "أهذا لأنكّم تخشون أن تكون كاتلين لوك قد اختطفت، وألاّ يعرف أحد سوى الخاطفين المكان الذي قتلوا فيه صديقها؟". كان سؤالاً ذكياً وقريباً من الحقيقة على نحو مثير للإزعاج، فتدخّل غريغ دوكيري للإجابة: "عليّ التأكيد على ما قاله رئيس قسم التحرّيين رولاندز. فما زال التحقيق في مراحله الأولى، وثمّة معلومات علينا الحفاظ على سرّيتها لأسباب عمليّاتية. نتمنّى أن تحترموا ذلك وتساعدونا على إيجاد كاتلين. وأنتم لن تقدّموا لها، أو لنا، أو لأنفسكم أيّ مساعدة بالصحافة التأمّلية".

شعر هانت أنّ الصحفيين لن يتوقّفوا عن الإلحاح ما لم يحصلوا على مادّة أكثر دسامة. "سيّداتي وسادتي، لا يمكنني إنكار أهميّة دوركم في هذا التحقيق. والمراسلة المسؤولة أمر جوهري. قد يكون السبب وراء اختفاء الآنسة لوك بريئاً، وقد لا يكون. وإن كانت محتجزة ضدّ إرادتها، فإنّ خاطفيها سيقرأون كلّ ما تكتبونه وسيسمعون كلّ ما تقولونه. لهذا السبب علينا أن نلزم جانب الحذر. وفي هذه اللحظة، هذا كلّ ما لدينا. شكراً لكم على حضوركم". صمت قليلاً ليتنامى الاستياء، ثمّ أعطاهم ما يعرف أنّه سيُشكّل مادّة العناوين الرئيسة: "في وقت لاحق من هذا الصباح، سألتقي شخصياً نائب الرئيس لوك وكيلي لوك، الآتيين من نيويورك ونحن نتحدّث. أتمنّى أن تكون لديّ أنباء جيّدة لهما وأتمنّى أن نعرف مكان ابنتهما، أو على الأقلّ، أن نطمئنهما إلى أنّ شرطة ويلتشر وشعبها، وحكومة المملكة المتحدة وشعبها، يبذلون ما في وسعهم لإيجادها وإعادتها سالمة إلى حضنيهما. شكراً على حضوركم مجدّداً". وقف وحمل أوراقه، ثمّ نزل ببطء وثقة.

73

لم يكن وقع خبر تدخّل شرطة العاصمة في القضيّة حسناً على الفريق المجتمع بعد المؤتمر الصحفي.

في النهاية، أزاحت جود تومبكينز المفتشة ميغان جانباً، وقالت لها: "تكلّم الرئيس الأعلى للتوّ مع بارني غيبسون من مديريّة الجريمة المتخصّصة. سيكون هنا خلال ساعة مع اثنين آخرَين وسيتولّون المراقبة العمليّاتية. سيكون جون مسؤولاً أمامهما، وأنا مسؤولة أمامه. أريد منكِ الذهاب لرؤية الطبيبة الشرعية، وإحضار تقرير عن وفاة تمبرلاند. وعند عودتك، ستتركين القضيّة".

ذُهلت ميغان: "ماذا؟".

"هل قصدتِ، عذراً، سيّدتي؟".

"ظننتُ أنّ رولاندز قال إنّني أُبلي حسناً".

"كنتِ كذلك، إلى أن أردتِ الرقص تحت الأضواء. الآن، أريد منك الذهاب وتنفيذ أوامري، من دون طرح أسئلة. سبق أن فُوّض وارن وجينكنز بمهامّ أخرى".

أجبرت ميغان نفسها على هزّ رأسها بتهذيب قبل أن تستديرِ وتكيل لها في سرّها سيلاً من الشتائم التي لم تتوقّف حتّى وصلت إلى مكتبها.

اتّصل بها جيمي دوكيري من مكتبه: "سيّدتي...".

لم تتركه ينهي كلامه وقالت له: "أحضر معطفك جيمي، سننطلق".

تناولت سترتها عن ظهر الكرسي ومفاتيح سيّارتها عن المكتب.

74

كان سيربنز في حالة يُرثى لها.

فالشعور بالذنب لا يُطاق. راحت الصور تتلاحق بلا توقّف في عقله المعذّب. الشابّ الذي قُطّعت أوصاله في المسلخ. الجثّة المبلّلة بالشراب التي أُضرمت فيها النار في الكامبرفان في المخزن. لن يتمكّن من الهرب منها.

مع أنّ هذا الوقت من العام هو الأكثر انشغالاً لدى شرطة الأمن التي يعمل فيها، إلاّ أنّه اتّصل واعتذر عن الحضور بحجّة المرض. كان رأسه يؤلمه بشدّة، فاستقلّ سيّارة الميتسوبيشي القديمة وقادها على غير هدى. أراد أن يهرب مِن كلّ ذلك، وأن يجد بعض السلام.

بعد ساعة من الزمن، وصل إلى باث. كانت مدينة سياحيّة جميلة اعتاد على تمضية العطلة فيها في طفولته. فهي مكان يُعيد إليه ذكريات

سعيدة، وربّما يستطيع أن يتوصّل فيه إلى السلام مع نفسه.

ركن السيّارة في مركز ساوثغايت. اشترى ستّ زجاجات من الشراب وليتراً من شراب آخر. حدّق إليه الكبار في السنّ من أبناء المنطقة باستنكار وهو يشرب ويتجوّل. وحين وصل إلى غران باراد وبوت ستول لاين، كانت الزجاجات الستّ قد أصبحت فارغة. استراح بين شجيرات أورنج غروف، ثمّ مشى شرقاً باتّجاه ضفة النهر.

استراح في الظلّ، وأسند ظهره إلى جذع شجرة قرب الماء، ثمّ أغمض عينيه المتعبتَين. عادت إلى ذهنه فسيفساء مريعة من الأصوات والمناظر: صوت الزجاجة الفارغة وهي تتدحرج بعد أن ألقاها موسكا في الكامبرفان، صوت عود الثقاب، الانفجار الذي هزّ قلبه، وكرة النار التي عصفت بالسيّارة، وحطّمت المخزن القديم.

فتح سيربنز زجاجة الشراب الكبيرة وأخذ منها جرعة حارّة مثل ألسنة النار التي تلاحقه. كلّما أحرقته كان ذلك أفضل. ابتلعها بألم. لقد قتل الشابّ؛ حطّم رأسه بصخرة ووضع حدًّا لحياته. في لحظة كان المسكين متربّعاً على قمّة العالَم وهو يمضي وقتاً ممتعاً مع صديقته، وفي اللحظة التالية أصبح جثّة هامدة ثمّ تحوّل إلى رماد.

رنّ هاتف سيربنز. لم يُفاجأ، فالرنين متواصل منذ الصباح. عرف مَن المتّصل وماذا يريد. فأخرج الهاتف من جيبه ورماه في النهر. جعله ذلك يبتسم للمرّة الأولى منذ أيّام. أخذ جرعة أخرى وراح يسعل. يبدو أنّها سلكت طريقاً خاطئاً. كاد يُغرق نفسه، كاد يَغرق بالشراب. يا لها من طريقة مناسبة لوضع حدّ لكلّ شيء!

ركض أمامه أطفال يصيحون. رأى ولداً صغيراً أحمر الوجه يلاحق فتاة أكبر منه سنًّا تمازحه. نهض مترنّحاً، وراقبهما وهما يدوران حول شجرة، ويضحكان، ثمّ يعودان نحو ملاءة مفروشة على الأرض،

وضعَت عليها امرأة بعض الشطائر وعلباً من الفوشار. السعادة... كانت عالماً غريباً عنه.

احتسى سيربنز المزيد من الشراب. صبّه في فمه إلى أن ارتدّ مثل المياه في بالوعة مسدودة. أفلت الزجاجة على العشب، ثمّ بسط ذراعيه وسقط مثل شجرة مقطوعة في مياه نهر أفون المتدفّقة.

75

تحت الوهج الباهر في غرفة التشريح، بدت جثّة جايك تمبرلاند أسوأ ممّا يذكرها جيمي دوكيري. إذ تمّ فتح ما تبقّى من جسده المتفحّم الذي أتلفه الانفجار وأُخرجت أعضاؤه الداخلية ووُزنت.

قرأت البروفيسورة ليزا هاملتون ما يدور في عقل التحرّيَين الواقفَين أمامها وقالت: "لم يكن الحريق أو الانفجار سبب موته. لقد دفع الانفجار بعض النيران إلى خارج الكامبرفان، فاحتفظت الجثّة بما يكفي من الأنسجة والأعضاء والسوائل لإثبات أنّه كان مستلقياً على جانبه الأيسر وميتاً قبل عشر ساعات من احتراق جثّته".

تحقّقت ميغان من الوقت وسألتها: "عشر ساعات؟".

"تقريباً". وشرحت ليزا فكرتها: "بعد الوفاة، تفعل الجاذبيّة فعلها. إذ يتوقّف القلب عن ضخّ الدم، فيستقرّ هذا الأخير ويترك آثاره على الأنسجة". أشارت إلى الجثّة الممدّدة وتابعت: "تمّ نقله بعد وقت طويل من توقّف قلبه عن النبض. نعرف ذلك من امتداد الدم وموضعه الذي ترك بقعاً على جلده. ثمّة من نقله من المكان الذي تُرك فيه بعد الوفاة وألقاه في الكامبرفان ليبدو الأمر وكأنّه راح ضحيّة حادث. ولكن، لسوء الحظّ، أسقطوه على الجانب الخاطئ، على يمينه، وظهره مرفوع قليلاً. وهي وضعيّة لا تنسجم إطلاقاً مع الأدلّة التي نستنتجها من البقع

المتكوّنة بعد الوفاة".

دارت حول طاولة التشريح وحرّكت يدَها فوق صدر جايك الرمادي وتابعت قائلة: "نتجت الوفاة عن أزمة قلبيّة حادّة تسببت بها ضربة عنيفة واحدة على مؤخّر جمجمته بواسطة سلاح مرتجل. فقد وجدتُ جزيئات من التراب وبعض الأجزاء الحجرية الثقيلة مغروزة في العظم".

راح جيمي يرسم المشهد: "إذاً، ضُرب على مؤخّر رأسه في مكان ما، ثمّ نُقل إلى سيّارته ومُدّد على الأرض قرب الفرن. بعد ذلك، عمد المجرم إلى إحراق الكامبرفان لجعل الأمر يبدو وكأنّ صديقنا كان غير مدرك لما يفعله، فسقط وتسبّب بالحريق".

هزّت ليزا رأسها قائلة: "تقريباً. تذكّر، قلتُ إنّ جانبه الأيسر يحتوي على بقع تكوّنت بعد الوفاة لأنّه كان ممدّداً عليه لمدّة عشر ساعات".

فهمت ميغان مقصدها، فقالت لها لتتأكد مما فهمته: "أنتِ تعنين أنّ أياً يكن من قتله، فقد أمضى الساعات العشر وهو يفكّر في ما سيفعله. أخيراً، توصّل إلى خطّة ركن الكامبرفان في مخزن الحبوب، ونقله ليبدو وكأنّه وقع، ثمّ أحرق كلّ شيء".

"بالضبط. ثمّة أمر آخر. مع أنّ فريق الطبّ الشرعي عثر على زجاجتَي شراب فارغتَين قرب الجثّة، إلاّ أننا لم نجد آثاراً تُثبت امتصاص جسده الشراب. لم تظهر في دمه سوى كميّات ضئيلة من الإيثانول، ولكنّ الكبد كان نظيفاً. وهذا يتعارض تماماً مع فكرة أن يكون قد استهلك كميّات فائضة من المشروبات". كان جيمي على وشك طرح سؤال، ولكنّ ليزا لم تُعطه الفرصة: "ولم يُظهر فحص أنسجة الرئتَين أيّ دليل على تنشّق الدخان. لم نجد جزيئات، أو تلفاً

في الأنسجة. لا شيء. من الواضح أنّه توقّف عن التنفّس قبل اندلاع الحريق".

استنتجت ميغان: "مسرح الجريمة مزيّف بأكمله. كان جيمي على حقّ، هذا ما قلتَه بالضبط".

"حقاً؟". عبّر وجه ليزا عن صدمة حقيقيّة.

كرّر جيمي بفخر: "حقاً".

76

أجرى السيّد اتّصالاً مع دراكو حاول أن يجعله قصيراً قدر الإمكان: "هل حللتم مشكلتنا؟".

"كلاّ لسوء الحظّ. فالرجل ليس موجوداً".

"ألم تتمكّنوا من الاتّصال به؟".

"كلاّ. لم نجده، ولم نتمكن من التحدث إليه على أيّ من أرقامه. تركنا له رسائل ولكنّه لم يُجب عليها. كما اتّصلَ بمكان عمله واعتذر عن الحضور بحجّة المرض".

"وهل تظنّ أنّه مريض؟".

"كلاّ، فقد ذهبت إلى منزله ولم أجده هناك، وكذلك لم أجد سيّارته".

حاول السيّد أن يكون إيجابيًّا: "كان يتعرّض مؤخّراً لضغط نفسي. ربّما شعر بالحاجة إلى الابتعاد لتصفية ذهنه. هل تظنّ أنّ هذا الأمر يناسب طباعه؟".

لم يكن دراكو واثقاً من ذلك: "هذا محتمل. طلبتُ من أشخاص أن يسألوا أصدقاءه عن مكان وجوده. كما أنّنا نحاول جعل أحدهم يتّصل به. فربّما يجيب على اتّصاله".

"جيّد".

شعر دراكو بالحاجة إلى طمأنة قائده فقال له: "سنعثر عليه".

"أنا أعتمد عليك في ذلك. انتظر لحظة". صمت عند دخول أحد مساعديه الذي أعطاه ملفًّا من الوثائق لتوقيعها وذكّره بصوت منخفض بموعد على الغداء مع أحد القضاة في المنطقة. انتظر حتّى خرج المساعد قبل أن يستأنف حديثه مع دراكو: "وبخصوص المسألة الأخرى، لديّ خطّة تعطينا مجالاً للتنفّس. هل يمكنك لقائي؟".

"بالطبع، متى؟".

تحقّق السيّد من الروزنامة على مكتبه ثم قال: "عند الساعة الثالثة عصراً. سأكون حرًّا لمدّة ساعة، لا تتأخّر".

77

ركنت ميغان وجيمي السيّارة على بُعد ميل من مخزن الحبوب المحترق. كان يقع وسط بقعة شاسعة من المراعي الممتدّة شمال غرب أوروبا. سهل مكشوف ومنعزل من الأراضي مترامية الأطراف.

في منخفض مزيّن بالأزهار البرّية، وجدا أخيراً المبنى المحترق الذي بدا أشبه بدملة سوداء قبيحة في البشرة الخضراء الناعمة لسهل ساليسبوري. أشارت ميغان إلى آثار على العشب - كانت آثار سيّارات وأقدام متّجهة من وإلى المخزن - وسألته: "هل رفعتم آثار العجلات؟".

"أظنّ ذلك".

عبست في وجهه وقالت: "أنت رقيب في قسم التحرّيين. لذا، إمّا أنّك تعرف أو لا. احرص على أن يتمّ رفع الآثار". مشيا بضع خطوات ولاحظت أنّها أهانته ببرودها المفاجئ، فتوقّفت. كانت تعرف أنّه مع الوقت والصبر سيُصبح شرطيًّا جيّداً. قالت له: "انظر حولك جيمي،

وستسمع العشب يروي لك قصصاً وحكايات عمّن أتى وذهب". مالت نحوه بحيث قادت نظره إلى حيث تشير إصبعها: "هناك، على تلك المنخفضات العميقة مرّت سيّارات الإطفاء". أدارته جانباً وأشارت مجدّداً. "وهناك، نجد آثار ثلاث سيّارات مختلفة على الأقلّ، أخفّ وزناً من الأولى. يمكنني أن أخمّن أنّ بعضها يعود إلى الكامبرفان وربّما إلى سيّارتَين أخريَين".

"ولماذا قلت إنهما اثنتان؟".

تمنّت لو أنّها تملك شريط قياس لتشرح له: "انظر إلى عمق وعرض كلّ أثر. فهما يُعطيانك معلومات عن سماكة العجلات وطول قاعدة الإطار. هل فهمتَ الآن لماذا تبدو هذه الآثار مختلفة؟".

"إذاً، إنهما سيّارتان. هذا يعني شخصَين على الأقلّ".

"جيّد. اطلب من قسم المرور إجراء تفتيش شامل. لا بدّ من أن يكون عملاء SOCO قد تفحّصوا الآثار، ولكنّ قسم المرور هو أكثر مهارة في هذا النوع من الأبحاث". قرفصت وحدّقت إلى الأخاديد في العشب الطويل. "سؤال: لماذا تنقّل أولئك الأشخاص في سيّارتَين منفصلتَين ولم يستقلا السيارة نفسها؟".

نظر إلى الآثار، ثمّ راح يخمّن: "بقيَ أحد الرجلين في المخزن ليهتم بأمر بالكامبرفان والقتيل، بينما ذهب الآخر لفعل شيء ما، ربّما لإحضار الشراب، وأتى لاحقاً".

"جيّد". نظرت إليه وهي تهزّ رأسها بإعجاب، ثمّ وقفت مجدّداً. "لنُفكّر أكثر. إلام يشير ذلك؟".

بدا عليه الارتباك وسألها: "ما قصدك؟".

"إلام يشير عن العلاقة بين الرجلَين؟".

ضاع جيمي، فالعلم السلوكي غريب عنه.

أجابت ميلان عنه: "أحدهما يُنفّذ، والآخر يأمر. الشابّ الذي بقيَ مع الجثّة يُنفّذ الأوامر، وهذا أسوأ الأعمال وأخطرها. قيل له إنّه يجب أن يفعل ذلك من قبل الآمر. وهذا دليل على وجود تراتبيّة؛ نظام وبنية يقبل بهما الفريقان". شردت عيناها نحو الدملة السوداء الهائلة في الأرض وركام الخشب المحترق وتابعت: "بالطبع، من الممكن أن يكون ثمّة منفّذان على المسرح وآمران وصلا لاحقاً".

"أهي جريمة منظّمة؟".

هزّت كتفَيها مجيبة: "شيء من هذا القبيل. ولكنّنا لم نعرف بعد إلى أيّ حدّ هي منظّمة".

78

في منتصف الصباح، شعر غيديون بالحاجة إلى الاستراحة. فقام بنزهة قصيرة إلى المحلاّت وعاد حاملاً جريدة وليترين من الحليب، وبعض الوجبات الجاهزة. التهم طبقاً دسماً من اللازانيا التي سخّنها في الميكروويف، ثمّ استأنف تفكيك الشيفرات.

سرعان ما أصبح واضحاً له أنّه كلّما عرف والدُه عن الأتباع أكثر، كلّما انجرّ أكثر إلى أساليبهم: "تخلّيت عن ساعتي، فهي آلة غير متقنة على الإطلاق. سيُحكم عالَمي منذ الآن فصاعداً بطريقة أكثر قدماً، متناغمة مع الناحية الروحانية: الزمن الفلكي، قاعدة علماء الفلك العظماء، الآلة الطبيعية التي نستخدمها لتعقّب النجوم التي وجّهتهم ووجّهت علومهم. أصبحت الأهميّة الحقيقيّة لدائرة الأبراج الفلكية معروفة لديّ، وكذلك التراصف الهامّ للأبراج العظمى مع خطّ الاستواء المجرّي".

كانت الكمات صعبة الهضم، شأنها شأن اللازانيا. عادت إليه

ذكريات طفولته. في إحدى المرّات، اصطحبه والده إلى الحديقة في ساعة متأخّرة من الليل وأشار إلى النجوم. عرّفه على أسماء مختلف مجموعات النجوم وتكلّم عن محور الشمس والقمر؛ أمور سحريّة.

رأى في زاوية الحجرة، تحت غطاء من الغبار، تلسكوب والده القديم. كيف فاتته رؤيته من قبل؟ كان ملفوفاً بغطاء من البوليثين اصفرّ لونه مع الزمن. انحنى وفتحه وكأنّه تلقّى هديّة.

كان التلسكوب من نوع ميد، غالي الثمن، وذا قيمة كبيرة إلى حدّ أنّ والده لم يسمح له قطّ باستعماله ما لم يكن قربه. ما كان لماري أن تسمح له بالاستسلام لتلك النزوة. فقد أنفق آلاف الباوندات لشراء عدسات عاكسة، جديرة بمرصد فلكي، على مستوى عالٍ من الدقّة، مع أجهزة خاصّة للكاميرات.

بينما كان يقف مجدّداً، طرق رأسه بالسقف المنخفض. راح يحكّ رأسه ويُحدّق بانزعاج إلى السقف. بدا له غريباً، فضغط عليه بقوّة وشعر بشيء يرتخي إلى الأسفل. أفلته غيديون، فانفتح عند مفصل، وكشف عن نافذة منزلقة يمتدّ خلفها سقف طويل ومسطّح.

فتح غيديون النافذة، وصعد إلى أشعّة الشمس الساطعة. كانت الأرض مسطّحة وتنعطف عند الزاوية. مشى بحذر حول الحجرة السرّية نحو مساحة مفتوحة وواسعة.

فوق وسط المنزل تماماً، وعلى بقعة بين قمّتَين من القرميد الأحمر، رأى سقيفة خشبية صغيرة بطول عشر أقدام تقريباً وعرض ستّ أقدام، وارتفاع يوازي خمس أقدام. كانت مميّزة إلى حدّ أنّه عرفها على الفور. فهذا أحد المراصد الفلكية التي بناها والده بنفسه. ملجأ من الريح والمطر، مجهّز بسقف ذي مفاصل.

وجد في الداخل أشياء تخصّ أباه. كانت منتشرة في كلّ مكان،

وكانت عبارة عن مغلاة قديمة، وأكواب، وأكياس شاي، وأقلام، وأوراق، وخرائط فلكية، ومراجع، وصور. الكثير من الصور، على الجدران وعلى الأرض.

كان من السهل تخيّل العجوز وهو جالس هنا يتأمّل النجوم، وضائع في عالمه الخاصّ، يرسم الخرائط. فتح غيديون إحداها، فظهرت فيها الشمس على خطّ واحد مع خطّ الاستواء المجرّي في لحظة الانقلاب الصيفي. عثر على واحدة أخرى تصوّر موقع الكواكب الرئيسة في لحظة الانقلاب الشتوي.

نظر إلى الصور المعلّقة على الجدران. كانت معرضاً لم يسبق له رؤيته لفنّان بالكاد يعرفه. رأى عشرات الصور للنجم القطبي، كافية لإيقاظ ذكريات عن والده وهو يشرح له دور نجم الشمال الأعظم، وكيف انتقل موقعه عبر العصور، بصفته النور الهادي لعلماء الفلك والبحّارة، من نجم إلى آخر.

تأمّل صور كوكبة أخرى: الثريّا، الشقيقات السبع. عادت إلى ذاكرته جملة لبيرون: "أرى الثريّا في كثير من الليالي وهي تُشرق عبر الظلال اليانعة، وتلمع مثل سرب من اليراعات المشبوكة بجديلة فضّية".

جلس في لحظة حنين على الأرض، وراح يتصفّح ببطء الصور والخرائط. ثمّ رآها. كانت صورة واحدة قضت على تلك اللحظة الممتعة، ستونهنج.

تُظهر اللقطة الجانبيّة التي أُخذت من زاوية عالية الدائرةَ، ليست كما هي الآن، بل كما كان ينبغي أن تكون عندما أتمّ القدماء بناءها. تأمّلها غيديون عن كثب. رأى خطوطاً بيضاء باهتة تمتدّ من الأحجار العملاقة إلى نقطة بيضاء فوقها. ثمّ أدرك تدريجياً مغزى الصورة التي بين يدَيه. نجوم وكواكب. كانت الأحجار على خطّ واحد مع حركة

الكواكب والنجوم. قسّمت خطوط دقيقة الخريطة إلى أربعة أجزاء. وكان ثمّة أحرف صغيرة تحدّد الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب. كما رأى كلمتين باهتتين، واحدة في الأعلى والأخرى في الأسفل، بالكاد يمكن قراءتهما. الأرض، السماء.

شعر غيديون بنسمة من الهواء البارد على عنقه. من الواضح أنّ ستونهنج لم يكن بالنسبة إلى الأتباع مركزَ حياتهم فحسب، بل أكثر من ذلك بكثير.

كان مركز دائرة الأبراج الفلكية.

مركز الكون بأسره.

79

عندما تركت ميغان وجيمي المخزن المحترق، كانت الطرقات قد بدأت تزدحم بالسيّارات المتّجهة إلى ستونهنج. راحت ميغان تشتم في سرّها ازدحامَ السير الذي يسبق الانقلاب الشمسي. وصلا إلى مركز الشرطة بعد ساعة من التأخير، فاتّصلت على الفور للسؤال عن سامي.

"كيف حالك؟". بدا صوت آدم ودوداً على نحو مثير للاستغراب.

"بخير". راحت تعبث بشريط الهاتف، ثم تابعت: "أو على الأقل ظننتُ ذلك حتّى بضع ساعات. فقد تمّ إبعادي عن التحقيق".

"لماذا؟".

"لأنّها رغبة جلالة الملكة جود تومبكينز".

"حقاً؟". بدا متعاطفاً وسألها: "ماذا يجري؟ هل يُهملون القضيّة؟".

"كلاّ، على العكس. سيُحضرون ضبّاطاً برتب عالية من شرطة العاصمة، ولا مكان لنا بينهم. الآن، بعد أن أصبح التحقيق مثيراً للحماسة".

"هل توصّلتِ إلى خيوط جديدة؟".

"ليس بخصوص الفتاة، ولكن أُثبت رسمياً أنّ وفاة الشابّ ناتجة عن جريمة قتل. الطبيبة الشرعية أكّدت ذلك".

حاول آدم مدّ يَد المساعدة فقال لها: "اسمعي ميغ، إن كنتِ تريدين منّي الاعتناء بسامي الليلة، فليس لديّ مانع. إن كنتِ تظنّين أنّ حصولك على المزيد من الوقت سيُعيدك إلى القضيّة، يسرّني جداً بقاؤها لديّ".

"هل أنت واثق؟".

"تماماً. أحبّ استضافتها خلال الأسبوع".

يستضيف آدم ابنتهما كلّ أسبوعين، هكذا اتّفقا، وتلك كانت العادة. تساءلت ما إذا كان يتملّقها من أجل دوافع مختلفة. "ما الفكرة؟ إن كنتَ تظنّ أنّني سأغيّر مواعيد الزيارة وترتيبات الحضانة، فأنت مخطئ".

"لا تكوني متشكّكة، أنا أعرض المساعدة وحسب".

رأت باب الفرصة ينغلق فأجابت: "حسناً إذاً، شكراً. بقاؤها لديك لليلة سيُساعدني كثيراً".

"عظيم، سأصطحبها إلى مطعم للوجبات السريعة".

"إيّاك أن تفعل".

أغلقا الخطّ وهما يبتسمان.

وضع جيمي كوباً من الشاي الأسود أمامها قائلاً: "لا أعرف كيف تستطيعين شرب هذا الشيء من دون حليب".

"مثل أيّ شيء آخر، المرء يعتاد عليه". استندت إلى ظهر كرسيّها وتحقّقت من وصول معلومات جديدة. نقرت على أحد الرموز وشاهدت رسالة تُفتح.

"رائع! رائع! الحمد لله".

"ماذا؟". انحنى جيمي ليقرأ ما ظهر على الشاشة.

"عُثر في السجلاّت على بصمات مطابقة للبصمات التي رفعها عملاء SOCO من الكامبرفان". راحت تطرق بإصبعها على الشاشة، وقالت: "تعود البصمات الموجودة على قبضة الباب الجانبي والجهة الداخلية لإحدى النوافذ إلى رجل يُدعى شون إليوت غراب. وقد صدرت بحقّه أحكام تتعلق بجرائم سرقة واعتداء".

قال جيمي: "سيكون لديه الكثير لشرحه".

80

شعرت ميغان وكأنّها تصافح عملاقاً. فاليَد التي قبضت على أصابعها تخصّ رجلاً جديداً تمّ تفويضه بالقضيّة، وهو قائد شرطة العاصمة بارني غيبسون، من مديريّة الجريمة المتخصّصة.

قال بابتسامة لطيفة مضلِّلة: "تفضّلي بالجلوس وأخبرينا عن نتائج التشريح".

جلست ميغان إلى طاولة اتّكأت عليها مَرافق جود تومبكينز، ورئيس إدارة البحث الجنائي جون رولاندز، ومساعد غيبسون الثاني ستيوارت ويليس. كانت تُدرك أنّ هذه هي فرصتها الأخيرة للعودة إلى القضيّة فقالت: "سيّدي، أُجريَ فحص ما بعد الوفاة من قبل البروفيسورة ليزا هاملتون، التي حدّدَت أن الوفاة قد حصلت قبل نحو عشر ساعات من احتراق جثّة جايك تمبرلاند في الكامبرفان. ما اكتشفَته يعني أنه تمّ افتعال الحريق للإيحاء بأنّ الضحيّة قد قُتلت في حادث ناجم عن الشراب، وهذا غير صحيح". وضعت نسخة كاملة عن فحص ما بعد الوفاة على الطاولة، وتابعت قائلة: "يشير هذا التقرير بوضوح إلى أنّ

تمبرلاند قد قُتل".

قرأ غيبسون الصفحة الأولى بسرعة، ثم سألها: "وما هو سبب الوفاة؟".

"إنّه مذكور في الصفحة التالية، سيّدي، ضربة قويّة ونوبة قلبية. فقد تعرّض لضربة على مؤخّر رأسه بواسطة شيء ثقيل، مثل حجر ربّما".

"ليس حجراً ولكنّه مثل حجر؟". حدّق إلى ميغان بتساؤل.

"قد يكون حجراً، سيّدي. بالتأكيد ليس قرميداً أو مطرقة، ولكنّ أداة الجريمة قد تكون صخرة أو حجراً".

"فهمت". قرأ المزيد من التقرير ثمّ نظر إليها قائلاً: "تذكر البروفيسورة وجود جزيئات تراب ورمال مغروزة في جمجمته. هل لدينا معلومات مخبريّة تشير إلى مصدرها؟".

"كلاّ، سيّدي، ولكنّني أظنّها من ستونهنج".

بدا الاستغراب على وجه غيبسون وسألها: "لماذا؟".

"الانقلاب الشمسي، سيّدي. أظنّ أنّه من المنطقي الافتراض أنّ تمبرلاند قد استأجر السيّارة لاصطحاب لوك من أجل مشاهدة شروق الشمس هناك. وصلا قبل ساعات من شروق الشمس، وهو الوقت الذي أظنّ أنّهما تواجها فيه مع المعتدين، والوقت الذي ذكرته البروفيسورة هاملتون على أنّه زمن الوفاة. من المحتمل أن يكون تمبرلاند قد حاول منع الخاطفين من أخذ لوك وقُتل في أثناء ذلك".

"ثمّة أمور كثيرة محتملة، حضرة المفتّشة". نظر غيبسون إلى رئيس المباحث قائلاً: "ستيوارت؟".

تأمّل ويليس ميغان بعينيه البنّيتين الصغيرتين ثم قال: "يحتاج خطف شخص مثل كاتلين لوك إلى تخطيط دقيق، ومراقبة طويلة، وتنفيذ بأيدٍ خبيرة. نحن نتكلّم عن ابنة نائب الرئيس الأميركي. ونوع الأشخاص

المتورّطين في هذا النوع من العمليّات السريعة يتمتّع بتدريب عسكري كامل ولديه أسلحة أوتوماتيكيّة، ولا يأتي خالي اليدَين ويضرب الناس بشيء مثل حجر".

حدّق غيبسون إلى ميغان بنظرة تقييمية ثم قال: "هل من شيء آخر، حضرة المفتشة بيكر؟".

شعرت بالإهانة والتردّد. عرفت أنّ لديها فرصة أخيرة لتغيير رأيهم بها فأجابت: "أجل، سيّدي. وجد عملاء مسرح الجريمة آثار بصمات على قبضة الباب ونافذة الكامبرفان، وهي تُطابق بصمات مجرم محلّي". نظرت مباشرة إلى ويليس، وتابعت قائلة: "إنه مجرم محلّي تافه يُدعى شون غراب من وينتربورن ستوك. ومنزله ليس بعيداً عن ستونهنج".

نظر غيبسون إلى رولاندز وقال له: "هل يمكنك إرسال شخص للتحقّق من المدعوّ غراب؟ إن كان هو الشخص الذي تُشير إليه المفتّشة، فمن الممكن أن يكون ببساطة قد مرّ بالكامبرفان صدفة". نظر القائد إلى ميغان مجدّداً وتابع: "من الممكن أنّ مجرمك التافه كان ينقل أغراضاً من المخازن والأكواخ، وفتَح الكامبرفان من باب الفضول، وحصل على مفاجأة بشعة". قال رولاندز متعمّداً: "ثمّة أمور كثيرة محتملة".

وجدت ميغان فرصة للكلام بين إطلاق النار المتبادل: "سيّدي، يسرّني جداً تعقّب غراب".

مرّر غيبسون تقرير الطبيبة الشرعية إلى تومبكينز وقال: "قيل لي إنّ لديكِ أنتِ والرقيب دوكيري مهامًّا أكثر إلحاحاً".

قاومت ميغان الرغبة بالصراخ. "سيّدي...".

"يمكنك الذهاب، بيكر". وأشار القائد إلى الباب قائلاً: "نحن ممتنّون لجهودك".

لم تتنفّس ميغان حتّى أصبحت في الخارج. دخلت حمّام السيّدات وراحت تصرخ وتضرب على الجدار. أولئك الأنذال سيتتبّعون الخيوط التي وجدتها.

81

شعرت كاتلين بأن هناك شيئاً مختلفاً في الرجال المقلنسين الذين ينقلونها من جحرها. فقد كانوا متوتّرين، وأكثر حذراً معها من العادة، أكثر بطئاً وأقلّ استرخاءً. ارتفعت معنويّاتها، ربّما قرّروا إطلاق سراحها. ثمّ خاب أملها مجدّداً. كانوا ينقلونها على الأرجح إلى مكان آخر، فهذا من عادة الخاطفين. كانت تلك واحدة من حِكَم إريك غير النافعة.

ما إن اعتاد بصرها على الضوء، حتّى عُصبت عيناها. مدّت يدَيها إلى وجهها، ولكنّ الأيدي قبضت على رسغَيها، وكبّلتها. ضغط المعدن البارد على بشرتها.

قادوها عبر ممرّ، ولكنّ انعدام الرؤية جعلها تترنّح وكأنّها تعاني دوار البحر. أبحرت بها أيدٍ غير مرئية عبر عدّة منعطفات ثمّ أوقفتها في غرفة حرارتها أعلى بعشر درجات على الأقلّ.

"أجلِسوها". كان الصوت ذكورياً، متعلّماً، وإنكليزياً، وسلطوياً.

تمّ إجلاسها على كرسي، وشعرت بالارتياح لملمس الخشب والجلد عوضاً عن الحجر البارد.

"كاتلين". كان الصوت هادئاً ومتّزناً. "سنطرح عليك بعض الأسئلة السهلة. ومن الأهميّة بمكان أن تجيبي عنها بصدق. هل تفهمين؟".

تذكّرت ما قاله إريك. أقيمي اتّصالاً، من أيّ نوع كان، مع خاطفيك. قد يشكّل ذلك الفرق بين الحياة والموت فأجابت: "أفهم".

"جيّد". بدا الصوت راضياً.

"هل يمكنني الحصول على شراب؟ فأنا أشعر بالعطش الشديد".

"بالتأكيد". أشار بيَده إلى أحد المساعدين.

توسّلت قائلة: "لا أريد ماءً، أيّ شيء غير الماء. فقد شربتُ منه ما يكفي لإغراقي. ربّما الكولا أو العصير؟".

"ليس لدينا سوى الماء".

شعرت كاتلين بكأس توضع بين يدَيها. رفعتها وأمالتها بشكل زائد فانسكب القليل منه وهي تشرب. تناول أحدهم الكأس من يدها.

"ما اسمك؟".

كان الصوت مختلفاً، أكثر شباباً، وأرفع نبرة، مع لكنة خفيفة. لم يكن على الدرجة نفسها من التعليم.

"كاتلين لوك". قالتها بفخر.

"كم عمرك؟".

"اثنتان وعشرون سنة".

"أين وُلدتِ؟".

"في بيرتشايس، نيويورك".

"ما هي أسعد ذكرياتك عن أبيك؟".

أثّر فيها السؤال فقالت: "عفواً؟".

"أبوك، ما هي أسعد ذكرياتك عنه؟".

آلمها مجرّد التفكير في الأمر. بعد صمت طويل، قرّرت كاتلين التكلّم: "كان أبي معتاداً على القراءة لي. كلّ مساء، كان يجلس معي في الفراش تحت الغطاء ويقرأ لي حتّى أنام". صدرت عنها ضحكة ألم. "كان يختلق قصصاً خيالية عن أميرات يُدعَين كاي ويحكي لي عن مغامراتهنّ، ثمّ..." قاومت دموعها بشدّة وتابعت: "ثمّ أستغرق في النوم وأنا أمسك بيَده".

"وأمّك، ما هي أسعد ذكرياتك عنها؟".

كان السؤال مؤلماً، فصورة أبيها واضحة في رأسها. كانت مشتاقة ليه، وتتوق إلى وضع يدها بيَده والإحساس بالأمان مجدّداً. لذا، جابت: "لا أذكر الكثير عن أمّي".

"حاولي".

فكّرت لدقيقة. كانت قد أساءت الظنّ بها لمدّة طويلة بحيث احتاجت إلى مجهود لتذكّر الأوقات السعيدة. "أظنّ أنّني أذكرها وهي تعقد شريطاً أصفر حول شعري في أوّل يوم لي في المدرسة، لأنّني لم أحبّ زيّ المدرسة الأزرق. أذكر أنّني كنتُ أساعدها في إعداد حلوى الوَفل في منزل جدّتي، كلّما زرناها تقريباً. وكانت تُجلسني على وسادة في غرفة التزيين الخاصّة بها وتطلب من مزيّنتها الخاصّة تزيين شعري ووجهي".

لدى التفكير في الأمر الآن، وجدَت الكثير من الذكريات الحلوة عن أمّها. فقط لو أنّ المرأة لم تخدعهما وتهجرهما.

"حسناً، هذا كاف".

كان هذا صوت الرجل الأكبر سنًّا مجدّداً. سمعت طقطقة وأزيزاً خافتاً، وكأنّ آلة كهربائية قد توقّفت عن العمل للتوّ. ثمّ سمعت وقع خطوات تتجه نحوها.

"لماذا تطرحون عليّ هذه الأسئلة؟".

لم يجبها أحد. شعرت بأيدٍ تدفعها إلى الوقوف فسألتهم: "جايك، ماذا حلّ بجايك؟". كان صوتها يائساً. "أين هو؟ هل يمكنني التحدّث إليه؟".

أجبروها على الاستدارة والسير.

"أخبروني! أخبروني ما حلّ به". ثبّتت ساقَيها على الأرض،

ومالت إلى الخلف، معيقة عليهم عملية دفعها إلى الأمام. فحملتها أيدٍ قويّة.

"أيّها الأنذال!". راحت تركل وتقاوم، ولكنّ أربعة منهم على الأقلّ أمسكوها وحملوها. "أبي سيقتلكم بسبب هذا. سيجدكم رجال والدي وسيقتلون كلّ واحد منكم".

82

عبرت طائرة سيتايشن خاصّة المحيط الأطلسي بسرعة هائلة تقارب ألف كيلومتر في الساعة. استغرقت الرحلة أقلّ من ستّ ساعات، أي نحو نصف المدّة اللازمة على متن طائرة عاديّة عابرة للمحيط.

ربط نائب الرئيس لوك وزوجته السابقة كيلي حزاميهما في أثناء هبوط الطائرة في مطار المملكة المتحدة. بالكاد تحدّثا في أثناء الرحلة، ورافقهما الصمت الكئيب إلى سيّارة المرسيدس المصفّحة التي نقلتهما من هيثرو مع عملاء من المخابرات.

رافقتهما الأبواق وستّة من عناصر الشرطة على الدرّاجات النارية، خلال الجزء الأخير من رحلتهما. في ويلتشر، أعاقهم ازدحام السير والحافلات المتّجهة إلى ستونهنج. غير أنهم تجاوزوا الحشود، محاطين بالدرّاجات النارية، ووصلوا أخيراً إلى مركز الشرطة الرئيس في ديفايزيس.

أُدخل توم وكيلي لوك إلى مكتب هانت، وبعد السلام والمصافحة جلسا إلى طاولة الاجتماعات الكبيرة. جلس أمامهما القائد بارتي غيبسون، ومفوّضة وزارة الداخلية سيليا أشبورن. افتتحت المرأة الاجتماع، وكانت امرأة قصيرة القامة، ولكنّها شمالية نشيطة في أواخر العقد الرابع من العمر. "يعتذر وزير الداخلية عن عدم قدرته على

المجيء، فقد عجر لسوء الحظّ عن قطع زيارته إلى أستراليا. أنا هنا لمساعدتكما، وأؤكّد أنّ الحكومة البريطانية وجميع وكالاتها تبذل كلّ ما في وسعها للعثور على ابنتكما".

قال هانت: "لقد أحرزنا تقدّماً ملموساً. فقد تمّ العثور على السيّارة التي سافرت بها كاتلين، ومع أنّها محترقة، إلاّ أنّ فريق الطبّ الشرعي أجرى لها تحليلاً شاملاً". بدا الحزن على وجهه وتابع: "تعرفان على ما أظنّ أنّنا عثرنا على جثّة الشابّ الذي كانت تسافر برفقته".

مدّت كيلي يدَها إلى حقيبتها لإخراج منديل.

تابع هانت: "هل يملك أيّ منكما فكرة عن علاقتهما؟".

هزّت رأسها.

قال توم لوك: "لا بدّ من أنّها جديدة. صدّقني، كان الفريق القائم على حراسة كاتلين ليُبلغني بأيّ علاقة هامّة". شعر بحزن زوجته المتنامي، فأمسك يدَها. كانت تلك أوّل إشارة إلى وجود تعاطف بينهما.

"هل تلقّيتم أيّ اتّصال من خاطفي ابنتنا؟".

"إطلاقاً".

"هل يملك المحقّقون معلومات عن هويّة الخاطفين؟".

"يعمل أهمّ التحرّيين من مديريّة الجريمة المتخصّصة التابعة لشرطة العاصمة على اكتشاف ذلك حالياً".

"أم آي 6؟".

تدخّلت أشبورن قائلة: "تمّ إبلاغ وكالة الاستخبارات الخاصّة. في هذه اللحظة، لا نظنّ أنّه من المناسب إشراكها في القضيّة عمليًّا. ولكن، في حال اتّخذَت الأمور بُعداً أجنبياً أو إرهابياً، فسنعيد التفكير في الأمر".

تنهّد نائب الرئيس وقال: "سيّدة أشبورن، نُقدّر أنا وزوجتي السابقة

جهودكم، والعمل الشاقّ الذي تقوم به الشرطة. ولكن، وأتمنّى ألاّ تمانعي ما سأقوله، سنشعر براحة أكبر إن اندمج في العمليّة أشخاص معيّنون أستطيع إرسالهم. فلدى مكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI متخصّصون في هذا المجال".

ابتسمت أشبورن بتعاطف وقالت: "أفهم شعورك، سيادة النائب، فأنا أملك ابنة بالسنّ نفسها. كن مطمئنًّا إلى أنّنا لا نمانع أبداً التعاون الكامل في تبادل المعلومات مع مكتب الاستخبارات الفيدرالي وإبلاغه، وإبلاغكما، كما ينبغي بأيّ تقدّم نحرزه. ولكنّ توجيه هذا التحقيق هو من الأهميّة بمكان بحيث يُعتبر الاندماج العمليّاتي غير مستحبّ فعلاً".

ترك نائب الرئيس يَد زوجته وانحنى إلى الأمام. كانت عيناه تلمعان بغضب فولاذي وهو يقول: "حضرة المفوّضة، حضرة رئيس الشرطة، لقد تكلّمتُ مع رئيس الولايات المتحدة قبل أن أستقلّ الطائرة. كان الوقت متأخّراً، ولكنّه كان بالغ الاهتمام واللطف لكي يتّصل بي ويُعبّر عن قلقه بصفته صديقاً شخصيًّا وحامي جميع المواطنين الأميركيين. يمكننا التقدّم هنا بطريقة من اثنتين. إمّا أن توافقوا على طلبي وتنالوا امتناننا العميق أنا وكيلي والرئيس، وهذا ما أوصيكم به، أو أن يقوم الرئيس الأميركي بالاتّصال شخصيًّا برئيس حكومتكم خلال بضع ساعات للتعبير عن قلقه بخصوص كيفيّة إدارة هذا التحقيق. بعد ذلك، سيَعْقِد مؤتمراً صحفياً في حديقة البيت الأبيض لمشاركة الشعب الأميركي مشاعره".

هزّ هانت رأسه بتفهّم وقال: "حضرة نائب الرئيس، نحن نُرحّب بمساعدة مكتب الاستخبارات الفيدرالي، وسأطلب من ضابط الأركان إجراء الترتيبات مع مكتب المدير العامّ".

تكلّمت كيلي لوك للمرّة الأولى. أرادت أن تطرح سؤالاً وحسب،

وعبّر ارتجاف صوتها عن مدى خوفها من الإجابة المحتملة: "سيّد هانت، أرجوك أخبرني بصراحة، هل تظنّ أنّ ابنتي ما زالت حيّة؟".

أجاب رئيس الشرطة بلا تردّد: "أنا واثق من ذلك، أنا واثق أنّنا سنجدها قريباً".

ابتسمت كيلي بارتياح.

كانت عينا توم لوك ترويان قصّة مختلفة. كان ليُجيب بالشيء نفسه لو أنّه في موقع رئيس الشرطة، ولكنّه يعرف الحقيقة. من غير المحتمل أن تخرج ابنته حيّة من هذه التجربة.

83

لم تكن ميغان قادرة على البقاء دقيقة أخرى في المكتب. فأوقفت عمل حاسوبها، وحملت أغراضها، وخرجت إلى موقف السيّارات. كان عزاؤها الوحيد هو أنّ سامي لن تُضطرّ إلى البقاء عند آدم.

بسبب غضبها من إبعادها عن القضيّة الكبيرة، كادت أن تُغفل رؤية غيديون تشيس المتوجّه نحو قاعة الاستقبال. كان رأسه منخفضاً، ومن الواضح أنّ كاهله مثقل بهموم أكبر من همومها. صاحت: "غيديون".

نظر إليها، وظهرت ابتسامة باهتة على وجهه، ثمّ استدار وتوجّه إلى سيّارتها قائلاً: "حضرة المفتّشة، كنتُ آتياً لرؤيتك". نظرت ميغان إلى ساعتها وقالت: "كان يفترض بك الاتّصال أوّلاً، عليّ الذهاب لإحضار ابنتي. هل يمكن تأجيل الحديث حتّى الصباح؟".

بدت على وجهه الخيبة ولكنه أجاب: "بالطبع، لا بأس".

ولكنّها لاحظت أنّه لا يعني ما قاله فسألته: "ما المشكلة؟ لماذا أتيتَ؟".

كان يُقلّب الموضوع في ذهنه خلال الساعة الماضية، ولكنّه لم

يعد واثقاً حقاً من أين يبدأ. "كنتِ على حقّ، لم أخبرك الحقيقة كاملة".

"ماذا تعني؟". نسيت للحظة لماذا اتّهمته بالكذب عليها.

"لقد رأيتُ الرجل الذي اقتحم المنزل، منزل أبي". رفع هاتفه أمامها وتابع: "التقطتُ صورة له".

أخذت الهاتف من يده. لم تكن الصورة جيّدة، بل كانت مهزوزة وباهتة بسبب ضعف ضوء الكاميرا، كما كان إطارها سيّئاً. كانت تحتوي على كلّ العيوب التي ينبغي تجنّبها للحصول على صورة جيّدة، ولكنّ ما فيها كان كافياً لتُدرك أنّ الوجه يناسب المعلومات التي استنتجتها عن المعتدي.

تأمّلت ميغان صورة الرجل قويّ البنية طويلاً، بكتفَيه العريضتين، وشعره الأشقر القصير. كان كما تخيّلته تماماً. رجل أبيض، في أواسط عقده الثالث، طوله 5.11 أقدام تقريباً، عريض الكتفَين، إذ يتراوح عرض صدره بين اثنين وأربعين وأربعة وأربعين إنشاً.

شرح غيديون قائلاً: "التقطتُ الصورة قبل إغلاق الباب. إن أمعنتِ النظر جيّداً، فسترين أوراقاً تحترق في يده".

حدّقت إلى الشاشة الصغيرة وأدركت أنّه محقّ. كانت الصورة أفضل ممّا ظنّت في البداية، ويمكن اعتبارها دليلاً. "لماذا لم تخبرنا بأمرها؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "يصعب عليّ شرح السبب. أظنّ أنّني أردتُ تعقّبه قبلكم".

"لماذا أردت ذلك؟".

"لسؤاله عن والدي، ومعرفة الأمور التي كان متورّطاً بها، وما كان كلّ ذلك يعنيه بالنسبة إليه".

لاحظت أنّ الأمر يتعدّى مجرّد الرغبة في الانتقام الشخصي. "ما

الذي تقصده بقولك ما كان كلّ ذلك يعنيه بالنسبة إليه؟".

جمد غيديون في مكانه. أراد إخبارها، وطلب مساعدتها لفهم بعض الأشياء، ولكنّه لم يشأ أن يبدو معتوهاً فقال: "لقد احتفظ والدي بمذكّرات عن حياته بأكملها. كتب يوميّاته منذ أن كان في الثامنة عشرة".

لا تتذكّر ميغان أنّ التقارير قد أشارت إلى العثور على مذكرات في المنزل. "إذاً؟".

"أظنّ أنّها قد تكون ذات أهميّة". تأمّلها منتظراً ردّ فعلها ثم تابع: "هل تعرفين شيئاً عن الأحجار وأتباع المبجّلين؟".

"أيّ أحجار؟".

"ستونهنج".

ضحكت قائلة: "اسمع، لقد مررت بيوم سيّئ جداً ولستُ قادرة على حلّ الأحجيات. ماذا تعني؟ ما الذي تتكلّم عنه؟".

"كان والدي عضواً في منظّمة سرّية. كانت..." ثمّ صحّح لنفسه: "... إنّها تُدعى أتباع المبجّلين".

ألقت عليه المفتّشة نظرة ساخرة وقالت: "وماذا في ذلك؟ كان والدك عضواً في ناد سرّي. ليس الأوّل، فالشرطة مليئة بالماسونيين وما إلى ذلك. أنا آسفة، عليّ الذهاب حقاً".

قال غيديون بسرعة: "ليست هذه المنظمة مثل الماسونيين، هذه المجموعة خطرة. إنّهم متورّطون في أمور عديدة: طقوس، وربّما قرابين".

حدّقت إليه ميغان. من الواضح أنّه مرهق، ومحبط. من المحتمل أيضاً أن يكون مصاباً بإجهاد ما بعد الصدمة. "غيديون، هل حصلتَ على نوم كاف مؤخّراً".

هزّ رأسه نافياً وأجاب: "ليس كثيراً".

الآن فهمَت الوضع على حقيقته. فوفاة والده، وعمليّتا السطو والاعتداء اللتان تعرّض لهما فعلت فعلها به. "ربّما يجدر بك رؤية طبيب؟ قد يعطيك شيئاً يساعدك على الراحة، ويمكّنك من تجاوز هذه الفترة الصعبة".

"أنا لا أحتاج إلى الأدوية أو المشورة، حضرة المفتّشة. أرجو تأخذي ما أقوله على محمل الجدّ. لقد انتحر والدي بسبب هذه المنظّمة، أتباع المبجّلين. لا أعرف السبب بالضبط. ولكن، أظنّ أنّ للأمر علاقة بي".

نظرت إلى مدخل الموقف الذي ستذهب منه إلى بيتها لرؤية ابنتها.

قالت: "علينا تأجيل الحديث حتّى الصباح". حملت هاتفه مضيفة: "سأحتفظ بهذا لأخذ نسخة عن الصورة التي أريتني إيّاها وأعيده إليك عندما أراك".

هزّ غيديون رأسه بخيبة قائلاً: "أرجو منك المجيء إلى منزلي. سأريك المذكّرات، وعندها ستتغيّر نظرتك إلى الأمر".

تردّدت ميغان. كانت نادراً ما تهتمّ بسلامتها الشخصيّة، ولكنّ تشيس يُبدي إشارات عدم الاستقرار. "سنأتي أنا ومساعدي الرقيب عند الساعة العاشرة صباحاً. هل يناسبك ذلك؟".

"أجل".

تمنّيا لبعضهما ليلة سعيدة، ثمّ اتّجهت إلى سيّارتها وهي تنظر إلى الهاتف الذي أعطاها إيّاه، وإلى وجه الرجل ذي الشعر الأشقر الذي يحمل أوراقاً مشتعلة.

القسم الثالث

84

الاثنين 21 حزيران، الانقلاب الصيفي
ستونهنج

من على السفوح المحيطة بالأحجار، شاهد المراقبون جمهور المحتفلين وهم يجتمعون كالنمل حول أحجار السارسين العملاقة. أمسك الزوّار أيدي بعضهم، مكوّنين دائرتهم البشرية الخاصّة عند النصب المغليثي. خلال ساعات الليل المظلمة، رآهم رجال الحرفة وهم يصِلون.

الآلاف من الغرباء. أناس من جنسيّات، وأعمار، ومعتقدات مختلفة. منهم من أتى للتعبد، ومنهم من أتى للمشاهدة فقط. أتوا، كما يفعلون دائماً.

في ظلام حقول ويلتشر المتموّجة، أُقيمت مخيّمات غير شرعيّة، وأُشعلت النيران، كما في الأزمان السحيقة، لمراقبة الانقلاب الشمسي العابر. كان النصب مليئاً بالناس، لأنّه سُمح بدخوله خلال الليل. تعارضت العادات والممارسات الباطنية القديمة للانقلاب الشمسي مع آلة التنظيم الحديثة: السيطرة على الحشود، والشروط الصحّية، وتنظيم السير، والطقوس القديمة، والمال، وحتّى فرق السامبا التي تبيع أقراصاً مدمجة تحتوي على أعمالها الخاصّة، مع تذكارات متنوّعة جداً.

أتوا من جميع أنحاء العالم من أجل هذا اليوم، وعندما اقتربوا من النصب، أدركوا أنّ نشاط الشرطة المكثّف ليس من أجلهم وحدهم. فقد ناقل الناس خبر اختفاء الفتاة الأميركية، والعثور على صديقها الميت، وركع كثيرون احتراماً لهما وأملاً بنجاتها.

أصبحت وتيرة قرع الطبول الذي تواصل طيلة الليل أكثر قوّ وإلحاحاً. تصاعدت الحماسة في الأجواء. راح رجال الدين يتدرّبو بثيابهم البيضاء، بينما قام رجال عراة الصدر بالرقص مع آخرين يرتدو المعاطف ونساء هيبّيات زينّ شعرهنّ بالخرز والأزهار.

علا صوت أبواق بدائيّة، أوركسترا قديمة عُزفت بأبواق الفوفوزيلا الجديدة المهاجرة. ارتفعت موجات الهتاف، والتصفيق، والغناء من بح من الناس. أعين بريئة، بعضها يلمع بفعل العقاقير، وبعضها الآخر بفعل الحماسة، حدّقت إلى السماء الوردية، بانتظار اللحظة العجيبة، مترقّبة أوّل أشعّة الشمس التي ستخترق أشهر دائرة حجرية في العالَم.

طلعت الشمس واخترقت دائرة أحجار السارسين، وانفجر الهتاف بين الحاضرين.

باستثناء المراقبين، لم يكن ثمّة أتباع في أيّ مكان قرب النصب. عوضاً عن ذلك، كانوا مجتمعين على بُعد أميال في الملتجأ، راكعين على الأرض الحجرية الباردة في القاعة الكبرى؛ في مكان وجود كائناتهم الممجّدة.

85

عندما استيقظ غيديون، نظر إلى ساعته وأدرك على الفور أنّه كان على حقّ عندما عاد إلى مركز الشرطة. كانت الساعة العاشرة تقريباً من صباح أطول يوم في السنة. وكانت أوّل ليلة يحصل فيها على قسط واف من النوم منذ أسبوع تقريباً. أحسّ وكأنّ ثقلاً قد انزاح عن كاهله.

استحمّ، وحلق لحيته، ثمّ أسرع إلى الطابق السفلي. رنّ جرس الإنذار في اللحظة التي كان يملأ فيها المغلاة. ضغط على الزرّ الإلكترومغناطيسي ورأى على الشاشة سيّارة ميغان وهي تدخل عبر

البوّابة الحديدية الكبيرة وتعبر الممرّ المرصوف بالحصى.

فتح باب المنزل، وألقى عليها التحيّة بإشراق: "صباح الخير".

أجابته ميغان بصوت أقلّ حماسة: "صباح الخير. أقدّم لك الرقيب دوكيري".

ابتسم الرقيب الذي كان يضع نظارة شمسية ومدّ يدَه.

قال غيديون وهو يصافحه بحرارة: "سررتُ بلقائك. تفضّلا إلى الخلف".

تبعه الشرطيّان إلى المطبخ وجلسا إلى طاولة مستطيلة من خشب الصنوبر، بينما أعدّ الشراب الساخن وحدّثهما: "أظنّ أنّكم مشغولون بالانقلاب الشمسي".

قالت ميغان: "جداً. فالطرقات شديدة الازدحام. عليّ أن أبتعد عن العمل خلال هذا الوقت من العام، كما يفعل زوجي السابق، فهو يثير الجنون".

قال جيمي: "ليست كلّ السنوات متشابهة. أحياناً تكون الجموع منضبطة، وفي العام التالي تخرج عن السيطرة مثل الحيوانات البرّية".

وضع غيديون على الطاولة الشاي، والقهوة، والحليب، والسكّر، ثمّ انضمّ إليهما. رأت ميغان في ذلك فرصة لتوجيه الحديث فقالت: "تكلّمتَ في الليلة السابقة عن مذكّرات أبيك، وأشرتَ إلى أنّها قد تُلقي بعض الضوء على ملابسات وفاته. هل يمكننا رؤيتها؟".

وضع الكوب من يده ووقف قائلاً: "أجل، أجل بالطبع. ولكن ينبغي أن تعرفا شيئاً".

"ما هو؟".

توجّه إلى أسفل السلّم وتابع: "قراءتها ليست سهلة. انتظرا، من الأفضل أن تريا ما أعنيه".

ذهب إلى الغرفة السرّية واختار أحد الدفاتر الذي فكّك شيفرته، ثمّ عاد وهو يلهث قليلاً وأعطى ميغان المذكّرات.

"ما هذه اللغة؟". وأبعدت الكتاب مسافة ذراع، وكأنّ ذلك قد يساعدها على فهمها.

شرح لها قائلاً: "إنّها شيفرة. كتب والدي مذكّراته بطريقة مشفّرة، اخترعها عندما كنتُ طفلاً، من أجل تعليمي اللغة اليونانية".

تأمّلت الصفحات المفتوحة وقالت: "هذه اللغة يونانية؟".

"ليس تماماً، إنّها يونانية ولكنها معكوسة. فأحرف الأبجديّة اليونانية تقابل الأحرف الإنكليزية، ولكن بترتيب معكوس. هكذا يشير الحرف أوميغا إلى الحرف الإنكليزي A، وهكذا دواليك". تناول قلماً وكتب على طرف جريدة قديمة MYΣΩΛ ΨΩΞΥΗ. أراها لميغان وسألها: "ما معنى هاتين الكلمتين برأيك؟".

"ميغان بيكر".

بدت عليه الصدمة وسألها: "كيف عرفتِ؟ بالكاد نظرتِ إليها".

ابتسمت قائلة: "ماذا ستكتب غير ذلك؟ أنت تحاول إثارة اهتمامي، ودفعي إلى الاهتمام شخصيًّا بفهم اللغة. لذلك، ستكتب شيئاً شخصيًّا، والأمر الشخصي الوحيد الذي تعرفه عنّي هو اسمي". تصفّحت الدفتر. "لماذا فعل والدك شيئاً كهذا؟ لماذا شعر بالحاجة إلى الكتابة برموز لا يفهمها أحد غيركما؟".

لم يكن غيديون واثقاً تماماً فأجابها: "لكي لا يتمكّن أحد آخر من فهمها".

فكّرت في الجواب وقالت: "يكتب المرء مذكّراته لأنّه يرغب في أن يقرأها أحدهم يوماً ما. يظنّ الناس العكس، ولكن تلك هي الحقيقة. إن كان ما كتبه والدك هامًّا، فربّما أرادك أن تقرأه وربّما أن تفعل به شيئاً.

شيئاً لا يستطيع أحد غيرك برأيه فعله. ربّما أرادك أن تقوم بترجمتها ونشرها؟".

فكّر غيديون في أنّ النشر هو آخر ما أراده ناثانيال، ولكنّ كلامها أثّر فيه فقال لها: "هل تعتقدين أنّه أرادني أن أستحسن كلّ هذا؟ أن أكون جزءاً منه؟".

"لا أعرف. ماذا تعني بهذا؟ لِمَ لا تخبرنا؟".

حاول ذلك خلال الساعتين التاليتين. قرأ لهما بعض المقاطع الهامّة التي ترجمها، عن أتباع المبجّلين، وقوى الأحجار، ودورها في الشفاء. حتى إنّه أخبرهم بالتفصيل عن وفاة أمّه، ومرضها القاتل، وخوف ناثانيال من أن يكون ابنه قد ورث المرض.

لم تعرف ميغان كيف تُعبّر له عمّا يدور في خلدها من دون أن تُثير حفيظته. في الهاية، قرّرت قول ما تُفكّر فيه: "من المحتمل أنّ والدك كان يعاني مرضاً عقليًّا". حاولت تخفيف أثر كلامها فتابعت قائلة: "كان رجلاً لامعاً، وربّما استطاع إخفاء أمر كهذا".

أصرّ غيديون قائلاً: "لم يكن مجنوناً. في كلامه الكثير من الحقيقة".

سأله جيمي: "وهل يمكن إثباتها؟".

نهض غيديون عن مقعده وتوجّه إلى النافذة. نظر إلى الحديقة التي كان والده يتنزّه فيها. شعر بعدم الارتياح لوجود الشرطيّين في المنزل، ومناقشة شؤون أبيه وحياته الخاصّة معهما، ولكنّ تشكيكهما لم يترك له الخيار فقال: "عندما كنتُ طفلاً، أصبتُ بالمرض؛ مرض شديد. كان على الأرجح بداية المرض عينه الذي قتل والدتي". حوّل نظره من الحديقة إلى الشرطيّين وتابع: "هل تعرفان ما فعله أبي؟ اصطحبني من المستشفى إلى المنزل، وأخضعني لحمّام بارد، حمّام خاصّ

شفاني من مرضي. كانت المياه التي غسلني بها مأخوذة من ستونهنج. عندما تمكّنتُ من المشي مجدّداً، اصطحبني إلى هناك وجعلني ألمس الأحجار، أحجار السارسين العملاقة وحتّى الأحجار الزرقاء الأصغر حجماً. ومنذ ذلك الحين لم يعد ثمّة أثر لذلك المرض. لم أعد أمرض إطلاقاً، فصحّتي ممتازة، وبشرتي وجسدي يُشفيان من الشقوق والكدمات أسرع من أيّ شخص أعرفه".

تبادل جيمي وميغان نظرة ذات مغزى.

رآها غيديون فقال: "أعرف أنّني أبدو لكما مجنوناً، ولكنّني لست كذلك". عاد إلى الطاولة، ومدّ يدَه وأمسك يَد ميغان اليمنى قائلاً: "جرحتِ إصبعك أليس كذلك؟ منذ متى وأنت تلّفينها بالشريط اللاصق؟".

نظرت إلى الشريط المتّسخ وأجابت: "لا أعرف، ربّما منذ أسبوع. كان جرحاً عميقاً".

"انظري إلى وجهي". وأدار لها غيديون فكّه. "أتيت لرؤيتي في المستشفى بعدما تعرّضتُ للاعتداء، ورأيت آثار الشقوق والكدمات. هل ترينها الآن؟".

لم ترَ شيئاً.

"ماذا حلّ بجرح فكّي الذي أرادوا تقطيبه؟". رأى مسحة شكّ في عينَيها، فأخفض ذقنه وتابع: "وماذا عن شفتي المشقوقة؟ هل ترين أيّ أثر للجرح؟ أيّ أثر على الإطلاق؟".

راح قلب ميغان ينبض. لم ترَ شيئاً، كانت بشرته خالية من أيّ أثر أو خدش.

لمع الانتصار في عينَي غيديون وقال: "ما زلتِ تضمّدين جرحك الصغير منذ أسبوع. هل تعتقدين الآن أنّ أبي كان مجنوناً، هل تعتقدين أنّ ما كتبه عارٍ عن الصحّة؟".

لم ينم القيّمون على التحقيق تلك الليلة، فقد تلقّوا اتّصالاً في ساعات الفجر الأولى قلب حياتهم رأساً على عقب. كان الاتّصال من خاطفي كاتين. عندما اجتمع رئيس الشرطة وفريقه في مكتبه، كانت القصّة قد تسرّبت. لا شكّ في أنّ التسريب قد تمّ من مصادر من داخل قوّات الشرطة. هكذا نصب مراسلو الصحف العالمية خيمهم خارج المركز الرئيس للشرطة.

بدأ القائد بارني غيبسون الاجتماع الطارئ: "عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، تمّ تحويل اتّصال إلى غرفة الحوادث، وسُجّل كالعادة. سأُعيد عرضه حالاً. تعقّبنا الاتّصال وتبيّن أنّه أُجري من هاتف عمومي. لا شيء غريب في ذلك، باستثناء أنّ ذلك الهاتف لم يكن في بريطانيا، بل في فرنسا". انتظر حتّى يفهم الموجودون معنى كلامه وتابع: "أُجري الاتّصال من هاتف عمومي في شارع لافاييت في وسط باريس تقريباً. الشرطة الفرنسية موجودة هناك في هذه اللحظة، وتبحث عن تسجيلات فيديوية من الكاميرات القريبة، ولكنّني سأُفاجأ إن وجدوا أيّ تسجيل. سيبحثون أيضاً عن بصمات قد تتطابق مع البصمات والحمض النووي الموجودة في بياناتنا".

كان هانت يرغب في تسريع الأمور. إذ تمّ إخبار توم لوك، وهو آت من الفندق. "شغّل الشريط، من فضلك بارني".

ضغط غيبسون على آلة التسجيل الرقمية الموضوعة وسط الطاولة. سمعا الصوت. كان صوت رجل، إنكليزي اللكنة، وكانت نوعيّة الصوت رديئة. "كنتم تتوقّعون هذا الاتّصال، نحن نعرف ذلك. كاتلين لوك عندنا، وستسمعون طلباتنا قريباً". مرّت لحظة صمت، تبعتها طقطقة، ثمّ انساب صوت الفتاة على نحو مخيف في الغرفة. كان منخفضاً

وحزيناً. "كان أبي معتاداً على القراءة لي. كلّ مساء، كان يجلس معي في الفراش تحت الغطاء ويقرأ لي حتّى أنام". صدرت عنها ضحكة حزينة. "كان يختلق قصصاً خيالية عن أميرات يُدعَين كاي ويحكي لي عن مغامراتهنّ، ثمّ...". من الواضح أنّها على وشك البكاء. "ثمّ أستغرق في النوم وأنا أمسك بيَده".

كان كلّ المجتمعين حول الطاولة آباءً ومن الواضح أنّ الشريط قد سبّب لهم التعاسة. كان صوت كاتلين يُثير أعصابهم. "لا أذكر الكثير عن أمّي. أظنّ أنّني أذكرها وهي تعقد شريطاً أصفر حول شعري في أوّل يوم لي في المدرسة، لأنّني لم أحبّ زيّ المدرسة الأزرق. أذكر أنّني كنتُ أساعدها في إعداد حلوى الوَفل في منزل جدّتي، كلّما زرناها تقريباً. وكانت تُجلسني على وسادة في غرفة التزيين الخاصّة بها وتطلب من مزيّنتها الخاصّة تزيين شعري ووجهي".

أوقف غيبسون عمل الآلة قائلاً: "يقوم فنيّون بفحص التسجيل والتحقّق من صحّته. وأظنّ، حضرة رئيس الشرطة، أنّكم ستُناقشونه مع نائب الرئيس لوك هذا الصباح".

"سأفعل. شكراً، بارني". التفت هانت إلى الشرطيّة المسؤولة عن الشؤون الصحفيّة، كايت مالوري وسألها: "ما مدى انتشار الخبر، كايت؟".

"لقد انتشر على نحو واسع سيّدي". كانت في أواسط العقد الثالث، ذات وجه ممتلئ، وشعر أسود مجعّد، وتضع نظّارة مستديرة. مرّرت له نسخاً عن الصحف الوطنية عبر الطاولة، وكانت أصابعها ملطّخة بسواد الحبر. "لقد تسرّب إلى جميع الصحف الكبرى". كتبت جريدة ميرور في صفحتها الأولى عنواناً صارخاً: فرنسا تشترك في قضيّة لوك. أمّا صحيفة صن، فعرضت صورة كبيرة لكاتلين بالبكيني مع كلمة واحدة، سرفايفر؟ (ناجية؟)

قرأت كايت مالوري السطور الأولى في مقالة ميرور: "تحوّل البحث عن الجميلة الأميركية كاتلين لوك، ابنة نائب الرئيس الأميركي توم، إلى باريس ليلة أمس بشكل مفاجئ، مع اندفاع الشرطة البريطانية إلى التحقيق في اتّصال عبر القناة من خاطفيها. اتّصل الخاطفون على خطّ هاتفي خصّصته الشرطة للحصول على المعلومات من العامّة. وكما بدا، تصرّفَت العصابة على طريقة القاعدة وسجّلت حديثاً لكاتلين كشفت فيه تفاصيل حميمة عن نفسها، وعن أبيها، وأمّها".

قال هانت: "كفى. اتّصلتُ بالمحرّر للاحتجاج على ذلك. أظنّ أنّه لا خيار أمامنا سوى عقد مؤتمر صحفي للإجابة عن أسئلتهم اللعينة".

اقترَحَت عليه الشرطيّة قائلة: "سيّدي، يمكنكم اعتماد تعتيم إعلامي كامل، على أساس أنّ حياة الشابّة في خطر".

رمى هانت نسخته من الصحيفة على الطاولة قائلاً: "وما الجدوى من ذلك؟ الخبر قد انتشر أساساً!". نظر إلى الوجوه المحيطة بالطاولة، ومن ثمّ إلى مالوري مجدّداً وتابع: "كايت، لا يمكننا إجراء تحقيق بهذا الحجم إن كانت الصحافة تحصل على الأخبار قبل حصول فريقنا العمليّاتي عليها. ابذلي جهدك لمعرفة الشخص المسؤول عن التسريب. أريد تحقيقاً كاملاً في هذا العمل القذر".

فُتح باب قاعة الاجتماعات ودخل المساعد الشخصي لرئيس الشرطة، ثمّ انحنى نحوه قائلاً: "نائب الرئيس لوك هنا، سيّدي. يرافقه رجلان يقولان إنّهما من مكتب الاستخبارات الفيدرالي".

87

بينما كان رئيس الشرطة يُطلع نائب الرئيس الأميركي على آخر المستجدّات، تمّ التحضير لاجتماع متوتّر آخر في مكتب في الرواق

نفسه. فقد جلس عميلا الأف بي آي، تود برغيس وداني ألفيز، وجهاً لوجه أمام جون رولاندز وبارني غيبسون.

قال المشرف الأعلى برغيس: "أتمنّى حقاً أن نتمكّن من مساعدتكما". كان أسمر البشرة وقويّ البنية، وبدا في نصف سنّه البالغة خمسة وأربعين عاماً. "أنا ودان نعرف توم لوك والرئيس الأميركي جيّداً ويمكننا تخفيف الضغط عنكم، شرط أن تكونوا منفتحين ومتعاونين وصادقين معنا".

يفهم غيبسون النبرة المتعالية الكلاسيكية عندما يسمعها. أخبرونا كلّ شيء، ولكنّنا لن نخبركم شيئاً. "ما المنظمات أو العصابات التي تضعونها على رأس اللائحة المحتملة لديكم عندما يتعلّق الأمر بالخطف؟ هل لدى توم لوك أعداء معيّنون؟". ضحك الأميركيّان.

قال برغيس: "جميع الناس أعداء لتوم: أسر الجرائم المنظّمة في نيويورك، مجموعات تحرير الحيوانات في شيكاغو، حماة البيئة في الساحل الغربي، وحتّى الروس في بروكلن".

أضاف ألفيز: "ثمّة أيضاً المجموعات الإرهابية، فهو جمهوريّ دعم الحرب على الإرهاب، إنّه صقر عندما يتعلّق الأمر بالسياسة الخارجية. القاعدة، الكولومبيون، فالجميع يسعى إلى وضع العصيّ في دواليب توم لوك". حوّل الضغط مجدّداً إلى غيبسون. "ماذا وجدتم حتّى الآن؟".

اعترف القائد: "ليس الكثير. فنحن نعمل مع أجهزة المخابرات لكشف كلّ ما نستطيع اكتشافه: بيانات، رسائل إلكترونية، رسائل صوتية. نحن نتعقّب كلّ ما يمكن أن يقود إلى كاتلين".

كان داني ألفيز في أواسط العقد الثالث من عمره، هسبانياً، داكن العينين، ذا شعر أسود قصير. انتظر فرصته لطرح السؤال الكبير: "ماذا عرفتم عن الشريط؟".

أجابه رولاندز بشكل مباشر: "لم نحصل بعد على معلومات من الفريق التقني. بالنسبة إليّ، يبدو التسجيل حقيقيًّا، مع أنّني متشكّك حول استعمالهم التسجيل الصوتي عوضاً عن الفيديو".

قال ألفيز: "أوافقك على ذلك. ولكن، من المؤكّد أنّه صوت كاتلين. فقد تكلّمنا مع توم وكيلي، والمعلومات المعطاة عن الشريط الذي رُبط به شعرها والكتاب دقيقة، وعلى حدّ علمهما، لم يسبق نشرها قطّ".

أضاف برغيس: "أرسلنا التسجيل إلى كوانتيكو عبر موقع تحميل آمن. استناداً إلى مختبراتنا، يشتمل التسجيل على الكثير من الحذف، وقد تمّ على عدّة طبقات صوتية رقمية. يعتقدون أنّه ثمّة تسجيل أولي أُجريَ مع كاتلين، ثمّ نُقل إلى جهاز تسجيل آخر بعد الحذف منه، وبُثّت الرسالة الكاملة عبر خطّ الهاتف من باريس".

سأل غيبسون: "لماذا؟ لماذا يفعلون كلّ ذلك عوضاً عن جعلها تتكلّم عبر الهاتف؟".

أجاب برغيس: "لأنّهم حريصون جداً. فهم يعرفون على الأرجح أنّ جميع آلات التسجيل، حتّى الرقمية منها، تترك على الشريط آثاراً شبيهة بالحمض النووي الصوتي. ولكنّ الأسلوب الذي اتّبعوه، يمزج الأدلّة. فيُصبح من الصعب كشف الآلة والمصدر".

قال رولاندز: "أتساءل ما إذا كان التفسير أبسط من ذلك، وما إذا كان التسجيل مزيّفاً. ماذا لو أنّ صوت كاتلين سُجّل هنا في إنكلترا، وأُرسل التسجيل إلى باريس ثمّ بُثّ عبر خطّ هاتف فرنسي؟".

هزّ ألفيز رأسه غير موافق وقال: "استناداً إلى محلّلينا، تمّ الاتّصال من فرنسا بالتأكيد. فقد رفعوا مستوى الأصوات الخلفيّة وتأكّدوا من أنّها فرنسية". فكّر قليلاً في نظريّة رولاندز وأضاف: "من الممكن أن تكون

الأصوات الخلفيّة قد مُزجت في فرنسا، ولكنّ هذا الافتراض يبدو مبالغاً فيه".

لم يقتنع غيبسون وقال: "ولمَ لا؟ بإمكانهم عبور القناة والوصول إلى باريس خلال أربع ساعات من الاختطاف. فآلاف لغرباء غير الشرعيين يعبرون القناة كلّ عام، وهو ليس بالأمر الصعب بالنسبة إلى عصابة محترفة وجريئة إلى حدّ استهداف ابنة سياسي".

وافقه برغيس: "أو ربّما بواسطة طائرة خاصّة، تطير من ضفّة إلى أخرى في نصف تلك المدّة. فهذا ما كنتُ لأفعله".

هزّ ألفيز رأسه موافقاً: "وأنا أيضاً".

خسر جون رولاندز، فقد أصبحوا ثلاثة ضدّ واحد، ولكنّه لا يأبه. لذا، أصرّ قائلاً: "إنّها هنا، أنا واثق من ذلك. حدسي يُنبئني أنّ هذا الشريط مجرّد خدعة. ما زالت كاتلين لوك في متناولنا".

88

لم تقل كيلي لوك شيئاً عن اختفاء ابنتها علناً، بل تركت زوجها يُرتّب كلّ شيء مع الشرطة البريطانية، وأجهزة المخابرات، والأف بي آي، ومكتب الرئيس الأميركي. كان بارعاً في ذلك. فبالرغم من خلافاتهما، كانت تعرف أنّه يهتمّ بمصلحة كاتلين بقدرها تماماً. وإن كان ثمّة شخص قادر على جعل أولئك الناس يعثرون عليها، فإنّ توم، وهي لا تشكّ في ذلك.

ولكنّه يُخطئ أحياناً، مع أنّه لن يُقرّ بذلك على الإطلاق. وحتّى الآن، لم يعترف بأنّ تفويض إريك بمهمّة رعاية كاتلين عوضاً عن عميل من أجهزة المخابرات خطأ بالغ الغباء. فهو يريد دائماً تنفيذ كلّ شيء على هواه.

ولكن، هذا اليوم سيكون مختلفاً. اليوم، حان دورها لتنفيذ رغبتها، ولتحديد ما ستفعله، بطريقة لا يمكن سوى للأمّ أن تقوم بها؛ من القلب. لهذا السبب دعَت إلى عقد مؤتمر صحفي.

نظرت كيلي إلى المرآة مرّة أخيرة، وأخفت عينيها خلف نظّارة شمسية سوداء من ماركة برادا. كانت ترتدي ثوباً رمادياً متوسّط الطول من تصميم جيفينشي، بينما سرّحت شعرها وربطته إلى الخلف. كانت مستعدّة لكلّ ما يمكن أن يرميه القدر في وجهها.

أخذت نفساً عميقاً، ثمّ دخلت قاعة الاجتماعات في دورشيستر. وقفت خلف منبر طويل مكسوّ بغطاء قطني ناصع البياض، وُضعت عليه لوحة صغيرة تحمل اسمها، ورأت أمامها مجموعة من الميكروفونات والديكتافونات[1]. نظرت إلى الحاضرين وشعرت أنّ القاعة تتشنّج. تلت ذلك عاصفة من وميض الكاميرات. كانت ترى منذ الآن العناوين الرئيسة في بي بي سي، آي تي أن، وسكاي، وآي أف بي، ورويترز، وبي آي، وسي أن أن، وإنتر برس، وبريسينزا، وإي أف إي، ويو بيي آي، وفي ملايين وسائل الإعلام الأخرى. نهضوا عن مقاعدهم، احتراماً لها، ليس كممثّلة مشهورة، بل كأمّ مفجوعة.

شعرت بالحرارة الصادرة عن أضواء التلفزيونات الباهرة المثبّتة على أعمدة فولاذيّة. كان الناس في كلّ مكان. وفي آخر القاعة، ثُبّتت كاميرات فيديو في صفّ طويل على منصّة عالية. أحاط بها من جهة حارس شخصي ضخم يرتدي بذلة رسمية، ومن الجهة الأخرى امرأة مستديرة الوجه في أوائل العقد الخامس من عمرها. كانت تشارلين إلبا، المرأة المتمرّسة، والقويّة، ودائمة الاستعداد، هي التي تُشرف على

(1) الديكتافون: المملاة أداة تسجل ما يملى عليها من كلام بحيث يكون في الإمكان سماعه بعد ذلك وتدوينه على الورق. (المحرر)

حملاتها الصحفيّة في هوليوود. طرقت إلبا على الميكروفون الرئيس، وافتتحت المؤتمر: "سيّداتي وسادتي، شكراً لكم على حضوركم. تدركون جميعاً الجهود الجبّارة التي تبذلها وكالات تنفيذ القانون في دول كثيرة لإيجاد كاتلين لوك. يُعبّر كلّ من كيلي لوك ونائب الرئيس توم لوك عن الامتنان العميق لجهود أولئك الأشخاص. ولكنّنا، هذا الصباح، لن نتناول أيّ مسائل على علاقة بالتحقيق". صمتت للحظة قبل أن تتابع: "اليوم، تودّ كيلي التوجّه إلى خاطفي ابنتها، أياً كانوا. بعد ذلك، ستُجري مقابلات. سيدوم المؤتمر الصحفي تسعين دقيقة، ومن بعده ستغادر كيلي للاجتماع شخصيًّا برئيس شرطة ويلتشر وممثّلين عن وزارة الداخلية البريطانية والأف بي آي. نشكركم على حضوركم مجدّداً".

أخذت كيلي ثانية من الوقت للاستعداد قبل أن تحاول التأثير في الحاضرين. شعرت بالنظرات الساخرة، وفكّرت في أنّها مخاطر المهنة. خلعت نظّارتها، وبدت عيناها حمراوَين، كما بدا واضحاً أنّها لم تُزيّن وجهها سوى بشيء من البودرة. كانت ملامحها مألوفة لديهم جميعا. "أياً تكن، ومهما كان ما تريده، أرجوك لا تؤذِ طفلتي". خنقت الغصّة صوتها وهي تتابع: "فكّر في أمّك، فكّر في زوجتك، أو شقيقتك. كيف ستشعر لو كنّ مكان كاتلين؟ ماذا كنتَ لتقول لمن يحتجزهنّ؟ ستقول الشيء نفسه. أرجوك، أرجوك لا تؤذِ الشخص الذي أحبّه أكثر من أيّ شيء في العالم، أرجوك أطلق سراحها". لم تكن تحمل ملاحظات أمامها بل ورقة بيضاء وقلماً. نظرت إليهما لمدّة بدت طويلة. ثمّ نظرت إلى الأعلى، وركّزت عينيها على الكاميرات والصحفيين، وكانتا مغرورقتَين بالدموع. "لطفلتي كاتلين قلب من ذهب. إنّها أحبّ، وأحنّ، وأروع ابنة في العالم. مستقبلها كلّه لا يزال أمامها؛ نصف قرن من

الحياة. لديها الحقّ بلقاء فتى أحلامها والوقوع في الحبّ، وتربية أسرة خاصّة بها، وحمل أحفادها، ومعرفة أنّها جعلت العالم أفضل بوجودها فيه. أتوسّل إليكم، لا تحرموها من ذلك، لا تأخذوا كلّ الحب الذي تستطيع إعطاءه، لا تأخذوا أحلامها ومستقبلها". مسحت بسرعة دمعة عن خدّها وتابعت: "أنا مستعدّة للتخلّي عن كلّ شيء من أجل استعادة ابنتي". قلبت الورقة الموجودة أمامها وحملتها أمام الكاميرات قائلة: "هذا كشف حسابي. أنا محظوظة لأنني أملك عشرة ملايين دولار باسمي. أعدكم بأن أعطيكم إيّاها، أياً كنتم. كلّ ما لديّ، كلّ ما أستطيع جمعه، مقابل عودة ابنتي سالمة". ثم ضاقت عيناها وقسا وجهها وهي تقول: "ولكن، اعرفوا هذا، أنا مستعدّة أيضاً لإعطاء هذا المال إلى كلّ من ينجح في إرشاد الشرطة أو أيّ عنصر من المباحث إلى بابكم، ويُعيد كاتلين سالمة، ويساعد في القبض عليكم وعلى كلّ من تورّط في خطفها". أخذت نفساً طويلاً وبطيئاً، وبدت أكثر استرخاءً بعض الشيء. أشارت إلى العملاق الواقف قربها قائلة: "هذا الرجل يُدعى جوش غوران". وضعت يدها المرتجفة على ذراعه العريضة وتابعت: "إنّه المحقّق الخاصّ، وصيّاد الكنوز الأكثر نجاحاً في أميركا". كانت تستمدّ القوّة من التحدّث عنه. "إنّه رائد سابق في وحدة قيادة العمليّات الخاصّة في القوّات الجوّية الأميركية. وفي المستقبل القريب، سيعمل من أجلي وحسب، وسيُكرّس وقته لإعادة ابنتي سالمة".

أشار غوران بإصبعه الكبيرة إلى أقرب كاميرا موجّهة إليه قائلاً: "لديّ رسالة إلى خاطفي كاتلين. أرجوكم، خذوا مال السيّدة الآن وأعيدوا إليها ابنتها، فعرض كيلي لوك صادق، وهي تعني ذلك". نظر حول الغرفة، وإلى السقف وتابع: "رجاء، اقبلوا العرض، لأنكم ستندمون إن لم تفعلوا ذلك؛ ستندمون حقاً إن أتيتُ وأخذتها منكم".

89

حاولت ميغان نسيان أمر إبعادها عن قضيّة لوك والتركيز على القلادة الفضّية التي وضعها جيمي دوكيري في راحة يدها. كانت معلّقة حول عنق طوني نايلور، الشابّ الضائع الذي رمت تومبكينز ملفّه على مكتبها عندما أصبحت الأحداث مثيرة للاهتمام.

عثر أحد الأشخاص الذين يمارسون رياضة المشي على القلادة الرخيصة في سهل ساليسبوري وسُلّمت إلى دائرة المباحث الجنائية التي ربطت بينها وبين القضيّة بسبب العبارة المنقوشة على الجهة الخلفية للقطعة المعدنية: "ميلاد سعيد ط. حبيب نات x". لاحظ جيمي أنّ العبارة تُشبه تلك التي كتبها طوني على الصورة التي التقطت له مع شقيقته في محطّة القطار. ولمزيد من الإثباتات، أكّدت ناتالي نايلور للتوّ أنّها القلادة التي ابتاعتها لشقيقها.

لم يكن العثور على القلادة ما لفت انتباه ميغان، بل المكان الذي عُثر عليها فيه. فقد عُثِر عليها في بقعة مهجورة ونائية، وليست أيّ بقعة، بل هي واقعة على أقرب طريق رئيس إلى مخزن الحبوب المحترق الذي عُثر فيه على جثّة جايك تمبرلاند.

نظر إليها جيمي وهي تحدّق إلى القطعة الفضّية الصغيرة، وسألها: "هل تحاولين الاتّصال بالأموات؟".

قلبت القطعة، وأجابت: "أتمنّى ذلك، لكنتُ بالتأكيد سألت طوني نايلور عمّا كان يفعله على ذلك الطريق، فذاك المكان ليس من الأماكن التي يقصدها المرء للتنزّه. فالطريق خالٍ، ومعزول، وغير جميل". أعطت الرقيب القلادة قائلة: "كان نايلور متشرّداً، ولا يملك مالاً، ولا منزلاً، ولا سيّارة بالطبع. كيف له أن يبتعد كلّ هذه المسافة عن أي بلدة أو قرية للذهاب إلى مكان لا يحتوي سوى على أرض جرداء،

وشجيرات؟".

"ربّما أوصله أحدهم إلى هناك، أو استقلّ سيّارة عابرة".

"لماذا؟".

"ربّما سمع عن وجود عمل في إحدى المزارع؟".

نظرت إلى صورة طوني نايلور الموضوعة في ملفّ على مكتبها. كان الشابّ البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً نحيل الوجه، وعاطلاً عن العمل معظم حياته. وعندما كلّف نفسه عناء كسب معيشته، لم يبتعد قطّ عن وسط المدينة والنوادي. وبالتالي لم يبدُ لها أنّ أعمال الحصاد أو الزراعة التي تقصم الظهر، وسط الأراضي النائية، مناسبة لنمط حياته.

لقد مات نايلور، عرفَت ذلك. هذا ما تظنّه وتشعر به. أدركت أنّها ستُضطرّ قريباً إلى رفع سمّاعة الهاتف الموضوع أمامها وإبلاغ شقيقته التوأم الأنباء السيّئة.

"جيم، حاوِل الحصول على دعم عمليّاتي لإجراء مسح شامل للحقول المحيطة بمخزن الحبوب".

"أتظنّين أنّه مدفون هناك؟".

هزّت ميغان رأسها وأجابت: "لا أظنّ ذلك فقط، بل أنا واثقة".

90

حان الوقت لعكس قواعد اللعبة.

الانتقال من الدفاع إلى الهجوم.

أخْذُ المبادرة عوضاً عن التفاعل.

راجع غيديون جميع الحقائق في ذهنه وهو يقف متوتّراً أمام مكتب د. سميثسين. كان المكان عبارة عن مجمّع قبيح الشكل في مبنى صناعي متهالك. رُكنت في الباحة شاحنات قديمة ومكسوّة بالغبار،

واكتسى الإسفلت ببثور من الحصى والإسمنت. تنافرت مع هذا المشهد سيّارة بينتلي سوداء جميلة طُليت بحسب الذوق الشخصي.

أخذ غيديون نفساً عميقاً ودخل قاعة الاستقبال القذرة، برائحتها الحادّة وجوّها المنفر.

"صباح الخير. أنا أبحث عن السيّد سميثسين، وأحتاج إليه للقيام ببعض الأعمال".

بدا الانزعاج على المرأة الجالسة خلف المكتب الرخيص، وتركت المجلّة التي كانت تحملها ثمّ نهضت قائلة: "اجلس، سأرى إذا كان مشغولاً". فتحت باباً منزلقاً، ثمّ أطلّت منه، قبل أن تلتفت إلى غيديون مجدّداً وتقول: "يمكنك الدخول". فتحت الباب أكثر ووقفت جانباً.

نهض ديفيد سميثسين عن كرسيّه الجلدي البالي لتحيّة زائره: "سيّد تشيس، كيف حالك؟". وأشار إلى أحد المقاعد.

"أنا بخير، شكراً".

عاد سميثسين للجلوس خلف المكتب، وقال: "تبدو أفضل حالاً بكثير ممّا كنتَ عليه حين رأيتك سابقاً".

"لم تكن الظروف جيّدة".

"بالتأكيد. والآن، كيف يمكنني مساعدتك؟".

"فكّرتُ في أنّ الوقت قد حان لتنفيذ ذلك العمل. أنت تعرف، إصلاحات المكتب، القرميد المُتلف، والسقف".

"السقف؟".

"ذكرتَ لي أنّك كنتَ تنوي إصلاحه لوالدي. كان قد أعطاك دفعة مسبقة".

صفع سميثسين جبينه بكفّه وابتسم قائلاً: "بالطبع، أنا آسف، الآن تذكّرت. ظننتُ أنّك تعني سقف المكتب".

ابتسم غيديون. حان الوقت لإنهاء التمثيليّة. لم يكن ينوي استئجار بنّاء، بل كان عذراً لمواجهة الرجل، لذا قال له: "عندما أتيتَ إلى تولارد رويال، صعدتَ إلى الأعلى وتجوّلت في المكان، وتصفّحت بعض كتب والدي الخاصّة".

بدا الذعر على سميثسين وأجاب: "صعدتُ لأتحقّق من متانة السقف، هذا كلّ شيء".

"كلاّ، لم تفعل". كان صوت غيديون هادئاً ولكنّه شعر بعصبيّته تتصاعد. "سيّد سميثسين، أعرف تماماً كيف، وأين تركتُ تلك الكتب، وقد حرّكتَها، حاولتَ البحث عن شيء أعتقد أنّني أعرف ماهيّته".

ظلّ البنّاء صامتاً.

"كنتَ تبحث عن الشيء نفسه الذي اقتحم من أجله ذاك الرجل المنزل، ذاك الذي تركَني في المكتب المحترق".

حاول سميثسين جهده أن يبدو مستاءً وهو يقول: "سيّد تشيس، أنا حقاً...".

قاطعه غيديون: "اسمع، أعرف انتماءاتك ومعتقداتك. أتظنّون أنّني أودّ كشفكم أو إيقافكم؟". هزّ رأسه نافياً وتابع: "الحرفة ترجع إلى آلاف السنوات. أنا أفهم مدى أهميّتها". انحنى إلى الأمام فوق مكتب البنّاء قائلاً: "أريد الانضمام إليها. تكلّم مع سيّد هانج. تكلّم مع أعضاء الدائرة الداخلية الذين ينبغي بحث الأمر معهم". دفع الكرسي إلى الخلف ونهض، ثم قال: "ثمّ عد إليّ، سيّد سميثسين. لديك أرقامي". اجتاز نصف الطريق نحو الباب، ثمّ توقّف والتفت مجدّداً مُضيفاً: "بالمناسبة، تمّ نقل الكتب. وقد رتّبتُ مع أشخاص أمر إيصال، مقتطفات مفصّلة جداً مع رسالة شخصيّة إلى الشرطة خلال أربع وعشرين ساعة، ما لم أتّصل بهم مباشرة". ابتسم مضيفاً. "الوقت يمرّ، احرص على الاتّصال بي قريباً جداً".

91

عند السـاعة السادسـة، أطفأت ميغان حاسـوبها وغـادرت المكتب لاصطحاب سـامي. كان آدم يرعى ابنتهما ويرغب في شـراء عشـاء لهم جميعاً. أراد تمثيل دور الأسرة السـعيدة مجدّداً. وبالرغم من أنّ حدسها حثّها على العكس، إلاّ أنا استسلمت.

لم يكن مطعم هارفسـت إن بعيداً عن منزله، فذهبوا إليه سيراً على الأقدام وجلسـوا في الخارج. أحضر آدم الشـراب والعصيـر إلى الطاولة الباليـة. أخذ سـامي إلى إحـدى الأراجيـح الصغيـرة بينما طلبـت ميغان الطعام. جلسـت ميغان وهي تنظر إلى الشـمس التي كانـت تغيب خلف باحة اللعب. وللحظة، بدت الأمور كما كانت عليه.

تركت سـامي الأراجيح، وركضت نحو حفرة في الرّمـل. تأكّد آدم أنّها آمنـة، ثمّ تركها تلعـب وعاد إلى الطاولـة قائلاً: "إنّها تكبر بسـرعة". جلس ورفع كأسه. "بصحّة الدور العظيم الذي تؤدّينه معها".

"وبصحّتك". أمالت كأسـها نحوه. "أنت زوج فاشـل، ولكنّك أب جيّد".

"أعرف، أُدرك ذلك الآن". نظر إلى سـامي التـي كانت منحنية مثل كلب صغير وهي تنبش الرمال بين ساقَيها ثم قال: "إنّها جزء منك ومنّي. أنا مسـتعدّ لفعل أيّ شـيء من أجلها و...". بـدا أنّ شـجاعته تخونه، ثمّ أضاف: "... ومستعدّ لفعل أيّ شيء من أجل استرجاعك".

"آدم...".

"كلاّ، أرجوك، دعينـي أنهي كلامي. لقـد أخطأت، أنا آسـف، حقاً آسف. ألا يمكننا محو الماضي؟".

نظرت ميغـان إلى الطاولـة، ثم قالت لـه: "ثمّة أمـور، كالخيانة، لا يمكن محوها ببساطة، آدم".

أتى الطعـام وجنّبهـا المزيد مـن الإحـراج. عندما انتهوا مـن تناول الغداء، كانت سـامي نائمة على حضن أبيها. عادوا إلى منزله سـيراً على الأقـدام، ووضعتها ميغان في سـرير في غرفة الضيوف. فتـح آدم زجاجة شراب كانا قد اشترياها من فرنسـا في آخر عطلة لهما قبل ولادة سامي. انتهى بهما الأمر وهمـا يتحدّثان عن العمل، وعن سـامي، وعن أسـباب علاقته الغراميـة. تكلّما إلـى أن أفرغا كلّ شـيء ولـم يعد ثمّة مـا ينبغي محوه.

شعرت ميغان بأنّها مستنفدة. قبّلت وجه سامي الجميل، وفعلت ما لا يجدر بها فعله؛ ذهبت إلى السـرير مع زوجها السابق الخائن. لم تكن ليلة شغوفة، بل مجرّد هدنة، ختماها بالاسـتلقاء جنباً إلى جنب. استمدّا الراحة ممّا كان لديهما، وممّا يمكن أن يكون لديهما مجدّداً.

92

الثلاثاء 22 حزيران

تسلّلت أشـعّة شـمس الصباح من خلال فتحة في سـتائر غرفة نوم آدم سـتون البسـيطة، وانعكسـت علـى مـرآة قديمـة معلّقة علـى الجدار المقابل. استيقظت ميغان منذ سـاعات، وظلّت متمدّدة قرب والد ابنتها، وهي تتأمّل ضوء الشـمس الدافـئ الذي انسـلّ إلى الغرفـة، وراح يرتقي الجدران ببطء.

كانت تشـعر بارتباك شـديد، وكان رأسـها ممتلئـاً بالنـدم، والأمل، والتحذيـر. دخلت سـامي الغرفـة راكضـة، وطـردت عنهـا كلّ أفكارها. كان خدّاها أحمرين من أثر النوم، وعيناها مشـرقتَين. قفزت إلى السـرير وحاولت اللعب معهما.

هدّأتها ميغان: "تمهّلي، حبيبتي، لا توقظي أباك".

فات الأوان، فقد استيقظ آدم. جلس واستند إلى ظهر السرير وهو ينظر إلى ابنته بعينين زائغتين: "تعالي أيّتها الصغيرة واحضنيني". قفزت إلى ذراعَيه خلال ثانية، وتركت ميغان أكثر اضطراباً ممّا كانت عليه.

تناول الثلاثة طعام الفطور معاً في مطبخ آدم الصغير، وثرثر معهما مرتاحاً، تماماً كما اعتاد: "هل لديك يوم حافل؟".

صبّت القهوة لهما، وأجابت: "وهل تأتي الأيّام غير ذلك؟ حتّى من دون قضيّة تمبرلاند، سأكون مشغولة جداً، ولا شكّ في أنّ الانقلاب الشمسي سيُخلّف وراءه بعض المشاكل".

مضغ الخبز المحمّص المدهون بالزبدة وهو يتكلّم: "اتّصلتُ بقسم المراقبة في الليلة الفائتة. حتّى ذلك الوقت، كان لديهم عشرة أوامر اعتقال، وعدّة بلاغات عن سرقات، وقضيّتا متاجرة بالعقاقير الممنوعة".

شعرت ميغان بالارتياح فقالت: "الحمد لله. وهل لديهم معلومات جديدة عن قضيّة لوك؟".

"ما زالت وسائل الإعلام تتكلّم عن المؤتمر الصحفي الذي عقدته الأمّ". لعق الزبدة عن أصابعه، ثمّ أعطاها جهاز التحكّم، وأشار إلى التلفاز الصغير الموضوع في زاوية الغرفة قائلاً: "جرّبي محطّة سكاي، فهم يعرفون ما يجري قبلنا".

وجدت تقريراً إخبارياً عن الوالدة. كان عبارة عن مقابلة فاترة مع ألان هانت شاحب الوجه، وعدّة لقطات لرجال قد يكونون عملاء أف بي آي، وملاحظة تافهة من شخص في وزارة الداخلية، فضلاً عن لقطات عشوائيّة من باريس، وأخيراً، تسجيل لجون رولاندز وبارني غيبسون ظهرا فيه منهكَين وغاضبَين وهما يغادران مركز الشرطة بسيّارتَين منفصلتَين.

سألها آدم، وهو ينهي قهوته ويبحث عن سترته: "إذاً، ماذا ستفعلين الليلة؟".

"وما معنى ذلك؟".

ابتسم بدفء: "المعنى واضح؛ هل ستعودين؟".

لم تكن واثقة؛ إذ إنّ النسيان والمسامحة صعبان جدًّا بالنسبة إليها. "دعني أفكّر في الأمر. حاليًّا، عليّ أن أذهب إلى البيت لتبديل ملابسي. ثمّة أمر هامّ ينتظرني هذا الصباح، هل يمكنك إيصال سامي إلى الحضانة؟".

"بالتأكيد". جرّب حظّه مجدّداً. "وماذا عن الليلة؟".

"ربّما". لان وجهها وهي تقول: "لنرَ كيف ستسير الأمور في الأيّام القادمة".

وقف جيمي دوكيري على الطريق وأخذ يلوّح لسيّارة رانج روفر. كان سائقها البالغ من العمر ستّين عاماً يرتدي ملابس مزارع. توقّف في الحقل المنعزل، ثمّ نزل ومشى بسرعة نحو صندوق السيّارة رباعيّة الدفع، وتبعه جيمي بعجلة.

قال السائق بلكنة إنكليزية راقية: "صباح الخير، حضرة التحرّي. يبدو يوماً جميلاً".

لم يكن جيمي واثقاً. "صباح الخير، آمل ذلك. كيف حال مسخيك المجنونين اليوم؟". نظر عبر زجاج الباب الخلفي إلى الديكَين الروميَين الكاسرين اللذين وضعهما تاركوين دي ويل في قفص في الخلف.

قال دي ويل: "إنهما بخير. هل أخبرتك أمس عندما أتيتَ أنّني ربّيتهما منذ أن كانا صغيرين؟".

"أجل".

"إنّهما من أصل كندي، أفضل ما يمكنك الحصول عليه". همّ بإخراج القفص الضخم من السيّارة. "ساعدني".

شكّ جيمي للحظة في جدوى ما يفعله. فالمساعدة التي أمرته ميغان بطلبها من الدعم العمليّاتي لم تصل. لم يجد كلباً بوليسياً في أيّ مكان، كما أنّ الرادار الأرضي محجوز حتّى الميلاد. لذا، بدا له طيرا تاركوين الكاسران طريقة ممكنة للبحث عن الجثث؛ جثّة طوني نايلور تحديداً.

قال دي ويل: "أنا توّاق لمعرفة ما إذا كانا يستطيعان اكتشاف شيء". كان جيمي قد قرأ في مجلّة بوليس عن تحرّيين ألمان يستخدمون الصقور لكشف أماكن جثث مدفونة، وقيل إنّ مُربّي الحيوانات، تاركوين دي ويل، راغب في التعاون مجّاناً مع أيّ قوّة شرطة في بريطانيا تودّ القيام بالتجربة. حسناً، هذه فرصته.

استناداً إلى التقارير، أثبتت الطيور الألمانية في كلّ مرّة قدرتها على إيجاد لحم الجثث. إذ قيل إنّ لدى الصقور حاسّة شمّ قويّة على نحو لا يُصدّق. فهي تستطيع إيجاد قطعة لحم متعفّنة صغيرة من على ارتفاع ثلاثمئة قدم. وخلافاً للكلاب البوليسية، فإنّها لا تتعب بسرعة.

وضع التحرّي نظارته الشمسية. كانت ضروريّة في ذلك النهار تحت شمس الظهيرة الساطعة. "سيّد دي ويل، إن تمكّنتَ من إنجاز هذا العمل، فسنكون بطلَين في آخر هذا النهار".

قال دي ويل بثقة: "بالطبع سننجح، كن واثقاً".

ساعده جيمي على رفع قفص معدني كبير إلى حدّ أنّه يتّسع لألزاسِيَّين[1]، ثمّ وضعاه على الأرض. عندما فرد الطائران أجنحتهما،

(1) من سكان الألزاس.

تجاوز عرضهما ست أقدام. صدرت عنهما أصوات انزعاج من هذا التطفّل.

وضع دي ويل كمامة خاصّة على كلّ من المنقارَين الأبيضَين، ثمّ علّق جهازاً لتحديد المواقع على قائمة كل منهما ليتمكّن من تحديد الموقع بدقّة إن عثرا على شيء. "قلت إنّك تملك شيئاً يخصّ الرجل المفقود؟".

ناوله جيمي قلادة طوني نايلور فحملها أمام الرأسَين الأحمرَين الأصلعَين قائلاً: "إن كان هنا - حتّى إن كان مدفوناً - فسيجده هذان الاثنان، حتّى من دون هذه الحلية الصغيرة".

توجّه دي ويل إلى مقدّمة سيارته لتثبيت الجهاز الإلكتروني على المقعد المجاور للسائق. بعد بضع دقائق، عاد بابتسامة عريضة وعينَين تشعّان بحماسة طفولية وسأله: "هل أنت جاهز؟".

رفع جيمي حاجبه وأجاب: "جاهز تماماً".

94

شعر غيديون أنّ الرحلة التي استغرقت ساعة من الزمن كانت أطول رحلة قام بها وأكثرها وحدة.

أمضى معظم الليل ممدّداً وهو يفكّر في هذا اليوم. وها هو الآن، يجلس في السيارة بعد أن أطفأ المحرّك، ويحدّق من النافذة، ويتمنّى إيقاف الزمن.

كانت محرقة ويست ويلتشر مبنيّة على مساحة عشرة آكرات في ريف سامنغتون الهادئ. ولكنّ جمال المنظر لم يُنسه أنّهم على وشك إحراق جثّة أبيه. سيدخلونها في فرن إلى أن يتحوّل كلّ ما تبقّى منه إلى رماد. رماد على رماد، غبار على غبار. سمع الجملة آلاف المرّات،

ولكنّه لم يفهم معناها حتّى الآن. من العدم إلى العدم.

سيزول كلّ رابط عاطفي بينه وبين أبيه، ولن يتبقّى منه سوى الذكريات. ذكريات مختلطة. بالطبع، لديه كتب ناثانيال وأشرطته، ولكنّها مجرّد وثائق، تذكارات أثريّة من الأب الذي لم يعرفه، وليس من الأب الذي عرفه.

شعر بحرارة شمس الصباح وهو يترجّل من السيّارة ويمشي في الطريق بالغ النظافة. رأى أمامه المحرقة التي كانت عبارة عن بناء مميّز يبدو حديثاً بعوارضه وأبوابه الخشبية الكثيرة، ونوافذه الزجاجية الملوّنة، وسطحه الجميل المغطّى بالقرميد الأحمر.

سمع غيديون وقع خطوات، فالتفت ورأى ميغان تسير مسرعة للحاق به. لم يتوقّع منها المجيء، وتأثّر لوجودها. كانت ترتدي فستاناً أسود متوسّط الطول، وتنتعل حذاء أسود منخفض الكعبَين» وتحمل معطفاً أسود على ذراعها. قالت وهي تلهث قليلاً: "مرحباً، أتمنّى ألاّ تمانع قدومي".

"إطلاقاً، هذا لطف منك".

لمست بتعاطف كمّ بذلته السوداء الجديدة وهما يدخلان. "فكّرتُ في أنّك لا تعرف الكثير من الناس هنا وأنّك ستُرحّب ببعض الدعم النفسي".

أخذ نفساً عميقاً، وقال: "بالفعل، شكراً".

لم تذكر ميغان أنّها مهتمّة أيضاً برؤية الذين سيحضرون، وباكتشاف علاقتهم بناثانيال تشيس، وكيف سيتصرّف غيديون في هذا اليوم الصعب.

أدخلهما الحاجب دار العبادة، ثم قادهما إلى القاعة التي وُضع فيها التابوت. كان غيديون قد رفض المجيء خلف النعش من

شافتسبيري. فالرحلة ستكون بطيئة جداً، ومؤلمة جداً. كما رفض أيضاً فكرة أيّ مديح تأبيني.

وقف غيديون وميغان بمفردهما عندما فُتح النعش. أخفض رأسه، فضغطت على يَده لتشدّ أزره. حاول عدم التفكير في جثة أبيه وهي تدخل المُعْوَجَّة، ذلك الجزء الخاصّ من الفرن الذي ستُعرّض فيه لحرارة شديدة الارتفاع، تتجاوز ألف درجة. بسبب معلوماته في مجال الآثار، كان يعرف أنّ حرق الجثّة يُبخِّر الأنسجة اللينة والأعضاء، ولا يترك سوى العظام خلفه. ولكن، سيتمّ سحق ما يتبقّى وتحويله إلى غبار.

رماد على رماد.

حاول عدم التفكير في الرجل الذي خسره، والأشياء التي يتمنّى لو قالها له، والكلمات التي يندم على قولها.

غبار على غبار.

أتى إلى هنا لإتمام المراسم، هذا كلّ شيء. عليه تنفيذ رغبة والده، وحرق جثّته وذرّ رمادها على ستونهنج.

انتهت مراسم الحرق في أقلّ من خمس عشرة دقيقة، بلا عزف أو نحيب، بل مجرّد صمت وفراغ.

في طريقه إلى الخارج، أخبره أحد الموظّفين أنّ بإمكانه استلام رفات والده خلال ساعتَين أو في الصباح إن كان يفضّل ذلك، فاختار العودة بعد ساعتَين. كان يريد إتمام كلّ شيء في هذا اليوم، من دون الحاجة إلى العودة لاحقاً.

ذهب الاثنان إلى سيّارتيهما. وقف غيديون أمام باب سيّارة الأودي وبدا شارداً. ففاجأته ميغان قائلة: "أتودّ الذهاب إلى المقهى؟ لا يمكننا الذهاب من هنا من دون تناول الشراب وتوديع والدك بشكل لائق".

95

سمعت كاتلين هديراً مخيفاً.

هبّ هواء بارد في الجحر النتن، وامتدّت أيدٍ عبر الجدار وسحبتها.

كان جسدها متصلّباً وثقيلاً إلى حدّ أنّها شعرت وكأنّها ثُبّتت بالمسامير على اللوح الحجري الصلب. سحبوها من الفجوة بسرعة، ودفعوها عبر ممرّ ضيّق ومظلم إلى غرفة مستديرة مضاءة بالشموع. حاولت كاتلين حجب الضوء عن عينَيها؛ إذ شعرت وكأنّ الشعلات الصغيرة المتراقصة ساطعة على نحو مؤلم. خلف أجفانها المغمضة، رأت دوائر في شاشات شبكيّتها الكيميائيّة. ذُعرت للحظة، وراحت تصارع لتتنفس.

ربط رجلان حبالاً حول رسغَيها، ثمّ راحا يجرّانها باتّجاه عقارب الساعة. دائماً باتّجاه عقارب الساعة. عشرون دورة على أرض الغرفة الحجرية. كانت كاتلين تشعر بالدوار عندما أوقفاها وتركاها تشرب الماء البارد. احتجّت معدتها التي أخذ الجوع يقرصها ويشنّجها.

بعدما انتهيا من ترييضها وسقايتها، فكّا الحبل وانسحبا إلى خارج الجدار الدائري.

بإمكانها الآن فعل ما تريده. ولكن، لا شيء لديها لتفعله، فالمكان المحيط بها خال تماماً؛ إنّه فراغٌ وضعَها فيه أناس موجودون خارج المكان. فهمت أنّها خدعة ذهنيّة من نوع ما. أوّلاً، يحشرونها في فتحة ضيقة في جدار بحيث لا تستطيع التحرّك، ثمّ يعطونها مساحة بقدر ما تريد، ولكنّها مع ذلك لا تستطيع التحرّك.

الإرادة الحرّة. كانوا يعبثون بإرادتها الحرّة.

جلست كاتلين. تربّعت وأغمضت عينَيها وابتعدت عن فظائع

عالمها. حاولت إيجاد نفسها. حاولت التقاط خيط حديدي لا يمكن أن ينقطع، خيط متين يمكنها التمسّك به دائماً.

نسيت تدريجيًّا المحيطين بها، والرائحة، وأضواء الشموع، والأرض الحجرية الباردة، وتقلّصات معدتها، والحرقة في مريئها، والفراغ. ابتعدت أكثر من أيّ شيء عن الفراغ. لم تكن في أيّ مكان، بل في ظلام أحلامها الآمن.

شعرت كاتلين بالألم في ساقَيها. كانت تزداد ضعفاً، وتشعر بأنّها تنهار، وتتهاوى إلى الخلف. انقضّ عليها الرجال المقلنسون مثل مجموعة من الكلاب. أوقفوها وجرّوها إلى مكان الاغتسال. دفعوها إلى المياه الساخنة، وراقبوها وهي تغتسل وترتدي ملابسها مجدّداً، قبل أن يعيدوها إلى زنزانتها.

عادت إلى المكان الخالي من الفراغ.

عادت إلى كابوسها.

96

ارتفع الطائران الأسودان في السماء الشاحبة فوق الحقول المقفرة. اختفيا خلال ثوان، ولم يظهر منهما أيّ شيء في الأفق. نظر تاركوين دي ويل إلى شاشة حاسوبه. كان يستطيع رؤية خطّي طيرانهما عالياً في السماء. "إنهما سريعان، أليس كذلك؟".

سأله جيمي: "ماذا لو لم يعودا؟ قد تُمضي بقيّة حياتك محاولاً التقاطهما".

"لم تُخلق هذه الطيور لتطير بعيداً". لم يرفع الرجل عينَيه عن الشاشة وتابع: "فهي طيور كنّاسة كسولة، تطير إلى أن تشمّ رائحة الطعام، ثمّ تعود على الفور. كما أنّ ويلتشر هي المسكن الوحيد الذي

تعرفه. إنها بيتها الطبيعي الآن".

حذّره جيمي: "ثمّة الكثير من النشاطات العسكرية هنا، أتمنّى ألاّ يُقتلا".

"ليست هناك مشكلة، ها قد عادا". كان صوته مليئاً بالحماسة.

طار الطائران الكاسران فوق الرانج روفر، وحطّا في الحقل على بعد مئة متر من الرجلَين. وعلى الفور، بدآ ينقران الأرض. انتصب ريشهما، ورفرفا، ثمّ حطّا على بُعد عدّة أقدام ونقرا الأرض مجدّداً. قفز الطائر الأصغر جانباً ونقر فوق ثلمَين على بُعد مئتي متر من بقايا مخزن الحبوب.

راقبه جيمي بمشاعر مختلطة. كان يتوقّع أكثر من ذلك، شيئاً أكثر إثارة، كما يحدث عندما يثور جنون الكلاب البوليسية وتبدأ بالعواء والحفر وكأنّها تحاول إيجاد طريق مختصر إلى أستراليا. ولكنّ الطيرَين لم يقدّما عرضاً مماثلاً، بل راحا ينقران الأرض بكسل لمدّة ساعة تقريباً ولم يغادرا الحقل المجاور لمخزن الحبوب المحترق. انخفضت معنويّات جيمي، وتحقّق من ساعته. "لنتوقّف، كان الأمر يستحقّ المحاولة".

قال دي ويل: "سأُعطيهما طعاماً وأعيدهما إلى القفص".

"حسناً". نظر جيمي إلى شاشة الحاسوب المحمول بينما ذهب دي ويل لإحضار بعض الفئران الميتة من صندوق طعام مغلق. كانت الشاشة تسجّل خطّي طيران الديكَين بواسطة نظام التعقّب. رأى خطوطا على الشبكة، ولكنّها خطوط مستقيمة امتدّت صعوداً ونزولاً عبر الحقل، وكأنّهما كانا يجزّان العشب أو يحرثان الأرض.

لم يستطع إبعاد الفكرة. يا لهما من مخلوقين غريبين! لمَ فعلا ذلك؟ عاد إلى سيّارته، وبحث في الصندوق إلى أن عثر على بعض

أكياس الأدلّة الاحتياطيّة، ثمّ تسلّق الجدار المؤدّي إلى الحقل. مشى جيمي خلف الطيرَين الجارحَين وبدأ يجمع عيّنات من التربة.

كانت محاولة غير أكيدة. ولكن، إن تبيّن أنّه محقّ، فقد عثر الطيران على رفات طوني نايلور.

خمّن أنّ جثّة الشابّ المفقود قد طُحنت وفُرشت كالسماد في أرجاء الحقل.

97

وضعت ميغان كأسَي شراب على الطاولة التي تفصل بينها وبين غيديون. كان المقهى عبارة عن مكان غريب يجمع بين المتناقضات.

"شكراً". قرّب الكأس منه ولكنّه لم يشرب. كان ذهنه مشغولاً بأشياء يرغب في قولها. "هل تذكرين اليوم الذي أتيتِ فيه إلى منزل والدي، حين أخبرتك عن اعتقادي بأنّه قتل نفسه بسبب جمعيّته السرّية، أتباع المبجّلين؟".

هزّت رأسها، وأحسّت بالقلق من وضعه الذهني، غير أنها أجابت: "أجل، أذكر. كانت تلك هي المنظمة السرّية التي قلتَ إنّه أتى على ذكرها في يوميّاته".

شعر غيديون أنّها تشكّ في صحّة ما قاله: "هل تظنّين أنّني مجنون؟ وأنّ الحزن والصدمة قد ذهبا بعقلي؟".

"كلاّ". حاولت أن تكون متعاطفة. "أنت لست مجنوناً بالتأكيد. ولكن، أظنّ أنّك تعاني الإجهاد النفسي". انحنت إلى الأمام وتكلّمت بهدوء: "غيديون، ربّما يكون أبوك منتمياً إلى منظّمة سرّية من نوع ما، ولكن أشكّ في أن تكون لها علاقة بموته". خافت عندما فكّرت في ما توشك على قوله ولكنها تابعت: "أنا آسفة. ولكن، ثبت لي خلال

تجربتي أنّ الناس ينتحرون لأسباب شخصيّة جداً، ولا علاقة للأمر أبد
بعضويّتهم في نادٍ خاصّ أو ما شابه".

هزّ رأسه وحرّك الكأس بعصبيّة حول الطاولة وقال: "الرجل الذي
اقتحم منزل أبي وأشعل الحريق ينتمي إلى هذه المجموعة". اتحنى
نحوها مضيفاً: "وأنا لا أتحدّث هنا عن فرقة من الكشّافة، بل عن منظّم
سيّئة".

انتقلت ميغان إلى أسلوبها الأكثر رسميّة. "قد تظنّ ذلك، ولكن
هل بإمكانك إثباته؟ هل تستطيع؟".

قال غيديون: "أعرف ذلك". وضع قبضته على قلبه. "هنا، أعرف
ذلك".

"هذا ليس كافياً في القانون". كانت ميغان تعرف أنّه يتألّم، ولكن
لا جدوى من تركه يخدع نفسه. "ألا تظنّ أنّه لو كان والدك عضو
في جمعيّة كهذه، في أخويّة سريّة كما تقول، لكان بعض أعضائها قد
حضروا اليوم لتقديم تعازيهم؟ لم يأتِ أحد، لا أحد سِوانا". أزعجه
التعليق فأجابها: "ربّما لم يعرفوا بالأمر، فهو لم يُنشر في الصحف".
خطرت له فكرة أخرى. "وربّما قرّروا عدم المجيء". نظر إليها بحدّة:
"ربّما توقّعوا وجود الشرطة".

فهمَت ما يرمي إليه فقالت: "لم آتِ لهذا السبب وحسب".

"كلاّ، بالطبع لا". أدرك أنّه كان قاسياً. "آسف". تناول أخيراً رشفة
من الشراب. كان بنكهة التفاح، ولكنّه لم يكن يتلذّذ بشيء في تلك
اللحظة. "أتى إليّ بنّاء منذ يومَين، وقال إنّه سمع عن الحريق وأراد
المساعدة في إصلاح الأضرار. قال لي إنّه قام بأعمال لأبي في السابق
فسمحتُ له بالدخول لتقييم حجم الضرر. وفجأة وجدته في الطابق
العلوي يبحث في المكان".

وضعَت الكأس من يدها وسألته: "هل أخذ شيئاً؟".

"لم يتسنَّ له الوقت، ولكنّني وجدته في حجرة أبي الخاصّة وهو
يحاول قراءة المذكّرات التي أريتك إيّاها".

لم تكن واثقة ممّا يقصده فسألته: "حجرة أبيك الخاصّة؟ هل تعني
غرفة نومه؟".

"كلاّ، بل الغرفة المجاورة لها. فقد بنى غرفة سرّية في آخر الممرّ،
وفيها خبّأ مذكّراته. ومن لا يعرف بوجودها، فلن يراها أبداً. إلاّ أنّني
تركت الباب مفتوحاً يومذاك".

تساءلت ميغان للحظة ما إذا كان قد سمح عرَضاً بدخول سارق
آخر إلى المنزل، أتى يسعى وراء تحف أثريّة. "هل لديك اسم ذلك
البنّاء؟".

"سميثسين، ديف سميثسين".

أخرجت قلماً من حقيبة يدها وكتبت الاسم على قصاصة ورق، ثم
سألته: "هل تريد منّي التحقّق ممّا إذا كان بنّاءً بالفعل؟".

"لا حاجة إلى ذلك. فقد ذهبتُ إليه، وسألته مباشرة إذا كان ينتمي
إلى الأتباع مثل والدي، ولكنّه أنكر الأمر".

نظرت ميغان مطوّلاً إلى الرجل المتعب والبائس الجالس أمامها.
حجرات سرّية، وجماعات سرّية، وبنّاؤون يعتقد أنهم لصوص. الشابّ
مريض، ومصاب بجنون الارتياب. لن تُفاجأ إن علمت أنّه يعاني إجهاد
ما بعد الصدمة.

"غيديون، أظنّ أنّك تقرأ الكثير عن الموضوع. أنت مضطرب
جداً وتحتاج إلى بعض الوقت لإغلاق الباب على موت أبيك، واقتحام
المنزل، والاعتداء الذي تعرّضت له. ستشعر بالارتياح عندما نسجن
أحدهم، وهذا ما سيحدث قريباً على ما آمل. فنحن نقوم بتحليل للوجه

الموجود في الصورة التي أعطيتنا إيّاها، كما أنّنا على اتّصال مع مخبرينا في الشوارع".

هزّ رأسه.

رأت ميغان أنّ ما قالته ليس كافياً فتابعت: "إنّنا نتعامل مع القضيّة بجدّية، صدّقني".

أجابها بحدّة: "كلاّ، هذا غير صحيح. لقد انتحر أبي بسبب شيء تفعله تلك المجموعة، شيء فظيع، وأنتم لا تأخذون الموضوع بجدّية إطلاقاً. أنتم لا تهتمّون سوى بعمليّة السطو اللعينة، وبأرقامكم الخصّة بلا شكّ". شرب ما تبقى في الكأس ونهض قائلاً: "شكراً على الشراب، وعلى مجيئك. سأذهب الآن، فأنا بحاجة إلى بعض الهواء النقيّ إلى الانفراد بنفسي".

فكّرت ميغان في كلّ ما قاله غيديون وهي تقود سيّارتها عائدة إلى ديفايزيس. كانت واثقة أنّ مخاوفه وريبته لا أساس لها من الصحّة. كلّ ما في الأمر أنّه يعاني الاضطراب والإجهاد النفسي. عندما وصلت إلى مكتبها، كانت قد وضعت خطّة بسيطة لإزالة شكوكه ولتثبت، أنّ اتّهاماته غير صحيحة.

تناولت الهاتف واستخدمت شبكة اتّصالاتها للتكلّم مباشرة مع البروفيسورة ليليان كوبر، رئيسة علم الدم في مستشفى مقاطعة ساليسبوري. كانت البروفيسورة صديقة مقرّبة من شخص تعرفه. لمبت ميغان رقم البروفيسورة وتمكّنت من تملّقها لإعطائها نتائج تحاليل الدم التي خضع لها غيديون عندما دخل المستشفى بعد الحريق.

"نتائج التحاليل سلبيّة. لا يعاني اضطرابات من أيّ نوع كان.

الشابّ مثال للصحّة الجيّدة". أحسّت بشيء من الملل في نبرة البروفيسورة كوبر وهي تراجع بقيّة الملفّ. "في الواقع، وبالنظر إلى ملاحظاته، لم يُصب غيديون تشيس بأيّ مرض منذ أن كان طفلاً".

صمتت طويلاً، وتناهى إلى ميغان صوت أزرار لوح مفاتيح الحاسوب عبر الخطّ. "في الواقع، لستُ واثقة حقاً من دقّة ما أقرأه". بدا صوتها متفاجئاً. "يبدو أنّه تعرّض لتشخيص خاطئ في صغره. فالسجلّ الذي بين يدَي يُشير إلى أنّه كان مصاباً بسرطان الدم الليمفاوي المزمن".

"وما هو بالضبط؟".

"إنّه مرض مريع، ولا يظهر عادة قبل سنّ الأربعين. لا بدّ من أنّه وراثي. يتجلّى المرض عندما يطرأ خلل على وظيفة الخلايا المنتجة للدم وتخرج العمليّة عن السيطرة. فتتكاثر الخلايا الليمفاوية بسرعة كبيرة، وتعيش طويلاً جداً. فينتهي الأمر بارتفاع أعدادها في الدم، ثمّ تجتاح الخلايا البيضاء الطبيعية، وخلايا الدم الحمراء، واللويحات في النخاع العظمي".

أرادت ميغان أن تتأكّد من أنّها قد فهمت تماماً فسألتها: "ولكنّه ليس مصاباً به، بل كان خطأ في التشخيص، أليس كذلك؟".

"أجل، هذا صحيح. مهلاً". صمتت مجدّداً وهي تراجع الملاحظات. "أنا واثقة من أنّه كان خطأ في التشخيص، ولكن لا يبدو أنّ أحداً قد أقرّ بذلك. هذا غريب. يشير التقرير إلى أنّه كان يعاني من مرحلة متقدّمة من المرض ويحتاج إلى علاج أوّلي. وبعد أشهر، أظهرت التحاليل أنّ دمه نظيف، تماماً كما حدث عندما حلّلناه". بدت نبرتها منزعجة. "هذا لا يُعقل، لا يُعقل ببساطة. فالمرض عضال ولا يختفي أبداً ببساطة".

"حضرة البروفيسورة، هل أنت واثقة أنّ دمه نظيف بالفعل الآن؟".

"عليّ أن أكون حذرة. لا يمكننا أبداً أن نقول إنّ مرضاً عضالاً قد شُفي نهائيًا، وبالنظر إلى الملفّ الموجود أمامي، أستنتج أنّه لم يعد يعاني المرض الذي أثبت التشخيص أنّه في مرحلة متقدّمة في السابق".

شكرتها ميغان وأقفلت الخطّ. لم يكن هذا ما توقّعت إيجاده إطلاقاً. فالسجلاّت الطبّية دعمت قصّة غيديون غير المعقولة عن أنّه شُفي بعد أن اغتسل بمياه من أحجار ستونهنج.

كان الاتّصال التالي الذي قامت به مفتّشة المباحث يهدف إلى التحقّق من سجلاّت ديفيد إي سميثسين التجارية. طلبت كشفاً عن مخابراته الهاتفية في العمل والمنزل، وفواتير بطاقة اعتماده، وتفاصيل عن حسابه المصرفي.

بدا من فيض الوثائق الإلكترونية التي تدفّقت إليها أنّ سميثسين بنّاء ناجح ومحترم، ومهندس حدائق محترف. استخدمت ميغان خرائط غوغل للبحث عن صور جوّية وثلاثيّة الأبعاد لمكان عمله ومنزله. كان منزله فخماً ومنعزلاً، وهو على الأرجح مزرعة قديمة أُعيد ترميمها. يحتوي على الأقلّ على خمس أو ربّما ستّ غرف نوم، ويضمّ عدّة ملحقات. قرّبت الصورة أكثر، ورأت قاعة رياضية تحتوي على حوض سباحة كما بدا لها. كان المنزل محاطاً بأسوار عالية، تضمّ بوّابات كهربائية وكاميرات، ويمتدّ على مساحة تتراوح بين خمسة وستّة آكرات. قدّرت قيمته بنحو ثلاثة ملايين باوند على الأقلّ. ضغطت ميغان على أزرار حاسوبها. لا يبدو أنّ لديه أيّ رهن عقاري. في الواقع، لم تجد ميغان أنّه مدين لأيّ كان. أظهرت أبحاثها أيضاً أنّه يملك سيّارة بورش حديثة، ربّما هي لزوجته، وسيّارة بينتلي لاستخدامه الشخصي. ضغطت مجدّداً على الأزرار، لتكتشف أنّ لديه مليون باوند في المصرف.

بدت حسابات سميثسين التجارية في وضع ممتاز. إذ يدير هو

وزوجته شركة يبلغ رقم مبيعاتها السنوي أحد عشر مليون باوند، وتصل أرباحها إلى مليون ونصف. يبدو دخله منسجماً مع نمط حياته. راجعت السجلاّت الإجرامية وتبيّن أنّ سجلّه نظيف تماماً.

يبدو كلّ شيء فوق الشكوك، ولكنّها لم تشعر بالارتياح. لا بدّ من أنّ أمراً ما قد فاتها. تفحّصت ميغان المخابرات الهاتفية التي أجراها بواسطة هاتفه النقّال. كان يملك أحدث إصدارات أيفون، ولكنّه نادراً ما يستخدمه. راجعت المخابرات ولاحظت أنّه اتّصل بالمنزل، وحجز في المطعم نفسه بضع مرّات، ونزّل عدداً من الرسائل الإلكترونية. ينبغي لرجل بنجاحه وانشغاله أن يستخدم الهاتف على نحو أكبر. راجعت مخابراته الأرضية وتفحّصتها عن كثب، لتجد حركة هاتفية منخفضة هناك أيضاً. إمّا أنّه بارع جداً في تفويض أشخاص آخرين ليديروا أعماله ويقوموا بالاتّصالات عوضاً عنه وجني المال له، أو أنّ لديه هاتفاً آخر، لا تُرسَل فواتيره إلى منزله أو مكان عمله.

كانت ميغان واثقة أنّه يستخدم خطًّا هاتفياً مسبق الدفع، من دون عَقد أو أثر لمالكه.

لماذا يفعل رجل أعمال ومليونير ذلك مع أنّ لديه هاتف أيفون حديثاً؟ استندت إلى ظهر مقعدها وابتسمت.

لأنّه يملك أسراراً.

99

مشى غيديون تحت سماء المغيب نحو الأحجار، وحاول أن يتذكّر متى كانت بالضبط المرّة الأخيرة التي زار فيها المكان. ربّما منذ عشرين عاماً، بعد أن مرض مباشرة.

كان يحمل رفات والده في عبوة أنبوبيّة الشكل، اختيرت خصّيصاً

لهـذا الغـرض، وانتابـه الحـزن والحنيـن. نظـر إلـى الحقـول والضباب المتراكم وتذكّر كيف أمسـكه والدُه مـن يده، وقاده عبـر الحقول الغارقة في الضباب إلى الأحجار شاهقة الارتفاع.

بعد مرور عقدَيـن من الزمن، شـعر بأصـداء ذلك الخـوف. عاوده الذعر الذي شعر به عندما كان في الثامنة من عمره، وتُرك لبضع لحظات في هذا المـكان. شـعر حينهـا وكأنّه بقـيَ دهـراً. أحاطت به أشـباح من الظلال، كبيرة كالأشجار، وراحت تمدّ أيديها لإمساكه.

تذكّـر غيديـون كلّ ذلك. فـي ذلك اليـوم، تكلّـم والـده على نحو غريب. قال إنّه ثمّة أشـياء في الحياة لا يمكننا فهمهـا تماماً، ولكن علينا احترامهـا؛ كالقمر الـذي يراقبـه. تلك القـوّة الهائلـة المرتبطة بقـواه غير الواعية، وبوتيرات الحيـاة الدوريّة: الخصوبة البشـرية، نموّ المزروعات، تبدّل الفصول. كان صغيراً جداً حينذاك ليفهم ما يعنيه.

نظر غيديون إلى أحجار السارسـين الهائلة والأحجار الزرقاء. رأى والـده يضع يـده على أحد تلـك الأحجـار الموجـودة في وسـط الدائرة ويمدّ يده الأخرى نحوه. قـال له إنّ روح الكون مدفونـة في أعماق هذه الصخرة، محميّة ومحفوظة فيها إلى ما لا نهاية.

لم يشأ الإمساك بيَد أبيه، ولكنّه فعل. كان ذلك مخيفاً، وكأنّ شحنة كهربائية قد انبعثت عبر نقطتَين وشـعر بأنّ طاقة متذبذبة قد ربطتهما معاً. ثمّ أخذه والده حول الدائرة وجعله يلمس كلّ الأحجار الأخرى. ضغطه عليها وثبّته هناك بينما راح التيّار ينبض ذهاباً وإياباً بين الحجر والجسد.

"مساء الخير".

أجفله الصوت، فقد أتى من العدم. التفت بسرعة.

إنّه أبوه.

للحظة، هـذا ما ظنّـه، وراح قلبه ينبـض بجنون، بينمـا أخذ يلهث.

كان الرجل الواقف أمامه يُشبه أباه طولاً وشـكلاً، وهو على الأرجح في مثل سنّه. وفي ذلك الضباب، بدا الشبه مثيراً للاضطراب.

ابتسم الرجل العجوز قائلاً: "لم أقصد إفزاعك، أنا آسف".

"لا بأس، كنتُ على بُعد أميال".

اقترب منـه الغريب. بدا الآن أطـول وأعرض ممّا ظـنّ غيديون في البداية، وكان شـعره رمادياً وقصيراً. اخترقته نظرات عينَيه الداكنتَين. "لا يجدر بك أن تكـون هنا، كمـا تعلم. فالدخول غير مسـموح بـلا موعد. عليك أن تحجز مسبقاً".

"أنا آسف". ونظر غيديون نحو موقف السيّارة.

"لا بـأس، لا أمانع. مـاذا لديك هنا؟". وأشـار الغريب برأسـه إلى الوعاء.

"رفات والدي. أراد أن يُذَرّ رماده هنا بين الأحجار".

أشار الرجل إلى النصب قائلاً: "أفهم من هذا أنّ المكان كان يعني له الكثير؟".

"بالفعل". نظر غيديون إلى العبوة التي يحملها وتابع شارحاً: "فقد كان عالِم آثار ودرس هذه الأحجار بتفصيل كبيـر. كان يظنّ أنّها عجيبة، لا بل ربّما مبجّلة".

ابتسـم الغريـب قائـلاً: "الكثيـرون يظنّـون ذلـك. أنـا آسـف علـى خسـارتك". أخفض رأسـه باحترام. "سـأتركك لتلبّي رغبة والـدك. ليلة سعيدة". ثمّ استدار ورحل.

وقـف غيديـون للحظـة ونظـر حولـه. كان الظـلام يُخيّـم فعـلاً، والضباب يتراكم في أمواج بطيئة. شـعر بالبرد، وأدرك أنه إن تأخّر أكثر، فلن يتمكّن من تلبية طلب والده الغريب.

كان الغطاء محكماً، ولكنّه فتحه بحذر. لم يكن يعرف من أين يبدأ

وأين ينتهي. هل يكتفي بذرّ الرماد وترك الرياح تنثره؟ أم عليه أن يحاول توزيعه بالتساوي قدر الإمكان؟

تذكّر أنّه قرأ في اليوميّات كيف عُثر على رفات بشري في جميع أنحاء ستونهنج. كما أنّ مئات الجثث الأخرى قد دُفنت في الحقول المجاورة التي كانت تحتوي على مخيّمات قديمة عاش فيها العمّال.

نظر غيديون إلى داخل العبوة، ثمّ اقترب من أوّل حجر في الفتحة المقابلة لحجر العقبيّة. مشى باتّجاه عقارب الساعة، وراح يذرّ الرماد حول الدائرة الصغيرة لأحجار السارسين والأحجار الزرقاء. فرغ الوعاء، قبل أن يصل إلى النهاية، ولكنّه تابع الطقوس وواصل هزّه إلى أن أكمل الدائرة.

بعد ذلك، شعر بشيء غريب يجذبه إلى الوسط ويدفعه إلى الركوع. لفظ الكلمات التي لم يستطع قولها عندما رأى الجثّة في المحرقة. همس في الظلام: "أنا آسف يا أبي. آسف لأنّنا لم نعرف بعضنا أكثر، آسف لأنّني لم أخبرك أنّني أحبّك، ولأنّنا لم نجد طريقة نتجاوز فيها خلافاتنا ونتشارك فيها أحلامنا. أفتقد إليك، وسأفتقد إليك دائماً".

زحفت الغيوم السوداء فوق القمر الشاحب. وقبل أن يتمكّن غيديون من الوقوف على قدمَيه، وُضع غطاء محكم حول رأسه.

دفعه أربعة مراقبين على الأرض.

100

كانت ميغان على وشك أن توقف عمل حاسوبها تلك الليلة، عندما وصلتها رسالة. فتحتها متعبة. كانت مرسَلة من وحدة التعرّف على الوجوه التابعة لقوّات الشرطة. فقد وجدوا صوراً التقطتها كاميرا في أحد

الشوارع تُشبه اللقطة التي أخذها غيديون للسارق بواسطة كاميرا هاتفه.

قرأت النصّ: "تمّ العثور على صور لرجل تلائم قياسات وجهه الحيوية هدفكم، التقطتها الكاميرا XR7 في تيدوورث. انقري على الرمز لرؤية المزيد من الصور وللاتّصال بالضابط المنسِّق".

حوّلت السهم إلى صورة صغيرة لكاميرا ونقرت عليها. قفز قلبها من مكانه، فالصور ممتازة. كانت لديها عشر صور تقريباً، وقف المشتبه فيه في عدد منها أمام متجر، وهو يفتح الباب ويقفله. كان محلّ جزّار. تبًّا، خمّنت أنّه طاه أو عامل في مطعم، وليس جزّاراً.

عادت إليها الأوصاف النفسية التي كتبتها: رجل أبيض، بين الثلاثين والخامسة والأربعين، يعمل ربّما في مجال الطعام، في نواد محلّية، أو مطاعم. كان يناسب الأوصاف تماماً.

فرحت ميغان إلى حدّ أنّها لم تلاحظ وجود زوجها السابق وابنتها في مكتب دائرة المباحث الجنائية إلى أن صاحت سامي.

"ماما! ماما!". وركضت ابنة الأعوام الأربعة إليها من بين المكاتب.

فتحت ميغان ذراعَيها وحملتها.

قال آدم: "لديّ هنا طفلة ضائعة. قالت إنّ أمّها مفتشة مشهورة. لذا، فكّرتُ في أن أعيدها إلى السجن".

قبّلت سامي وأجلستها على ركبتَيها، ثم سألته: "ماذا تفعلان هنا؟".

نظر إليها مبتسماً وقال: "فكّرت في أنّك قد ترغبين في الخروج معنا".

خطر لميغان أن تطلب منه التراجع، وعدم الاستعجال. ولكنّهما بدوا سعيدَين جداً معاً هو وسامي.

جلس آدم على مكتبها، وفي تلك اللحظة بالضبط، دخل جيمي

دوكيري إلى الغرفة. نظر الرجلان إلى بعضهما بشيء من الفضول، ذاك الذي يجعل القطّة ترفع ذنبها وتنفش ريشها.

كان جيمي قد أتى حاملاً أخباراً لميغان، جيّدة وهامّة، ولكنّه لا يرغب في زفّها إليها الآن، ليس بوجود زوجها. من الأفضل الانتظار حتّى الصباح. هكذا لوّح بيَده وخرج.

راقبه آدم وهو يذهب وابتسم باعتداد.

101

حاول غيديون فهم ما يجري. تذكّر غطاءً وُضع على رأسه، وبضع أيدٍ قويّة أمسكت به، وشكّة ألم حادّة في ساقه. لا بدّ من أنّهم قد خدّروه واصطحبوه إلى مكان ما حتّى يزول أثر المخدّر.

كان الغطاء قد نُزع عن رأسه وأُجلس في الظلام على أرض حجريّة باردة. كانت الشموع تتمايل في الزوايا الأربع؛ في غرفة صغيرة، وبلا باب.

كان في زنزانة.

قد لا تكون زنزانة، بل قبراً.

جاهد للنهوض، بالرغم من أثر المخدّر الذي لم يزُل تماماً بعد، ووقف مترنّحاً. راح يتحسّس الجدران، ولكنّه لم يجد باباً يؤدي إلى الخارج. كان والده قد كتب عن أشخاص دُفنوا داخل هيكل. ربّما هذا ما يحدث له. سُجن في الهيكل وتُرك ليموت.

تنامى الذعر في صدره. لا يمكن لهذا المكان أن يحتوي على الكثير من الهواء، والهواء لن يدوم طويلاً. حمل شمعة وأطفأ الأخرى، فلا جدوى من إحراق الأوكسجين الثمين. وقف في ضوء الشمعة الوحيدة، وفكّر في أنّهم لا يستطيعون تركه يموت. فقد قال لسميثسين

إنّه أخذ احتياطاته، وخطّط لإرسال وثائق خطيرة إلى الشرطة، ما لم يتّصل لإلغاء الأمر.

راحت الشمعة تحترق.

تسارعت نبضات قلبه وخابت آماله. بالتأكيد سيأتون من أجله، لاكتشاف ما يعرفه، وكم يستطيع إيذاءهم.

سمع هديراً صادراً عن حجر، وظهرت شقوق من الضوء وسط جدارَين مقابلَين. دخل رجال مقلنسون يرتدون العباءات الغرفة الصغيرة. لم يقاومهم غيديون عندما اقتربوا منه، وكبّلوه، واقتادوه عبر أحد الأبواب. لم يغطّوا رأسه ولم يعصبوا عينَيه هذه المرّة. لقد تغيّر شيء ما.

اقتادوه عبر ممرّ طويل ومتعرّج. تدريجيًّا، أصبحت الإضاءة على الجدران أكثر تنسيقاً، حتّى إنّ الجوّ أصبح أكثر دفئاً. وقف قربه رجلان؛ كلّ من جهة. سحب الأوّل، الواقف إلى يمينه، حلقة حديدية غارقة في أحد الجدران، فتحرّكت بكرات خفيّة، وانفتح جزء من الجدار الصخري مُصدراً جلبة قويّة. دفعوه إلى داخل حجرة.

كان الغريب الذي رآه في ضباب ستونهنج جالساً خلف طاولة مستديرة مصنوعة من حجر بلون العسل مرتدياً عباءة بنيّة وقد وضع قلنسوة على رأسه. "اجلس يا غيديون". وأشار بيَده إلى مقعد أمامه.

جلس غيديون على مقعد حجري بارد هلاليّ الشكل، من دون أن تبارح عيناه الرجل الجالس أمامه.

"لم تعرفني، أليس كذلك؟".

"رأيتك عند النصب".

ابتسم السيّد، وقال: "سبق أن التقينا عدّة مرّات، حين كنتَ طفلاً. فقد جمعتنا صداقة أنا ووالدك".

فوجئ غيديون ولكنه قال: "إذاً أنت تعرف ما مرّ به، وما حلّ بوالدتي، وما فعله لإنقاذ حياتي".

"بالفعل، أعرف". وتأمّل غيديون. "من الواضح أنّك عرفتَ الكثير، من مذكّرات أبيك على ما أفترض. ولكن، هل فهمتَ فعلاً ما كنت تقرأه؟".

"أظنّ ذلك".

"إذاً أخبرني".

"أنت سيّد هانج؛ القائد الروحي لأتباع المبجّلين. كان والدي من كبار الأعضاء الموثوق بهم في دائرتكم الداخلية. أنت، وهو، وكثيرون آخرون تضحّون بحياتكم لحماية المبجّلين وتجديد طاقتهم".

ابتسم السيّد وقال: "هذا ليس صحيحاً تماماً، ولكنّه قريب من الحقيقة". كان توّاقاً ليعرف مدى اطّلاع ابن ناثانيال. "هل تعرف كيف يتمّ الحفاظ على الطاقة الروحية للمبجّلين؟".

"من خلال تقديم القرابين البشرية. أنتم تقدّمون قرابين بشرية قبل وبعد الانقلابَين الصيفي والشتوي، في مراحل معيّنة من دورات القمر. وصفها أبي على أنّها ضروريّة لتجديد التوازن السماوي والأرضي".

بدا السيّد متفاجئاً. "أنت تلميذ مجتهد. ولكن، ثمّة فرق كبير بين النظريّة والممارسة". شبك ذراعَيه تحت كُمَّي العباءة قائلاً: "أتيت إلينا يا غيديون. ماذا تريد؟".

"القبول. فقد مات أبي وأمّي، وأنتم أسرتي. أنا أصلاً ابن الأحجار المبجلة، فأنت تعرف كيف عمّدني أبي في صغري".

هزّ السيّد رأسه قائلاً: "بالفعل. غسلك بمياه من عند المبجّلين وطلب منهم حمايتك من المرض الذي قتل أمّك، كما وعدهم بتقديم حياته إن منحوك حياة طويلة ومعافاة".

فاضت عينا غيديون بالدموع. تذكّر مجدّداً كلمات ناثانيال: "أعطي بكامل إرادتي دمي، وحياتي. وأتمنّى أن يكون جديراً، جديراً بما يكفي لتغيير الأمور. لتغيير المصير الذي أعرف أنّه ينتظر ابني المسكين، يتيم الأمّ".

نهض السيّد من خلف الطاولة ومشى في الغرفة وتابع قائلاً: "المبجّلون ليسوا وحوشاً مفترسة. فهم لا يطلبون قرباناً بشرياً على نحو تعسّفي، بل إنها مسألة أخذ وعطاء جوهريّة، وهي جزء من دورة الحياة والموت. مقابل الحفاظ على حياتك، وعدهم ناثانيال بحياته. وتعهّد بأن يكون قرباناً".

ذُهل غيديون وسأله: "الانتحار؟".

"كلاّ، ذاك لم يكن قرباناً، بل إنّه عمل أناني ناتج عن اليأس. أراد أن يمنع الدائرة الداخلية من اتّباع طريق لم يوافق عليه".

"أيّ طريق؟".

تنهّد السيّد بسأم وأجاب: "قام والدك بدراسات عظيمة، واعتقد أنّ عقيدة الحرفة الراسخة والثابتة تنصّ على أنّ من حصلوا على هبات المبجّلين هم المختارون، أي الأشخاص الذين ينبغي أن يُقدَّموا كقرابين. قال إنّ من يشرب من بئرهم ويعيش حياة ناجحة، عليه أن يدفع الثمن لاحقاً. ولكنّ الدائرة الداخلية لم تتّفق معه. فقد وجدت أنّ هذه الممارسة القديمة تحتاج إلى التطوير، وأنّ على المبجّلين أن يختاروا قرابينهم بأنفسهم".

"وكيف ذلك؟".

"بكلّ سهولة". فتح السيّد ذراعَيه باسترخاء قائلاً: "ينجذب الناس إليهم. ويقوم المراقبون - الرجال الذين أخذوك من حيث كنت تقف عند النصب - بالمراقبة منتظرين. وعندما يجدون شخصاً انجذب للمس

مبجّل معيّن، ذي سطوة في دائرة البروج الفلكية، يكون هو القربان البشري الصحيح".

جلس السيّد على المقعد الحجري قرب غيديون. ما يريد قوله الآن سيُثير أعصاب الشابّ، وقد يُسبّب له اضطراباً عميقاً. "الحرفة هيئة ديموقراطيّة. صحيح أنّنا نتّبع قوانين وُضعت منذ قرون من الزمن، إلاّ أنّ تفسير تلك القوانين من حقّ كلّ سيّد هو ودائرته الداخلية ومن واجبهم. وعندما أخذ والدك قراره بمعارضة آراء الدائرة في مسألة القرابين، حدّد مصيره بنفسه".

بدا الضياع على غيديون وقال: "لا أفهم. لماذا كان رأي والدي بمثل تلك الأهميّة مقارنة مع رأي الجميع؟".

لاحظ السيّد أنّ ناثانيال لم يُخبر ابنه كلّ شيء فأجابه: "لأنّه، يا غيديون، عندما طُرحت المسألة للتصويت، لم أكن أنا سيّد هانج، بل كان هو".

102

اخترق صراخ كاتلين الجدار الحجري السميك مثل مثقب عالي السرعة. لم تعد قادرة على الاحتمال. كان الظلام والسكون يثيران جنونها. راحت تضرب بقبضتَيها، وركبتَيها، ورأسها على الجدران الخشنة للقبر العمودي.

اندفع المراقبان اللذان يحرسانها إلى زنزانة الاعتقال. لا يجب أن يسمحا لها بإيذاء نفسها. لا يجب أن تموت قبل الوقت المحدّد. فتحا الأقفال وتهاوت كاتلين على ركبتَيها. كان جسدها مكسوًّا بالجروح، وشعرُها الأسود متّسخاً بسبب العرق والدم. راحت تصيح وهي تركلهما: "ابتعدا عنّي، أيّها النذلان، دعاني أذهب".

ثبّتها المراقبان على ظهرها. كان وجهها غارقاً بالدماء، بينما ظهرت شقوق طويلة على يدَيها مطليّة الأظفار، وبدت في رأسها عدّة شقوق عميقة نتيجة اصطدامه بالجدران. تبادل الرجلان النظرات. يبدو أنّ جنونها قد ثار هناك، وأنها حاولت قتل نفسها.

أرادت كاتلين وضع حدّ لهذا الكابوس حالاً، حتّى لو كان ذلك يعني الموت. ولكنّها بدأت تهدأ تدريجيًّا. عاد عقلها للإمساك بزمام الأمور، وهدأ الحيوان المتوحّش الذي ثار في داخلها. واصل الرجلان ضغطها على الأرض الحجرية الباردة. وقف واحد فوقها، راكعاً على ذراعَيها لتثبيت يدَيها، فيما ركع الآخر على كاحلَيها. في تلك اللحظة فقط، عندما بدأت أعصابها الثائرة تهدأ، لاحظت الأمر.

إنّهما مجرّد هاويَين.

سبق أن رأت إريك وفريقه وهم يعرّفونها على تقنيّات التقييد، ولم يفعلوا قطّ شيئاً كهذا. لَيّ الرسغ حركة كافية لإضعاف أيّ كان، إن عُرِفَت كيفيّة تنفيذها. إصبع توضع على نقطة عصبيّة من شأنها أن توقف ملاكماً ثقيل الوزن؛ لمن يعرف ذلك. ولكنّ هذين الرجلَين لا يعرفان. إنّهما يفتقران تماماً إلى المعرفة التقنيّة، ويعتمدان على الارتجال.

حدّقت كاتلين إلى عينَي الرجل المقلنس الذي يثبّتها على الأرض قائلة: "حسناً، أنا بخير الآن".

ابتعد عن ذراعَيها، ووقف قربها جاهزاً لتثبيتها مجدّداً. قال للرجل الأصغر سنًّا: "علينا إلقاء نظرة على الشقّ في رأسها".

ساعداها على الوقوف، وكانا على وشك تقييد رسغيها، عندما أبعدت يديها فجأة. وجّهت ركبتها بقوّة إلى أسفل بطن الرجل الواقف أمامها. أمسكها المراقب الثاني من الخلف، فاتّكأت عليه، واستخدمت وزن جسدها لتتسبّب باختلال توازنه، ثمّ دفعته إلى الجدار خلفهما.

وعندما ارتطم بالحجر، صدمته برأسها، وحرصت على أن تُسبّب لوجهه أكبر ضرر ممكن. كانت ضربة قويّة، فأفلتها وتهاوى خلفها مكسور الأنف.

وقفت كاتلين حرّة في ممرّ الهيكل المضاء بالمشاعل.

103

أحسّ غيديون أنّ ذهنه فارغ تماماً. فقد صُدم حين عرف أنّ والده كان سيّد هانج في ما مضى. لم يتوقّع اكتشاف ذلك، بل سعى وراء الحقيقة، بحث عن سبب لانتحار أبيه، عن شخص يلقي اللوم عليه، ولم يكن مستعدًّا لهذا.

لم يكن سيّد هانج عابئاً بمشاعر غيديون، فكلّ ما أراده هو أن يعرف مدى اطّلاع غيديون، وحجم الخطر الذي يمثّله. "هل تملك فكرة عن هذا المكان؟ أين نحن؟".

"في الهيكل". كان صوته خالياً من التعبير، وأفكاره في مكان آخر.

"وهل تعرف موقعه؟".

كان هذا السؤال أصعب، فأخرج غيديون من صدمته: "كتب والدي عن طبيعة الهيكل، وليس عن موقعه. أضف إلى ذلك أنّني لم أفكّك جميع الشيفرات. أنا واثق من وجود نصوص أكثر تفصيلاً".

حاول السيّد قراءة أفكار الشابّ. من الممكن أن يكون ناثانيال قد حافظ على سرّية المكان، ومن الممكن أيضاً أنّ ابنه يعرف ويفهم خطورة كشف ذلك. "أنت واسع الاطّلاع بالنسبة إلى دخيل؛ إلى شخص غير ملقّن". صفّق بيديه مضيفاً: "وهذا يطرح أمامنا مشكلة أخرى، ماذا سنفعل بك؟".

اقترب منه غيديون أكثر قائلاً: "دعوني أشارككم. دعوني أنضمّ

إليكم. لا أعرف ماذا أفعل غير ذلك. نظراً إلى موت والدي، ونذره، سأكون مرتبطاً دائماً بالمبجّلين، مهما حدث".

"حتّى إن أردنا قبولك في الحرفة، فلست واثقاً إذا كنتَ أنتَ مستعدًّا. فالتلقين عبارة عن طقوس، ويحتاج إلى ثقة تامّة بين سيّد هانج والملقَّن. الثقة هي كلّ ما يجب على العضو الجديد أن يتمسّك به عندما يراق دمه. فالألم مبرح، وهو يفوق الخيال".

هزّ غيديون رأسه قائلاً: "هذا ما أريده".

وضع السيّد يدَه تحت ذقن غيديون، ثمّ رفع وجهه ونظر إلى عينيه وقال له: "وما الذي يضمن لنا أنّك لن تواصل المعارضة التي بدأها والدك داخل صفوفنا؟".

تحمّس غيديون وأجاب: "أنا لا أتمنّى الأذى لكم أو للأتباع، بل أريد أن أصبح واحداً منكم؛ تماماً كما كان أبي في الماضي. أريد أن أعيش حياتي كاملة، بمباركة المبجّلين. لا أريد أن تحلّ عليّ لعنة المرض. وبالتأكيد، لا أريد أن أمضي بقيّة حياتي خائفاً من أن أتعرّض للاعتداء أو أن يحترق منزلي".

رأى السيّد أنّ لغيديون أسباباً وجيهة تدفعه إلى الانضمام إلى الحرفة. كما أنّ قتله قد يكشف وجودهم للعلن، فعندها سينكشف أمر الحرفة وستتوقّف طقوس التجديد. فكّر وقال: "ثمّة طريقة لتُظهر لنا ولاءك والتزامك. إن قبلتَ بها، فسأشهد شخصيًّا على أنّك جدير بالثقة، وسيبدأ التلقين الليلة".

"وما هي تلك الطريقة؟".

"مذكّرات والدك. أعطنا إيّاها وستُصبح واحداً منّا".

هزّ غيديون رأسه غير موافق، وقال: "أعرف ما يشتمل عليه التلقين. أنا مستعدّ لترككم تضعون سكّيناً على لحمي ومطرقة على

عظامي. أليس هذا كافياً؟".

"كلاّ، فالكتب هي السكّين التي تحملها فوق لحمنا، وتهديداتك هي المطرقة التي ترفعها فوق عظامنا".

فكّر غيديون في حلّ للمعضلة، ثم أجاب: "سأعطيكم ربع الدفاتر قبل تلقيني وأجري الاتّصال الذي يضمن عدم إرسال شيء إلى الشرطة. بعد التلقين، سأعطيكم ربعاً آخر منها. وبعد عام من الآن سأتنازل عن ربع ثالث".

"هذا يساوي 75 بالمئة منها. متى سنحصل على الدفعة الأخيرة؟".

"ربّما لا تحصلون عليها أبداً". ابتسم غيديون مضيفاً: "أو عندما أكون قد تعلّمتُ ما يكفي من الحرفة لإرضائكم. عندما تكونون جاهزين لأصبح أنا السيّد".

أخذت كاتلين تركض لتنجو بنفسها. أسرعت بقدر ما سمحت لها قدماها الحافيتان. وصلت إلى نهاية ممرّ قصير مظلم يتفرّع إلى اتّجاهين، إلى اليسار واليمين، فاختارت اليمين. راحت تعدو في الممرّ، شاكرة رداءها الخشن الفضفاض.

كانت سريعة، فهي تمارس الرياضة كلّ يوم. تركض خمسة كيلومترات على آلة المشي الوئيد، وخمسة كيلومترات أخرى على آلة التمرين الإهليليجيّة. وهي الآن راضية عن كلّ دقيقة أمضتها هناك. لقد آذوها، وجوّعوها، وروّعوها، ولكنّها ما زالت قويّة ولم تفقد لياقتها.

تقوّس الممرّ واختفى في الظلام. إن كانت محظوظة، فهي تتبع جداراً خارجيًّا، والجدران الخارجيّة تعني أبواباً. نظرت إلى الخلف، ولم تجد أثراً للرجلَين. المكان أكبر ممّا تخيّلت، أكبر بكثير. كانت

الأرض تحت قدمَيها منقوشة بشيء ما. بدا أنّ هناك كتابات منقوشة عليها، كشواهد القبور. أدركت كاتلين أنّها تعدو فوق قبور، فقفز قلبها مرّة أخرى. نظرت أمامها، وأدركت أمراً آخر؛ الممرّ دائري.

رأت أمامها الرجلين اللذين ضربتهما ممدّدَين على الأرض.

الفرق، أنّهما لم يعودا اثنين فقط، بل انضمّ إليهما عدد أكبر بكثير؛ وجميعهم بانتظارها.

القسم الرابع

105

الأربعاء 23 حزيران

كان جوش غوران المفتّش الوحيد الذي لم يحضر الاجتماع الصباحي المبكر الذي دعا إليه رئيس الشرطة، مع أنّه لا يمانع ذلك. فقد حرص على ألاّ يكون خارج دائرة المعلومات. ففريقه يضمّ مجموعة من الصحفيين، ورجال الشرطة، والموظّفين المدنيين. والمبلغ الذي دسّه في يَد العميل الميداني ألفيز وقدره عشرة آلاف دولار، ضمن له الاطّلاع على كلّ المستجدّات الهامّة.

في غرفة الاجتماعات مفرطة الدفء، قدّم نائب ألان هانت، غريغ دوكيري، التماساً إلى الرجال السبعة الجالسين معه: "نحتاج إلى تبادل كامل وسرّي للمعلومات الاستخباراتية الأساسيّة. علينا أن ننسى خلافاتنا ونتعاون معاً. لهذا السبب نحن هنا. وفي وقت لاحق من هذا اليوم، سيقوم رئيس الشرطة هانت شخصيًّا بطمأنة نائب الرئيس لوك في ما يتعلّق بالموارد التي يتمّ استخدامها من أجل إرجاع ابنته. حضرة القائد غيبسون، زوّدنا بآخر المعلومات من فضلك".

نظر بارني غيبسون إلى المحيطين بالطاولة، ورأى انشقاقات عمليّاتية منذ الآن. فقد جلس عملاء الأف بي آي في جهة، وضبّاط شرطة ويلتشر في الجهة الأخرى، بينما احتلّ زميله من شرطة العاصمة مقعداً بعيداً عن المخيّمَين. إنّها انقسامات ثقافية وفجوات لا يمكن ردمها في عمليّة واحدة. "في ساعة مبكرة من هذا الصباح، تلقّينا اتّصالاً آخر من المجموعة التي نعتقد أنّها تحتجز كاتلين. تبيّن أنّ الاتّصال تمّ من فرنسا، ولكن ليس من باريس هذه المرّة، بل من هاتف عمومي في

كان، جنوب البلاد".

رفع جون رولاندز يدَيه يائساً وقال: "أنا آسف، ولكنّني لا أصدّق هذا الهراء. إن كنّا الآن في جنوب فرنسا، فهم هناك".

ألقى عليه رئيس الشرطة نظرة حادّة ثم قال: "جون، انسَ نظريّاتك للحظة. يمكننا التفكير في صحّة ذلك لاحقاً. لنصغِ أوّلاً إلى الشريط". صمت قليلاً ثمّ توجّه بالحديث إلى المجموعة بأكملها قائلاً: "نظراً إلى توقيت التسجيل وطبيعته، سترون أنّهم تجاوبوا مباشرة مع المؤتمر الصحفي الذي عقدته كيلي لوك".

ضغط بارني غيبسون على زرّ التشغيل في آلة التسجيل الرقمية الصغيرة الموضوعة في وسط طاولة الاجتماعات. كُسر صمت الغرفة بصوت ذكوري مشوّه: "ثمن عودة كاتلين لوك سالمة هو عشرون مليون دولار. وعدَت أمّها بعشرة، ونتوقّع من أبيها فعل الشيء نفسه. شروطنا هي التالية: يجب أن تتعهّد الأف بي آي، والشرطة البريطانية، وصيّاد الكنوز ذاك بالإعلان عن عدم قيامهم بمراقبة التبادل الذي يتمّ الاتّفاق عليه، وألاّ تُبذل أيّ محاولة لاعتقال أيّ شخص مشترك في التبادل. عندما نحصل على هذه الضمانات، فسوف نعطيكم تفاصيل أكثر عن شروطنا، نرجو أن تفهموا التالي: لدينا الموارد اللازمة لاحتجاز كاتلين لوك ما طاب لنا ذلك، لسنوات إن لزم الأمر. عاجلاً أم آجلاً، ستُلبّى طلباتنا". فجأة، ملأ صوت كاتلين الغرفة. بدت هادئة ولكنّها ضعيفة. "أمّي، أنا في كان قرب فندق كارلتون الذي نزلت فيه معكِ أنت وفرانسوا قبل المهرجان السينمائي في قصر باليه دي فيستيفال. الطقس ممطر اليوم في لا كروازيت، والقصر يستضيف مؤتمراً لألعاب الفيديو. أبي، أنا أتلقّى معاملة جيّدة. لم يؤذني أحد. أرجوكم، نفّذوا طلباتهم". عاد الصوت الذكوري المشوّه. "سأكون واضحاً. ما لم تأتنا الضمانات

عبر التلفاز، فسيكون هذا آخر اتّصال لنا بكم".

توقّف الشريط، وجلس المحقّقون بصمت وذهول. أدرك بارني غيبسون أنّهم ينخيّلون جميعاً كيف سيكون ردّ فعل والدَي كاتلين عليه. علا صوته متابعاً: "التفاصيل المعطاة في الشريط صحيحة. فالطقس أمس كان كما وصفَته، والمعرض المذكور موجود فعلاً. أكّد تقنيّون من جانبَي الأطلسي أنّ الاتّصال تمّ من كان، وأنّ الأصوات الخلفيّة تتّفق مع تلك الموجودة في تلك البقعة من الكوت دازور. تود، هل تريد قول شيء بهذا الخصوص؟".

قال عميل الأف بي آي: "هذا تسجيل مزيّف. حلّله تقنيّونا بينما كان رجالكم نائمين، وأكّدوا أنه - كالتسجيل الأوّل - جُمع على عدّة مستويات. تمّ تسجيل الصوتَين على نحو منفصل، ثمّ جُمعا معاً، وأضيف إليهما الصوت الثالث، وهو الأصوات المتواصلة التي تُسمع في الخلفية. حلّلنا صوت المرأة، ونحن واثقون أنّه صوت كاتلين. أمّا بالنسبة إلى الصوت الذكوري المشوّه، فنظنّ أنّه بريطاني، وهو الصوت نفسه الذي سمعناه في الشريط الأوّل".

أشار نائب الرئيس: "أوّلاً باريس، والآن كان. يستمرّون بنقلها، وهم ينقلونها مجدّداً على الأرجح ونحن نتكلّم".

قال غيبسون: "هذا يفسّر سبب استخدامهم الهواتف العمومية. فهم لا يخشون من تعقّب الخطّ لأنّهم يكونون قد رحلوا بعيداً عندما نحدّد مكانهم".

قال جرن رولاندز الذي ما زال غير مقتنع بأنّ كاتلين قد عبرت القناة: "أو أنّهم لم يذهبوا إلى هناك إطلاقاً. ربّما هو رجل واحد يسافر على درّاجة ناريّة حول أوروبا ويُرسل هذه التسجيلات عبر الهاتف. أنا لا أصدّق أنّه خرجت من المملكة المتحدة".

قال هانت واضعاً حدًّا للتخمينات: "علينا أن نخطّط للاحتمالَين. غريغ، أبقني على اطّلاع دائم على كيفيّة توزيع الموارد والعمل".

هزّ النائب رأسه قائلاً: "حاضر سيّدي".

سأل جون رولاندز: "وماذا عن طلباتهم وشروطهم؟".

رفع هانت حاجبه مُجيباً: "الحكومة البريطانية، والشرطة والشعب البريطانيان لا يفاوضون الخاطفين. إنّها سياستنا. لم نفعل ذلك مسبقاً، ولن نفعله أبداً".

هزّ داني ألفيز رأسه موافقاً: "قال نائب الرئيس لوك الشيء نفسه. قد يختلف الأمر لأنّ حياة ابنته على المحكّ، ولكن أشكّ في ذلك".

قال برغيس: "هذا مستحيل، فتوم لا يتنازل عن مواقفه. لن يضعف الآن. بإمكان أولئك الأوغاد أن ينتظروا قدر ما يشاءون من السنوات، ولكنّه لن يتفاوض معهم".

سيظهر الهدف في أيّ لحظة.

سيكون أبيض البشرة، بين الثلاثين والخامسة والأربعين من العمر، وسيناسب تماماً المواصفات النفسية التي وضعتها له. كانت تعرف ذلك.

ركنت مفتّشة المباحث سيّارتها في الشارع أمام متجر ذي نوافذ كبيرة في تيدوورث، ولم تبارح عيناها الأبواب التي تعلوها لافتة كُتب عليها بوضوح: "مات أتلي. جزّار". عندما تتأكّد من هويّته، ستحصل على مذكّرة تفتيش وتقلب منزله رأساً على عقب. ستبحث عن ملابس تتوافق مع العيّنات الممزّقة التي وُجدت في منزل تشيس في تولارد رويال، أو ربّما عن أدوات تتكامل مع تلك التي عُثر عليها في حقيبة

العدّة التي تركها وراءه.

كانت الساعة الثامنة والنصف، وقد مضت عليها ساعة وهي جالسة تنتظر. شردت للحظة، وراحت تفكّر في تجدّد علاقتها مع زوجها السابق. يبدو أنّ الأمور تسير على خير ما يرام. فقد أمضى آدم الليلة الماضية في منزلها - منزلهما القديم - ودخلت سامي غرفتهما هذا الصباح بابتسامة عريضة مشرقة.

عند الساعة الثامنة وأربعين دقيقة، عبر رجل الشارع من أمامها تماماً، وفتح باب المتجر، ثمّ أضاء كلّ الأنوار. رأته يضع مئزراً مخطّطاً بالأحمر والأبيض ويبدأ بالعمل خلف الطاولات والواجهات المبرّدة. كان في أوائل عقده الثاني كما خمّنت. إذاً ليس هدفها. بعد الساعة التاسعة تماماً، قلب لافتة معلّقة على الباب الزجاجي تُعلن أنّ المتجر مفتوح. انتظرت أكثر، وعند الساعة التاسعة والنصف، ترجّلت من السيّارة، ثمّ أخرجت دفتر ملاحظاتها وتوجّهت إلى المتجر.

رنّ جرس نحاسي وهي تفتح الباب وتغلقه. لم تنتظر لتبادل التحيّة بل بادرت بالقول: "أنا إيلين باكسندايل، من وحدة مراقبة الأسعار". وضعت القلم على الورقة وسألته: "ما اسمك؟".

"كارل، كارل برينغل". بدا مذهولاً تماماً وهو يقول: "لا أعرف شيئاً عن الأسعار".

"لا تعرف؟ من يعرف إذاً؟". ونظرت حولها.

"عليك أن تتحدثي إلى مات، السيّد أتلي. إنّه المالك، وأنا أعمل لديه".

"ومتى يمكنني أن أتحدّث إليه؟".

"لن يأتي اليوم، طلب منّي الاهتمام بالمتجر".

"أهو مريض؟".

"لم يقل شيئاً. طلب منّي وحسب إدارة العمل وقال إنّه سيتّصل لاحقاً".

كان لديها ما يكفي من المعلومات لإيجاد أتلي. فهي تستطيع معرفة عنوانه من السلطات الضريبية والصحّية، ولا جدوى من إرهاق الشابّ بمزيد من الأسئلة. "حسناً، سأعود لاحقاً خلال هذا الأسبوع". رنّ الجرس مجدّداً في أثناء خروجها.

في رحلة العودة إلى مركز الشرطة الرئيس، اتّصلت وطلبت معلومات عن الجزّار. إن كانت محظوظة، فستجدها على حاسوبها عندما تصل.

عندما دخلت غرفة دائرة المباحث الجنائية، حيّاها جيمي دوكيري بابتسامة، وسلّمها ورقة. "كنتُ في المختبر. انظري ماذا وجدت".

وضع تقرير الطبّ الشرعي على مكتبها وأشار إلى جزء أساسي لخّصه قائلاً: "الحقل المجاور لمخزن الحبوب المحترق مكسوّ بجزيئات دقيقة من البقايا البشرية". حملقت به قائلة: "هل أخذتَ كلاباً إلى هناك؟".

أجابها وهو يضحك: "كلاّ لم آخذ كلاباً، بل ما هو أأفضل. قد يبدو لك الأمر جنونيًّا، ولكنّني قرأت عن محقّقين ألمان يستخدمون طيوراً جارحة للبحث عن الجثث. وعندما فشلت في إيجاد رادار أرضي أو كلاب بوليسيّة، اتّصلت بمربٍّ للطيور، قام بإحضار ديكَين رومييّن كاسرين جابا الحقل الذي زرناه". طرق بأصابعه بفخر على التقرير مضيفاً: "وهذا ما توصّل إليه".

بدا الإعجاب على ميغان. قرأت تقرير خبير الأحياء المجهريّة "تمّ اختبار عيّنات من التربة وتبيّن أنّها تحتوي على آثار بشريّة. جميع الأحماض النوويّة التي تمّ إيجادها تنتمي إلى شخص واحد".

"قلتِ إنّ طوني نايلور مدفون في ذلك الحقل. كنتِ على حقّ، سيّدتي".

حاولت أن تكون حذرة. "لنتأكّد من أنّها جثّة نايلور قبل إخبار أحد. حاول الحصول على أحماض نوويّة من أسرته، عيّنة دم من أخته أو أبوَيه. وتحقّق من البيانات الوطنيّة لمعرفة ما إذا كان قد خضع لأيّ اختبار يتعلّق بمخالفة ارتكبها". فكّرت في أمر آخر. "آه، وقم باستجواب مالك الأرض. أريد أن أعرف كيف يُعقل أن يُسمّد أرضه بالبقايا البشرية".

107

غادر غيديون الهيكل كما دخله؛ فقد كان معصوب العينَين، ومقيّداً في شاحنة بنّاء عاديّة الشكل.

بعد عشرين دقيقة، توقّفت الشاحنة جانباً، وفُتح بابها الخلفي، وتناهت إليه زقزقة الطيور من الخارج. ما زال الوقت مبكراً، ولم تزدحم الطرقات بعد. اهتزّت السيّارة مع صعود شخص ما إلى الشاحنة، وإمساكه بقدمَيه، وجرّه على أرض الشاحنة. أنزلا رجلَيه وأجلساه، ثمّ نزعا الغطاء القماشيّ عن رأسه.

لم يكن ديف سميثسين هو الذي يحدّق إليه، بل الرجل الذي أوشك على قتله. ذاك الذي تركه ليموت في مكتب والده المحترق. تحوّلت عينا غيديون إلى يدَي الرجل، ليرى في إحدى أصابعه الخاتم الذي سبّب له جرحاً في وجهه. خلف الرجل، امتدّت غابة مهجورة. كان المكان مناسباً لحفر قبر ودفن جثّة.

ظهر سميثسين وهو يبتسم وقال: "هذا موسكا، ومن الآن فصاعداً ستعرفني باسم دراكو وحسب. ستعاملنا مثل أخوَين طال غيابهما، وإلاّ

سنقتلك. الخيار لك".

أخرج موسكا مسدّساً، وضغطه على جبهة غيديون قائلاً: "لن أمانع ذلك".

جلس دراكو على حافّة الشاحنة الخلفيّة وأحاط كتفَي غيديون بحركة ودّ مزيّف، وقال: "إحدى أهمّ قواعدنا هي السرّية. السرّية المفروضة بالقوّة، إن كنتَ تفهم قصدي. والسيّد يعتمد على موسكا وعليّ لفرضها". شدّ على كتفَي غيديون وتابع قائلاً: "إن عشتَ، فعليك أن تعيش وفقاً للقوانين. لا ينبغي لك التحدّث عن الحرفة، أو الأتباع، أو المبجّلين إلى غير الأعضاء تحت أيّ ظرف كان، إطلاقاً. لا تتّصل بنا، ولا تأتِ إلى منازلنا أو أماكن عملنا. لا تتّصل بنا إطلاقاً، بل نحن من سنتصل بك. وإن هاتفناك، فلا تذكر اسمك أو أسماءنا، بل استعمل اللقب الذي ستُعطى إيّاه إن تمّ تلقينك. استعمل ذلك الاسم دائماً. لا تنسَ هذه الأمور. إن زلّ لسانك، فقد تزلّ إصبع صديقي أيضاً".

تراقصت عينا موسكا وضغط المسدّس على رأس غيديون قائلا: "بوم".

وقف دراكو وقال لموسكا: "ضعه في المقدّمة، وبعدها يمكنك الذهاب".

قاد موسكا غيديون إلى باب المقعد المجاور للسائق، وساعده على الركوب، ثمّ أغلق الباب، واتّجه إلى سيّارة المرسيدس المركونة في الجوار. لمعت أضواؤها البرتقالية وهو يفتح القفل المركزي.

راح دراكو يتكلّم وهو يشغّل الشاحنة ويقودها: "هكذا ستجري الأمور. سأصطحبك إلى المنزل وألازمك بينما تجمع تلك الدفاتر التي كتبها والدك. ستعطيني إيّاها، وسأعيدك إلى السيّد، الأمر بهذه البساطة".

"عندها ستتولّى الأمر، أليس كذلك؟".

ضحك دراكو ثم قال: "علينا توضيح بعض النقاط في ما بيننا. صوّتت الدائرة الداخلية منذ بضع ساعات من أجل تلقينك. كان صوت السيّد هو الذي رجّح الكفّة لصالحك، صوت واحد، هذا كلّ ما لزم. لذا، أصغِ ولا تتكلّم كثيراً، هل اتّفقنا؟". لمع التهديد في عينَيه. "خلال الساعات الأربع والعشرين التالية، ستكون مسؤولاً منّي. سأسلّمك بنفسي إلى سيف السيّد ومطرقته. وإن بقيتَ حيًّا بعد التلقين، فسأكون أنا أوّل من تراه. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، ستدين لي بالولاء، وستنفذ ما أقوله عندما أقوله، حرفيًّا. هل تفهم؟".

لاحظ غيديون أنّه معكّر المزاج فقال له: "كلامك واضح كالشمس. أنت تتصرّف بقسوة، ولكنّك لستَ سوى مرسال السيّد. فأنت لا تفعل شيئاً ما لم يأمرك بذلك".

ضغط دراكو على الفرامل، فتوقفت الشاحنة بقوّة، وتوقف المحرك عن العمل. وجّه بيَده اليمنى لكمة عنيفة إلى وجه غيديون، فارتطم رأس هذا الأخير بزجاج النافذة. حاول غيديون حماية نفسه بذراعه، ولكنّ دراكو أصبح خارج مقعده، وراح يمطره بوابل من اللكمات التي سدّدها على رأسه ووجهه.

دام الضرب أقلّ من عشر ثوان. ثمّ أمسكه دراكو من عنقه بأصابع حديدية ووجّه إليه لكمة أخيرة، كانت الأقوى وقال له: "تذكّر هذا، أيّها الفصيح، عندما تكون وحدك فأنا سيّدك، وأنت ملكي. كنتُ مستعدًّا لقتل أبيك، وأنا مستعدّ لقتلك تماماً".

108

تواصلت الرحلة إلى منزل تشيس في صمت مؤلم، لا سيّما بالنسبة إلى غيديون، الذي سالت الدماء من شفته، وارتخت إحدى أسنانه.

دفعه دراكو عبر المدخل وفوق السلّم، نحو الحجرة السرّية.

قال بينما كان غيديون يكشف اللوح في الجدار: "عمل جيّد". طرق عليه بعُقَد أصابعه التي تحمل آثار العمل في البناء ثم تابع قائلاً: "ليس سيّئاً على الإطلاق. لو لم يسبق لي دخول الحجرة، لما عرفتُ إطلاقاً بوجودها".

تجاهله غيديون ودخل الحجرة الضيّقة الطويلة.

لم يستطع دراكو إخفاء صدمته عندما رأى أنّ الرفوف خالية وحدهما الغبار والطلاء الباهت كشفا أين كانت دفاتر المذكّرات.

مسح غيديون شفته النازفة وسأله: "ماذا كنتَ تتوقّع؟".

"احفظ لسانك". وابتسم، ثمّ دخل الحجرة. طرق بأصابعه على الجدران، وبعقب قدمه على بعض الأماكن في الأرض. "هل ثمّة المزيد من الأماكن السرّية هنا؟". طرق بقدمه مرّة أخرى على الأرض.

سأله غيديون ساخراً: "ألا تخشى من تداعي دعائم المنزل؟".

أجابه دراكو: "إنّها من خشب السنديان. يلزمها حريق لنلدن الكبير لتنهار".

راح يطرق على طول خطّ من ألواح السقف. ركّز غيديون نظره على طرفه، ذاك الذي يعلوه تلسكوب أبيه.

توقّف دراكو قبل أن يصل إليه ببضعة إنشات وسأله: "إذاً أين هي؟ أين ذهبَت مذكّرات العجوز؟".

قبل أن يجيبه، انطلق رنين الجرس الكهربائي. كان جرس البوّابة، وبدا التوتّر على دراكو وسأله: "هل تتوقّع مجيء أحد؟".

هزّ غيديون كتفَيه قائلاً: "كلاّ. ثمّة شاشة في المطبخ، سنرى من القادم". نزلا إلى الأسفل، وظهرت على الشاشة الصغيرة المثبّتة على الجدار صورة امرأة تنتظر في سيّارة خارج بوّابة المنزل.

قال غيديون: "أعرفها، إنّها المفتشة التي تتولّى التحقيق في موت والدي. يمكنها رؤية سيّارتي وشاحنتك عند المدخل".

"دعها تدخل، ولكن تخلّص منها بسرعة". توجّه إلى المكتب الذي أتلفه الحريق. "يبدو أنّ لديّ عملاً أقوم به في النهاية".

فتح غيديون قفل البوّابة، وباب المنزل، ثمّ خرج لتحيّتها وهي تركن سيّارتها. مسح شفته مجدّداً بظاهر يَده.

"صباح الخير، حضرة المفتّشة. لم أتوقّع رؤيتك اليوم".

حملت حقيبة يدها وترجّلت من السيّارة، ثمّ أغلقت الباب قائلة: "أردتُ الاطمئنان عليك". لاحظت فمه المتورّم والنازف فقالت له: "لا تبدو بخير. ماذا جرى؟".

لمس غيديون فمه مجدّداً وقال: "سقطتُ وأنا أحاول إصلاح المكتب. ليس الأمر سيّئاً كما يبدو".

تحوّل نظرها عنه إلى دراكو الذي خرج متّجهاً إلى شاحنته وسألته: "هل تقوم بالإصلاحات؟".

نظر غيديون إلى دراكو وأجاب: "أجل، قام السيّد سميثسين ببعض الأعمال لأبي وعندما سمع بالحريق، عرض خدماته".

"كم هذا لطيف!". تذكّرت حديثهما في المقهى قرب المحرقة، وما قاله غيديون عن زيارة البنّاء السابقة، وكيف اشتبه في أنّه على علاقة بموت والده.

قال دراكو بصوت عالٍ وهو يقترب منهما: "لا أصدّق مدى سوء حظّ السيّد تشيس. ما الذي يحدث للعالم؟ خسر أباه، ثمّ أتى واحدٌ من حثالة المجتمع وأوشك أن يحرق منزله. كم هذا فظيع!". عاد إلى الشاحنة، وأخرج حقيبة كبيرة مليئة بالأدوات.

أدركت ميغان أنّهما مراقبان، ولا يستطيعان التكلّم فعلاً فقالت له:

"أتيت لطرح المزيد من الأسئلة عن أبيك، هل الوقت غير مناسب؟".

أجابها غيديون: "أجل. هل تمانعين إن اتّصلتُ بك؟ يمكنني المجيء إلى مركز الشرطة، إن كان هذا أسهل بالنسبة إليك".

"يناسبني هذا". رأت البنّاء من زاوية عينَيها وهو يراقبهما، ولكنها قالت لغيديون: "هل يمكنني استخدام الحمّام قبل أن أذهب؟ فطريق العودة طويل".

"بالطبع. دعيني أرشدك إليه".

ابتعدا عن دراكو، وعندما دخلا اقتربت منه وسألته: "هل أنت بخير؟".

"ليس حقاً. عليّ الذهاب معه بعد رحيلك. يريدون مذكّرات أبي". أضاء مصباحاً في الممرّ، وألقى نظرة نحو باب البيت المفتوح. كان دراكو يُغلق باب الشاحنة ويتّجه نحوهما. "لا يمكنني التحدّث الآن".

لم يكن لدى ميغان أيّ خيار سوى دخول الحمّام الواقع في الطابق السفلي، بينما عبر دراكو الباب وشدّ غيديون نحوه قائلاً: "رأيتكما تتكلّمان. ماذا قالت لك للتوّ؟".

حاول غيديون عدم الشعور بالذعر، وقال له: "أبعِد يدَيك عنّي كانت مراسم جنازة أبي البارحة، وهي تحاول إظهار تعاطفها".

أفلت دراكو قميص غيديون قائلاً: "أخرجها من هنا بسرعة، وإلا فستحضر جنازة أخرى".

109

رافق غيديون ميغان إلى سيّارتها وفتح لها الباب. عرف أنّ لديه بضع ثوان فقط.

"لقد تعرّضتُ للتهديد هذا الصباح بالمسدّس". وأشار برأسه إلى

المنزل. "من قبل سميشسين والرجل الآخر؛ اللصّ الذي اعتدى عليّ. إنهما يعملان معاً".

ومضت في ذهنها صور مات أتلي. أرادت أن تخبره عن رحلتها إلى متجر الجزّار، ولكن لا وقت لديها. "اصعد إلى السيّارة. يمكننا مناقشة الموضوع في مركز الشرطة".

نظر بتوتّر إلى باب المنزل ثم قال: "لا يمكنني ذلك. عليّ الذهاب معه".

"لماذا؟".

"والدي قتل نفسه لكي لا يتغاضى عمّا يفعلونه".

"وماذا يفعلون؟". نظرت إليه متسائلة، وتذكّرت مجدّداً حالته الذهنية الهشّة.

رأى غيديون الشكّ في عينَيها فقال لها: "أخبرتك من قبل، يقدّمون قرابين. وأظنّ أنّهم على وشك تقديم قربان آخر".

أرادت ميغان مناقشته، ولكنّها رأت سميشسين قرب المنزل. كان يحمل لوحاً خشبيًّا محترقاً، ويحاول أن يبدو مشغولاً. لم يكن الوقت مناسباً، لذا شغّلت المحرّك، وأنزلت فرامل اليَد قائلةً: "سأتّصل بك لاحقاً".

تراجع غيديون إلى المنزل فيما كانت تغادر. اقترب منه سميشسين، وتعقّب بعينَيه السيّارة وهي تعبر البوّابة المعدنية الإلكترونية وتخرج إلى الطريق.

"عمّ كنتما تتحدّثان كلّ هذا الوقت؟".

"عن المال. كان أبي يتاجر بالتحف، وجنى منها الملايين. على الأرجح، سرق قبوراً في شبابه. ويريد عناصر الشرطة استجوابي بخصوص حساباته".

"هل سألتك عن وجهك؟".

"قلتُ لها إنّني تعرّضتُ لحادث".

"جيّد". استدار عائداً إلى المنزل. "هيّا، نحن نضيع الوقت. لنحضر الدفاتر ونخرج من هنا".

قال غيديون: "انتظر. هل تظنّني غبيًّا لأتركها في البيت؟".

تصلّب وجه سميثسين كالصخر، فأخرج غيديون مفاتيح سيّارته من جيبه، وفتح صندوق الأودي. نظر البنّاء إلى الداخل ورأى رزمة ملفوفة ببطّانية سميكة. انحنى وشدّ الطبقة الخارجية، فرأى في الداخل أربعة دفاتر مذكّرات بحجم A4، اثنان لكلّ عقد من حياة ناثانيال تشيس في الحرفة.

"أهذا كلّ شيء؟".

"كلّ شيء حاليًّا". فتح سميثسين أحدها وحدّق إلى النصّ المشفّر وسأله: "وكيف نعرف أنّها مذكّراته بالفعل؟".

أخذ غيديون الدفتر من يده قائلاً: "وحدنا أنا وأبي نستطيع فهم هذه الشيفرة وهذا أمر جيّد، لي ولك. فالكثير من الناس سيتخلّصون منها إن عثروا عليها، ولكن من الخطأ فعل ذلك. إنه خطأ كبير". أغلق الدفتر، وأعاد لفّه بالبطّانية، ثمّ ناوله الرزمة قائلاً له: "ها قد أتممتُ واجبي من الصفقة، والآن أتمّوا واجبكم".

110

عندما يصل المرء إلى رتبة مفتّش مباحث، يكون قد مرّ ببعض التجارب المهنيّة المؤلمة. وإن كانت امرأة، فلا بدّ من أن تكون قد وضعت بعض القواعد الشخصيّة خلال رحلتها المهنية، فسنّت قوانينها الخاصّة، بدءاً من مغادرة حفلات انتهاء القضايا باكراً، ووصولاً إلى عدم

الزواج من شرطيّ. خالفت ميغان هاتين القاعدتَين الصغيرتين، ولكن ثمّة قاعدة تتّبعها دائماً.

النظر إلى الصورة الكبيرة، وعدم اتّخاذ قرارات سريعة، بل التراجع ووزن جميع العناصر؛ الكبيرة والصغيرة، الهامّة والتافهة، وأخذُ كلّ العوامل بعين الاعتبار.

لهذا السبب، لم تطرق باب رئيستها وتطلب مذكّرة اعتقال ووحدة مسلّحة لتوقيف ديف سميثسين. عوضاً عن ذلك، ناقشت الموضوع مع جيمي وحاولت فهم كلّ شيء. "رأيتُ غيديون تشيس هذا الصباح. بدا وكأنّه تلقّى معاملة قاسية، وقال إنّه تعرّض للتهديد بقوّة السلاح من قبل رجلَين، أحدهما يدعى سميثسين، والآخر هو الرجل الذي اقتحم منزل أبيه في الأسبوع الفائت".

فوجئ جيمي: "ظننتُ أنّك قلتِ إنّ تشيس لم يرَ السارق؟".

"هذا صحيح. ولكن، تبيّن أنّه فعل".

"إذاً لماذا كذب؟".

"القصّة طويلة. قال إنّه شعر أنّ من واجبه اكتشاف ما كان والده متورّطاً فيه".

"إذاً، أين تعرّض للتهديد؟ ولماذا؟".

هزّت رأسها قائلة: "لا علم لي بجميع التفاصيل، فأنا لم أجد الفرصة لسؤاله. كان سميثسين معه في المنزل، يصلح أضرار الحريق".

راح جيمي يجمع الخيوط: "إذاً، قام هذا البنّاء مع شريكه السارق بتهديد تشيس، وبعد بضع ساعات أتى إلى منزله لإصلاحه؟ يبدو هذا غريباً".

"أنت محقّ، هذا غريب بالفعل. ولكنّ هذا الأمر دفعني إلى التساؤل ما إذا كان انتحار ناثانيال تشيس مرتبطاً بشكل ما بالفدية التي

يطلبها خاطفو الفتاة الأميركية".

اتّسعت عينا جيمي وسألها: "لماذا؟ كيف ربطتِ بين الاثنين، بالله عليك؟".

"تذكّر، عندما رأيتَ جثّة جايك تمبرلاند في مخزن الحبوب قلت حينذاك إنّ حدسك أخبرك أنّ مسرح الجريمة مزيّف. هل تذكر لمَ قلت ذلك؟".

"بالتأكيد. المكان، المكان، المكان".

"هذا صحيح. في الواقع، المكان هو العنصر الذي يزعجني. فالقضيّتان تتمحوران حول نقطة واحدة، ستونهنج. كان تمبرلاند ولوك متوجّهَين إلى هناك على الأرجح لمشاهدة شروق الشمس في جلسة رومانسية قبل وقوع الاختطاف والقتل. وهو المكان نفسه الذي كتب عنه ناثانيال تشيس في مذكّراته وأراد أن يُذَرّ رماده فيه. ولدى التفكير في الأمر، هو أيضاً المكان نفسه الذي يدّعي ابنه أنّه شُفيَ فيه من سرطان وراثي في طفولته، ويعتقد أنّ طائفة ترجع جذورها إلى ما قبل التاريخ تُقدّم فيه قرابين بشرية لتستفيد من قواه".

قطّب جيمي وجهه وقال: "هل فكّرتِ جيّداً قبل أن تربطي هذه الأمور ببعضها؟".

"جارِني قليلاً. لم لا؟ يعثر الناس على عظام لآلاف القرابين البشرية منذ قرون من الزمن. وهذه الممارسة مذكورة في عشرات الوثائق التاريخية".

"أنا معك من الناحية التاريخية. ولكن، حتّى إن كانت الطائفة ما زالت موجودة، فلمَ ستُضحّي بابنة سياسي أميركي وابن لورد بريطاني. وكيف تفسّرين طلب الفدية؟".

كان منطق جيمي صحيحاً. وجود الطائفة فكرة غبيّة، ولكنّها غير

جاهزة بعد لاستبعادها تماماً. "تختار هذه المجموعة ضحاياها لأسباب متنوّعة. شأنهم شأن المغتصبين والقتلة، لديهم معاييرهم السرّية الخاصّة. ربّما كان ذلك لدوافع جنسية، أو عرقية. ربّما كانت الضحيّة تلائم أو تعارض معتقداتهم. وربّما كانت كاتلين ملائمة لإحدى تلك الفئات".

"وماذا عن تمبرلاند؟".

"ربّما لم يكن ملائماً لمعاييرهم، ولهذا السبب قُتل. وربّما دافع عن كاتلين، وحاول أن يكون شهماً".

سألها جيمي مجدّداً: "والفدية؟".

طرقت بأصابعها على المكتب. بدت أظفارها وكأنّها نقّار خشب جائع. "انسَ أمر الفدية قليلاً، فأنا لم أنتهِ بعد من عنصر المكان".

فكّر جيمي في أنّ تلك الحجّة ليست حاسمة وقال لها: "ستونهنج. حسناً. إذاً كيف يمكن لطائفةٍ ما ممارسةُ طقوس قتل هناك؟ فالمكان يقع وسط طريقَين دائمَي الازدحام، كما أنّ السيّاح يزورونه على الدوام، وهو خاضع للمراقبة على مدار أربع وعشرين ساعة".

لمعت عينا ميغان وأجابته: "ماذا لو كان فريق المراقبة في ستونهنج متورّطاً؟".

فكّر جيمي للحظة. هذا سيُغيّر الأمور بكلّ تأكيد. قال لها: "كان شون غراب يعمل حارساً هناك، سمعتُ أنّه مفقود منذ حادثة الخطف والقتل".

"هل أنت واثق؟".

"سمعتهم يتكلّمون في الكانتين. وتذكّري أنّ هذا الشابّ متّهم سابقاً بالسطو والاعتداء".

تحمّست ميغان وقالت: "إذاً، إن كان غراب وغيره من عناصر

الأمن جزءاً من الطائفة، فبإمكانهم دخول الموقع متى شاءوا".

"هـذا محتمل. سـأتحقّق من ذلـك لدى مؤسّسـة إنغليـش هيريتاج وشـركة الأمن التي يتعاملون معها. سـأطّلع على سـجّل حضـور غراب. ربّمـا كان يدّعي المرض دائمـاً ويتغيّب كثيـراً، أو ربّما كان هـذا هو يوم غيابه الوحيد منذ سنوات".

لم تكن ميغان تصغي تماماً. "جيّد، إنها فكرة حسنة. جرّب ذلك".

كان جيمي قد جعلها تفكّر في أمر آخر؛ في فكرة غير شـرعية على الإطلاق، إمّا أن تحلّ القضيّة، أو تحرمها مهنتها.

111

جلس غيديـون داخـل شـاحنة دراكـو مقيّـداً ومعصـوب العينَين وحاول أن يخمّن الطريق الذي يسـلكانه في أثناء عودتهمـا إلى الهيكل كان واثقـاً منـذ خروجهما مـن بوّابة المنـزل أنّهمـا اتّجها غـرب تولار رويال على طريق ب3081 بعد فندق كينغ جون إن.

جلس خلف الجـدار الفاصـل بينـه وبين السـائق، وتخيّـل الطريق وفقاً للاتّجاه الـذي تميل إليه الشـاحنة. فحيـن يميل إلى اليسـار، يعرف أنّ دراكو قـد انعطف يميناً باتّجاه الشـمال. حاول غيديـون أن يقدّر عدد الدقائق التي تمرّ واسـتنتج أنّهما قد وصـلا إلى شافتسـبيري، ومتوجّهان إلى غيلينغهام ووارمينستر.

كان آخر جزء من الرحلة هو الأكثر هدوءاً. واسـتطاع سـماع بضع سيّارات تمرّ. ومن انخفاض سـرعة الشـاحنة وزيادة الحُفر في الطريق عرف أنّهما تركا الطريق العامّ. تمايل غيديون في جلسته لعدّة دقائق قبل أن تتوقّف السيّارة وينفتح الباب الخلفي.

سـحبه ثلاثة رجال، وربّما أربعة، وأوقفوه على أرض صلبة. قادو

إلى مكان بارد ومغلق أصـدر فيه وقع أقدامهم صدى. ثـمّ فُتح قفل باب أمامه، وصدر ضجيج عال. سـمع همهمة، وصوت أشـياء تتحرّك، وشيئاً ثقيلاً جداً ينزلق.

صاح أحدهم: "أسرع".

شـعر بيَد توضع علـى مؤخّر رأسـه، وتدفعه إلـى الأسـفل، وتحثّه على التقـدّم، وتحمي رأسـه لكي لا يرتطم بشـيء مـا. ثمّ سـمع هديراً، وهمهمة من جديـد خلفه. لم يقـل أحد شـيئاً لدقيقة تقريبـاً، وراح ذهنه يعمل بجنون. كان الصمت الذي يلفّه مثيراً للأعصاب.

أخيراً، تكلّم دراكو: "سـتنزل بضع درجات، انتبه كي لا تقع". كان صوته ساخراً.

سـمع غيديـون وقـع خطـوات أمامـه وخلفـه وهـو ينـزل. كانـت الدرجات صلبة، والأحجار سـميكة في مكان واسـع، ولا شـيء يمتصّ الصوت. نزل عشرين درجة تماماً.

توقّف الهبوط، وأمسك زوجان من الأيدي بذراعَيه، ودفعاه بسرعة لمدّة ثلاثين ثانية تقريباً.

قال الصوت الساخر مرّة أخرى: "المزيد من الدرجات".

عشرون درجة أخرى.

عرف مـن الرائحة أنّـه في مكان عميـق تحـت الأرض. كان يعرف روائـح الأرض: الخُـثّ، الطبشـور، الرطوبة، الحجـر الرملـي، الصوّان، الحديد الرطـب، العفن القـويّ. كلّها تصاعـدت مثل ملاحظـات عطرية حادّة إلى حواسّه الخبيرة والمدرَّبة.

أوقفته الأيـدي، ثـمّ رُفع الغطـاء عن وجهـه. رأى ضـوءاً. كان في أعمـاق الهيكل، في جـزء لم يره مـن قبـل، وكان المحيطون بـه يرتدون العبـاءات ويضعـون القلنسـوات. ربّمـا كان هذا سـبب التأخيـر، قبل أن

يبدأوا نزولهم.

قال دراكو، بصوت قاس كالصخر: "جرّدوه من ملابسه وحضّروه". حاول غيديون عدم التفكير في ما يحدث له. وركّز عوضاً عن ذلك على تكوين صورة ذهنية للمكان الموجود فيه؛ بناء كبير تحت الأرض في حقول مفتوحة، وصلوا إليه بعد ساعة من القيادة. خمّن أنّه على بُعد ثلاثين ميلاً عن تولارد رويال، ثلاثين ميلاً شمالاً على الأرجح، وربّما قليلاً نحو الغرب.

قاطع دراكو حساباته، إذ مال نحوه، وانبعث نفسه الدافئ وكريه الرائحة في وجهه: "أصغِ إليّ. سأُعلّمك كيف تجيب السيّد في أثناء طقوس التلقين. لا تسبّب لنفسك ولي العار بالوقوع في الخطأ. وتذكّر أنّ ذهنك وجسدك سيخوضان عمليّات احتضار كثيرة. إن كنتَ وفيًّا فعلاً للأتباع، فستعيش". ابتسم وتابع: "وإلاّ، فستموت".

112

رنّ جهاز الاتّصال المثبّت على خصر ليليان كوبر. تناولته خبيرة أمراض الدم وشتمت وهي تقرأ الرسالة التي بعثتها سكرتيرتها: "مفتّشة المباحث بيكر ترغب في رؤيتك".

كان يومها طويلاً، ولكن عليها تأجيل الحمّام وكأس الشراب. بدأت تسير عبر ممرّات المستشفى عائدة إلى مكتبها وهي تفكّر. لا يأتي المفتشون من دون موعد مسبق ما لم تكن هناك مشكلة، وهذا ما تتوقّعه. سبق وتصرّفت على نحو غير أخلاقي وخرقت القواعد الداخلية، فضلاً عن بنود عديدة في قانون حماية المعلومات، عندما كشفت لمفتّشة المباحث معلومات سرّية.

"ميغان بيكر. أعتذر عن المجيء من دون موعد". نهضت المفتشه

عن الكرسي ومدّت يدها مصافحة.

أجابت كوبر: "لا بأس، تفضّلي. كيف أساعدك؟". كانت تشعر بقلبها ينبض بعنف.

جلست ميغان أمام المكتب، وفتحت حقيبة جلديّة بنّية اللون من ماركة بادوفانو، اشتراها لها آدم من إيطاليا قبل ثلاث سنوات. "الأمر يتعلّق بحديثنا الفائت، عن غيديون تشيس".

أخرجت ورقة صغيرة وأعطتها إيّاها.

تناولتها كوبر ونظرت إليها قائلة: "لا أفهم، من هم هؤلاء الأشخاص؟".

رسمت ميغان ابتسامة ودودة على وجهها وقالت: "أحتاج إلى مساعدتك، مرّة واحدة بعد. أريد منك دخول السجلاّت الصحّية لجميع الأشخاص الموجودين في اللائحة، وإخباري بما تجدينه؛ سجلاّت المستشفى والسجلاّت الجراحية".

نظرت إليها البروفيسورة فاغرة فمها، وابتعدت عن الورقة وكأنّها تحرقها: "حضرة المفتّشة، ما كان يجدر بي مساعدتك في المرّة الماضية، وبالتأكيد لن أكرّر الخطأ مراراً".

"لن تكرّريه مراراً". كانت عينا ميغان فولاذيّتين. "إنّهم أربعة أشخاص فقط، وخطؤك سيكون أكبر إن لم تساعديني". جلست على طرف كرسيّها. "الاسم الأوّل على هذه اللائحة هو ناثانيال تشيس، والد الرجل الذي أعطيتني معلومات عنه. لدينا أسباب تدفعنا إلى الاعتقاد أنّ شون غراب، وديفيد سميثسين، ومات أتلي على علاقة بموت ناثانيال وبمسألة أخرى نحقّق فيها. غراب غائب حاليًّا عن العمل، وقد صدرت مذكّرة اعتقال بحقّه. كلّ ما أحتاج إلى معرفته عنه، وعن الآخرين، هو ما إذا كانوا مصابين حاليًّا، أو أصيبوا في الماضي، بمشكلة صحيّة كبيرة.

هذا كلّ شيء".

"حضرة المفتّشة، أنا حقاً...".

رأت ميغان أنّها تلين فقاطعتها قائلة: "أخبريني فقط إذا كانوا قد تغيّبوا عن العمل بأمر من الطبيب، ولماذا". فتحت يدَيها بحركة تشير إلى البساطة والحسم. "أنا لا أطلب الكثير".

بدا القلق على كوبر، وهزّت رأسها رافضة: "من الممكن اكتشاف ذلك. أيّ بحث أقوم به يُسجّل إلكترونيًّا، ويرتدّ إلى الحاسوب. وحتّى لو استعملتُ محطّة عمل مختلفة، فعليّ تسجيل الدخول. من الممكن أن أخسر وظيفتي لمجرّد إعطائك المعلومات".

حكّت ميغان رأسها، فقد توقّعت ذلك. لم تشأ أن يتّخذ الحديث هذا المنحى، ولكنّها فكّرت في هذا الاحتمال. "حضرة الطبيبة، تعرفين من صديقنا المشترك أيّ نوع من الأشخاص أنا. أيّ مساعدة تقدّمينها لي، هي للصالح العامّ، أؤكّد لك ذلك".

"أفهم، لكنّ ما تطلبينه ليس صائباً".

شعرت ميغان أنّها مضطرّة إلى التصرّف بدناءة. "ليليان، أنت متزوّجة وتقيمين علاقة طويلة مع ضابط شرطة متزوّج. أخبريني بمدى صواب ذلك".

دُهشت المرأة وقالت: "لا أصدّق أنّك تتطرّقين إلى حياتي الشخصيّة هكذا".

"بل صدّقي". تصلّب وجهها، ونظرت إليها بقسوة اكتسبتها من غرف الاستجوابات العديدة. "أرجوك، لا تحدّثيني عن الخطأ والصواب ولا تحكمي عليّ. أنا أحاول حلّ جريمة خطرة وإنقاذ حياة أشخاص. وفي سبيل ذلك، أنا مستعدّة لفعل أيّ شيء تقريباً، وأحتاج إلى تعاونك في الوقت الحاضر". تناولت لائحة الأسماء عن المكتب وحملتها أمام

الطبيبة. "والآن حضرة البروفيسورة، هلاّ ساعدتني من فضلك، أم أتصل بصديقي في صحيفة غازيت أند هيرالد؟".

113

كان الممرّ الرئيس في الهيكل مضاءً بشعلات برتقالية ينبعث منها الدخان على طول جدار طويل ثُبّتت عليه المشاعل. ظهرت آثار سوداء طويلة على الجدران الصخرية، وكأنّها أشباح متداخلة. كان الرواق يلتفّ باستمرار إلى الأسفل والداخل، تماماً كما وصفه والده، سان بول تحت الأرض. فالمكان شبيه بدار عبادة كبيرة تحتوي على غرف رائعة وسراديب. كان غيديون يحاول عدم التفكير في ما يحدث له، وما سيحدث. في ظروف مختلفة، كان ليسرّ بالمجيء إلى هنا، مدفوعاً بالحماسة وبحبّه لمهنته، ليفتح القبور الموجودة تحت قدمَيه، ويؤرّخ ويحلّل جثث الموتى المدفونين تحته.

قاده أربعة حمّالين مقلنسين عبر فتحة ضيّقة بالكاد رآها. احتكّ رأسه بأعلى الباب وهو يعبره. نزل عشرين درجة أخرى، وعبروا من جديد فتحة صغيرة مشابهة، ثمّ دخلوا حجرة أصغر. ظهر وجه ذو ذقن مترهّل وتكلّم من تحت قلنسوة مصنوعة من الخيش: "عليك أن تخلع ملابسك وتغتسل. بعدها، سنلبسك ثياب التلقين".

قادوه إلى مكان منفصل خلع فيه ملابسه وأعطاهم إيّاها، ثمّ نزل إلى خندق حجري داكن اللون. لم يجد شيئاً يغتسل به، فلم يكن هناك شامبو، ولا صابون. وقف عارياً وبمفرده. ثمّ تدفّق سيل من الماء من الظلام الذي يعلوه. انصبّ عليه بقوّة بحيث ارتطم بعنقه ودفعه للجلوس على ركبتَيه. أغمض غيديون عينَيه وغطّى وجهه بيدَيه. دام سيل الماء عدّة دقائق، ثمّ توقّف فجأة مثلما بدأ. أُعطي منشفة واقتيد عارياً عبر

الأروقة إلى القاعة الكبرى.

خطف منظر القاعة أنفاسه. كانت تضمّ نسخة بالحجم الحقيقي عن ستونهنج. ولكنّها تامّة، مثلما كان النصب عندما انتهى العمل به. كان والده قد أشار إلى أنّ هذا المكان هو الهيكل الحقيقي للكائنات الممجدة القديمة، إنّه مرقدها الأصلي، بينما انتهى بناء النصب الموجود في الحقول قرب أميسبيري.

صدر هدير قويّ جعل غيديون يلتفت. أُغلق باب القاعة الكبرى، ثمّ أحاطت به جمهرة كثيبة بنّية اللون من الأتباع المقلنسين. دفعه عدد من الحمّالين إلى دائرة من الشموع الكبيرة والطويلة. وقف سيّد هانج خلف الشموع، حاملاً بيدَيه المطرقة والإزميل، وهما الأداتان اللتان قد تسلبان غيديون حياته. استيقظت فيه مشاعر الخوف، وشعر بها وهي تجتاح جسده كالسمّ.

بدأت طقوس التلقين.

"انظر إلى تجسّد المبجّلين". رفع السيّد يدَيه واستدار ببطء. "رقدت الكائنات الممجّدة هنا قبل قرون من الزمن، عندما بنى أجدادنا هذه الدائرة الكونية وهذا الهيكل. هنا، أنت تقف في حضرتهم. ومن باب الاحترام، ستحرص بعد تلقينك على أن يكون رأسك مغطًى دائما وعيناك منخفضتين. هل تفهم؟".

أجاب غيديون كما علّمه دراكو. "أجل، سيّدي".

"تمّ إحضارك للمثول أمامنا لأنّ أعضاء في حرفتنا وجدوك مؤهّلا لتُصبح تابعاً مدى الحياة. أهذه رغبتك؟".

"أجل، سيّدي".

"هل أنت مستعدّ لتنذر حياتك وروحك وولاءك للمبجّلين ومَن يحمونهم؟".

"أجل، سيّدي".

"يجدّدنا المبجّلون ما دمنا نجدّدهم. نكرّمهم بلحمنا ودمنا، وبالمقابل يحمونا ويجدّدون لحمنا ودمنا. فهل تنذر لحمك ودمك لتمجيدهم؟".

"أجل، سيّدي".

خلفه، بدأ البخور يحترق داخل أوان نحاسية تتأرجح من سلاسل ثقيلة. عبق الهواء بروائح التوابل الحلوة. بسط سيّد هانج ذراعَيه مجدّداً قائلاً: "أحضروا من يرغب في أن يتبعنا إلى حجر المذبح".

اقتيد غيديون عبر حلقة الشموع إلى داخل الدائرة. تذكّر تحذير دراكو بعدم لنظر إلى السيّد. حين رأى أمامه اللوح المخيف الذي يسمّونه حجر المذبح، جمد في مكانه. دفعته أيدٍ غير مرئيّة على ركبتَيه، ثمّ مدّدته على الأرض، وقيّدت رسغَيه وكاحلَيه. عندها، تملّكه الذعر.

"هل تثق بقوّة المبجّلين وكلّ من يتبعهم؟".

فكّر غيديون في أبيه وهو ممدّد في هذه البقعة بالضبط، ومقيّد كما هو الآن، وعلى وشك أن يراق دمه ليجنّب ابنه الموت البطيء الذي خاضته زوجته.

كرّر السيّد السؤال بصوت أعلى: "هل تثق بقوّة المبجّلين وكلّ من يتبعهم؟".

"أجل، سيّدي".

"هل تثق من دون أيّ ريب أو تردّد بقوّتهم وقدرتهم على الحماية، والمساعدة، ولشفاء؟".

"أجل، سيّدي".

"هل تكرّس حياتك لخدمتهم؟".

"أجل، سيّدي".

"وهل تُقسم بحياتك وحياة أفراد أسرتك ومن تحبّهم على عدم كشف أسرار حرفتنا خارج أخوّيتك ما لم تُعطَ الإذن بذلك؟".

"أجل، سيّدي".

راح أعضاء من الدائرة الداخلية يؤرجحون مباخرهم فوقه، ثمّ ابتعدوا. حمل سيّد هانج النصل الحجري الذي صُنع من أوّل تربليتون قائلاً: "أهدي هذا الدم، واللحم، والعظام البشرية، آملاً أن تقبلوه كواحد من أتباعكم وتمنحوه الحماية والمباركة. أتوسّل إليكم بتواضع أن تخصّصوا لأخينا شيئاً من عطفكم".

شقّ خطوطاً عميقة من رسغَي غيديون إلى كتفَيه، ومن كلّ كاحل إلى أعلى كلّ ساق. وأخيراً، من العنق إلى أسفل العمود الفقري. كبح غيديون صرخة. رأى أمّه أمامه، وعادت إليه صورتها وهي تضعه في السرير، وتُقبّله متمنية له أحلاماً سعيدة، ومبتسمة له. ثمّ تلاحقت مشاهد لها وهي في البندقية من الفيلم الذي صوّره والده. تذكّر الرسالة التي سجّلتها له، والسرّ المريع الذي باحت له به.

شعر بضربة عنيفة على رأسه، عرف مصدرها؛ وحشيّة المطرقة والإزميل. وسمع صوت سيّد هانج آتياً من بعيد، ثمّ غرق في الظلام. كانت الكلمات الوحيدة التي ظلّت ترنّ في رأسه هي تلك التي لفظتها أمّه من العالَم الآخر.

114

اتّصلت ميغان بجيمي من سيّارتها في طريق العودة إلى ديفايزيس: "هل أنت وحدك؟".

"لحظة واحدة". خرج من مكتبه إلى الرواق خارج دائرة المباحث ثم قال: "أنا وحدي الآن".

"ماذا عرفتَ عن شون غراب؟".

"سِجلُّه جيّد. كانت شركة الأمن متعاونة جداً. إنهم يعرفون سجلّه الإجرامي السابق، فقد أخبرهم به، ولكنهم قرّروا إعطاءه فرصة. قالوا إنّه كان موظّفاً نموذجيًّا، يحترم الدوام، ولم يتغيّب عن العمل على حدّ علمهم إلاّ في العطل".

"هذا لأنّه لم يُصب بالمرض قطّ في حياته، ليس هو أو والده أو جدّه الذي عاش حتّى بلغ مئة عام تقريباً".

"تبدو جيناتهم جيّدة".

"لا، بل هناك أكثر من ذلك". نظرت إلى حقيبتها الموضوعة على المقعد المجاور. كانت تحتوي على ملاحظات كتبتها عندما قبلت ليلين كوبر أخيراً إعطاءها ما طلبته. "كذلك إنّ ديف سميثسين، صديقنا البنّاء، لم يصب بالمرض قطّ، ولم يتغيّب يوماً عن المدرسة. والأمر نفسه ينطبق على مات أتلي، الجزّار ومرتكب عمليّة السطو على منزل تشيس".

"إنّهم أشخاص أصحّاء. ماذا يُثبت ذلك؟".

"قال غيديون تشيس إنّ الأحجار تملك قوى شافية. ادّعى أنّها شفته في طفولته من السرطان وحمت أشخاصاً في طائفة أبيه. هل تذكر كيف شُفي وجهه بسرعة بعد عراكه مع الدخيل؟".

قال جيمي، وهو غير واثق ممّا ترمي إليه: "سيّدتي، أنت لست من هنا، ولكن صدّقيني، ويلتشر مكان صحّي جداً، جوّها غير ملوّث مثل المدن الكبرى، وهي لا تحتوي على الكثير من مطاعم الوجبات الجاهزة، ويعيش سكّانها طفولة صحّية".

قاطعته قائلة: "جيمي، جميع الناس يمرضون أحياناً: تسمّم بالطعام، حمّى، اضطرابات جينية، أيّ شيء. وهواء الريف ونزهات

المـزارع لا تمنـع المـرض أو الإصابـات. ولكـنّ هؤلاء الأشـخاص لم يصابوا بأيّ مرض على الإطلاق".

"هذا لا يثبت شيئاً. فوالدي قويّ مثل ثور ولم يُصب بـأيّ حادثة ولم يمرض قطّ على حدّ علمي. وكذلك أمّي".

صمت كلاهما وهما يدركان معنى ما قاله للتوّ.

115

دخلت ميغـان منزلهـا، ثـمّ اتّجهت إلـى الثلاجة مباشـرة وشـربت نصـف زجاجـة من الشـراب. خلعـت حذاءهـا وتهـاوت علـى الأريكة حاملـة الكأس بيَدهـا. يُفتـرض بها تمضيـة ليلة رومانسـية مـع آدم، وقد استضاف والداها سـامي لكـي يسـمحا لهمـا بالخـروج لتناول العشـا والبقـاء بمفردهمـا. إلاّ أنّهـا لم تكن فـي مزاج يسـمح لها بالقيـام بذلك مطلقاً. فكّـرت كثيراً في أثنـاء عودتها إلـى المنزل. فكّرت فـي غيديون وجيمي، ووالد جيمي؛ نائب رئيس الشرطة. ربّاه.

سمعت مفتاحاً يستدير في القفل، فارتجفت.

ناداها آدم من المدخل: "ميغ، هل أنت في الأعلى؟".

"أنا في غرفة الجلوس، وفي مزاج سيّئ".

وقف عند الباب وابتسم قائلاً: "هل أنت بخير؟".

هزّت رأسها ثمّ قالت: "كلاّ، ليس حقاً".

اقترب منها، ورأى بوضوح أنّها متوتّرة. فكّر في أنّه يعرف السبب فهي قلقة، ولكن لا ضرورة لذلك. "حبيبتـي، لا تقلقي بخصوص الليلة يمكننا البقاء في المنزل ومشـاهدة فيلم، أو الجلوس علـى الأريكة، كـ كنّا نفعل عندما كانت سام صغيرة".

ترقرقت عيناها بالدموع وشـعرت بالارتباك. كانت محرجة ولكنّ

ممتنّة له.

ذهب آدم إلى الثلاجة ووجد زجاجة شـراب أخرى. أحضر لنفسـه كأساً وذهب للجلوس معها، حيث كان معتاداً أن يجلس في الماضي.

وضعـت ميغان رأسـها على صـدره، ثـمّ أغمضـت عينَيهـا وبدأت تبكي.

116

الخميس 24 حزيران

لا يعرف غيديون مـا إذا كان يسـتعيد وعيه أم مـا زَال في كابوس. تلاحقت موجـات الصدمة في رأسـه، وكان الألـم فظيعـاً. تنازعته صور قويّة مثل طفل في بحر هائج: عيون سـوداء تحت قلنسوات من الخيش، حلقة كبيرة من الشموع المشـتعلة، وجه أمّه، لوح حجري قديم ومطرقة، مذكّرات أبيه، يدا سيّد هانج المرفوعتان، جسده العاري المقيّد إلى حجر المذبح، ملمس السـكّين الحارق على رسـغَيه وسـاقَيه وظهره، طعم دمه وهو يسيل في فمه.

كان يـرى الآن صبيًّـا فـي الثامنـة مـن عمـره، شـعره داكـن وعيناه كبيرتان يملأهما الأمل. كان يمسـك بيَـد أبيه ويقفان وسـط الضباب في حقل شاسـع؛ سـتونهنج. ولكنّ ما يحيط بهما لم يكن أحجـاراً، بل كان حلقة من الأطيـاف الطويلة. راحـت الأشـكال البخارية تتحـرّك، وتزداد حجماً، ثمّ تعود نحيلـة كالدخـان المتصاعد من المصابيـح في الأرض، لترتفـع عاليـاً مثل نفط أسـود يتفجّـر مـن الأرض، وتحترق بلـون أحمر كألسنة النار، ثمّ تصبح ذهبيّة مثل حبال قيثارة عملاقة.

لم يرَ غيديون الآن سـوى وابـلٍ من النجـوم. مجرّات مـن النجوم تتسـاقط وسـط النصب، وتدور فـي بركة كونيّة شاسـعة بلا قـرار. بدأت

النجوم تنطفئ، وتساقطت الصخور خلفه، وهي تهدر مثل زلزال. تحرّكت الكائنات الحجرية على طرف البركة وعبرت ظلام عقله، ثمّ أحاطت به. أمسك أحدُها بالسلاسل المحيطة بكاحليه، بينما رفع الآخر القيود المعدنية المحيطة برسغَيه، وأفلت يده التي سقطت مثل يد دمية من قماش. نبض قلبه بعنف في جسده البارد العاري. انحنت الكائنات العملاقة فوقه، ثمّ ابتعدت، واختفت مثل الضباب الذي كان يخيّم على ستونهنج.

انطفأ الضوء الوحيد في القاعة الكبرى، ذلك الوهج الباهت الصادر عن حلقة الشموع. وأصبح غيديون بمفرده في ذلك الظلام الحجري.

117

نهض آدم قبل ميغان بوقت طويل لإعداد الفطور، تماماً كما اعتاد أن يفعل. كلّ شيء سيعود كما كان.

سمعها وهي تخرج من الحمّام، فأعادها إلى السرير، ثمّ أسرع إلى الأسفل وعاد بصينيّة مليئة بالخبز المحمّص، وعصير البرتقال، والفاكهة، وزهرة مقطوفة من حديقة المنزل الصغيرة.

ابتسمت له قائلة: "لم تعاملني هكذا منذ وقت طويل".

"لم تسمحي لي بذلك منذ وقت طويل".

قبّلا بعضهما ونظرا في الوقت نفسه إلى الساعة الموضوعة قرب السرير. كانت تشير إلى 7:10 صباحاً. لا وقت لشيء غير الطعام، فراحت تأكل بنهم الخبز الساخن المغطّى بالزبدة.

قال وهو يجلس على طرف السرير: "سأصطحب سامي إلى الحضانة". كان في ذهنه شيء آخر. "ما قلته ليلة البارحة، عن الطقوس

الغريبة وستونهنج، هل تعتقدين فعلاً بوجودها، أم أنّ تعب النهار والشراب كانا السبب؟".

"القليل من الاثنين، على ما أظنّ". لم تخبره كلّ شيء، بل بعض شكوكها بخصوص لوك وتمبرلاند. سبب انجذابهما إلى النصب، وإغراء الانقلاب الشمسي، ومعانيه الباطنيّة. كانت مهتمّة برأيه المهني. "هل تظنّ أنّه من الغباء التفكير في وجود طائفة، عوضاً عن عصابة خطف؟".

هزّ كتفَيه وأجاب: "باستثناء بعض الأمور الغريبة، لا أظنّ أنّ الجماعات التي تمارس طقوساً قديمة هي أكثر من حفنة من المجانين الذين يؤدّون رقصة غريبة وبعض الشعائر".

"اسمع، يسوَّق لستونهنج تجاريًّا على أنّه مكان عجيب، وباطني، وما إلى ذلك. وفريق الأمن هناك يخبرك أنّه مكان مبجّل، ويحذّرك من لمس الأحجار تحت أيّ ظرف كان. في الواقع، يُدفع لهم لقول ذلك، من أجل استمرار الأساطير. إنّه يخصّ الوثنيين. اذهب إلى هناك في أيّ يوم من أيّام الأسبوع، وسترى أشخاصاً من جميع أنحاء العالم راكعين أمام تلك الصخور، كما ستسمع بلا شكّ قصصاً عن الطوائف وممارساتها الغريبة".

اشتاقت إلى التحدّث إليه بتلك الطريقة، ومشاركته هموم عملها. "إذاً، أنت لا تصدّق ذلك؟ إنّها مجرّد أساطير وقصص شعبيّة، تماماً مثل تحويل الماء إلى شراب وإطعام آلاف الناس من رغيف خبز وسمكتَين؟".

"أنت تعرفين، ميغ، أنّ ويلتشر مليئة بالأشباح والأساطير. يُفترض مثلاً أنّ جورج الصالح قتل تنّيناً في أوفينغتون، كما يُفترض أنّ مارلين أتى إلى ستونهنج". ضحك وهو يقف، ثم تابع: "لا تفكّري في الموضوع كثيراً، وأعدك ألاّ أذكره في العمل أمام شخص أذكى من جيمي".

انحنى وقبّلها قائلاً: "عليّ الذهاب".

"شكراً. قل لأمّي إنّني سأتّصل بها لاحقاً".

سمعت وقع خطواته على الدرج، ثمّ أُغلق باب المنزل.

شغّل آدم محرّك سيّارته البي أم دبليو التي ابتاعها منذ أربع سنوات بسعر زهيد من أحد المزادات. قادها خارج الممرّ واتّصل بمركز الشرطة ليرى ما إذا كان ثمّة أمر هامّ يحدث. كان محظوظاً، إذ يبدو أنّ نهاره سيكون هادئاً.

استخدم هاتفاً آخر وأجرى اتّصالاً خاصًّا، لم يشأ أن تعرف به ميغان: "معك أكيلا. لستُ واثقاً تماماً، ولكن أظنّ أنّنا قد نواجه مشكلة".

جلس سيّد هانج في ضوء الشموع المتراقص في حجرته وهو يفكّر في مسألة التوقيت الحسّاس. ثلاثة أيّام تفصل عن أوّل شفق لأوّل بدر بعد الانقلاب الصيفي، وهو الوقت الذي يجب أن تبدأ فيه الطقوس. عليه أن يكون دقيقاً. يجب أن تبدأ طقوس تقديم القربان في الشفق الفلكي مساء الأحد القادم، وأن تتمّ عند بداية الشفق البحري؛ أي صباح الاثنين.

هذا يحتاج إلى الكثير من التخطيط، إذ ينبغي اختيار الحمّالين والمراقبين. كما سيبدأ الأتباع الموثوق بهم بالوصول قريباً من مختلف أنحاء العالم. سيتمّ الاحتفاء بهم كضيوف في منازل إخوانهم البريطانيين.

خفّ نشاط الشرطة، ولكنّه ما زال كبيراً. ما زال كثيفاً جداً للمخاطرة. ليس لدى الصحف حديث آخر سوى الشابّة المحتجَزة على بُعد أمتار منه. لم تعد تسبّب الكثير من المتاعب الآن. فستّة أيّام

بلا طعام استنفدت قواها. وبعد محاولة الهرب الفاشلة، أصبحت أكثر هدوءاً. شكر الكائنات الممجّدة على تلك النعم الصغيرة.

لديه أيضاً غيديون. لقد انتشرت في حجرته المذكّرات المشفّرة التي أحضرها تشيس معه. لم يستطع السيّد فهم محتواها، ولا بدّ من أنّ الشابّ قد نسخها. فهو ليس غبيًّا، ولا يبدو أقلّ ذكاءً من ناثانيال، بل يضاهيه في كلّ شيء. وإن ظلّ على قيد الحياة بعد طقوس لتلقين، فقد يصبح مصدر نفع له وليس عائقاً.

فُتح باب الحجرة ودخل دراكو مرتدياً العباءة ومعتمراً لقلنسوة.

"ما الأمر؟". بدا من سؤال السيّد الجافّ أنّ توتّره يتصاعد.

"شكراً لقبولكم رؤيتي من دون موعد سابق. اتّصل بي هذا الصباح أخونا أكيلا. زوجته مفتّشة تعمل في مركز الشرطة، وقد بدأت تربط بين الأحداث على نحو لا يساعدنا".

"كيف؟".

"بخصوص الفتاة الأميركية وصديقها البريطاني. إنها تفكّر في أنّهما قصدا ستونهنج لمشاهدة الانقلاب الشمسي، وأنّ الأميركية قد اختُطفت في الجوار".

لم يكترث السيّد وقال: "قرأتُ الكثير عن ذلك في الصحف. لن تركّز الشرطة على تلك النقطة، فهم يعرفون أنّ الإعلام يكتب شيئاً جديداً كلّ ساعة".

قال دراكو: "ولكنّ هذه المرأة تحقّق أيضاً في انحار ناثانيال تشيس، وفي قضيّة شخص مفقود، الشابّ الذي اختير كآخر قربان لنا".

هزّ السيّد رأسه قائلاً: "الآن فهمت. أحسنت بإطلاعي على الموضوع، وأحسن أكيلا بمشاركتنا مخاوفه. سأهتمّ بأمر المفتشة".

جيمي دوكيري مفقود.

لم يأتِ إلى العمل، ولم يره أحد. وهو لا يجيب على جهاز اللاسلكي، كما أنّه لم يتّصل للاعتذار بسبب المرض. ومن الاتّصالات التي قامت بها ميغان، تبيّن أنّه ليس في المنزل، وسيّارته ليست متوقّفة في المدخل، ولا أثر له.

من الممكن أن يكون لذلك تفسير منطقي جداً، ولكن ليس هذا ما تفكّر فيه. كانت تتخيّل الأسوأ، ولديها أسباب تدفعها إلى ذلك. فغيديون تشيس مفقود أيضاً، وهو لا يجيب على هاتفه الأرضي أو على هاتفه النقّال. وليس في منزله كذلك، فقد عادت للتوّ من تولارد رويال، ولا أثر له هناك.

هل من الممكن أن يكون جيمي مع غيديون؟ فهذا هو الرابط البديهي. ولكن، لماذا؟ هل كان جيمي يتتبّع الأشياء التي تكلّما عنها؟ راودتها أفكار أكثر خطورة. كانت ميغان تودّ التكلّم وجهاً لوجه مع دوكيري الأب. أرادت أن تنظر إلى عينَي نائب رئيس الشرطة لترى ما إذا كان يعرف شيئاً عن ابنه المفقود. لم تصدّق أنّها تفكّر على هذا النحو. تذكّرت ما قاله آدم عن أنّها تُقدم على انتحار مهني إن تكلّمَت عمّا يدور في رأسها مع أشخاص آخرين في العمل. نفضت عنها الأفكار السوداء وقرّرت أن تشغل نفسها بانتظار ظهور جيمي أو غيديون.

كان الجزّار مات أتلي على رأس جدول أعمالها. توجّهت إلى مكتب الممتلكات لإلقاء نظرة أخرى على الأدلّة التي تمّ العثور عليها بعد عمليّة السطو. كانت تشعر أنّ الفأس التي رأتها في الحقيبة هي ساطور الجزّار.

أمضت ميغان بعض الوقت مع لويز - وهي موظّفة في مكتب

الممتلكات ترمّلت مؤخّراً - وأخبرتها بما تريده. واصلا الثرثرة بينما اختفت المرأة البالغة من العمر اثنين وخمسين عاماً في الجزء الخلفي من المكتب ورفعت صوتها فوق ضجيج أكياس الورق والصناديق الموضوعة على الرفوف المعدنية. "هل أنت واثقة من التواريخ ومن رقم القضيّة، ميغان؟".

"بالتأكيد أنا واثقة".

ظهرت لويز مجدّداً وقالت لها: "دعيني أتحقّق مرّة أخرى". طبعت الرقم على حاسوبها. "آسفة، ولكن ليس لديّ أيّ سجلّ بهذا الرقم". بدت عليها الحيرة. "لا أثر له على الإطلاق. والأرقام التي أعطيتني إيّاها لا تنطبق على أيّ من المقتنيات الموجودة لديّ".

صُعقت ميغان: "إذاً أين هي؟ رأيتُ الأدلّة بأمّ عيني، تحقّقتُ منها مع الشرطيّ الذي عثر عليها، ومع الرقيب الذي يعمل معي والذي قال إنّه..." فجأة صمتت.

قال لها جيمي إنّه سيُدخل الأدلّة. وتذكرت بوضوح كيف أخذها من مكتبها. شعرت بالبرودة تجتاح جسدها.

باغتتها فكرة أخرى.

شكرت لويز واندفعت إلى مكتبها. فتحت بريدها الإلكتروني وراحت تبحث بين الرسائل بجنون. جعل الذعر نبضها يتسارع. طبعت بسرعة في خانة البحث.

لا شيء.

طبعت مجدّداً، ببطء أكبر هذه المرّة، ثمّ بحثت يدويًّا بين الرسائل. مع ذلك، لم تجد شيئاً. كانت صدمتها كبيرة. بحثت في قسم الملفّات الممحوّة مؤخّراً.

لا شيء إطلاقاً.

لقد تـمّ محـو الملفّـات بشـكل نهائي. "يـا اللـه!". غطّـت وجهها بيدَيها، فقد اختفت الرسالة الإلكترونية التي زوّدتها بصور مات أتلي.

لم يعد لديها شيء ضدّه.

اختفت كلّ الأدلّة.

120

"لا تبـدو متكبّـراً وواثقـاً مـن نفسـك الآن". انحنـى دراكـو فـوق غيديون ونظر إلى وجهه الشاحب. كان القيّم على الدائرة الداخلية يعرف تماماً ما الذي مرّ به غيديون؛ فقد اختبره بنفسه.

رفع دراكـو أحد أغلال يـدَي غيديـون وأدخل فيـه مفتاحـاً. كانت السلاسـل معلّقة بحلقة في الأرض الحجرية. "قبل أن أخرجك، أريد أن أعرف إذا كنتُ أستطيع الوثوق بك".

كان غيديون ضعيفاً ومصدومـاً ولكنه قال: "يمكنـك ذلك". خرج صوته بطيئاً وخشناً.

فتح دراكو الأقفال، ثمّ ظهر رجلان من الظلال ورفعا غيديون على قدمَيه. كان وزنـه ثقيلاً وواجه صعوبة في الوقوف. آلمـه اندفاع الدم إلى رأسه، وشعر بضعف وجوع هائلَين.

مشـى بخفّة عبر القاعة الكبرى، علـى غير هدى، وكأنّـه في تجربة خارج الجسـد. بدا الرجال المقلنسـون المحيطون بـه وكأنّهم يومضون، ومحاطين بهـالات ذهبيّـة تتمـدّد وتنكمش وهم يتنفّسـون. عندمـا تكلّم دراكـو، خرجت غيوم بيضـاء من فمه. مثـل بخار الماء الـذي يخرج من الفم في يوم شتائي بارد.

عرف أنّهم يقودونه عبر الممرّات، ولكنّه لم يشعر بقدمَيه؛ لم يشعر بشـيء. إلاّ أنّ بصره وسـمعه أصبحا حسّاسَـين جداً. كان يسمع الرطوبة

وهي تتسرّب عبر الأحجار الرملية المنحوتة حوله، ويستطيع رؤية الممرّ بأكمله منعكسـاً في عين سـوداء لنملة تسـير علـى الملاط، حيـث يلتقي الجدار بالأرض.

توقّفوا مذعوريـن، وامتزجت هالاتهـم وبدا أنّها تحتـرق. اختلطت أصواتهم، وانسـكبت فـي بعضها، في كلمـات خضراء، وحمـراء، وبنّية. ضحك غيديون. أداروه حول نفسه. شعر بالشكّ. كان ثمّة رجال آخرون أمامه، رجال وامرأة.

امرأة جميلة. شابّة، داكنة الشعر، وجذّابة.

أمّه.

عرفهـا غيديون، كانت حيّـة. أبعدوه عنهـا، ولكنّها رأتـه. لجزء من الثانية، كان غيديون واثقاً أنّ عيني أمّه قد التقتا عينَيه.

دُفع بعيداً. نظر إلى الخلف وبحث عنها، ولكنّها اختفت.

121

طرقت ميغان بخفّـة على باب مكتـب جود تومبكينـز ودخلت. لم تكن رئيسـة قسـم التحرّيين صديقتها، ولكن يبدو أنّها الشـخص الوحيد الذي تستطيع اللجوء إليه الآن.

"سـيّدتي، آسـفة جداً على إزعاجك. ولكن، أريد التكلّم معك سرًّا بخصوص تطوّر هامّ".

كان المكتب مظلماً. قطّبت تومبكينز جبينها ونظرت إليها عبر ضوء أصفر خفيف صادر عن مصباح مكتب، وسألتها: "ما الأمر، بيكر؟".

"سيّدتي، كنّا أنا وجيمي نتابع قضيّة نايلور".

نظرت إليهـا تومبكينز، وفكّـرت قليلاً، ثمّ تذكّـرت الملفّ: "طوني نايلور؟".

"أجل، سيّدتي، هذا صحيح".

وضعت جود القلم من يدها، واستقامت في جلستها. "حسناً، ادخلي. أخبريني بسرعة، فغيبسون ورولاندز أرهقاني بكثرة العمل". وأشارت إلى أحد المقاعد.

"شكراً، سيّدتي". أغلقت ميغان الباب وجلست. "لكي لا أطيل عليك الحديث، نايلور قد مات".

خفّ شيء من التوتّر الذي كان بادياً في ملامح رئيسة القسم. فمن حيث الوقت، والمال، والموارد، مفقود ميت أفضل عادة من مفقود حيّ. "هل عثرتم على جثّة؟".

"نوعاً ما، سيّدتي. فجثّة نايلور حُوّلت إلى سماد ورُشّت في حقل".

وضعت رئيسة القسم رأسها بين يدَيها مرهقة. العثور على ميت مقتول مسألة مختلفة تماماً، وهذا آخر ما تريده الآن. حكّت رأسها المسرّح بعناية، وحاولت أن تساعد الدم على الجريان فيه، ثم سألت ميغان: "هل لديك أدلّة من قسم الطبّ الشرعي، بيكر؟".

"حصلنا على عيّنة من أبوَيه، سيّدتي. إنّها متوافقة تماماً".

فتحت تومبكينز عينَيها، وجلست مستقيمة أكثر وحدّقت إليها: "هل أخبرتهما بالتفاصيل؟".

"ليس بعد".

"قلتِ إنّه حُوّل إلى سماد؟".

"ربّما هو وصف خاطئ، سيّدتي. شخص ما، شيء ما، سحق جسده ثمّ ذرّه في ما كان حقل مزروعات قرب إمبر".

سألتها باشمئزاز: "وكيف اكتشفتِ ذلك؟".

"كان طرف الخيط قلادة وجدها شخص يمارس الرياضة. تعرّفَت

عليها شقيقة نايلور، من النقش الموجود على ظهر القطعة المعدنية، وقالت إنّها اشترتها له". رأت ميغان النظرة المتعبة على وجه رئيستها، وفكّرت في أنّ الوقت ليس مناسباً لذكر أمر الديكين الروميين غير المألوف. "نظّم الرقيب دوكيري عمليّة بحث وعاد بعيّنات للتربة. أجرى المختبر تحاليل سريعة عليها، ووجد جزيئات من لحم بشري في الأرض. أُخذت تلك العيّنات من حقل كبير، من وسطه تماماً. واحتوت كلّها على الحمض النووي نفسه. ثمّ قارن المختبر النتائج بالحمض النووي لأفراد العائلة".

أُعجبت تومبكينز بالعمل: "أحسنتما. في ظروف أخرى، كان لهذه القضيّة أن تتّخذ أهميّة كبرى". نظرت إلى الملفّات الموضوعة على مكتبها، كومة من الأوراق، والصور العائدة لجايك تمبرلاند وكاتلين لوك، ثم تابعت: "أهذا ما أردتِ مناقشته سرًّا، أم ثمّة أمر آخر؟".

"ثمّة المزيد". أشارت ميغان إلى خريطة كبيرة لويلتشر على جدار في المكتب. "المكان الذي عثرنا فيه على بقايا نايلور هو ما يشغلني، سيّدتي". وقفت واتّجهت إلى الخريطة قائلة: "هنا". وضعت إصبعها على غابات وحقول سهل ساليسبوري النائية. "بالكاد يبعد ميلاً عن المكان الذي عُثر فيه على جثّة تمبرلاند". وقفت تومبكينز وانضمّت إليها أمام الخريطة. حدّقت إلى البقعة الجرداء، ثم سألتها: "إذاً، من يملك هذا الجزء من الأراضي؟".

"هذا ما يثير الاهتمام، سيّدتي. إن نظرتِ إلى السجلّ العقاري، فستجدين أنّ وزارة الدفاع تملك كلّ شيء هناك. ولكنّ هذا ليس صحيحاً. فقد قمتُ ببعض الأبحاث، وتبيّن لي أنّهم يملكون 99.9 بالمئة، وأن نسبة 0.1 التي لا يملكونها هي هذا الجزء. الجزء الصغير الذي يحتوي على الحقل ومخزن الحبوب؛ المكان الذي عثرنا فيه على

الجثّتين في غضون أيّام".

"إذاً من يملكه؟".

"ناثانيال تشيس، أو على الأقلّ كان يملكه، إلى أن أقدم على الانتحار. والآن أصبح لابنه غيديون".

122

قاعدة الثلاثة. كانت من أوّل الأشياء التي علّمها المنتجون لكاتلين عندما خاضت تجربة سرفايفر.

القاعدة الأولى: لا يستطيع البشر البقاء على قيد الحياة أكثر من ثلاث ساعات عندما يتعرّضون لدرجات حرارة شديدة الارتفاع أو الانخفاض إن كانوا لا يرتدون ملابس مناسبة. القاعدة الثانية: لا يستطيع البشر البقاء على قيد الحياة أكثر من ثلاثة أيّام بلا ماء. القاعدة الثالثة: لا يستطيع البشر البقاء على قيد الحياة أكثر من ثلاثة أسابيع بلا طعام.

فكّرت كاتلين في أنّه كان يتعيّن عليهم إضافة قاعدة رابعة: لا يستطيع البشر البقاء على قيد الحياة عندما يُسجنون في قبر صخري، ويتمّ العبث بعقولهم من قِبل أوغاد يرتدون العباءات.

كانت ظروف سجنها الضيّق منهِكة جسديًّا، وغياب الهواء المنعش يسبّب لها الاختناق، كما كانت ترتجف من البرد باستمرار. ولكنّ أكثر ما يقتلها هو الضجر. فمخاوفها وتخيّلاتها تستبدّ بها.

راحت أسنانها تصطكّ، وأدركت أنّ حرارة جسدها تنخفض على نحو خطر، ولكنّ المجال لا يتّسع للقيام بأيّ نشاط كاف لتوليد الحرارة. كانوا يعطونها الماء، ولكنّها تصاب بالتجفاف. وصداعها المتواصل تأزّم إلى حدّ شعرت معه أنّها على وشك الإغماء. آلام الجوع متواصلة وقد مضى وقت طويل على آخر وجبة تناولتها، حتّى إنّها لا تذكرها. كانت

في الكامبرفان مع جايك، لا شكّ في ذلك. مضى دهر عليها.

تقلّصت معدتها مرّة أخرى، وانحنت كاتلين بألم. كانت تعرف تماماً ما الذي يحدث لجسدها، ولكنّها تمنّت لو أنّها لا تعرف. كان يأكل نفسه، ويمضغ احتياطها من الدهون والعضلات، ويُضيع كلّ سنوات التغذية الجيّدة والساعات التي أمضتها في قاعات الرياضة. شعرت منذ الآن أنّ عضلاتها تلين وتتقلّص.

بعد ظهورها في برنامج سرفايفر، سُمّيت كاتلين سفيرة لمنظمّة الدعوة العالميّة للتحرك ضدّ الفقر. لذلك، كانت تعرف جميع التفاصيل القذرة عن المجاعة المسؤولة عن وفاة شخص في العالم كلّ ثانية. أي ما يعادل أربعة آلاف شخص في الساعة، ومئة ألف شخص في اليوم، وستّة وثلاثين مليون شخص في السنة. لا تريد أن تصبح واحدة منهم. لا تريد أنّ تتحوّل إلى رقم في إحصائيّات مريعة.

باغتها الدوار مجدّداً، فانزلقت على الأرض لكي لا تسقط، وحمت رأسها. ابتلعها الظلام، ولم تعد تعرف إذا كانت واعية أم أنّها تهلوس. أخرجها رجال من زنزانتها ورافقوها للاغتسال. كانت عيناها زائغتَين، كما شعرت بأنّها على وشك الإغماء، وراحت تجاهد للتنفّس.

رأت من زاوية عينها حشداً أسود، أشخاصاً يتّجهون نحوها، خاطفين مقلنسين يحيطون بأحدهم.

جايك.

حاولت التركيز. رأته محاطاً برجال آخرين يرتدون العباءات، ونظراتهم ماكرة، مثل الوحوش الذين يحرسونها. بدا عارياً، وذقنه محنيّ فوق صدره وهم يقودونه من ذراعَيه. أرادت أن تقول شيئاً، ولكنّ فمها لم يطاوعها. أرادت الركض إليه، ولكنّها بالكاد كانت تستطيع الوقوف. فجأة، اندفع الدم في جسدها مثل وباء وانهارت في ظلام خانق.

123

وقفت ميغان مع رئيستها وهما تحدّقان إلى الخريطة. كانتا قد توصّلتا إلى الاستنتاج نفسه.

جثّتان اكتُشفتا في بقعة صغيرة كتلك، خلال أيّام، وعلى أرض يملكها رجل ثريّ وواسع النفوذ انتحر فجأة. لا يمكن تجاهل هذه المجموعة من العوامل.

قالت تومبكينز: "ابحثي عن غيديون تشيس. هزّي قفصه، واكتشفي إذا كان حزيناً فعلاً على أبيه أم أنّ وراءه أمراً آخر".

"سيّدتي، كنتُ أحاول الاتّصال به طيلة النهار، ولكن، عبثاً". تردّدت قبل أن تضيف: "كما أنّني عجزتُ أيضاً عن الاتّصال بالرقيب دوكيري. يبدو أنّه قد اختفى أيضاً".

خشيت تومبكينز أن تكون القضيّة الموجودة بين يدَيها من القضايا الكلاسيكية التي لا تعرف فيها اليَد اليسرى ما تفعله اليد اليمنى. "أهو مع تشيس، بيكر؟". أضحكتها الفكرة. "هل الرقيب متقدّم عليك؟".

لم تُزعج الملاحظة ميغان وأجابت: "ربّما، سيّدتي. ولكن، هذا لا يُفسّر سبب عجزي عن الاتّصال بأيّ منهما. فهاتف تشيس الأرضي ينتقل إلى المجيب الآلي. حاولتُ الاتّصال بهما على هاتفيهما النقّالَين وتركت رسائل".

"إذاً، ربّما اصطحبه جيمي إلى وسط السهل. والإرسال هناك قد يكون ضعيفاً". سبّبت لها الفكرة قلقاً فقالت: "في الواقع، نحن نحتاج إلى دعم عمليّاتي لضرب طوق حول المكان الذي عثرتما فيه على بقايا نايلور، وإيجاد عالِم آثار من فريق الطبّ الشرعي لتفتيش المنطقة".

"سبق وضربتُ طوقاً أمنيًّا حول المكان، سيّدتي. تصرّفت من تلقاء نفسي فور ورود النتائج، فقد كنتِ منشغلة في ذلك الوقت، وإلاّ لكنتُ

أبلغتك قبل الآن".

فُتح باب رئيسة القسم وأطلّت سكرتيرتها قائلة: "يرغب الرئيس ونائبه في رؤية المفتّشة بيكر، سيّدتي".

فوجئت تومبكينز وسألتها: "لماذا؟".

"أخشى أنّني لا أعرف، فمساعد الرئيس لم يعطني سبباً، بل طلب منّي إيجادها على نحو عاجل".

تعرف ميغان، من خلال خبرتها، أنّ كلمة عاجل ليست جيّدة. لم تكن كذلك يوماً ولن تكون.

"سآتي معك". تناولت تومبكينز حقيبة يدها من زاوية كرسي المكتب قائلة: "إن كان الأمر عاجلاً بالنسبة إليك، فهو عاجل بالنسبة إليّ أيضاً".

124

وقف سيّد هانج وعانق الملقَّن الجديد قائلاً: "بنيّ، يسرّني أن تكون معنا الآن". أمسك برأس غيديون قرب وجهه، واحتضنه مثل أب يعانق طفله الضائع، ثم تابع: "اجلس، عليك أن تستريح". التفت إلى دراكو: "دعنا وحدنا، سأناديك عندما ننتهي".

ابتسم السيّد وهو يجلس بمفرده مع غيديون أمام الطاولة الحجرية المستديرة، ثم قال له: "الطقوس متعِبة، وستشعر بالضعف والإنهاك لبضع ساعات، ولكنّ جسدك سيُشفى ويتجدّد بسرعة".

كان على الطاولة أمامه أطباق خشبية مليئة بالفاكهة الطازجة المقطّعة وأباريق من الماء والعصير.

"الطعام الموجود هنا مناسب جداً لجسدك النظيف: عنبيّة، توت برّي، تين، موز. إنّه طعام يمنح القوّة. كل رجاء، فأنت بحاجة إلى

استعادة قواك".

تناول غيديون القليل منها، ولكن لم تكن لديه الشهيّة. نظر حوله، وبدا له أنّ الجدران الصخرية تمتصّ كلّ الضوء من الغرفة.

"يا لها من فاكهة شهيرة ورمز قويّ، أليس كذلك؟". حمل السيّد تفاحة في راحة يده.

"بمَ تفكّر؟".

"كنتُ أفكّر في قصّة يونانية".

عرف غيديون أنّه يخضع لاختبار، فبدأ ذهنه يعمل ببطء: "آه، أنت تعني عندما ذهب هرقل لسرقة التفّاحات الذهبيّة من حديقة الهيسبيريدات".

ابتسم السيّد ثمّ قضم التفّاحة قائلاً: "أنت ابن أبيك بالفعل". وأشار برأسه إلى المذكّرات المشفّرة المنتشرة في آخر الطاولة قائلاً: "عندما ننتهي، أريد منك أن تقرأ لي بعضها وتشرح الشيفرة".

نزع غيديون عود حبّة كرز حمراء نضرة وقال: "لديّ بعض الأسئلة".

"اسأل. فهذا الوقت لك، وأنا هنا لمساعدتك على التعلّم لكي تصبح عضواً هامًّا في حرفتنا".

"الهيكل يثير فضولي. كيف ومتى بُنيَ؟ وأين يقع بالضبط؟".

ابتسم السيّد وهو يجيب: "ستعرف موقع الهيكل في الوقت المناسب، وعندها، سأعرّفك بنفسي على غرفه الرائعة".

بدا غيديون مستاءً: "ما زلتم لا تثقون بي؟".

تنهّد سيّد هانج وأجاب: "التلقين هو بداية رحلتك، ولكنّه لا يُتمّها. أظنّ أنّك تعرف أنّنا نقترب من موعد هامّ في روزنامتنا؛ موعد لا يمكن لأحد أن يخاطر به. بعد ذلك، سنبحث هذا الموضوع".

"تقصد طقوس التجديد. أفترض أنّ هذا ما تعنيه".

"بالفعل. فخلال ثلاثة أيّام ستُتمّمها، وبعدها سنسمح لك بالمغادرة". ابتسم مضيفاً: "وعندما تخرج، ستعرف موقع الهيكل". ضحك مضيفاً: "ستعرف على الفور".

"وحتّى ذلك الحين سأبقى هنا؟ بصفتي ماذا؟ سجيناً؟".

"بالطبع لا، بل بصفتك تلميذاً. ستتحدّث كلّ يوم، وستشرح لي كتابات ناثانيال". تناول أحد الدفاتر الموضوعة إلى جانبه قائلاً: 'وسأشرح لك واجباتك كتابع للمبجّلين. سنستغلّ الوقت جيّداً".

125

لم تقل الشرطيّتان شيئاً يُذكر وهما تجتازان المسافة القصيرة إلى جناح مكتب الرئيس. طُلب منهما الانتظار للحظة، ثمّ اصطحبهما مساعد الرئيس إلى الداخل.

جلس ألان هانت وغريغ دوكيري إلى طاولة اجتماعات قريبة من الباب، ولم يبدُ أنّ أياً منهما لاحظ دخول تومبكينز.

قالت ميغان، وهي تحاول إخفاء توتّرها: "طلبتم رؤيتي، سيّدي".

"أجل، حضرة المفتّشة". ابتسم الرئيس بدبلوماسيّة وأشار إلى كرسي قائلاً: "تفضّلي بالجلوس". ونظر إلى تومبكينز مضيفاً: "لا شيء يدعو إلى القلق، جود".

"يسرّني ذلك، سيّدي. فقد قالوا من مكتبكم إنّ الأمر عاجل، وظننتُ أنّكم ستقدّرون وجودي". جلست على كرسي قرب ميغان.

تجاهل هانت التعليق والتفت إلى نائبه. ركّز غريغ دوكيري نظره على ميغان وهو يقول: "تمّ إبلاغنا للتوّ أنّ وزارة الداخلية تنوي نشر مجلّتها السنويّة. وستكون في غاية الأهميّة بالنسبة إلى شرطة ويلتشر. لا

سيّما بالنسبة إلى اهتمامنا – أو ما يرون أنّه اهتمام من قِبَلنا – بالقضايا طويلة الأمد غير المحدودة. من هنا، علينا أن نتّخذ المبادرة ونتجنّب أيّ تأنيب". ابتسم. "هذه أنباء جيّدة بالنسبة إليك، بيكر. فبدءاً من هذه اللحظة، ستترأسين مهمّتنا الجديدة، عمليّة القضيّة الباردة. وإن حقّقتِ تقدّماً كافياً، وتمكّنتِ من تجنيبنا الانتقاد، يمكنك أن تتوقّعي ترقية أسرع إلى منصب رئيسة قسم التحرّيين. تهانينا". وقف وانحنى من فوق المكتب لمصافحتها.

فوجئت ميغان وارتبكت قائلة: "شكراً، سيّدي". وقفت لمصافحة اليد الممدودة نحوها.

سألت تومبكينز ببرود: "ومتى يجب أن تبدأ؟ فمع احترامي، نحن منشغلون جداً، سيّدي. فبالإضافة إلى قضيّة لوك، تتولّى المفتّشة بيكر مهامًّا عديدة، بما في ذلك جريمة قتل جديدة. التوقيت ليس جيّداً بالفعل".

أجابها هانت بجفاف: "ستبدأ الآن. ما من توقيت مناسب إطلاقاً، جود. ثمّة دائماً سبب لتأجيل التغيير. سنُكلّف شخصاً آخر بأعمال المفتّشة".

أضاف نائبه: "هذه فرصة كبيرة بالنسبة إليك، ميغان. ستُفيدك. المركز في سويندون، لذا عليك إخلاء مكتبك اليوم. ستبدئين في الصباح".

ابتلعت ريقها قائلة: "سيّدي، لديّ ابنة صغيرة تذهب إلى دار حضانة في هارتمور. أحتاج إلى المزيد من الوقت".

قاطعها هانت: "لا وقت لديك، حضرة المفتّشة". نظر إلى ساعته مضيفاً: "أو لدينا. أنت محظوظة جداً، فقد نلتِ وظيفة رائعة. اذهبي الآن واستفيدي منها قدر الإمكان".

"حاضر سيّدي". خرجت ميغان بصمت مهيب، تتبعها جود تومبكينز. عندما أصبحتا خارج الباب، أمسكتها رئيسة مفتّشي المباحث من ذراعها قائلة: "تعالي معي إلى مكتبي، علينا أن نتكلم. أنت لامعة، بيكر، ولكن ليس إلى هذا الحدّ. الوظائف لا تسقط كالمطر من السماء. لكنتُ عرفتُ بشغور وظيفة استراتيجيّة كهذه".

لم تقل رئيسة مفتّشي المباحث المزيد حتّى عادت إلى مكتبها. فبعد أن أغلقت الباب، وحدّقت إلى ميغان بنظرة اتّهامية قالت لها: "لقد تمّ إخراجك من هنا، وبسرعة مضاعفة. ماذا كنتِ تفعلين؟ أهو جيمي؟ هل كنتِ ترافقين ذلك الشاب بني الشعر؟".

أجابتها ميغان باستنكار: "بالطبع لا".

"جيّد، فأنا أعتبرك عاقلة ولا تقدمين على أمر كهذا. ما الموضوع إذاً؟".

"لا علاقة للأمر بحياتي الشخصيّة. ومع أنّ هذا لا يعنيك، إلاّ أنّني عدتُ إلى زوجي".

"اشرحي لي إذاً، بماذا يتعلّق الأمر؟".

حاولت ميغان معرفة السبب. فرئيستها محقّة، الوظيفة الجديدة ليست دفعة إلى الأعلى، بل إلى الخارج. لم تكن ترقية، بل وسيلة لإسكاتها.

لم تستطع تومبكينز الجلوس، بل راحت تذرع المكتب ذهاباً وإيّاباً وهي ترميها بنظرات الغضب قائلة: "لم نكن يوماً أكثر انشغالاً من الآن. لدينا قضيّة انتحار، وجريمتا قتل – نايلور وتمبرلاند – وخطف شخصيّة هامّة. وسط كلّ ذلك، يريد الرئيس إخراجك من قسمي". اقتربت من ميغان وتابعت: "فكّري، بيكر. فكّري جيّداً في أيّ أمر غير اعتيادي اكتشفته أو حدث معك وأخبريني به. هل ثمّة أمر ما، بخصوص القضايا

التي نعمل عليها، احتفظتِ به لنفسك؟ عملتِ عليه أكثر؟ أريد أن أعرف كلّ شيء حالاً".

126

الجمعة 25 حزيران

الليلة التي أمضاها غيديون على سرير من القشّ في زنزانة حجرية سبّبت له الألم من رأسه حتّى أخمص قدمَيه. يمكن للسيّد أن يسمّيه تلميذاً إن شاء، ولكنّه يعرف بالضبط ماذا يكون. إنّه سجين. شأنه شأن الشابّة الشاحبة التي رآها وهم يصطحبونه من القاعة الكبرى. المرأة التي اعتقد في أوهامه أنّها أمّه. إنّها الفتاة التي ذُكر اسمها في الأخبار، أدرك ذلك الآن، كاتلين لوك، ابنة نائب الرئيس الأميركي. تلك هي المرأة التي رآها. وحسبما يذكر، لديها عشيق بريطاني. توقّع أن يكون هو أيضاً محتجَزاً في مكان ما، ربّما في زنزانة مثل زنزانته.

ثمّ تذكّر، تذكّر كتاب أبيه. الحبس. فقد اعتمد البريتونيون القدماء ممارسة رومانية يونانية. إذ كانوا يحبسون المواطنين المنحرفين في أماكن ضيّقة جداً، ويتركونهم فيها وهم يتضوّرون جوعاً حتّى الموت. واستخدم الأتباع الممارسة نفسها لتنظيف جسد القربان وتحرير عقله من أيّ شكل من أشكال المحفّزات البصرية أو السمعية.

أشفق عليها غيديون. لا بدّ من أنّها على وشك الجنون، وهي مسجونة في حجرة صخرية مظلمة، من دون أن تتمكّن من الحركة أو فعل شيء. جحيم على الأرض. وقف وأخذ يمشي في زنزانته الصغيرة. كانت بطول سبع خطوات وعرض ثلاث خطوات. تُعتبر فخمة مقارنة بزنزانة كاتلين على الأرجح.

جلس على سرير القشّ وغاص في أفكاره. الهيكل عبارة عن

بناء دائري. يمكنه تخيّل الممرّ الذي يتجه نحو الأسفل، ورواق الدائرة الخارجية، والقاعة الكبرى، ومكان الاغتسال، وغرفة السيّد، وبعض الغرف الخارجية، والزنزانة الموجود فيها الآن. ممّا رآه، ومن الوصف الذي قرأه في مذكّرات أبيه، اعتقد أنّ لديه خريطة ذهنية جيّدة للمكان بأكمله، بما فيه الغرفة التي ينبغي أن تكون كاتلين محتجزة فيها.

لكنّ معرفته تلك تحتوي على ثغرة واحدة.

المخرج.

127

أمضت ميغان ليلة أخرى في منزل والدَيها مع سامي بعد خبر الترقية المزعومة، والشكوك التي أثارتها تومبكينز. كان آخر ما تريده هو أمسية مع آدم ورغبته المفاجئة في استعادة حياتهم الطبيعية، وكأنّ شيئاً لم يكن.

دخلت حوض الاستحمام وحاولت الاسترخاء. ولكن، ما زالت كلّ هموم الأمس تشغل بالها. فغيديون مفقود، وجيمي مفقود أيضاً، وهي مضطرّة إلى اقتلاع سامي من هذا المكان والانتقال إلى سويندون.

جفّفت نفسها وارتدت ملابسها. وعدتها تومبكينز بوضع عراقيل أمام مسألة تغيير وظيفتها، وإبطائها حتّى تتمكّن من تدبّر أمورها. ولكنّ ميغان شكّت في أن تتمكّن رئيسة مفتّشي المباحث من حمل الرئيس ونائبه على تغيير رأيهما.

كان والداها قد أطعما سامي وألبساها، فشكرتهما واصطحبتها إلى دار الحضانة، وعقلها لا يزال يعمل. تغيّر مجرى الأحداث أمس قرّب بينها وبين تومبكينز، أكثر من أيّ وقت مضى. حتّى إنّها شعرت بثقة كافية للبوح لها بما يدور في خلدها. طلبت منها تومبكينز إطلاعها على

كلّ التفاصيل، فأخبرتها ميغان بكلّ شيء: نظريّات غيديون تشيس عن الطقوس القديمة، واختفاء الأدلّة التي تربط الجزّار مات أتلي بعمليّة السطو على منزل تشيس، وكلّ شيء. وقد فوجئت، وارتاحت، لأنّها لم تتعرّض للسخرية والطرد.

بعدما أوصلت سامي إلى دار الحضانة وودّعتها بقبلة، استخدمت هاتفها النقّال للاتّصال بالمكتب وإخبارهم أنّها ذاهبة إلى الطبيب ولا تستطيع الحضور اليوم، أو غداً ربّما. ثمّ جرّبت الأرقام التي لديها للاتّصال بغيديون وجيمي، ولكن بلا جدوى. لا يمكن أن تكون أسباب غياب غيديون جيّدة. استدارت بسيّارتها واتّجهت إلى تولارد رويال.

كان يوماً مشمساً وصافياً، ما جعل الساعة التي استغرقتها الرحلة تبعث على الاسترخاء تقريباً. كانت القرية صغيرة، وتقع بمحاذاة الحدود الجنوبية مع دورسيت. ليس فيها ما يثير اهتمام السيّاح، إذ تحتوي على دار عبادة ترجع إلى القرن الثالث عشر ومقبرة. وحده أشكومب هاوس، منزل سيسيل بيتون وغي ريتشي ومادونا، يستحقّ الذكر.

كانت بوّابة منزل تشيس مقفلة. ضغطت على الجرس تكراراً واتّصلت بأرقام هواتفه مجدّداً، ولكن بلا جدوى.

ترجّلت ميغان من السيّارة، ومشت بمحاذاة جدران السور العالية المحيطة بالمنزل، حتّى أصبحت بعيدة عن مرمى نظر السيّارات العابرة. إن كان أتلي قد وجد نقطة ضعف في أسوار المنزل، فيمكنها العثور عليها هي أيضاً.

وهذا ما حدث. فبعد تسلّقِ إحدى الأشجار، وقفزةٍ كانت سامي لتصفّق لها، تمكّنت من تسلّق الجدار. ركعت، ثمّ تمسّكت بطرف السور، قبل أن تتدلّى وتسقط في الحديقة. نهضت عن الأرض ومشت بين الأعشاب الطويلة خلف المنزل.

"غيديون!". صاحت باسمه باتّجاه المنزل. لم تشأ إفزاعه، وجعله يظنّ أنّ لصًّا آخر قد دخل المكان.

احتاجت إلى بضع دقائق لاجتياز البحيرة والمنطقة الواقعة خلف القصر. لا أحد هناك. كانت سيّارته مركونة في الخارج، وبالنظر إلى شباك العنكبوت التي تلمع أمام المرايا الجانبية، بدا واضحاً أنّها لم تتحرّك منذ مدّة.

رنّت ميغان الجرس، وطرقت على الباب بيَدها. نادته مجدّداً، حتّى من خلال فتحة البريد. لا أحد. تركت له رسالة للاتّصال بها، ودسّتها عبر الفتحة المعدنية. عندما سحبت يدها، وقفت جامدة في مكانها.

آخر مرّة رأت فيها غيديون كان مع سميثسين، هنا بالضبط. وبدا خائفاً. في ذلك الوقت، اعتبرت خوفه ردّ فعل تجاه موت والده. أدركت الآن أنّها كانت مخطئة، وربّما كان ممدّداً على الأرض في الداخل، بعدما فارق الحياة.

حاولت التفكير بشكل منطقي. لا يمكن فعلاً أن يقتله سميثسين، ليس بعد أن رآها في المنزل، وتحدّث إليها، وهو يعلم أنها مفتشة. فسيكون مجنوناً إن فعل ذلك. وجدت تلك الفكرة منطقيّة بحيث امتنعت عن الدخول. على الأقلّ، ليس قبل أن تتحدّث إلى جود تومبكينز.

عادت أدراجها، وتسلّقت الجدار، واتّجهت إلى سيّارتها. عندما شغّلت المحرّك، لمحت شيئاً على مرآتها الأماميّة؛ رجلاً يرتدي سترة خضراء مرّ مسرعاً.

كانت مراقبة.

إنّهم يلاحقونها.

ما إن تجاوزت ميغان فندق كينغ جون حتّى ضغطت على دوّاسة السرعة في سيّارة فورد فوكس التي تقودها واتّجهت إلى الطريق الريفي المفتوح حول أشمور. ستّون، سبعون، ثمانون. من السهل على السيّارة الصغيرة السير بتلك السرعة. إن كانوا يتبعونها، فيجب أن يظهروا.

قبل أن تسلك منعطفاً قاسياً إلى اليسار، لمحت سيّارة أخرى على مسافة بعيدة. كانت تسير بسرعة تماثل سرعتها تماماً. ربّما أغرى الطريق المفتوح سائقها بالإسراع. عليها أن تتأكّد.

عرفت ميغان أنّ الطريق ب لا يحتوي سوى على منعطفات بسيطة، وأنّ عليها الانتظار حتّى يصلوا إلى المنطقة التي تحمل بجدارة اسم تلّة زيك زاك هيل. سرعان ما تجاوزت سيّارة الفورد سرعة 100 كلم، وابتعدت عن السيّارة الأخرى مسافة أربعمئة متر تقريباً. وعندما وصلت إلى المنعطف الأيمن أسفل التلة، ضغطت على الفرامل بقوّة وحافظت الفورد على توازنها، لتسلك الطريق المتعرّج الأيسر الذي يلي المنعطف مباشرة. كان قلبها ينبض بعنف. ضغطت على الفرامل مجدّداً، وأبطأت السيّارة بأسرع ما يمكنها من دون أن تُخلّف وراءها أثرا للإطارات يكشف مكانها.

قادت ميغان السيّارة إلى جانب الطريق، داخل أيكة من الأشجار إلى اليمين، وتوقّفت في بقعة عميقة. خلال ثوان، مرّت السيّارة التي كانت خلفها. كانت من نوع مرسيدس، وقشديّة اللون. هذا ما استطاعت رؤيته.

أتى الآن الامتحان الحقيقي. إن كان من يقود السيّارة يُسرع لمجرّد المتعة، فسيعبر التلة ثمّ يزيد سرعته عند انتهاء المنعطفات، ولن تراه مجدّداً. ولكن، إن كان يلاحقها بالفعل، فسيبدأ بعد دقيقة تقريبا

بالتساؤل أين اختفت. وقد ينعطف على الأرجح، ليتحقّق إن كان قد أغفل أحد المنعطفات، وربّما يعود أدراجه.

خرجت ميغان من الأيكة بحذر، واستأنفت رحلتها ببطء أكبر إلى مركز الشرطة.

رأت سيّارة المرسيدس بعد كانكومون. كانت متوقّفة، وكان مصباحا المكابح مضاءين، وفيها راكبان جالسان على المقعدين الأماميَين. قرأت على لافتة بالية نهاية رقم السيّارة: 57MU.

مات أتلي.

تذكّرت غيديون وهو يقول إنّه رأى أتلي يحمل مسدّساً. لم تعد أنوار مصباحي مكابح المرسيدس حمراء واستعدّت للانطلاق من أمامها. فضغطت على دوّاسة السرعة، وكأنّها تنوي أن تصدم السيّارة. ولكنّها لم تفعل، بل انحرفت إلى اليمين في اللحظة الأخيرة، لتسلك طريقاً صغيراً يؤدّي إلى عدد من المنازل. كان الطريق يمتدّ على خطّ مواز للطريق الرئيس، فاستعملته مثل ممرّ في حلبة سباق. ولكنّ ميغان لم تتوقّف.

اهتزّ صندوق السيّارة وهي تسير فوق الأعشاب والإسفلت، ولكنّها حافظت على سيطرتها على السيارة، وانحرفت لتخرج إلى الطريق ب، متّجهة نحو المرسيدس مباشرة. للحظة التقت عيناها عينَي السائق. كان أتلي بالتأكيد. فقد رأت صوره جيّداً ونظرت إليها مطوّلاً ولن تُخطئ هويّته. ظنّت أنّها تعرف الراكب الآخر أيضاً. لم تسترق سوى نظرة سريعة إلى الرجل قويّ البنية بقميصه الأبيض، ولكنّ شيئاً في شكله، واستدارة كتفَيه، وشكل رأسه كان مألوفاً لديها.

ضغطت بقوّة على دوّاسة السرعة على طريق هاير بلاند فورد ولم تخفّف سرعتها حتّى عبرت طريق كريستي ووصلت إلى طريق أ 350

الأكثر ازدحاماً.

ظلّت ميغان تنظر إلى مرآتها في طريق العودة إلى ديفايزيس. كان ذهنها مشغولاً بما مرّت به، وما رأته.

لم يكن الرجل الجالس في المقعد الأمامي في السيّارة مع أتلي سوى زوجها، آدم.

129

لم يسمحوا له بالخروج سوى لقضاء حاجته.

أمضى غيديون بقيّة الوقت محتجزاً في سجن انفرادي في زنزانة حجرية. أحضروا له القليل من الطعام، ومع كلّ ساعة تمرّ، كان يشعر أكثر بأنّه سجين.

أدرك أنّه بقيَ يومان فقط قبل أن يُتمّ الأتباع طقوس التجديد ويُقدّموا حياة المرأة التي رآها. إنهم لا يستطيعون المخاطرة، ومن الممكن جداً أن يشكّل خطراً عليهم. فهم يعرفون أنّ والده حاول أن يمنع التضحية بأشخاص من خارج الحرفة. لذا، من الممكن أن يفعل الشيء نفسه.

نُزعت الأقفال عن الباب، وفُتح مُصدراً صريراً. دخل رجلان يرتدي كل منهما عباءة، ولم يقولا شيئاً باستثناء أنّه سيُقتاد إلى السيّد.

مشى في الممرّ الذي مشى فيه والده، وتخيّل الحياة السرّية للرجل الذي لم يعرفه يوماً بالفعل. كيف شعر بعد تلقينه؟ بمَ فكّر بعد انضمامه إلى إحدى أقدم الأخويّات وأكثرها سرّية في العالم؟

ترك المراقبان غيديون داخل غرفة قائدهما. أشار السيّد إلى الطاولة الحجرية، التي كُوّمت عليها مذكّرات ناثانيال، وقال بصوت عملي: "حان الوقت لتقرأ وتنوّرني، ثمّ أقوم بعد ذلك بتنويرك".

فتح غيديون أحد دفاتر مذكّرات أبيه. كان يعرف تماماً المقطع الذي يبحث عنه. سعل وبدأ يقرأ: "إن قُرئت هذه المذكّرات، فأنا أطلب من المبجّلين أن تكون أنت يا غيديون الذي يقرأها. كنتَ دائماً طفلاً منهجيًّا، لذا أفترض أنّك باشرت القراءة منذ البداية، وهذا أحد آخر الدفاتر التي ستقرأها. أصبحتَ تعرف الآن عن خلافاتي مع الدائرة الداخلية، وعن رغبتهم في إجباري على القبول بمشيئتهم. لا يمكنني الإذعان لطرائقهم. لا يجب عليّ ذلك ولن أفعل. من يأخذ فعليه أن يعطي، هو نفسه، وليس بالنيابة أو بالتهديد. من الخطأ تماماً إن أخذت، أن تُجبر شخصاً آخر على العطاء. ليست هذه الطريقة التي يسدّد بها الكرماء ديونهم، بل إنها طريقة الأنانيين، غير الموثوق بهم، وغير الشرفاء. إنّها طريقة رجل اعتبرته صديقاً لي، وأدخلته منزلي، ووثقتُ به مثل أخ؛ رجل جسّد كلّ ما أحترمه في الحياة".

توقّف غيديون عن القراءة، ووضع الدفتر أمامه. "هنا". وضع إصبعه تحت الكتابة وسأله: "ΟΩΜΥΖ ΙΥΛΦΗΩΣΚΛ". هل تعرف هذا الاسم؟".

لم يستطع السيّد قراءة الشيفرات، ولكنّه عرف أنّه ينظر إلى اسمه. لا يستغرب أن يرى اسمه مكتوباً في مذكّرات ناثانيال. وهذا يُثبت له أنّ الدفاتر خطرة، تماماً كما كانوا يخشون. "لم نكن أنا ووالدك نرى بعضنا دائماً، ولم يكن محقاً في كلّ شيء. كان رجلاً لامعاً كما تعرف، ولكنّ هذا الأمر جعله صعب المراس، ولم يكن من السهل مناقشته". نهض، ثمّ ابتعد عن الطاولة ومشى ببطء. "أخبرني، هل تشاركه آراءه؟".

"بخصوص ماذا؟".

"بخصوصي، وبخصوص الأخويّة. ربّما كتب عنها بالتفصيل، وذكر خلافاتنا في الرأي، لا سيّما في ما يتعلّق بالطقوس".

أجاب غيديون من دون تردّد: "لقد فعل. وأنا أعرف أكثر من أيّ كان أنّ والدي لم يكن محقًّا دائماً. فقد مضت سنوات بالكاد تكلّمنا فيها، والآن رحل". صمت غيديون مفكّراً، ثمّ نظر إلى عينَي السيّد مباشرة. "أمنيتي الوحيدة هي أن أعيش حياة طويلة ومعافاة، وأن أُظهر للمبجّلين ولائي. وإن ساعدتني على ذلك، فسأُقدّم لك بالطبع ولائي التامّ".

عانقه السيّد، فقد كان أفضل جواب يتمنّاه. بادله غيديون العناق، مع أنّه كان يتمنّى غرز سكّين في قلب الرجل عوضاً عن ذلك.

ابتعد السيّد، ووضع يدَيه على ذراعَي غيديون بفخر وقال له: "الآن، حان دوري لتنويرك، ولأكشف لك أسراراً ستجعلك تحبس أنفاسك".

جلست ميغان في سيّارتها في موقف السوبر ماركت وانتظرت.

لا يمكنها العودة إلى البيت أو الذهاب إلى العمل. كلّ ما تستطيع فعله هو التفكير في الصورة الفظيعة العابرة لآدم وهو جالس في سيّارة المرسيدس مع أتلي. شعرت وكأنّها ضبطته في السرير مع امرأة أخرى، ولكنّه كان مثالاً أكثر قذارة لخيانته وكذبه.

فكّرت في سامي، وتساءلت كيف تمكّن من المجيء إلى المنزل وتأدية دور الأب والزوج المثالي محتفظاً بكلّ أسراره، وأسرار انتمائه إلى نساء أخريات، وأيّ شخص آخر باستثنائها هي وابنتهما. تحوّل حزنها إلى غضب تصاعد وعصف بها.

في ساعة متأخّرة من بعد الظهيرة، توقّفت قرب سيّارة الفورد سيّارة جاغوار قديمة. فُتح زجاج النافذة وسمعت ميغان صوتاً قطع

عليها حبل أفكارها: "اركبي".

لتنتهي الانتظار.

أصغت جود تومبكينز إلى ميغان وهي تخبرها كيف كانت ملاحَقة من قبل أتلي وزوجها آدم. اتّصلت للتحقّق من رقم السيّارة وتأكّدت من أنّ المرسيدس مسجّلة باسم ماتيو ستيفن أتلي من تيدوورث. "يمكنني التحقّق من تحرّكات زوجك خلال الساعتين الفائتتين، ولكن ليس من دون أن أثير شكوك الناس حول السبب".

نالت ميغان: "لا داعي لذلك، أعرف أنّه هو". أضافت بألم: "أشعر بأنّني غبيّة جداً. ظننتُ أنّه عاد إليّ لأنّه أراد أن يكون معنا أنا وسامي".

قالت رئيستها: "سيكون لديك الوقت لتعذيب نفسك بذلك لاحقاً. علينا أن نفكّر الآن في ما سنفعله بخصوص ابنتك، وإلى من يمكننا اللجوء من دون إثارة الشكوك".

قالت ميغان: "سامي مع أمّي. اتّصلتُ بها وقلت لها إنّ آدم كان عدوانيًا معي، لذا لن تسمح له بدخول المنزل أو الاقتراب من سام. أبي في البيت أيضاً، لذلك سيكون كلّ شيء على ما يرام".

"جيّد. تحقّقتُ من بعض الأمور هذا الصباح، في الواقع أردتُ التأكّد من أنّنا لا نقفز إلى استنتاجات خاطئة".

"وماذا وجدتِ؟".

أخرجت تومبكينز دفتراً صغيراً من حقيبتها. "شون إليوت غراب".

"المشتبه بوجود بصمات له على سيّارة الكامبرفان". راحت ميغان ترسم الصورة. "والذي عمل حارساً في ستونهنج؟".

"صحيح، لقد مات. عُثر عليه في باث، انتُشل من نهر آيفون".

"هل قُتل؟".

"لم نعرف بعد. غراب وستونهنج. هذا رابط آخر بقضايا تمبرلاند، ولوك، وتشيس. المصادفات كثيرة برأيي".

"إذاً ماذا سنفعل، سيّدتي؟ إلى من نرفع ذلك؟".

"هذا ما يقلقني". تأمّلتها تومبكينز. "الرئيس ونائبه يريدان إخراجك من ديفايزيس، أليس كذلك؟ يريدان إرسالك إلى سويندون، لذا لا أظنّ أنّنا نستطيع الوثوق بأيّ منهما".

"وماذا عن جيمي دوكيري، هل عرفتِ عنه شيئاً؟".

"اختفى تماماً". حكّت رأسها. "أفكّر في إخبار شخص من خارج قوّات الشرطة، شخص مثل بارني غيبسون، قائد شرطة العاصمة".

فوجئت ميغان وقالت لها: "سيظنّ أنّك فقدتِ عقلك".

ابتسمت تومبكينز قائلة: "أعرف. لهذا السبب أنت من سيخبره، وليس أنا".

131

رافق سيّد هانج غيديون عبر حجرات الهيكل الداخلية الأشبه بالمتاهة. رفع يدَيه نحو الجدران والسقوف المزيّنة بالنقوش قائلاً: "حفر القدماء في كلّ مكان من أجل هذه الحجارة. حُمل وشُيّد بأيدي بنّائين ملقّنين، ومستوى الدقّة لا يُصدّق. بارك المبجّلون كلّ قطعة؛ مليوني لوح حجري متشابك. فقد شُيّد البناء بأكمله من دون ملاط".

مرّر غيديون يده فوق الجدران الملساء وهما يسيران. أصبحت الممرّات الملتوية أضيق، وصار السقف يدنو منهما وهما يهبطان إلى قلب الهيكل. "لماذا لم يتمّ اكتشاف هذا المكان قطّ؟".

ابتسم السيّد وأجاب: "لأنّه ما من سبب للبحث عنه. لا أحد يعلم بوجوده، وجميع الحفريات الأثرية تتركّز حول ستونهنج. أحياناً يتمّ

العثور على بعض الآثار: محرقة، عظام جنودٍ أموات، فؤوس وأدوات قديمة، وهذا كاف لإشباع الفضول الأكاديمي".

"ولكن، هل هناك أكثر من ذلك؟".

"أكثر بكثير. لا أعني الهيكل فحسب، بل ثمّة أماكن مبجّلة أخرى جميعها متراصفة ومترابطة، ومباركة ومحميّة. ليس هنا فقط بل في جميع أنحاء العالَم".

حجم المجهول أذهل غيديون. كان لديه ألف سؤال.

حثّه السيّد على السير مجدّداً. "تعال. احتاج بناء الهيكل وستونهنج إلى أكثر من مئتي ألف عامل على مدى قرنين من الزمن". قاده السيّد عبر متاهة لولبيّة من الأنفاق. "حفروا من دون آلات، واستعانوا بمزالج خشبية بسيطة وبأيديهم لنقل أثقال هائلة لمئات الأميال، وفي بعض الأحيان عبر مياه عميقة. بنوا السقالات من الأشجار المقطوعة، وصنعوا حبالاً وبكرات من الأعشاب ولحاء الأشجار وأشجار الكرمة. حفروا نظام صرف صحي فعّالاً تماماً ومبتكراً بالكامل. وهو لا يزال يعمل بشكل ممتاز، فهو يرتبط بقنوات ممتدّة عبر السهل وصولاً إلى الهيكل ليصبّ في حفر عميقة تغذّيها مجاري مياه تحت الأرض". مدّ يده إلى الأعلى ولمس فجوة مفتوحة في الأحجار الرملية. "تؤمّن مجاري الهواء القديمة تجدّداً مستمرًّا للأوكسجين. وهذه الأنفاق العمودية تُستخدم أيضاً للنجوم. فهي تشير إلى نجوم معيّنة، وإلى بعض مجموعات الكواكب. الهيكل ساعة تتيح لنا وضع جداولنا وروزناماتنا؛ كما فعل أجدادنا من قبل".

قاده السيّد عبر قنطرة ضيّقة تؤدّي إلى ممرّ يمتدّ مباشرة تحت القاعة الكبرى. "كان الهدف الأساسي من الهيكل هو أن يكون معبداً للمبجّلين، إلاّ أنّه شكّل أيضاً مستشفى للتعليم من العصر الحجري

الحديث؛ قاعة جامعة تمارَس فيها العلوم، والصحّة، والإدارة".

سأله غيديون: "وهل كان مجتمعهم بمثل هذا التقدّم؟".

"لكلّ حقبة قادتها البارزون، حتّى في العصر الحجري الحديث". مشى السيّد عبر الممرّ، وأخرج مفتاحاً حديدياً كبيراً معلّقاً بحبل بنّي حول عنقه. "دعني أوضح لك". فتح باباً ضيّقاً من خشب السنديان ودخلا عبره إلى الظلام.

كان الجوّ أبرد، وأصوات خطواتهما أعلى وقعاً. أضاء السيّد مشعلاً في الجدار وعدّة شموع كبيرة موضوعة على الأرض. عندما اعتادت أعينهما على الإضاءة، رأيا حُجْرَة كبيرة على شكل دائرة تامّة، فيها كتلة حجرية كبيرة داكنة اللون في الوسط. كانت جدرانها الكبيرة مقتطعة من غرانيت أحمر بلون الدم ذكّره بالقبور المصرية. على طول الجدران إلى اليمين واليسار، إلى أبعد ما استطاع غيديون أن يرى، اصطفّت عشرات وعشرات من التوابيت المفتوحة الموجّهة بحيث تُطلّ جمجمة الميت على مشهد كامل للنفق العمودي الكبير الوحيد الأشبه بالبانتيون في وسط الغرفة.

قال غيديون: "سرداب. من هؤلاء؟ ولماذا يتلقّون هذه المعاملة الخاصّة؟".

"إنّهم القدماء، أسلافنا، الرجال اللامعون الذين صمّموا الهيكل، وستونهنج، وجميع الأماكن الأثرية، والمدافن، والممرّات المرتبطة بها وبنوها". تنقّل السيّد ببطء في أرجاء الغرفة وهو يضيء المزيد من المشاعل والشموع. "ولكن هذا المكان أكثر من مجرّد مقبرة يا غيديون".

أصبحت الكتلة الحجرية الضخمة الموجودة في الوسط أكثر وضوحاً. كانت مصنوعة من حجر رملي مصقول، ويبلغ ارتفاعه خمسة

أمتار على الأقلّ وعرضه ثلاثة أمتار. رأى على جانبَيها رفوفاً مليئة بالخرائط واللفائف، بينما كان الجانبان الآخران مقسومين إلى ما بدا وكأنّه عشرات الأفران الصغيرة المليئة بالأحجار.

ذُهل غيديون، واقترب منها مثل قطّة تترصّد لعصفور.

شعر عالِم الآثار الشابّ بالخوف تقريباً من لمس أيّ شيء. إنّها مكتبة، لا بل متحف. كبسولة زمنية مليئة بالكتابات، والتحف، والنقوش، والأدوات القديمة.

سأل: "إلى أيّ عام يرجع هذا؟".

"إلى البداية". وأشار السيّد إلى سطح المكعّب. "تجد هنا نقوشاً أصليّة، مخطّطات الهيكل وستونهنج الأولى. هناك في أكبر التوابيت، توجد رفات القرابين الأولى؛ الرجال الذين بنوا الهيكل والنصب".

"تمّت التضحية بالبنّائين؟".

"تلك كانت مشيئتهم. عرفوا أنّهم بالتضحية بأنفسهم للمبجّلين، يضمنون مباركة أولادهم والأجيال اللاحقة".

وقف غيديون وهو يشعر بالرهبة. ما يحيط به هو حلم كلّ عالِم آثار. وكأنّه في مغارة لعلي بابا مليئة بالتاريخ والحضارات القديمة. إنّه اكتشاف حياته. تسارع نبضه. "لم أقرأ شيئاً عن أيٍّ من ذلك. في جميع المذكّرات التي وجدتها، لم يأتِ والدي على ذكر هذا المكان أو ما فيه".

"ولا ينبغي له ذكره. فمن غير المسموح التحدّث عنه أو الكتابة عنه". اقترب منه السيّد وابتسم مجدّداً وتابع: "كان ناثانيال يعرف بأمر هذه الغرفة، وقد عمل هنا كثيراً. بين الوثائق الموجودة في الأرشيف، ستجد أعماله ومساهماته في خرائط النجوم التي يُعتبر جميع الأسياد مجبرين على إتمامها".

كلّ هـذا التاريـخ فـي مـكان واحـد، كلّ هـذه المعرفـة، كلّ هـذه الأسـرار. كسر السـيّد سـحر اللحظة حين أشـار إلى الباب قائلاً: "يجب علينـا أن نذهـب، لـديّ الكثيـر لأريـك إيّـاه والقليل مـن الوقـت للقيام بذلك".

غادر غيديون الغرفة رغماً عنه وأطفأ السـيّد جميع الأنوار، ثمّ أعاد إقفال البـاب. توجّهـا إلى نهايـة الممرّ وبـدآ صعودهما القاسـي والحذر علـى أدراج حجرية طويلـة، كانـت معلّقة كاللبـلاب بالجـدار الخارجي للهيكل، من دون ألواح أو "درابزين" للحماية.

قال السـيّد: "كن حـذراً. فربّمـا لا تزال ضعيفـاً بعض الشـيء بعد التلقين".

نصيحة جيّدة. فبعد أكثر من مئة درجة، بدأ غيديون يتعرّق ويلهث. غيـر أنّ الرجل الذي أمامه واصـل الصعود مثل معزاة جبـل، وارتقى كلّ درجة بنشاط وثقة.

أبقى غيديـون يـده على الجـدار، ولاحـظ النقـوش المعقّـدة على الحجـر. كان فنّـا قديمـاً يصـوّر مزارعيـن يعملون فـي الحقول، ونسـاء يحملن أطفالاً، وقطعان ماشية محتشدة قرب الأنهار. رأى على الجدران مشـاهد أخـرى: عمّـالاً يرفعون كتـلاً حجريـة هائلـة، وخطـوط النصب الأولى وهي تتشكّل، وأشخاصاً عند المدافن، رؤوسهم محنيّة، ومشاهد تُظهر محور الشـمس، ومجموعات النجوم، ومراحل القمـر. رأى فوقها رسوماً مخيفة أكثر.

رأى رجـالاً يرتدون العبـاءات مجتمعيـن حول شـخص مقيّد على حجر المذبح، ومطرقة السـيّد مرفوعـة. ذكّره ذلك بأنّ الشـابّة الأميركية، تلك التي تتصدّر الأخبار، محبوسة في مكان ما تحتهما.

ترنّح فـوق الدرج، فأمسـكت يـد بعباءتـه، ودفعه السـيّد بقـوّة إلى

الجدار قائلاً له: "انتبه".

ثبّت نفسه وتنفّس ببطء ثم قال: "أنا بخير".

"جيّد، إذاً لنتابع".

بعد بضع درجـات، وصلا إلـى الأعلـى. رأى غيديون الآن سـلّماً حجريًّـا آخـر من الجهـة الأخـرى، يـؤدّي مباشـرة إلـى الغـرف والقاعة الكبرى.

استخدم السيّد مجدّداً المفتاح المعلّق حول عنقه.

المكان الذي دخله غيديون كان عالماً مختلفاً عن غرفة الأرشيف، ومثيراً للتعجّب على طريقته.

أوّل مـا لفـت انتباهـه هـو الإضـاءة، النـور الأبيـض الصـادر عـن المصابيـح اللاصفة، الـذي يتمايل ويئزّ مثل أشـباح محتجـزة وغاضبة. كانـت الأرض والجـدران رماديـة، وليسـت حجريـة، بل من الإسـمنت والجصّ، فشعر وكأنّه دخل مخزناً أو مرأباً حديثاً وكبيراً.

خمّن أنّ المكان يمتدّ على مساحة آكر من الإسمنت محكم البناء. مئات الأمتـار من الجدران المكسـوّة بالجصّ. اقترب غيديون من جسـر فولاذي مشبّك يعلو نحو عشرة أمتار عن الأرض. مشى بمحاذاته، ورأى سـيّارات مركونة في آخره. سـيّارات أنيقـة رباعيّة الدفع، وسـيّارة أخرى مألوفة؛ كانت شاحنة دراكو البيضاء.

ولكنّ هـذا المكان أكثـر من مجرّد موقف للسـيارات. شـعر بذلك قبل أن يجول بنظـره فوق المسـاحة الرمادية الشاسـعة. كان مقسّـماً إلى أماكـن محـدّدة. رأى عشـرات الخزائـن المعدنيـة، وأعـداداً كثيـرة مـن المقاعد والطـاولات والكراسـي. رأى مطبخـاً يحتوي على سلسـلة من أحواض الجلي، ومسـطّحات طويلة لتقطيـع الطعام وإعـداده، وصفوف من البرّادات، والثلاّجات، وأجهزة الميكروويف، والأفران، والمقالي.

كانت المساحة والتجهيزات تكفي لإطعام جيش.

قال السيّد بشكل عرضي: "إنّه مركز العمل. تحت الأرض، نحترم تقاليدنا كما فعل أجدادنا. أمّا فوق سطح الأرض، فنحن نخبة. غداً ستأتي إلى هنا وتعمل. ستؤدّي دورك في الاستعدادات لليوم الكبير".

132

السبت 26 حزيران، يوم واحد قبل اكتمال القمر

طلع الفجر بكسل على ستائر السماء الداكنة، مثل طفل أحمر الوجه يشدّ الملاءة عن سرير أبويه. أحاط المراقبون بحقول ستونهنج المبلّلة بالندى. وقفوا في مرأب السيّارات الخالي، ولم يُسمح للسيّاح بحجز زيارات مبكرة إلى الموقع.

مشى سيّد هانج على الطريق الذي داسه ملايين العامّة، وخطا فوق العشب الذي جُزّ حديثاً. دخل الدائرة الأيقونية. سيدوم هذا اليوم ستّ عشرة ساعة، وسبعاً وثلاثين دقيقة، وخمس ثوان، وسيبلغ ارتفاع الشمس 61.9 درجة.

غداً، ستشهد أوّل انتقال كبير لها لعشرة أيّام وتنخفض إلى 61.8. نظر إلى السماء المتغيّرة وهو يدخل محور حدوة الحصان لأحجار التريليتون.

غاب القمر قبل أكثر من ساعة، ولم يظهر أيّ أثر للمرأة ذات الثوب الأبيض. كانت ترقص في الظلام على بُعد ربع مليون ميل تقريباً. وعند الساعة التاسعة من هذه الليلة، سترجع وستظهر بنسبة 98 بالمئة من مجدها العذري الكامل.

أصبح الموعد قريباً.

هبّ نسيم لطيف عبر الحقول المفتوحة. بسط السيّد ذراعَيه ليشعر

بطاقة المبجّلين. كلّ ما سيحدث منذ الآن فصاعداً هو في غاية الدقّة. الدقّة، والتراصف، والمشيئة الأخيرة للكائنات الممجّدة.

133

لم يسبق لكتلين أن صلّت. فوالداها يعيشان حياة بعيدة كلّ البعد عن ممارسة الشعائر الدينية.

الأشياء الوحيدة التي اعتقدت بها أسرتها هي العدالة، والخير، والطيبة. عامل أخاك كما تحبّ أن تُعامَل. لم تتلقَّ التربية التي تُعدّ المرء ليعرف كيف يتصرّف حين يُحتجز كرهينة، ويُحبس في حجرة صخرية، ويتضوّر جوعاً حتّى الموت. ذاك هو المكان الذي كانت فيه منذ أن آذت نفسها: فقد نقلوها إلى زنزانة صغيرة محشوّة بالإسفنج المرن. كانت تستطيع الشعور به على جبهتها وظهرها، وكأنّها ملفوفة في شطيرة من الإسفنج.

أغمضت كاتلين عينَيها وحاولت أن تدعو. كان الخوف يعصف بذهنها بحيث عجزت عن التركيز على دعاء واحد صامت. وللمرّة الأولى منذ أن سجنوها، بدأت تبكي.

134

كانت الساعة الثامنة صباحاً بالضبط عندما تبعت ميغان رئيستها إلى مكتب بارني غيبسون المؤقّت. كانت المرة الأخيرة التي رأته فيها هو ومساعده العمليّاتي ستيوارت ويليس ترجع إلى ما قبل ستّة أيّام، ولكنّ الرجلَين بدَوَا أكبر سنًّا بعشر سنوات. فالمناوبات المتتالية، وليالي السهر الطويلة، والإجهاد الناجم عن التحقيق، أنهكت صحّتَيهما.

طرحت تومبكينز الموضوع أمامهما: "قبل أسبوع تقريباً، جلست المفتّشة بيكر في هذه الغرفة وقالت إنّها تعتقد أنّ كاتلين لوك وجايك

تمبرلاند كانا متوجّهَين إلى ستونهنج عندما تعرّض الشابّ للقتل واختُطفت الفتاة. لدينا معلومات يبدو أنّها تؤكّد ذلك الآن، ونظنّ أنّنا نعرف المسؤول. قد لا تصدّقان ذلك، ولكن لدينا أسباب وجيهة للاعتقاد بوجود طائفة وثنيّة قديمة قد تكون مسؤولة عن الاختطاف".

قال ويليس: "هذا غير ممكن، فنحن نملك معلومات مخابراتيّة موثوقة تؤكّد أنّ عصابة دوليّة قد اختطفت لوك. وسبق أن تلقّينا طلبات للحصول على فدية".

حافظت تومبكينز على موقفها: "أتمنّى أن تبقى منفتحاً سيّدي. ما ستقوله المفتّشة بيكر قد يبدو غريباً، ولكن أؤكّد لكما أنّه ثمّة أدلّة ظرفيّة قويّة تدعمه".

بدأ غيبسون يظنّ أنّه أخطأ بالموافقة على هذا الاجتماع السرّي: "جود، لِمَ لم تعرضي هذه الفكرة على جون رولاندز أو على رئيسك؟".

كانت تعرف أنّ موقفها حسّاس: "سيّدي، ثمّة احتمال بأن تكون قوّتي متورّطة. فقد تمّ محو الأدلّة الفيزيائية والإلكترونية، ومن الممكن أن يتمّ إفساد التحقيق من الداخل".

"هذه مزاعم خطرة جداً، أنت تضعينني في موقف صعب".

"بالفعل، سيّدي، وأنا أعتذر على ذلك. ولكن نظراً إلى الظروف، أظنّ أنّه من الملائم تماماً أن نطلب مساعدتكم بصفتكم رئيس الضبّاط الخارجيين الذين يترأسون هذا التحقيق الكبير".

"فهمت". التفت إلى ميغان. "إذاً، حضرة المفتّشة، ما الموضوع؟".

عرفت ميغان أنّ لديها فرصة واحدة لتُثبت مصداقيّتها. "في أثناء التحقيق في انتحار البروفيسور ناثانيال تشيس، وهو عالِم آثار نشر كتبا، كما أنّه خبير عالميّ ذو شهرة في ستونهنج، أخبرني ابنه غيديون أنّه وجد مذكّرات مكتوبة بخطّ يد البروفيسور عن طائفة سرّية مكرّسة لأحجار

النصب".

قاطعها ويليس: "رجال دين؟".

"كلاّ، سيّدي. إن أردتَ، ربّما يمكننا مقارنتها بالماسونيين. أظنّ أنّنا نتحدّث عن تنظيم قديم يرتكز على حرفة نضجت على مرّ القرون واكتسبت قوّة ونفوذاً واسعَين". ما إن لفظَت تلك الكلمات حتّى ندمت عليها. فإن كان ويليس أو غيبسون ماسونيَين فقد تكون قضيّتها فاشلة منذ الآن. "سيّدي، تشير المذكّرات المشفّرة التي اكتشفها غيديون تشيس إلى أنّ الطائفة تستمدّ المباركة والحماية من ستونهنج، شرط تقديم قرابين بشريّة إلى كائناتهم الممجّدة بشكل دوري".

نظر الرجلان إلى بعضهما، وارتسمت ابتسامتان ناعمتان على شفاههما. قال غيبسون: "يصعب عليّ تصديق ذلك، فالقرابين البشرية لم تعد معروفة في أوروبا المعاصرة. حتّى في أميركا، التي تضمّ أكثر من حصّتها من المتطرّفين، لم تُسجّل سوى بضع حالات معدودة على مرّ القرون الماضية. يصعب عليّ فعلاً تصديق هذه النظريّة".

قالت ميغان: "هذا ما حدث معي أيضاً، سيّدي، ولكنّ بعض الأحداث غيّرت رأيي".

نظر ويليس بنفاد صبر إلى ساعته. "وما هي؟".

"يبدو أنّ كلّ شيء يصبّ في ستونهنج. إنّه مركز جميع القضايا الكبرى التي وردتنا مؤخّراً. فقد أقدم ناثانيال تشيس، وهو خبير في النصب، على الانتحار. وتمّ الاعتداء على لوك وتمبرلاند في أثناء زيارتهما لستونهنج. كما وُجد شون غراب ميتاً في باث، وهو أحد الرجال الذين كنّا ننوي استجوابهم بخصوص هذه الاعتداءات، وكان يعمل حارساً في ستونهنج. وحدث كلّ هذا مع اقتراب موعد الانقلاب الصيفي".

لم تعرف ميغان ما إذا كان التعبير البادي على وجه غيبسون

يدلّ على الاهتمام أم التسلية، فتابعت قائلة: "سيّدي، لقد تحقّقتُ من السجلاّت الطبّية لغيديون تشيس. قال لي إنّه أصيب بالسرطان في طفولته وإنّ الأحجار قد شفته. واستناداً إلى السجلاّت، تبدو مزاعمه صحيحة".

عبس ويليس. بالنسبة إليه، هذا أمر لا يُصدّق بكلّ بساطة. "هل تقولين لي إنّ سجّله الطبّي يشير إلى أنّه شُفي من السرطان بواسطة حلقة من الأحجار؟".

"كلاّ، سيّدي، بل يشير إلى أنّه شفي من سرطان عضال. ولا يعطون تفسيراً، لأنّهم ببساطة لم يجدوا السبب".

تنهّد غيبسون بانزعاج، ثم قال: "قالت رئيسة مفتّشي المباحث تومبكينز إنّه تمّ محو الأدلّة. أيّ أدلّة؟ وكيف اختفت؟".

أدركت ميغان أنّ صبره ينفد، فأوجزت قدر الإمكان: "اقتحم أحدهم منزل ناثانيال تشيس وأشعل فيه النار، ولكنّه حاول قبل ذلك إيجاد شيء ما قيّم وتدميره. نظنّ أنّ الدخيل كان يسعى وراء المذكّرات السرّية التي نعرف أنّ البروفيسور كتبها عن ستونهنج والطائفة المرتبطة بها. تمكّن ابنه غيديون من التقاط صور للمعتدي بواسطة هاتفه النقال وتوصّلنا بواسطة برنامج التعرّف على الوجوه إلى إيجاد صور متطابقة لرجل من المنطقة. كما وجدنا أدلّة مادّية بعد الاقتحام، عبارة عن حقيبة عدّة تركها الدخيل خلفه. وعندما تحقّقتُ منها آخر مرّة، سيّدي، تبيّن لي أنّ الأدلّة فُقدت من مخزن الممتلكات. كما تمّ محو أيّ أثر لها من سجلّ الحاسوب، وكذلك الرسالة الإلكترونية التي وصلت إلى بريدي، والتي تحتوي على صور الوجه المتطابقة. تمّ محو كلّ شيء من ملفّاتي".

دوّن غيبسون ملاحظات ثمّ نظر إلى تومبكينز قائلاً: "علينا التحدّث عن هذا الموضوع وكيفيّة التعامل معه لاحقاً".

هزّت رأسها موافقة.

اعتدل قائد شرطة العاصمة في مجلسه وتأمّل ميغان بنظرة تقييميّة. بالرغم من غرابة نظريّتها، إلاّ أنّها تبدو ضابطة من الدرجة الأولى، وليست من النوع الذي يصدّق أيّ شيء. كما يُدرك أنّه يفترض بها أن تكون في سويندون لتستلم وظيفة جديدة، ولا يتعيّن عليها أن تتكلّم معه سرًّا من خلف ظهر رئيسها.

انحنى إلى الأمام وشبك يدَيه فوق المكتب، ثم قال: "أنت مفتشة خبيرة، ميغان وأنا واثق أنّك تدركين أنّ التحقيق الذي تقومين به حسّاس. لدينا الأف بي آي، والإنتربول، ومحقّقون شخصيون، ومعظم قوّات الشرطة البريطانية، كلّها تلاحق الخيوط. وأقوى الأدلّة يثبت أنّ عصابة دوليّة قد اختطفت كاتلين، وهي تبتزّ والديها من أجل المال. الثمن المطلوب حاليًّا هو عشرون مليون دولار. أنا أحترم الطريقة التي لجأتِ بها إلينا، ولكن في الوقت الحالي لا أستطيع المخاطرة بتخصيص موارد للتحقيق بمزاعمك، أنا...".

"ولكن، سيّدي...".

أوقفها: "دعيني أتابع". صمت بجدّية. "أحتاج إلى دليل. أريد أن أرى اليوميّات المشفّرة التي رأيتها، وأريد دليلاً على أنّه تمّ تقديم قرابين بشرية في الماضي. أريد دليلاً من الطبّ الشرعي قبل أن أفكّر حتّى في تخصيص وقت ثمين وسحب أشخاص من مهامّ كلّفتهم بها. أحضري لي هذه الأدلّة وستحصلين على جواب مختلف".

دفعت تومبكينز كرسيّها إلى الخلف قائلة: "شكراً، سيّدي القائد". هزّت رأسها باتّجاه ويليس. "حضرة الرئيس، أودّ الحصول على تأكيد على أنّ هذا الحديث سيبقى سريًّا في الوقت الحاضر، لأسباب بديهيّة".

قال غيبسون: "لديك ذلك. ولكن، في الوقت الحاضر فقط".

135

اليوم الذي يسبق الطقوس هو بداية مرحلة مبجّلة. فيه يبدأ السيّد، والدائرة الداخلية، وجميع الأتباع بالصوم. فهم يصومون من باب الاحترام للقربان. فلا يشربون سوى الماء، ويمتنعون عن أيّ عمل جنسي من أيّ نوع، حتّى أوّل شفق مسائي بعد إتمام المراسم.

شرح سيّد هانج ذلك لغيديون وهما جالسان في غرفته: "طقوس التجديد مبجّلة بالنسبة إلينا، ولكنّ هذا لا يعني أنّنا برابرة. كلاّ، فأهمّ شخص بيننا الآن هو الإنسان الذي سنُضحّي به". وضع يده اليسرى على دفاتر المذكّرات الأربعة ثم تابع: "أظنّ أنّك تعلّمتَ من خلال أبيك عن الحياة والموت أكثر من معظمنا".

لم يكن غيديون واثقاً ممّا يرمي إليه من خلال هذا الحديث فأجاب: "كلّ ما أعرفه هو أنّه كان راغباً في التضحية بحياته لإنقاذ حياتي، ومنحي الفرصة لإنجاب أولاد وتربيتهم".

"بالضبط، تضحية واحدة من أجل خير أعظم لكثيرين". تأمّل السيّد الشابّ الجالس أمامه ثم تابع قائلاً: "من عاداتنا أن يقوم أحد أتباعنا، ويكون عادة عضواً في الدائرة الداخلية، بتمضية الساعات الأخيرة الأصعب برفقة القربان، لتقديم الدعم المعنوي والنفسي له حتى آخر لحظة، ولضمان عدم حدوث شيء له قبل بداية الطقوس. هذا هو الدور، يا غيديون، الذي أريدك أن تؤدّيه من أجلنا".

لم يستطع إخفاء دهشته: "لم أفهم، لماذا أنا؟".

ابتسم السيّد. "أظنّ أنّك تعرف، يا غيديون. أظنّ أنّك تعرف لماذا أظهرتُ لك الرحمة، ولماذا وضعتُ فيك ثقتي، بالرغم من أن المقرّبين منّي شكّوا في حكمة إبقائك على قيد الحياة".

شعر غيديون برعشة خوف تزحف عبر جسده.

"من المهمّ بالنسبة إليّ أن أخوض الطقوس بعقل صاف وروح منفتحة. أخبرني يا غيديون، هل ثمّة أمر قاله لك والدك ولم تُطلعني عليه؟".

هزّ غيديون رأسه نافياً. كان إنكاره حقيقيًّا، ولكنّه يعرف إلام يرمي السيّد. رأى أمّه مجدّداً. المرأة الضعيفة التي تعرّف إليها بالكاد وهي جالسة على فراش الموت، والتي لفظت كلمات قلبت حياته رأساً على عقب.

ناثانيال تشيس ليس أباك يا غيديون.

قرأ سيّد هانج ذلك في عينَيه فقال له: "إذاً، أمّك أخبرتك. أنا والدك، وليس ناثانيال تشيس".

136

أوقفت ميغان سيّارتها إلى جانب الطريق بعيداً عن منزلها، ومشت المسافة المتبقّية. كانت تحاول تهدئة أعصابها. فاجتماعها مع غيبسون وويليس كان مضيعة للوقت، وجعلهما هي وتومبكينز تبدوان مغفّلتَين. هذا ما قالته رئيستها أيضاً. فضابطا شرطة العاصمة لم يصدّقا كلمة ممّا قيل، بل أرادا وقائع. ولن يكترثا بغير ذلك.

شعرت ميغان أنّها وحيدة، وضعيفة، ومتوتّرة. لم تقرّر السير لتهدئة أعصابها فحسب، بل لاتّخاذ احتياطاتها أيضاً. فقد يكون آدم في المنزل. آدم، الزوج الذي ظنّت أنّها تُغرم به مجدّداً. آدم، الرجل الذي رأته جالساً قرب اللصّ والمعتدي مات أتلي. لم ترَ أيّ سيّارات غريبة قرب بيتها. راقبت المكان من بعيد لخمس دقائق تقريباً، قبل أن تشعر أنّها تستطيع الدخول بأمان.

وجدت المنزل خالياً، ولكنّه كان هناك. عرفت ذلك لأنّها وجدت

رسالة بخطّ يده على طاولة الطعام. نزعتها عن وعاء الأزهار.

"ميغ، لقد عدتُ إلى منزلي. اتّصلي بي عندما تهدئين.

آ.

ملاحظة: علينا التحدّث بشأن رؤية سامي".

جعّدت الرسالة وألقتها في سلّة المهملات، وراح قلبها ينبض. جمعت ملابس سباحة ومناشف سميكة لها ولابنتها، وألقت نظرة سريعة على المكان، ثمّ خرجت وأقفلت الباب.

كان ثمّة رجل هناك، رجل يراقب منزلها وينتظرها.

137

نظر الأب وابنه إلى بعضهما من فوق الطاولة الحجرية القديمة.

سأله غيديون: "متى عرفت؟".

أخفض السيّد رأسه وأجاب: "لم أعرف إلاّ عندما كانت ماري تُحتضر". ونظر إليه بعينَين دامعتَين. "أرسل ناثانيال بطلبي عندما كانت في المستشفى. أخبرتني قبل ساعات وحسب من وفاتها. لم يكن بيَدي حيلة، كان الوقت قد تأخّر كثيراً على التدخّل".

فوجئ غيديون بالغضب ينتابه: "وماذا كانت بالنسبة إليك؟".

عبس السيّد وقال: "ماذا كانت؟ كانت كلّ شيء. كلّ شيء ولا شيء. كانت المرأة التي لم أستطع الحصول عليها ولكنّني كنت أتمنّى الزواج بها. كانت الشخص الذي سأمضي معه حياتي لو أنّنا لم نتشاجر وننفصل، ولو أنّها لم تلتقِ ناثانيال".

"ماذا تعني؟".

"كنّا حبيبَين في طفولتنا. وبعد انفصالنا، انتقلت إلى كامبردج هناك تعرّفت إلى ناثانيال، وتزوّجت به. ولم أرها إلاّ بعد عام من زفافها

عندما انتقلت إلى ويلتشر".

قام غيديون بحساباته. يبدو أنّ أمّه العفيفة قد خالفت نذور الزواج مع الوحش الجالس أمامه بعد عام واحد من تعهّدها بالحبّ الدائم للرجل الذي ظنّه أباه. "كيف تمكّنت من فعل ذلك؟". وقف، وقد احمرّ وجهه غضباً وتابع: "لم يمضِ عام على زواجها وقمت بإغرائها".

قال السيّد، من دون أن يزعجه غضب غيديون: "لم تحدث الأمور بهذا الشكل، وقع ذلك ببساطة. عليك أن تفهم كم أحببتُ أمّك لتدرك كيف فاجأتنا تلك اللحظة الوحيدة من الضعف".

"لحظة وحيدة؟". شكّ غيديون في ذلك. "كنتُ ثمرة لحظة ضعف وحيدة؟".

وقف سيّد هانج ودار حول الطاولة الحجرية وقال: "لم أعرف شيئاً حتّى وفاة أمّك. كيف كان بإمكاني إذاً الاقتراب من ناثانيال؟ ماذا كنتُ لأقول له عنك؟".

"هل كنتَ تعرف أنّ السرطان وراثي؟".

هزّ رأسه بالإيجاب.

"وأقنعتَ والدي بالانضمام إلى الحرفة لحماية ابنك، لحمايتي؟".

"أجل، هذا ما ينبغي للأب أن يفعله. كنتُ أحتاج إلى حمايتك".

عانقه السيّد، واحتضنه بقوّة، مثل أب يعانق طفله الضائع.

138

مشى جيمي دوكيري نحو ميغان. رأى بوضوح أنّها كانت خائفة فقال لها: "لا تخافي يا سيّدتي".

ولكنّها كانت خائفة، وتراجعت نحو باب منزلها.

"أريد التكلّم معك". اقترب منها خطوة أخرى ببطء.

أفلتت حقيبة يدها، وحوّلت المفاتيح التي كانت تمسكها بيدها اليمنى إلى سلاح أبيض مسنّن.

نظر إلى السلاح المرتجل، وبدت على وجهه أمارات الخيبة وقال: "أتريدين أن تتعاركي معي؟".

"إن اقتربت، جيمي، فسأقتلك".

أدرك أنّها تعني ما تقوله. لم يكن لديه الكثير من الوقت. فاندفع إلى الأمام، وادّعى أنّه يمدّ يده اليسرى. وقعت ميغان في الشرك، وحاولت لكمه بيدها اليمنى. فتقدّم وصدّها بقوّة بساعده الأيسر، وأسقط المفاتيح من يدها. كان بمقدوره الآن أن يوقفها بلكمة واحدة على فكّها. ولكنه عوضاً عن ذلك، أمسك برسغها الأيسر وشدّه خلف ظهرها، ثمّ كمّ فمها بيده الأخرى.

وقبل أن تدرك ما يحدث، دفعها إلى جانب المنزل. حاولت ركله، ولكنّ جيمي كان خبيراً، فباعد بين ساقَيه، وأمسكها كما يمسك رجل طفلاً عنيداً وهو يركل.

"لن أسبّب لك الأذى".

استمرّت ميغان بركله.

"سيّدتي، توقّفي. كنتِ على حقّ، أتسمعين؟ كنتُ أتتبّع سميثسين واكتشفت أنّك على حقّ".

لم تكن واثقة أنّها سمعته جيّداً، ولكنّها فهمت ما يكفي للتوقّف عن المقاومة.

رفع جيمي يديه عنها.

التفتت إليه وسألته: "ماذا قلت؟".

"أعرف إلى أين يذهبون، وأين يلتقون؛ أقصد سميثسين والآخرين".

فتح سيّد هانج دفتر المذكّرات وأشار إلى اسمه OΩMYZ IYΛΦHΩΣKΛ. قرأه بصوت عال: "جايمس بيندراغون". وضع قبضة يده على قلبه بفخر، مضيفاً: "إنّه اسم يدعو إلى الفخر، سلالة تمتدّ إلى عهد السلتيين، إلى عهد أشهر ملك بريتوني، إلى غموض الميثولوجيا وما قبلها. أنا وأنت ننتمي إلى جوهر التاريخ".

كان الواقع والخيال لتلك القصّة مألوفين بالنسبة إلى غيديون. "الملك آرثر أقرب إلى القصص الخيالية منه إلى الواقع".

لم يُضعف ذلك شغف السيّد بسلالته فقال: "حقاً؟ آرثر بيندراغون، الملك البريتوني العظيم؟ أم ريوثاموس الملك؟ أم الملك الكومبرياني؟ أم ملك البينين؟ أم ملك إلميت؟ أم الملك الاسكوتلندي؟ أم الملك البوويزي؟ أم حتّى الملك الروماني؟ أتظنّ أنّ جميع أولئك الملوك من وحي الخيال؟ أنت رجل مثقّف. هذه الحكايات متجذّرة في أكثر من مجرّد أسطورة. إنّها تجارب".

سأله غيديون، بشيء من المرارة في صوته: "وماذا عنك؟ ما هو الخيال والواقع فيك؟".

هزّ السيّد كتفيه وأجاب: "بالتأكيد، أنا لست ملكاً، ولكنّني أخدم شعبنا وأقوده؛ الأتباع. أنا الابن الوحيد لستيفن جورج وأليس إليزابيث بيندراغون. لم أتزوّج قطّ، وليس لديّ أبناء غيرك".

"وهل هما على قيد الحياة؟ أعني والدَيك".

"بالتأكيد. يبلغ جدّك التسعين من عمره، وستبلغ جدّتك الثمانين هذا العام. وكلاهما بصحة ممتازة".

شعر غيديون باضطراب كبير. فبالرغم من اعترافات أمّه، إلاّ أنّه لا

يزال يشتاق إليها، ولا يزال يشعر بالذنب حيال علاقته بناثانيال. وها هو الآن وجهاً لوجه مع أبيه بالولادة وشجرة عائلية ذات أبعاد أسطوريّة.

فهم سيّد هانج المعضلة التي يعيشها ابنه فقال له: "ستحتاج إلى الوقت لكي تتفهّم الأمور. بعد انتهاء الطقوس، يمكننا أن نتعرّف إلى بعضنا ونجد طرائق لردم الهوّة التي تفصل بيننا".

ما زال لدى غيديون عشرات الأسئلة بلا إجابات، ولكنّ الوقت لم يحن بعد. الوقت الآن للصمت، والتفكير الداخلي.

قال السيّد: "إذاً، هل تقبل بتولّي المهمّة التي طلبتها منك؟ هل أستطيع الاعتماد عليك لتكون المرافق الأخير للفتاة المختارة؟".

هزّ غيديون رأسه موافقاً.

"جيّد، جيّد جداً". واحتضنه السيّد مرّة أخرى.

نظرا إلى أعين بعضهما وهما يبتعدان، وقال له سيّد هانج: "لم يعد اسمك غيديون، بل أصبحتَ تدعى فينيكس. لقبك هو فينيكس".

شعر غيديون بالحيرة فقال: "فهمتُ أنّ الأتباع يحملون اسم كوكبه تبدأ بالحرف الأوّل من اسمهم".

قال بيندراغون، وقد تجهّم وجهه فجأة: "بالفعل، ولكنّ الاسم الذي أردتُ دوماً إطلاقه على ابني كان فيليب. هكذا كنتُ دائماً أسمّيك عندما أفكّر فيك. منذ الآن فصاعداً، ستُعرف باسم فينيكس".

شعر وكأنّها خدعة قاسية؛ ضربة نفسيّة لتدميره. فتجريده من اسمه يؤذيه، وكأنّه يجرّد من هويّته.

قال بيندراغون: "شعار أسرتنا بسيط، Temet Nosce. اعرف نفسك".

راحت ميغان تدلّك ذراعها قائلة: "كنتَ على وشك أن تكسر ذراعي، جيمي".

قال: "آسف، حاولت إيقافك من دون أن أؤذيك. أستطيع أن أكون أكثر خشونة".

سوّت ملابسها قائلة: "يا للفظاظة! وأين تعلّمتَ تلك الحركات القتالية؟".

"مارستها كثيراً في المدرسة. فذوو الشعر البنّي مستهدفون دائماً، كما أنّ والدي اصطحبني لتعلّم التايكواندو".

مدّت ذراعها عدّة مرّات وهي تقول: "ستُوبّخك تومبكينز، فقد كنتَ غائباً لمدّة طويلة".

"وهل أخبرتها؟".

"كان عليّ إخبار أحد ما".

أدرك جيمي أنّ الوقت قد حان لشرح الأمور: "لم تثقي بي، كان هذا واضحاً. فذهبتُ للبحث عن دليل يُثبت أنّني لا أنتمي إلى تلك الطائفة الغريبة المرتبطة بالبروفيسور وبستونهنج".

نظرت إليه بتشكّك وسألته: "وهل فعلت؟".

"تبعتُ أتلي وسميشين، فهما يعرفان بعضهما بالتأكيد. وجدتُ أتلي في منزله وتبعت سيّارته المرسيدس. التقى سميشين في منطقة معزولة على طريق أ 360. وقفا عند مؤخّر شاحنة سميشين، ربّما أخذ شيئاً منها، ثمّ ذهبا كلّ في طريقه".

"بأيّ اتّجاه؟".

"عاد أتلي شرقاً نحو تيدوورث بينما اتّجه سميشين غرباً".

سجّلت ذلك في ذهنها. "لا يوجد الكثير هناك، قبل أن تنعطف

شمالاً إلى ديفايزيس".

"المنطقة عسكريّة، إنها جزء من الأراضي التابع لوزارة الدفاع".

"هل واصلتَ اللحاق بأتلي؟ أم سميثسين؟".

"قررّتُ اللحاق بسميثسين، قدر المستطاع".

"وماذا وجدت؟".

"ذهب شمالاً عبر ويستداون كامب وتيلزهيد. وبعد مسافة ميلين، انعطف يساراً، باتّجاه إمبر".

"إمبر؟".

"إنّها مدينة أشباح، والوصول إليها محدود جداً. لم يعش أحد هناك منذ أكثر من ستّين عاماً، وليس فيها سوى المنازل المهجورة. ما زالت الأبنية قائمة. ولكن، لا أحد يسكنها. وما زالت دار العبادة تقيم طقوساً كلّ عام".

تذكّرت ميغان الخريطة المعلّقة على جدار مكتب تومبكينز وبحثها في السجلاّت فقالت: "يملك ناثانيال تشيس هناك قطعة أرض. إنها الجزء الوحيد الذي لم تتمكّن وزارة الدفاع من شرائه".

"لا أتخيّل أحداً يرغب في امتلاك أرض هناك. على حدّ علمي، الجنود يطلقون النار بكثافة في الميدان، ثمّ يقودون دبّاباتهم فيه، حتى إنّهم يقصفون الأراضي المحيطة به".

سألته ميغان: "وهل يجد البناؤون الكثير من العمل هناك؟".

"أشكّ في ذلك. فالجيش يُصلح ما يُتلفه بنفسه، ويستخدم فرقه لإصلاح القرميد وتثبيت بعض الألواح على الأبواب والنوافذ".

فكّرت في ما قاله. إن كان غيديون تشيس ما زال مفقوداً، فمن المحتمل أن يكون محتجزاً في مكان ما في إمبر. وربّما كانوا يحتجزون لوك هناك أيضاً. "لا أعرف ماذا أفعل، جيمي. لا يمكنني الذهاب

إلى تومبكينز بهذه المعلومات بينما يريد والدك والرئيس نقلي إلى سويندون".

"ماذا؟".

"لقد تمّ إبعادي. أزاحوني جانباً. إنّها قصّة طويلة. كيف يمكننا الذهاب إلى إمبر من دون أن يعرف أحد في العمل؟".

"أعرف تماماً كيف". ابتسم بثقة. "في الواقع، سبق أن عثرتُ على شخص يمكنه مساعدتنا. إنّه ينتظر في سيّارتي".

141

كانت الغرفة التي نُقل إليها غيديون أكبر بكثير من سابقتها. فهي بطول ستّة أمتار وعرض أربعة أمتار، حسب تقديره، كانت أشبه بقصر مقارنة بعلبة الكبريت التي كان محتجزاً فيها. ولكنّها تظلّ زنزانة.

كان بابها مفتوحاً، ويقف عنده مراقبان، أحدهما رآه غيديون من قبل مع دراكو. في الداخل، ثُبّتت في أعلى الجدران الأربعة مشاعل مضاءة. وعلى الأرض الحجرية الصلبة، وُضع سريران خشبيّان مملوءان بالقشّ. وكان في زاوية الغرفة وعاءان حجريّان مملوءان بالماء.

إن لم يكن مخطئاً، يفصل الغرفة عن الدرج الطويل المؤدّي إلى المخزن رواق لا يتجاوز طوله خمسين متراً. لم يستغرق وقتاً طويلاً لفهم سبب ذلك. سيُحضرون الفتاة إلى هنا ليسهل نقلها إلى إحدى السيّارات المركونة هناك.

سمع غيديون وقع خطى في الخارج. وتناهى إلى سمعه مزيج من أصوات الرجال، ورأى ظلالاً عبر الباب، ثمّ دخل أربعة مراقبين إلى الزنزانة. في البداية، لم يرَ المرأة معهم. ثمّ قام اثنان من الرجال بحملها من إبطَيها، بينما أمسك اثنان آخران بقدمَيها، ووضعاها على

أحد السريرين.

كان أحد الرجلَين هو دراكو. ظلّ واقفاً، فيما خرج اثنان من المراقبين، وقال له: "إنّها ضعيفة، لم تأكل شيئاً منذ سبعة أيّام". وضع ذراعه حول كتفَي المراقب قويّ البنية الواقف قربه وتابع قائلاً: "هذا فولانز، سيكون خارج الغرفة تماماً. لديه تعليمات بإحضار طبيب إن ظننتَ أنّ حالتها تتدهور. هل تفهم؟".

هزّ غيديون رأسه. "جيّد، لأنّه لا ينبغي لهذه المرأة أن تموت. صحّتها هي همّنا الوحيد، لليوم التالي على الأقلّ". ربّت على كتف غيديون كما يفعل الجنود، ثمّ خرج من الزنزانة مع فولانز، وأغلق الباب الحديدي خلفهما.

تساءل غيديون إذا كان السيّد قد أخبر دراكو عنه، وعن العلاقة التي تربط بينهما. من الذكاء أن يفعل ذلك إن كان يسعى للحصول على دعم الدائرة الداخلية. هذا ما كان ليفعله لو كان مكانه.

نظر إلى القربان للمرّة الأولى. من السهل على المرء أن يُدرك أنّ الفتاة كانت جميلة جداً منذ مدّة غير طويلة. حتّى من دون مساحيق التجميل وبشعرها الأسود الذي ذهب بريقه، بدا واضحاً أنّها تتمتّع بجاذبيّة طبيعيّة. كان رداؤها القصير ذو القلنسوة قد ارتفع إلى الأعلى، كاشفاً وشماً للعلم البريطاني؛ فيه إشارة إلى زمن آخر، ويُعتبر رمزاً لتمرّد الشباب وتحدّيه. انحنى غيديون وشدّ رداءها إلى الأسفل، حفاظاً على كرامتها.

دفعت يده بعيداً وهي تقول: "دعني وشأني".

أجفل وابتعد عنها.

جلست المرأة بحركة دفاعيّة على السرير. بدا ذهنها مرتبكاً، والخوف يملأ عينيها. "ابتعد، ابتعد عنّي!".

"لن أؤذيك. صدقاً، لن أفعل".

نظرت حولها. لم تُستجب دعواتها تماماً، ولكنّها أُخرجت على الأقلّ من ذلك الجحر الخانق. تستطيع أن تتنفّس وتتحرّك، وتتمدّد أيضاً. نظرت إلى الغريب الواقف قربها، كانت عيناها سوداوَين تقريباً.

"من أنت؟ ولماذا أنت معي هنا؟".

142

خرج رجل فارع الطول من سيّارة الغولف السوداء التي يملكها جيمي قائلاً: "جوش غوران. يسرّني لقاؤك، سيّدتي".

وقف أمام ميغان وصافحها. كان شعره الأسود قصيراً، وعيناه زرقاوَين، وبدا وكأنّه نُحت من الغرانيت. ثمّ تذكّرت من يكون. إنّه الرجل الذي ظهر على التلفاز في المؤتمر الصحفي الذي عقدته كيلي لوك. فكّرت في أنّ جيمي سبق له أن أخبره عنها. "يُستحسن أن ندخل، يمكننا التحدّث بشكل أفضل هناك". تبعاها إلى داخل المنزل. وعندما أُغلق الباب، أخبرها جيمي ببعض التفاصيل. "قامت والدة كاتلين باستخدام جوش لإيجادها".

أضاف غوران: "وإعادتها سالمة".

قالت ميغان: "أعرف. أنت صيّاد كنوز وتحرٍّ خاصّ، أليس كذلك؟".

"عميل إنقاذ وتسليم. لديّ خبرة تمتدّ على عقدين في هذا المجال". رسم على شفتَيه ابتسامة سينمائيّة وتابع: "سيّدتي، أظنّ أنّ الأحداث تجمعنا. إذ يبدو أنّه يتمّ إخراجنا أنا وأنت من الحلقة، ولهذا السبب أتى جيمي إليّ".

اعترفت قائلة: "لا أعرف شيئاً عن ذلك".

"مع احترامي، سيّدتي، أظنّ أنّك تعرفين على الأرجح أكثر م
معظمنا".

"ماذا تقصد؟".

"استناداً إلى المعلومات التي جمعتها - وصدّقيني، جمعتُ الكثي
- أظنّ أنّ الشرطة المحلّية، ورجال الأف بي آي يصدقون كثيراً أ
كاتلين قد اختُطفت من قِبل عصابة منظّمة، وأنّها محتجزة في مكان م
في فرنسا". أشار إلى جيمي. "ولكن، أظنّ أنكما أنت وجيم أقرب إلى
الحقيقة، سيّدتي".

لم تستطع منع نفسها من مقاطعته قائلة: "جوش، ستُثير جنوني إذ
واصلت مناداتي بسيّدتي. ميغان وحدها تكفي".

قال بابتسامة أبيض من البياض نفسه: "ميغان، تعلّمتُ من خبرتي
أنّك عندما تختطفين شخصاً وتأخذينه خارج البلاد، فلا بدّ من أن تتركي
آثاراً خلفك. مغادرة البلاد بالسيّارة هي أسهل الخيارات، ولكنّ الكثير
من كاميرات المراقبة ستلتقط لك صوراً. يمكنك أن تشتري بطاقات
للسفر على متن القطار، من دون أن يراك أو يتعرّف إليك أحد، ولكنّ
هذا مستحيل هذه الأيّام. إن غادرتِ البلاد، فلا بدّ من أن تتركي
آثاراً. ولكن، في هذه القضيّة، لم يجد العملاء الفيدراليون أو الشرطة
البريطانية، أو عملائي شيئاً. هل تعرفين لماذا؟ لأنّ الخاطفين لم يغادروا
البلاد إطلاقاً. ما زالوا هنا، ما زالوا في المنطقة".

وافقته ميغان، ولكن ما زالت هناك ثغرات: "ماذا عن تسجيلات
كاتلين؟".

هزّ كتفَيه قائلاً: "ليس من الضروري أن تكون كما تبدو عليه
فمن السهل جداً إجراء تسجيلات لكاتلين هنا، وتوكيل رجل بالسفر
بالأوروستار من لندن، وتشغيل الشريط عبر خطّ هاتف فرنسي. هذا لا

يُثبت شيئاً".

أضاف جيمي: "باستثناء أنّ الخاطفين منظّمون جداً".

قال غوران: "هذا لا شكّ فيه، هؤلاء الرجال شديدو التنظيم.
وهذا أحد الأسباب التي أتاحت لهم برأيي إقامة مخيّم لهم وسط ميدان
عسكري خالٍ".

قالت ميغان: "إمبر منطقة تملكها القوّات البريطانية، وهي خاضعة
لمراقبتها. يستحيل على أيّ كان الدخول أو الخروج من دون إذن".

ابتسم غوران وقال: "هذا غير صحيح على الإطلاق. فثمّة مَزارع
في الجوار، وطريق عامّ للمشاة بطول ثلاثين ميلاً يمتدّ حول مناطق
إطلاق النار. بالإضافة إلى ذلك، حرّاس الجهاز العسكري من أكثر
الأشخاص غباءً. صدّقيني، لقد عملتُ معهم معظم حياتي".

ابتسمت ميغان. "إذاً، هل تظنّ أنّك تستطيع إيجاد طريقة
للدخول؟".

"في الواقع، لقد تقدّمتُ عليك. سأصطحب إلى هناك فريق مراقبة
هذه الليلة. عند الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل تحديداً. هل
ترغبين في المجيء؟".

القسم الخامس

143

الأحد 27 حزيران، يوم التجديد

الساعة 01:00

كانت سيّارة الفورد ترانزيت السوداء التي انطلقت من ديفايزيس على الطريق أ 360 الخالي تحمل الأحرف الخضراء ATE وعلماً أحمر مرفرفاً. وتحت الرمز العسكري الرسمي لوحدة التدريب العسكري، ظهرت عبارة وحدة البحث العلميّة المتخصّصة.

كان في السيارة ستّة أشخاص يرتدون سترات واقية من المطر كُتبت عليها الرموز نفسها. وكانوا يحملون في جيوبهم بطاقات، وإذناً رسميًّا للقيام بمراقبة ليليّة للحياة البرّية في الطريق المحيط بمنطقة إمبر وحوله، وهو الطريق الممتدّ حول ميدان إطلاق النار.

نظرت ميغان إلى الفريق ولم تستطع إخفاء دهشتها: "غريب ما يستطيع المرء فعله عندما يلاحق شيكاً بعشرة ملايين دولار".

قال جوش غوران، الجالس في الخلف على مقعد قربها: "بالفعل. أعرّفكِ إلى تروي".

رفع تروي لينتون عينيه عن شاشة الحاسوب المحمول وابتسم بتواضع.

قال غوران: "تروي هو ملك الإنترنت. وهو أفضل قرصان ومزوّر ومُصلح في العالم. أعطيه القليل من الوقت، وسترين أنّه ما من مكان في العالم الافتراضي لا يستطيع دخوله، وما من شيء لا يستطيع سرقته أو تعديله".

جلس كلّ من ميغان وجيمي في الخلف مع الأميركيين. كان

السائق يدعى جاي، ويبدو أنّه بريطاني. أمّا الراكب الجالس على المقعد الأمامي فيدعى لوك، وهو جندي ألماني سابق يعمل مع الفريق منذ عامَين.

قال غوران: "لا توجد حاليًّا مناورات عسكرية كبيرة في إمبر. لذا، إنّ أعداد الجيوش قليلة. معظم الرجال ينامون في الثكنات أو يستمتعون بوقتهم في المنطقة. ينبغي أن نتمكّن من التنقّل بحرّية".

بعد نصف ساعة، سُلّطت أضواء مصابيح السيّارة الأمامية على لافتة تحذيريّة كُتب عليها: ميدان لإطلاق النار مغلق أمام العامّة: يُمنع الدخول.

دخلت سيّارة الفورد ببطء، ثمّ توقّفت أمام مزرعة مهجورة. قاد جاي السيّارة خلف المزرعة، بعيداً عن الطريق الرئيس.

قال غوران: "حسناً، لننطلق".

حملوا حقائبهم وسرعان ما انتشروا باتّجاهات مختلفة. كان غوران قد زوّدهم جميعاً بأجهزة لاسلكية، وبوصلات، ونظّارات للرؤية الليلية، ومصابيح، فضلاً عن كاميرات ودفاتر ملاحظات من أجل الذريعة التي دخلوا بها. كما أعطاهم لينتون بعض المعلومات عن طائر الكروان، وغزال الرّو، وحيوان الغُرَير التي تعيش في إمبر.

تنقّلوا بصمت بين المباني المهجورة، والمنازل الخالية من النوافذ والأبواب والتي بدت أقرب إلى كوسوفو منها إلى ويلتشر. فقد استُبدلت أسقف القرميد الجميلة بالحديد الصدئ، وأصبحت حدائق الأزهار البرّية بركاً موحلة، وطريقاً للدبّابات. رأوا في الظلام لافتة صفراء كُتب عليها: خطر: ألغام عسكرية غير منفجرة.

التزم جيمي وميغان بتعليمات غوران، ومشيا بشكل منهجي بين أنقاض إمبر. فعل البريطاني جاي الشيء نفسه على طريق شمالي متّجه

إلى ليتلتون داون، بينما جاب غوران الأجزاء الخارجية لويست لافنغتون داون، وتوجّه لينتون شرقاً عبر سامّر داون.

بحثوا لثلاث ساعات، ولم يجدوا شيئاً.

عندما اجتمعوا مجدّداً، بسط غوران خريطة على سطح السيارة وأشار بإصبعه إلى جنوب إمبر قائلاً: "هنا يقع قلب ميدان إطلاق النار. يسمّي الجهاز العسكري هذه المنطقة منطقة الخطر. بالكاد دخلنا إليها، ولم نبحث حتّى الآن سوى في المناطق الخارجية المحيطة بها".

نظر جاي إلى الخريطة وهو لا يزال يلهث، ثم قال: "سنحتاج إلى نهار كامل للتجوّل بالسيّارة في كلّ هذه المساحة، فما بالك بالبحث سيراً على الأقدام".

لم يجادله أحد.

قال غوران: "إذاً، علينا اتّخاذ قرار الآن. ستُشرق الشمس في أيّ لحظة. إن واصلنا البحث فمن المحتمل جداً أن يتمّ إيقافنا، ولن يعود لدينا أيّ عذر رسمي للمكوث هنا".

قال لينتون: "نحتاج إلى غطاء آخر. يمكننا أن نحوّل الزيارة الليلية إلى زيارة نهاريّة. إنّه يوم الأحد، ومن غير المحتمل أن يقوم أيّ كان بالاتّصال بالمركز العسكري للتحقّق. ولكنّني بحاجة إلى حاسوب وطابعة لتغيير أوراقنا وإضافة بعض التفاصيل".

نظر غوران إلى ساعته وقال: "الساعة الآن الرابعة. برأيي، يُستحسن أن نغادر المكان قبل أن يُكشف أمرنا. سننام لبضع ساعات حتّى يتمكّن تروي من تجهيز الوثائق الجديدة. ثمّ نعود للاجتماع ظهراً، ونرجع إلى هنا ونعمل حتّى المساء".

وافقت ميغان مع الباقين ولكنّها شعرت بتأنيب الضمير لأنّها ستترك سامي مع والديها مجدّداً.

كانوا يضعون حقائبهم في السيارة عندما رفع غوران ذراعه بسرعة، فجمدوا في أماكنهم. رأوا على الطريق بعيداً مصابيح سيّارة تقترب، فاختبأوا خلف الأبنية المهجورة. مرّت السيّارة على الطريق متّجهة إلى خارج القرية.

قال غوران وهو يقف: "شاحنة بنّاء بيضاء، عليها اسم يشبه سميث أند صن جانباً. كان مصباح السيّارة الخلفي فوق الرقم مطفأ لذا لم أتمكّن من تسجيله". نظر إلى جيمي وميغان. "هل يعرفها أحدكما؟ هل تعني لكما شيئاً؟".

قالت ميغان: "أجل، إنّها تعني الكثير".

144

جلس سيّد هانج بمفرده في ظلام الغرفة الشرقية. كان ينتظر مرور الوقت، كما فعل صباح أمس، والصباح الذي سبقه.

كانت مراقبة الشروق والغروب فوق الهيكل وستونهنج من صلب اهتمام الأسياد دائماً. إنّه النموذج المركزي الأرضي الخاصّ بالأتباع فعلى غرار الفلاسفة اليونان، وأرسطو وبطليموس، كان الأتباع يعتقدون أنّ في الأرض نقطة ثابتة هي مركز الكون.

كلّ شيء يدور حولهم؛ وحدهم الأتباع هم الأكثر حكمة. فهم لا يركّزون على محور حركات الكواكب وحدها، وذلك لأنّ تأثيرها مهمّ أيضاً

تتفوّق معرفة الأتباع على كلّ المعارف الأخرى. فعلمهم هو الذي ولّد علم الفلك، والجغرافيا، وعلم المناخ، وجميع العلوم الأخرى. إنّها حكمة القدماء.

عبر النفق العمودي الشرقي، رأى السيّد أولى بوادر شروق الشمس. ليس الفجر، هذا مختلف. إنّه أكثر دقّة. إنّه الوقت الدقيق الذي

يظهر فيه الطرف الأعلى للجرم السماوي الأكبر فوق الأفق، اللحظة التي يتبدّل فيها نظام القوى، الجزء من الثانية الذي ينتهي فيه حكم الليل.

أوّل أنفاس النهار الوليد.

ركّز السيّد عينيه على القرص الأحمر والبرتقالي المشرق في سماء الصباح، وتساءل للحظة عن مجنّده الجديد، فينيكس، ابنه، لحمه ودمه. هذا اليوم سيكون مصيريًّا بالنسبة إليه، بالنسبة إلى كليهما. يقال إنّ الدم أكثر كثافة من الماء. والغروب سيختبر صحّة تلك النظريّة. عندما تنخفض كرة النار غرباً، وينطفئ آخر ألسنتها خلف الأفق، سيعرف الجواب.

عندها سيُكتب التاريخ.

145

استيقظت كاتلين وهي تصرخ.

كانت الزنزانة دامسة الظلمة، وقد انطفأت المشاعل منذ وقت طويل. نهض غيديون من سريره قربها.

"إريك! إريك، ساعدني!".

تبعَ الصوتَ الآتي من الكابوس، وتحسّس طريقه في الظلام. تسرّب عبر باب الغرفة الحديدي ضوء أحمر من المشاعل التي حملها المراقبون، فلمح مكانها. كانت تضمّ ركبتيها إلى صدرها، والرعب يملأ عينيها.

صاح أحد المراقبين: "ماذا يجري هنا؟".

"ساعدوني! ساعدوني!".

حاول غيديون تهدئتها: "لا بأس، أنت بخير".

صاحت بصوت أعلى: "ساعدوني!".

جلس على طرف السرير الخشبي وحاول تهدئة روعها: "كاتلين، أنت تحلمين. استيقظي".

دخل مراقبان الزنزانة بسرعة ، وأضاءت المشاعل وجهيهما بقوّة.

قال غيديون وهو يلتفت نحوهما: "لا بأس، أضيئوا مشاعل الغرفة وستهدأ. إنّها خائفة وحسب".

أحاطها بذراعيه واحتضنها قائلاً: "لا تخافي، لن يؤذيك أحد". توقّفت الكلمات في حلقه. كاذب.

زحف النور على جدران الغرفة تدريجيًّا عندما أُضيئت المشاعل. استيقظت كاتلين من كوابيسها المرعبة لتواجه حقيقة مصيرها القاسية. تمسّكت بغيديون طلباً للحماية. كان صوتها خشناً وخائفاً وهي تقول: "أريد بعض الماء".

انتظر المراقبان ليوافق فينيكس على طلبها.

"أحضرا بعض الماء، رجاء".

توجّه الأطول بينهما، الرجل المدعوّ فولانز، إلى آخر الزنزانة وملأ قدراً بالماء من أحد الأوعية الحجرية. وأعطاها إيّاها فشربت.

نظر غيديون مجدّداً إلى الرجلَين المرتديَين عباءتين، ورأى فيهما شيئاً مختلفاً؛ في الطريقة التي يقفان بها. نظر إلى وجهيهما، وقرأ فيهما القلق، وقوّة التركيز. ثمّ لاحظ الثياب التي يرتديانها.

كانا مسلّحَين. فقد كان كل منهما يحمل مسدساً.

146

ودّت ميغان لو تلحق به. أرادت أن تلحق بشاحنة سميثسين وتسجنه في زنزانة، لتعرف ماذا يفعل على أراض تابعة لوزارة الدفاع عند الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل.

نزع غوران جهاز اللاسلكي المعلّق على حزامه قائلاً: "من القيادة إلى قائد إيكو. رصدنا شاحنة بيضاء متوجّهة غرباً من إمبر، كُتب على

جانبها اسم سميثسين. الحقوا بها وأخبرونا بما ستعرفونه عنها حتى تأتيكم تعليمات أخرى. انتهى".

سُمعت هسهسة، تبعتها إجابة متقطّعة: "عُلِم. انتهى".

بدا السخط على ميغان، وسألت: "من كان ذاك؟".

بدت على غوران أمارات الاعتداد بالنفس وهو يجيب: "لقد زرعتُ وحدات مراقبة في المحيط. سيساعدوننا قليلاً قبل أن تزدحم الطرقات. بعد ذلك، ستصبح مهمّتهم صعبة. فريق إيكو سيراقب الشاحنة، وسيبلغنا بأيّ مستجدّات".

"أتمنّى لو أنّك أخبرتني أنّك تملك هذا النوع من الموارد. كيف لي أن أساعدك إن لم أعرف مع من تتعامل؟".

ابتسم الأميركي ابتسامة عريضة وقال: "آسف. ولكن، أخشى أنّك لن تعرفي عن مواردي سوى ما تحتاجين إلى معرفته". لاحظ أنّها على وشك أن تجادله فتابع: "لا وقت لدينا للنقاش. علينا أن نخرج من هنا قبل طلوع النهار".

حدّقت إليه ميغان قائلة: "ألا تريد أن تعرف من أين أتت تلك الشاحنة بالضبط؟". ونظرت إلى الشفق، باتّجاه منطقة الخطر والطريق الذي سلكه سميثسين.

كان غوران على وشك أن يجيب عندما أصدر جهاز اللاسلكي صوتاً: "من إيكو إلى قائد الفريق. لدينا مشكلة. أظنّ أنّ الهدف قد كشف أمرنا".

147

لم تكن كاتلين واثقة من الرجل الذي يشاركها الزنزانة. عرّفها بنفسه أمس على أنّه غيديون، ولكنّها كانت متعبة إلى حدّ كبير، فاكتفت بالتحديق إليه بعينَين منهكتَين. لمَ هو هنا معها؟ ماذا يريد؟ كان يرتدي

ملابس مثل الآخرين ولكنّه يتصرّف على نحو مختلف، لم يكن ماكراً. نظرَت إليه.

عاملها بودّ، وكأنّه إلى جانبها. ولكنّه واحد منهم بالتأكيد، كانت تعرف ذلك. فالحرّاس الآخرون يصغون إليه. طلب منهم إضاءة المشاعل، فنفّذوا الأمر. لم يتردّدوا. لديه نفوذ عليهم. إذاً لمَ هو في الزنزانة؟

شعرت بالضعف والغثيان وهي تنهض من سريرها وتحاول السير بضع خطوات. رأى التوتّر على وجهها فسألها: "هل أنتِ بخير؟".

"وهل يهمّك ذلك؟". حدّقت إليه مثل حيوان مذعور.

"لستُ هنا لإيذائك".

قفز قلبها، وشعرت بشيء من الأمل. "هل دفع والداي الفدية؟ هل سأعود إلى البيت؟". نسيت حذرها واقتربت من سريره وتابعت: "هذا ما حدث، أليس كذلك؟ لهذا السبب أنا هنا ولستُ في ذلك الجحر اللعين. لهذا السبب أنت تعاملني بلطف، وتعدّني للخروج، وتهيّئني".

وقف غيديون وحاول تهدئتها: "كلاّ، كاتلين. ليس هذا هو السبب". نظر إلى القضبان الحديدية وأجاب: "على حدّ علمي، لم تُطلب أيّ فدية من أبويكِ. فخاطفوك لا يسعون وراء المال. أنا آسف".

لم تفهم. إن كانوا لا يريدون المال، فما الذي يريدونه إذاً؟ عاد الخوف إلى وجهها وسألته: "إذاً ماذا يجري؟". وأشارت إلى الغرفة قبل أن تتابع: "لماذا أنا هنا؟".

"اجلسي، سأحاول أن أشرح لكِ".

جلست مثل قطّة متوتّرة.

شعر غيديون أنّ عدوى الذعر قد انتقلت إليه. فما سيقوله لها

قد يحطّمها نهائيًّا. ولكن، عليه إخبارها، يجب أن تفهم ماذا سيحدث. يجب أن تدرك أنّ هذه هي ساعات حياتها الأخيرة.

148

ركّز دراكو عينَيه على المرآة الأماميّة، وضغط بيدَيه على مقود الشاحنة. لمح غشاوة على بُعد نحو خمسة أميال خلفه في الظلام. ربّما على بُعد خمسمئة متر. كانت لمحة خاطفة، ولكنّها كافية. فطريق إمبر خالٍ دائماً، دائماً. ولكنّه لم يكن كذلك اليوم، ما زالت الغشاوة هناك.

قال لموسكا: "هل يمكنك أن تعرف ماذا يوجد خلفنا؟ أيّ نوع السيّارات؟".

استدار الجزّار الضخم الجالس في المقعد المجاور إلى الخلف، وحاول أن يتبيّن الشكل. لم تكن شاحنة، كما أنها لم تكن سيّارة كبيرة. "إنّها بعيدة جداً، لا أستطيع الرؤية بوضوح. ربّما فوكس أو غولف إنها شيء من هذا القبيل".

"هل رأيت من أين أتت؟".

استدار مجدّداً وقال: "لا أملك فكرة على الإطلاق".

"لا يسمح الجيش لأحد بركن سيّارته هنا. إذاً من أين أتت؟ وماذا تفعل هناك في هذا الوقت؟".

انحنى موسكا إلى الأمام ليتمكّن من رؤيتها بشكل أفضل من مرآة النافذة الجانبيّة المكبِّرة، ثم قال: "ربّما ضلّوا طريقهم".

"ربّما". رفع دراكو قدمه عن دوّاسة السرعة وأبطأ سرعة الشاحنة حتى بلغت ثلاثين كلم. نظر مرّة أخرى إلى المرآة الأماميّة، فرأى قرص الشمس الأحمر وهو يشرق والسيّارة السوداء الصغيرة. كانت المسافة بينهما تتقلّص. خفّف البنّاء سرعته حتّى بلغت خمسة وعشرين كلم.

"سأدوس على المكابح وأتوقّف من دون إنذار، استعدّ".

سحب موسكا مسدّساً من حزامه ووضعه في حجره.

ضغط دراكو على المكابح، وانعطف جانباً، إلى طريق مرصوف بالحصى.

انحرفت السيّارة السوداء، وضغط سائقها على البوق، ولكنّه لم يتوقّف. فُتح زجاج النافذة، وهزّ السائق قبضته المكتنزة في الهواء.

لم يتكلّم دراكو أو موسكا، بل ظلّ بصرهما مركّزاً على الأضواء الخلفيّة للسيّارة وهي تتابع سيرها على الطريق المغبرّ. راقباها حتّى اختفت تماماً.

قال موسكا: "حمقى. أنا متأكّد من أنّهم قد سهروا طيلة الليل وهم الآن ذاهبون إلى العمل".

أعاد دراكو تشغيل المحرّك. هذا منطقي، ربّما هم ذاهبون إلى تيلزهيد أو ويستداون كامب. قال: "لنأمل ذلك، فنحن لا نريد اليوم أحداً في أعقابنا".

149

قالت كاتلين، وهي تتراجع بعيداً عن غيديون: "لا بدّ من أنّك مجنون، طقوس، و... وقرابين؟ هذا ليس حقيقيًّا". راحت تمشي بعصبيّة في أرجاء الزنزانة.

نظر غيديون إلى الباب. كان المراقبون في الخارج يراقبونهما، ويسمعون ما يدور بينهما.

رفعت ذراعيها: "وهذا المكان، ما هذا؟ الغرفة المجاورة لغرفة الموت اللعينة؟ هل ستأخذني أنت وأصدقاؤك المتوحّشون إلى مكان ما وتشوونني حيّة؟". لم تستطع استيعاب جنون ما يحاول قوله.

تركها تنفّس عن غضبها، ثمّ أتمّ لها الصورة: "قبل الشفق تماماً، ستنقلين من هنا. سيتمّ غسلك وتبديل ملابسك بملابس خاصّة، وستؤخذين إلى القاعة الكبرى داخل الهيكل. هناك، سيؤدّي السيّد طقوساً تسبق تقديم القربان".

حملقت به. لا بدّ من أنّه مجنون، ومختلّ عقليًّا.

حاول غيديون طمأنتها: "ليست جنسيّة، ولكنّها مؤلمة. سيصنع شقوقاً في جسدك لكي يسِمَكِ بعلامات المبجّلين. شقّ لكلّ من أحجار التريليتون. ستمتدّ هذه الشقوق على ذراعيك، وساقيك، وعمودك الفقري. ستُدهن الجروح بماء المبجّلين وستُتركين لخمس ساعات".

"وماذا سيحصل بعد ذلك؟".

"سيأخذك الحمّالون إلى النهر. ستُغمسين في المياه التي عبرها القدماء لبناء الهيكل الذي نتواجد فيه الآن وستونهنج".

حين سمعت الكلمة، تذكّرت جايك، وآخر اللحظات الحميمة التي أمضياها معاً.

"النصب هو المكان الذي سيتمّ فيه آخر جزء من الطقوس؛ تقديم القربان".

حدّقت إليه من دون أن تصدّق. كان يستخدم تعابير لا يتفوّه بها إلاّ المجانين: قربان، حمّالون، مبجّلون. "كيف؟". قفز السؤال إلى شفتيها من دون تفكير. "كيف سيتمّ ذلك؟".

"سيكون سريعاً، ورحيماً".

"رحيماً؟ أيّ كلمة هذه؟". نظرت إلى الأسفل، كانت يداها ترتجفان. لم تصدّق أنّ هذا الجنون سيحدث. "أين جايك؟ هل..." كان مجرّد لفظ اسمه يسبّب لها الحزن. "هل سيلاقي المصير نفسه؟".

"كلاّ". حاول غيديون أن يكون لطيفاً. "صديقك مات. عثرت

الشرطة على جثّته منذ بضعة أيّام في سيارة كامبرفان".

شهقت كاتلين. هذا ما كانت تخشاه. فكّرت في هذا الاحتمال مئات المرّات وهي محتجزة في ذلك الثقب في الجدار، ولكنّ الخبر كسرها بالرغم من ذلك.

أحاطها غيديون بذراعيه وشعر بها وهي تنتحب على كتفه. كان جسدها يرتعش، والدموع تتساقط من عينيها.

من فوق كتفها، رأى وجهاً خلف قضبان الزنزانة. كان وجه أبيه.

150

كانت سامي قد استيقظت وبدأت تُسبّب الفوضى عندما عادت ميغان إلى منزل أبويها.

كان وجهها مكسوًّا بمساحيق التجميل التي انتشرت على نصف أثاث غرفة النوم.

"زيّنت وجهي، ماما". وابتسمت بفخر وهي تزمّ شفتيها الحمراوَين.

"هيّا، تعالي لتغتسلي". فتحت ميغان مياه حجرة الاستحمام، وحاولت مسح وجه الطفلة.

ذهبت ابنتها إلى الخزانة المنخفضة تحت المغسلة وأخرجت عبوه الشامبو الخاصّة بها قائلة: "أصبحتُ كبيرة، وأستطيع أن أستحمّ بنفسي، ماما".

ابتسمت ميغان. كانت ابنتها تكبر، وبعد بضعة أشهر، ستنتقل إلى المرحلة الابتدائيّة. شعرت وكأنّه لم تمضِ أكثر من خمس دقائق منذ أن كانت سامي طفلة بين ذراعيها. الوقت يمرّ بسرعة.

فحصت حرارة المياه، ثمّ ساعدت سامي على دخول حجرة

الاستحمام، وأغلقت الباب. "هل كلّ شيء على ما يرام؟". ضغطت وجهها على الزجاج المكسوّ بالبخار، وراحت سامي تطرق عليه من الجهة الأخرى وهي تضحك.

أبعدت ميغان رأسها مدّعية أنّها أُصيبت، ثمّ قرّبته من الزجاج مجدّداً.

طرقت سامي عليه من جديد، وضحكت بصوت أعلى.

يمكن لهذا المرح أن يستمرّ طيلة النهار.

قال صوت عميق خلفها: "كم هذا مضحك!".

استدارت ميغان.

"آدم". ملأ الذعر عينيها. "كيف دخلت؟".

ابتسم بمكر وقال: "من الباب الخلفي، فقد تركته أمّك مفتوحاً. قلتُ لها عشر مرّات أن تقفله، ولكنّها لا تصغي، أليس كذلك؟".

نبض قلبها بعنف وهي تسأله: "ماذا تريد، آدم؟ ماذا تفعل هنا؟".

أغلق باب الحمّام خلفه، واحتجزها معه في الداخل. "أين كنتِ ليلة أمس، ميغ؟".

"ماذا؟". حاولت أن تُظهر استنكارها.

"كنتِ خارج المنزل طيلة الليل، ولم تكوني في سيّارتك، لأنّك تركتها قرب المنزل، ولم تذهبي إلى العمل. أين كنتِ إذاً؟ مع من كنتِ؟".

"أظنّ أنّه عليك الرحيل، آدم". حاولت أن تمرّ قربه، ولكنّه سدّ طريقها.

حدّقت إليه قائلة: "الأماكن التي أذهب إليها وما أقوم به شأني وحدي، ولا علاقة لك بذلك. والآن، اخرج".

احمرّ وجهه، وانتفض عرق في عنقه.

www.rewity.com Dalyia

حاولت ميغان الوصول إلى الباب.

اعترض طريقها مجدّداً، ثمّ وضع يده اليسرى من الجهة الأخرى بحيث أصبحت عالقة بين ذراعيه.

"دعني أخرج". لم تصرخ، بل راحت تراقب ابنتها من زاوية عينها. رأتها تعصر الشامبو في مصرف حجرة الاستحمام.

"عندما أنتهي، ميغ. والآن أخبريني أين كنتِ".

كان جسده أضخم من جسدها بكثير، وعرفت أنّها ستخسر إن حصل أيّ قتال بينهما. ولكنّ ذلك لم يمنعها من المحاولة. فوجّهت ضربة قويّة بركبتها بين ساقَيه. أمسك ركبتها بيده، وضغط حول ساقها بقبضة من حديد. شدّ عليها إلى أن رأى الألم على وجهها. بيده الأخرى، أحاط عنقها وضغطها على باب الحمّام. "سمعتُ أنّه عُرض عليك عمل في سويندون، ترقية. عرض جيّد، من الأفضل لك القبول به". التفت إلى ابنته قبل أن يتابع: "إنّه أفضل للجميع. بهذه الطريقة، تكفّين عن حشر أنفك في حياتي وفي كلّ شيء هنا. هل هذا واضح؟".

"بابا!".

فاجأهما الصوت، كليهما. خرجت سامي من حجرة الاستحمام مبلّلة.

"أميرتي!". تناول منشفة ولفّها بها، ثمّ حملها بين ذراعَيه. "دعيني أنظر إليك". فتح باب الحمّام قائلاً: "قدّمي لنا خدمة، ميغ، وأعدّي لي فنجاناً من الشاي بينما أجفّف ابنتي".

151

جلس سيّد هانج وهو يحدّق إلى الخرائط والجداول الفلكيّة القديمة المنتشرة على الطاولة الحديدية. كانت الحركات السماوية في

هذا اليوم خطرة. لقد أزف الموعد.

"أبي".

فاجأته الكلمة والصوت. أبي. كم تاق إلى سماعها. "فينيكس، ادخل. نسيتُ أنّني أرسلت في طلبك".

فينيكس. آلم الاسم غيديون وكأنّه سكّين طعنت قلبه.

"اجلس". أشار السيّد إلى المقعد الحجري قرب الطاولة قائلاً: "كيف حال الفتاة؟ بدت بائسة عندما رأيتكما".

"هذا متوقّع".

"ماذا قلتَ لها؟".

"أخبرتها بما ينتظرها، وبما سيحصل لها اليوم. يجب أن تُعطى الفرصة لتقبّل ذلك، والتأقلم مع مصيرها".

"وربّما مع معتقداتنا".

"بالفعل. أودّ البقاء معها، إن أمكن، حتّى النهاية. أظنّ أنّها بحاجة إليّ لتستمدّ القوّة".

"حتّى النهاية. هل تظنّ أنّك مستعدّ لذلك؟".

"بل أنا واثق". صمت غيديون وكأنّه يزن كلماته. "أبي، لم تعد هناك أسرار بيننا. تظنّ أنّك خبّأت عنّي بعض المعلومات، ولكنّك مخطئ. أعرف أين نحن. أعرف ذلك من اسمك، من اسم عائلتي، ومن إرثي. أعرفه من القوى العظيمة التي تستطيع حشدها، ومن هندسة هذا الهيكل، ومن موقع الأنفاق العمودية وتراصفها مع النصب. أعرف، يا أبي".

كانت عينا جايمس بيندراغون تلمعان في الظلام، واقترب من ابنه قائلاً: "أنت محقّ، حان الوقت لنثق ببعضنا أكثر. ولكن، اعرف أنّ الاحتفال مثير بعض الشيء، وقد يصدمك. هل أنت واثق من أنّك

ترغب في أن تكون قرب المرأة؟".

"أنا واثق".

"جيّد جداً. يمكنك البقاء معها حتّى انتهاء طقوس التجديد، وتمجيد المبجّلين، وتسديد ديننا".

"وبعد ذلك؟".

"بعد ذلك نجني الفوائد. لا يفصلنا عن الاعتدال الخريفي سوى اثني عشر أسبوعاً، وهذا هو الوقت الذي يباركنا فيه المبجّلون".

وقع نظر غيديون على اللفائف الورقية الموضوعة على مكتب السيّد. بدت مشابهة لتلك التي وجدها في مرصد ناثانيال.

انتبه السيّد إلى نظرته وقال: "هل تعرف شيئاً عن علم الفلك القديم أو علم الفلك الإثني؟".

أقرّ قائلاً: "ليس الكثير. الأوّل هو دراسة كيفيّة فهم الشعوب القديمة لحركة الكواكب والنجوم وكيف تمحورت ثقافتها حول تلك الحركات. أمّا الآخر فهو دراسة أنثروبولوجية أكثر لمراقبة السماء في المجتمعات المعاصرة".

بدا السرور على وجه السيّد وهو يقول: "هذا صحيح، وحرفتنا تجمع بين الأمرين. نستخدم السجلاّت التاريخية، كتلك التي رأيتها في الأرشيف، ونواصل مراقبة حركات النجوم والكواكب. فتراصفها مع النصب والهيكل حيويّ بحسب معتقداتنا".

"أعرف ذلك".

"بالطبع تعرف. فأنت واحد من قلّة من الناس الذين يفهمون أنّ لا شيء هنا هو وليد الصدفة. فموقع كلّ حجر ونفق عمودي، والتراصف الفيزيائي مع شروق الشمس من الشرق وغروبها من الغرب، والإجلال الهندسي للشمال المغنطيسي، وميل الممرّات المنحدرة بدرجة مماثله

لانحراف كوكب الأرض، كلّها تحمل معاني باطنيّة". غاص السيّد في أفكاره، ثمّ أضاف: "عليّ الذهاب بعد قليل. ثمّة أمور أحتاج إلى الاهتمام بها خارج الهيكل. فقد واجهنا مشكلة في وقت سابق اليوم. لا شيء يدعو إلى القلق، ولكن عليّ الذهاب".

"هل يمكنني المساعدة؟".

"لا، لا. يمكنك المساعدة بإبقائك الفتاة هادئة. سيزداد قلقها ساعة بعد ساعة". تناول سكّيناً طويلة من بين الخرائط.

إنّه النصل الذي ستتم بواسطته الطقوس.

رفعه بيده اليمنى وشقّ راحة كفّه، فسال خيط قرمزي من الدماء على رسغه. "أعطني يدك".

مدّ غيديون يده فمرّر السيّد النصل على كفّه. نظر بيندراغون إلى عينَي ابنه اللتين لم يرفّ لهما جفن، ووضع كفه الدامي فوق كف ابنه قائلاً: "دم على دم. الأب والابن. أصبحنا واحداً". رفع يديهما المتشابكتين وشدّ غيديون إليه. "لن أراك بعد الآن قبل بداية المراسم". شدّ أكثر على يد ابنه قائلاً: "أقسم لي الآن، بينما يمتزج دمي مع دمك ودمُك مع دمي، أنّ روحَينا وحقيقتَينا متراصفة، وأنّني أستطيع أن أثق بك وبهذا الرابط الذي يجمع بيننا".

"أقسم، أبي".

راقب غيديون النقاط القرمزية وهي تقطر من مرفقه وعرف أنّها لن تكون آخر الدماء التي ستُراق اليوم.

152

أغلق جوش غوران هاتفه النقّال، مستغرباً ممّا قاله جيمي. هو ورئيسته غريبا الأطوار. فقد قالت المرأة إنّها ستبقى مع ابنتها، ويبدو أنّ

جيمي منهمك بملاحقة خيط آخر. لم يصدّق ذلك. رجال الشرطة هنا أسوأ من الأف بي آي. إنهم هواة مئة بالمئة.

أمر غوران رجاله بالتحرّك. فالوقت يمرّ، وفريق إيكو سبق أن تعطّل، بعد أن أُجبر على التوقّف عن مراقبة شاحنة البنّاء. ولكنّه ليس قلقاً. إن كان ثمّة ما يمكن أن يجده في ميدان التدريب، فسيجده بالتأكيد.

عادوا إلى إمبر في بداية العصر. كان الطريق خالياً، تماماً مثلما كان في ساعات الصباح المبكرة. ولكن، في أثناء مرورهم من أمام الإشارات التحذيرية، والمباني الخالية، والحدائق المخرَّبة، رأوا آثار عجلات على الوحول.

قال لوك الجالس على المقعد الأمامي: "إنها آثار دبّابات حديثة. حتّى إنّها لم تبتلّ بعد".

قال غوران: "إنّها آثار تشالنجير على الأرجح. حثالة. رأيتهم في كوسوفو. كان يجدر بالبريطانيين عدم ترك التشيفتين القديمة".

قال لوك: "أو روتم ك2، البلاك بانتر الكورية. لديهم تكنولوجيا متقدّمة وحماية ودروع نوويّة وبيولوجية وكيميائية".

صاح لينتون من الخلف: "ك2 مرادف عسكري لسيارة كيا. من يذهب إلى الحرب مستقلاً سيارة كيا؟".

ضحكوا جميعاً.

انحرف غوران بسيّارة الترانزيت عن الطريق وسلك طريقاً موحلا نحو الغرب، باتّجاه وارمينستر. قاد لمسافة ميل ونصف تقريباً، ثمّ ركن السيّارة جانباً وأخرج منها حقائب مليئة بالكاميرات، والدفاتر، والوثائق المزوّرة، وأكياس العيّنات. أتوا هذه المرّة تحت غطاء الجمعيّة الدوليّة لعلم الحشرات والتاريخ الطبيعي. إنهم صيّادو حشرات. فقد عمد لينتون

إلى تقليد وثائق الجمعيّة لدخول منطقة إمبر، حتّى إنّه ملأ حقائبه بأوراق بحث عن النحل، والحشرات، وجميع المخلوقات الغريبة.

أخرج لوك وجاي أربع درّاجات من نوع ياماها YZ125 من الشاحنة.

قال غوران عبر اللاسلكي: "فِرق إيكو، نوفمبر، سييرا، الاسكتلندية الأصيلة، معكم القيادة. لقد انطلقنا، أُكرّر، انطلقنا. انتهى".

بدأت الدرّاجات الأربع تتّجه نحو الخارج، بينما راحت فرق إيكو، ونوفمبر، وسييرا، والاسكتلندية الأصيلة تتقدّم إلى الداخل من محيط المنطقة.

153

كانت وارمينستر على بُعد 8.2 أميال غرب إمبر.

استغرقت الرحلة مع سيّد هانج خمساً وعشرين دقيقة. في أيّ يوم آخر غير يوم الأحد، كان ليجتاز المسافة بتسع عشرة دقيقة فقط. ولكنّ يوم الأحد هو يوم زيارة أماكن العبادة والسياحة، والبلدة السكسونية القديمة تحتوي على ثماني دُور عبادة كبرى، ومناظر لا يحبّ الناس اجتيازها بسرعة.

عبرت سيّارته البوّابة الرئيسية لثكنة باتلزبيري، وتوقّفت خلف باحة الاستعراض العسكري. في طريقه إلى مكتبه، راح كلّ جندي يمرّ من أمامه يقف ويلقي عليه التحيّة، فهو الكولونيل السير جايمس بيندراغون. الروتين والطقوس هامّة في حياته العامّة كما في حياته السرّية.

جلس خلف مكتبه، وأمر ضابط الأركان بإدخال الزائر الذي قام بهذه الرحلة من أجله. دخل نائب رئيس شرطة ويلتشر، غريغوري دوكيري مرتدياً ملابس عاديّة: بذلة صوفية رمادية مع قميص قطني أبيض

وربطة عنق رمادية. بالملابس الخاصّة بالطقوس، لا يُعرف سوى باسم غروس.

"كيف حالك؟". صافحه بيندراغون وأشار إلى مقعدَين جلديين بنّيي اللون من طراز تشيستيرفيلدس.

"سأكون مسروراً عندما يحلّ يوم غد".

"مثلنا جميعاً". ابتسم بيندراغون وهو يجلس وسأله: "كيف تتعامل مع جميع الأطراف، الأف بي آي، والإنتربول، ووزارة الداخلية؟ أخبرني".

"عاد نائب الرئيس لوك إلى الولايات المتحدة. اتّصل برئيس الشرطة خمس مرّات هذا اليوم. زوجته تتناول المهدّئات طيلة الوقت، ولم تعد تظهر على التلفاز وهي تبكي أو تتوسّل. ملّت وزارة الداخلية، ويبدو أنّهم استسلموا لفكرة التعامل مع النتائج عند ظهور جثّة الفتاة. أمّا بالنسبة إلى الإنتربول، حسناً، أنت تعرف أنّه عديم الفائدة. من المجدي أكثر أن تطلب من مكتب البريد العثور عليها".

"إذاً، كلّ شيء على ما يرام؟".

"ليس تماماً". ظهر التوتّر على وجه دوكيري وهو يتابع: "أظنّ أنّنا قد نواجه مشكلة مع الذئب الأميركي".

هزّ بيندراغون رأسه قائلاً: "الرائد جوشوا غوران، قائد العمليّات الخاصّة السابق. كنتُ أتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن يبدأ بإزعاجنا".

"بين رجال غوران اثنان من رجالي، يزوّدانه بالمعلومات التي نريدها. ولكن، علمتُ أنّ كلابه تحوم حول إمبر".

"هذا تفسير منطقي، فقد قال دراكو إنّه رأى أشخاصاً هناك هذا الصباح. لاحقوه هو وموسكا، ولكنّه توقّف عندما أدرك أنّهم خلفه".

"هل سبّبوا أيّ أذى؟".

"لا أظنّ ذلك". فكّر بيندراغون في الحادثة لبعض الوقت ثم قال: "معظم مواردنا منهمكة في التحضير من أجل الليلة وصباح الغد، ولكنّني سأُكثّف المراقبة على الهيكل. سأحرص على ألاّ يسبّب غوران المشاكل".

"جيّدٌ". عدّل دوكيري جلسته على المقعد الجلدي، ووضع يديه على ركبتيه قائلاً: "أواجه أيضاً بعض المصاعب في صفوف قوّات الشرطة، ولكنّني تمكّنتُ من تذليلها حسبما آمل".

"هل تعني زوجة أكيلا؟".

"أجل. تمّ إبعادها عن القضيّة. استغرب هانت بالطبع، ولكنّه اقتنع بالغاية من نقلها في النهاية. ستستلم وظيفة جديدة في سوينداون غداً، وقد دمّرنا جميع الأدلّة الفيزيائية والإلكترونية التي جمعَتها. كما طلبتُ من أكيلا زيارتها هذا الصباح، وقيل لي إنّ الزيارة تركت الأثر المطلوب".

"لنأمل ذلك. وابنك؟ ماذا عنه وعن المرأة؟".

أجفل دوكيري لكنه أجاب: "ما زال يسبّب لي القلق. يبدو أنّه يكنّ تقديراً كبيراً للمفتّشة".

"أكان ابنك أم لا، لا يمكن أن تسمح بأن يُسبّب المشاكل، غريغوري".

"أُدرك ذلك. وماذا عن ابنك؟".

"إنّه متأثّر. ولكن، لا أظنّ أنّه ثمّة ما يدعو للقلق. اجتاز طقوس التلقين بالطبع، وهو يدرك جيّداً أنّه يدين بحياته لقضيّتنا". قست ملامح بيندراغون وهو يقول: "إذاً ما سبب الزيارة؟ ماذا يدور في خلدك؟".

زحف دوكيري إلى طرف مقعده قائلاً: "لديّ اقتراح. ليس اقتراحاً

مألوفاً، ولكن أظنّ أنّك تستطيع الموافقة عليه. إن قبلتَ به، فأنا واثق أننا سنتمكّن من تنفيذ خططنا الليلة من دون أيّ خوف".

154

حلّقت مروحيّة الأباتشي فوق سهل ساليسبوري بسرعة تتجاوز مئة وخمسين ميلاً في الساعة. مالت عالياً تحت قبّة السماء الزرقاء، قبل أن تنعطف وتتابع طيرانها فوق منطقة إمبر. كانت الطائرة الحربية مزوّدة بمدفع من عيار أم 230، متزامن مع أجهزة التسديد لدى الطيّار والمدفعيّة. وصواريخها الموجّهة باللايزر والقادرة على تدمير الدبّابات، والأبنية، والغرف المحصّنة تحت الأرض هي الأكثر خطورة. كانت عبارة عن ترسانة طائرة.

ولكنّ هذه الرحلة لم تكن عدائيّة، فقد كانت رحلة مرتجلة. راح الطيّار تومي ميلنر ومساعده يطوفان في أجواء السهل للعثور على مجموعة من الدخلاء قيل إنّهم دخلوا منطقة محظورة. وقد رحّب بالمهمّة لكسر روتين ذلك اليوم الممل.

بعد بضع دقائق، اتّصل ميلنر لإعطاء النتائج.

"رأينا الأهداف. المجموع اثنا عشر هدفاً. انتشرت عند الساعة الثانية عشرة، والثالثة، والسادسة، والتاسعة. هل تريدون مواقعها بالضبط شفهيًّا أم ستراجعون معطياتنا على الشاشة؟ انتهى".

قال مراقب القاعدة الجويّة: "وصلتنا المعلومات. هل يمكنك وصف حركاتهم؟".

"تشارلي سيعطيكم التفاصيل. سأحوم في الجوّ لنتمكّن من تثبيت الكاميرات لكم".

تولّى مساعد الطيّار تشارلي غولدينغ تزويد القاعدة بالمعلومات

المفصّلة: "إنّهم عبارة عن مجموعتين منفصلتين. أربعة أشخاص على الدرّاجات النارية يتّجهون خارج المنطقة نحو طريق المشاة الدائري في إمبر، وثمانية آخرون منقسمون إلى مجموعتين، يسيرون على الأقدام، ويتّجهون إلى الداخل".

كبّر ميلنر صورة إحدى كاميرات المراقبة عالية الدقّة.

امتلأت الشاشة بصورة شخص يرتدي زيًّا أسود أشبه بأزياء الجنود. قال الطيّار: "لديّ صورة كاملة لأحد الدخلاء. كما ترى، إنّه يقود درّاجة غير عسكرية، ويتنقّل ببطء".

"شكراً، أباتشي واحد. الصورة لدينا. انتظروا المزيد من التعليمات. انتهى".

التفت المراقب إلى الكولونيل جايمس بيندراغون وسأله: "ماذا تريدنا أن نفعل، سيّدي؟".

نهض السيّد عن المقعد الذي جلس عليه قرب الشاشات قائلاً: "أرسلوا دوريّة برّية لإخلاء المنطقة. اسجنوا هؤلاء المغفّلين حتّى الصباح، ثمّ أطلقوا سراحهم".

155

أمضت ميغان معظم النهار في حالة صدمة. فقد أرعبتها زيارة آدم المفاجئة. عرفت تماماً ماذا كان يفعل فقد كان يحاول أن يُثبت لها أنّه قادر على إيجادها، والوصول إليها أو إلى سامي، أنّى شاء. حسناً، لقد نجح. فقد بقيت ترتعد خوفاً لمدّة طويلة بعد رحيله.

ظلّ آدم يشغل فكرها في أثناء رحلتها مع جيمي إلى ويست لافنغتون لمقابلة شخص يعرفه، شخص لم يبدُ أقلّ خوفاً منها.

قال جيمي: "إنّه مرتعب. لم يوافق على التكلّم معكِ إلاّ خارج

المنطقة بمسافة بعيدة، في مكان يشعر بأنّه آمن".

نظرت من النافذة إلى المساحات الخضراء وقالت: "حسناً، نحن بالتأكيد خارج المنطقة بمسافة بعيدة".

دخلا أرض مدرسة دونتسي، وهي مدرسة داخليّة يرجع بناؤها المكسوّ بالقرميد الأحمر إلى خمسمئة عام، وتقع في منطقة ريفيّة معزولة تمتدّ على مساحة مئة آكر في الطرف الشمالي لسهل ساليسبوري.

قال جيمي وهو يركن سيّارته في الموقف المخصّص للأهالي قرب ملاعب الرياضة: "اسمه لي جونز. عمل حارساً في ستونهنج مع شون غراب، الشابّ الذي عُثر عليه ميتاً في باث".

"ولماذا يظهر اليوم؟".

"وجدته هذا الصباح. كنتُ أبحث في جدول موظّفي الشركة وعثرتُ عليه أخيراً في المنزل".

بعد بضع دقائق، دخلت سيّارة هوندا قديمة وتوقّفت قربهما.

قال جيمي: "هذا هو الشابّ. من الأفضل أن تسمعي بقيّة القصّة منه". ترجّل جيمي من السيّارة.

راقبت ميغان الشابّ من حيث تجلس على مقعدها وراحت تقيّمه وهو يقترب. كان في أواسط العقد الثاني من عمره، وطويل القامة، ونحيلاً، ووجهه مكسوّ بالنمش، ولكنّه لا يمشي بفخر. إنّه يميل إلى الخضوع، وهو خجول، ولا يبدو عليه أنّه يكوّن الصداقات بسهولة. كان وحيداً على الأرجح، ويعيش بمفرده، ولا يأكل جيّداً، ولا يملك صديقة.

فتح جيمي باب السيّارة الخلفي لجونز، ثمّ عاد للجلوس أمام المقود وقام بتعريفهما إلى بعضهما: "لي، أقدّم لك رئيستي، المفتّشة بيكر. أخبرها بما قلته لي حرفيًّا".

نظر إليها لي وكأنّها على وشك أن تفترسه.

قالت: "هيّا، أنا لن أعضّك".

"ستظنّين أنّني مجنون".

"جرّبني".

"أنا أعمل - كنتُ أعمل - كثيراً مع شون غراب. كان رجلاً طيّباً. أخذني تحت جناحه عندما أتيتُ إلى هنا، ونظّم حياتي. عثر لي على وظيفة، وساعدني على استجماع أفكاري، وشجّعني على الابتعاد عن الطريق الذي كنتُ أسير فيه. لقد عرفتِ بموت شون، أليس كذلك؟".

هزّت رأسها بالإيجاب.

أخفض جونز رأسه وقال: "كان رجلاً طيّباً. كان صديقي".

حثّه جيمي قائلاً: "أخبر المفتّشة بما قلته لي عن الطائفة وستونهنج".

نظر إليها قائلاً: "ليست طائفة، بل إنها معتقد، معتقد حقيقي يرجع إلى ما قبل المسيح. كان شون ينتمي إليه، ويعتقد أنّ النصب مبجّل وأنّه مقرّ كائنات ممجّدة قديمة. لم يكن يكفّ عن الحديث عنه وعن قواه. قال لي إنّ الناس الذين ينتمون إلى هذا المعتقد أناس طيّبون، من أطباء، ومحامين، وما إلى ذلك، حتّى من رجال الشرطة". نظر إلى جيمي مضيفاً: "مع احترامي".

"تابع".

"حسناً، انضممتُ إليهم لأنّ شون كان صديقي وأردتُ ملازمته. أخذوني إلى مكان غريب وأقاموا تلك المراسم".

سألته ميغان: "أين؟".

هزّ رأسه: "لا أدري. غطّوا رأسي، ولم أستطع رؤية شيء. اقتادوني إلى مكان مجهول، ولكنّني أتذكّر المكان في الداخل. كان أشبه

بدار عبادة كبيرة وقديمة".

قال جيمي: "وارمينستر؟".

"ربّما، لا أدري. لم يسبق لي أن ذهبتُ إلى دور عبادة منذ طفولتي. على أيّ حال، لم أستطع رؤية المدخل والمخرج. قال شون إنّه لن يتمّ إطلاعي على مكان ذاك الاجتماع قبل مضيّ فترة من الزمن".

لم تشأ ميغان تركه يستطرد كثيراً فسألته: "لي، هل تعرف شيئاً عن كاتلين لوك، الأميركية التي اختُطفت في ستونهنج؟".

"فقط ما قيل في نشرات الأخبار".

"هل تظنّ أنّ هذه المجموعة تحتجزها في مقرّها السرّي؟".

بدا مصدوماً وهو يقول: "الأميركية؟! كلاّ، لا أظنّ أنّهم يفعلون شيئاً كهذا. هذا مستحيل".

بدا واضحا أنّه خائف. وما يهمّها هو معرفة السبب. "يقول جيمي إنّك تعرف شيئاً يُفترض به أن يحدث اليوم؟".

بدا عليه التردّد.

حدّق إليه الرقيب قائلاً: "أخبرها، لي".

"حسناً. اسمعي، قد لا يكون شيئاً ذا أهميّة. أعني، أنا لستُ متورّطاً إلى هذا الحدّ مع أولئك الأشخاص. أنا أعمل في حراسة النصب وحسب ورافقتُ شون إلى الاحتفال".

قالت ميغان بحدّة: "سبق أن سمعنا ذلك. ما الأمر لي؟".

أخذ نفساً عميقاً ثم قال: "ثمّة أمر كبير يجري عند النصب. فقد تمّ تكثيف المراقبة، وجُلب العشرات والعشرات من الحرّاس الإضافيين. لديّ معلومات بأنّ ذلك سيبدأ عند الساعة السادسة، وسيتمّ منع أيّ كان من الاقتراب من النصب لمسافة ميل".

"ألا تقام هناك مراسم واحتفالات دينية طيلة الوقت؟".

"هذا صحيح. ولكنّ الحراسة لا تُشدَّد عادة على هذا النوع من المناسبات. يكفي حارسان للتأكّد من أنّ الموجودين لا يعبثون بالمكان المبجّل. ولكنّ الأمر مختلف اليوم. فالمكان مغلق تماماً أمام العامّة، والحجز ممنوع منذ عصر هذا اليوم وحتّى صباح الغد". التفت إلى جيمي. "انظر إلى سجلاّتهم، وستجد أنّ السبب هو أعمال صيانة للأحجار، ولكنّ ما سيجري هناك الليلة لا علاقة له بالصيانة. على الأقلّ، ليس نوع الصيانة الذي يتوقّعه معظم الناس".

156

كان لوك فان دايل أوّل من صادف دوريّة الجيش البرّية. فقد رأى شاحنة الجنود المصفّحة وهي تتقدّم وتثير الغبار وتنفث الدخان أمامه. لم يكن ظهورهم مفاجأة له، فقد توقّع رؤيتهم قبل ذلك.

أوقف درّاجته ببطء وترجّل عنها. توقّف المحرّك بينما استدار وتكلّم بسرعة وبصوت منخفض عبر اللاسلكي. "لديّ زوّار، شاحنة تحمل أربعة جنود. صادفتهم للتوّ. سأُبقي هذه القناة مفتوحة قدر الإمكان. انتهى".

توقّفت الشاحنة الكبيرة مصدرة صوتاً عالياً ونزل منها عدّة جنود. حان الوقت لتجربة قصّة لينتون المزيّفة. نزع فان دايل حقيبة الظهر وأخرج منها الأوراق المزوّرة، وصاح بابتسامة ودودة: "مرحباً، أنتم أيضاً تعملون يوم الأحد يا شباب؟".

تكلّم أحد الجنود الذي بدا في آخر عقده الثاني. كان يرتدي زيّه الأخضر والبنّي. عرف من الشارة المثبّتة على ذراعه أنّه نقيب في يوركشاير، وهي أكبر فرق المشاة في الجيش البريطاني. "أنت تدخل منطقة محظورة، سيّدي. هذا ميدان مغلق. أريدك أن تترك درّاجتك

النارية وتأتي معنا".

حمل فان دايل ملفًّا بلاستيكيًّا مليئاً بالأوراق وقال: "أظنّ أنّك مخطئ. أنا أنتمي إلى الجمعيّة الدوليّة لعلم الحشرات والتاريخ الطبيعي. نملك أنا وزملائي إذناً من وحدة التدريب العسكري للقيام ببحث حول الحشرات كثيرة الأرجل ومتساوية الأرجل النادرة". لاحظ أنّ الجندي لم يفهم ما يتحدّث عنه فتابع: "أمّ أربع وأربعين، القمل، البقّ، أشياء كهذه".

أخذ النقيب الأوراق، ولكنّه لم ينظر إليها، بل قال: "آسف، سيّدي. لا يهمّ ما يوجد في هذه الأوراق أو ما تفعله، لديّ تعليمات بإبعادك من هنا".

عرف لوك أنّه من الأفضل عدم الجدال فقال: "حسناً، ليست هناك مشكلة". لوّح بيده مستسلماً. "يمكنني العودة إلى المنزل باكراً لرؤية زوجتي وأولادي". استرجع الأوراق ووضعها في الحقيبة ثمّ استعدّ للرجوع إلى درّاجته.

أعاق النقيب الشابّ طريقه قائلاً: "أخشى أنّك لا تستطيع ذلك. عليك المجيء إلى الشاحنة معنا، ومرافقتنا إلى الثكنة. سيهتمّ أحد رجالي بدرّاجتك".

"ما بالك يا رجل!؟". وأبعد فان دايل ذراع الضابط وتابع: "سأغادر منطقتكم، ألا يكفي هذا؟".

نادى النقيب رجاله: "ويلسبي، سيمونز، ريتشارد".

سرعان ما أحاط ثلاثة رجال بفان دايل وأبعدوه عن درّاجته. كان اثنان منهم أقرب إلى طفلَين. باستطاعته كسر عنقيهما بسهولة، ولكنّه لن يبدو عندها جامع حشرات بالفعل.

أطلقت ميغان وجيمي سراح جونز وعادا بالسيّارة إلى ستونهنج. كانت مشاعرها مختلطة إزاء ما سمعته للتوّ.

"كم تصدّقه يا جيمي؟".

قاد السيّارة بيَد واحدة وقال: "كان لي متشرّداً في الماضي، ومن الصعب على أولئك الأشخاص العيش من دون كذب. ماذا يدور في ذهنك؟".

"استخدم كلمة مبجّل. لم يقل أحجاراً، بل قال مبجّل. وتلك هي الكلمة التي استخدمها غيديون تشيس".

"إذاً، يبدو أنّه لم يختلق القصّة. ليس إن كان تشيس قد استخدم الكلمة نفسها".

كانت ميغان تقلّب الموضوع في رأسها: "لم يخبرنا كلّ شيء. ولكنّه متورّط أكثر ممّا يدّعي، أو أقلّ. في الحالتين، ثمّة ما يخفيه لسبب ما".

ضغط جيمي على دوّاسة السرعة مع خروجهما من شروتون ووصولهما إلى آخر الطريق المؤدي إلى أميسبيري. ظهرت إلى يمينها لافتة بنّية تشير إلى ستونهنج. "هل تريدين منّي دخول الموقف؟".

"كلاّ، ليس الآن. واصل القيادة حول المكان".

خفّف السرعة وتجاوزا النصب، ثمّ انعطف إلى يمين الطريق أ 344 وتجاوزه من الجهة الأخرى ليسلك الطريق أ 303. رأيا في الأراضي المحيطة بالنصب أكثر من خمس وعشرين حارساً يرتدون الزيّ الأسود وينظّمون أنفسهم في مجموعات.

قال جيمي: "حسناً، يبدو وكأنّه كان صادقاً في بعض ما قاله".

قالت ميغان: "اذهب إلى اليمين، عبر ذلك الطريق. اركن السيّارة،

ولنمشِ قليلاً".

بدأ جيمي المناورة، وعندما انعطف واجهته لافتة كُتب عليها طريق مغلق وثُبّتت بأكياس رملية وسط الطريق.

قال: "سأتوقّف بعد مسافة قصيرة وأستدير عائداً، وإلاّ سيكون علينا اجتياز كلّ الطريق إلى ونتربورن ستوك والعودة إلى شروتون".

بعد قليل، توقّف جيمي وبدأ ينعطف بالسيّارة. تأمّلت ميغان المنطقة الريفية المفتوحة قائلة: "يحيّرني أمر آخر قاله جونز".

"ما هو؟". أتمّ دورته واستقامت العجلات.

"ذكر أنّ أطبّاء ورجال شرطة ينتمون إلى هذا المعتقد. وعندما قال ذلك، نظر إليك وأضاف: مع احترامي. لماذا فعل ذلك؟".

عرف جيمي ما ترمي إليه فأجابها: "قلتُ له إنّني أعرف كلّ شيء عن الحركة، وإنّ والدي كان دائماً عضواً فيها ولكنّني لم أشأ الانتساب إليها. قلتُ إنّ والدي في الشرطة، وإنّه نائب الرئيس، ويستطيع التحقّق من ذلك بسهولة إن أراد. وهكذا دفعته إلى الكلام".

"أهذا صحيح جيمي؟ أصحيح أنّ أباك ينتمي إلى الأتباع؟ ألهذا السبب تمّ إبعادي إلى سويندون؟".

"قلتُ لجونز ذلك لكي أدفعه إلى التكلّم وحسب".

نظرت ميغان إلى عينَيه ورأت أنّه يخفي مشاعره: "أنتَ تظنّ أنّه عضو فيها، أليس كذلك؟".

نظر جيمي بعيداً. كان رأسه مليئاً بالشكوك. فوالده بطل بالنسبة إليه، وهو السبب الذي دفعه إلى الالتحاق بالشرطة. كان الرجل الوحيد في العالم الذي وقف دائماً إلى جانبه. وهو لا يستطيع أن يتقبّل فكرة تورّطه بشيء كهذا. لن يتقبّل ذلك، ليس بعد. ليس قبل أن يعثر على أدلّة دامغة.

أوشك جسد كاتلين أن يجفّ بسبب التقيّؤ. لم تستطع فعل شيء حيال ذلك. جلست على طرف سريرها، ثمّ سقطت على ركبتيها. كانت التشنّجات حادّة ومؤلمة.

نظر إليها غيديون وهو يشعر بالعجز. أحاطها بذراعه، ثمّ أعطاها الماء ورفع الفنجان الفخّاري إلى شفتيها. ولكنّه رأى أنّه لا يقدّم لها مساعدة حقيقيّة؛ فحالتها تتدهور بسرعة.

أسندت ظهرها إلى الجدار ووضعت يديها على بطنها قائلة: "أشعر وكأنّ معدتي مليئة بحمض بطّاريات".

"هذا بالضبط ما يحدث. إنّه حمض المعدة الذي تُفرزه بطانة الأمعاء. هل تذكرين متى تمّ خطفك؟ ومتى أكلتِ شيئاً للمرة الأخيرة؟".

"لا أدري، لقد فقدتُ تماماً كلّ إحساس بالزمن، وبالليل والنهار". فكّرت، وحاولت أن تتذكّر الأيّام الأخيرة. "مهلاً، كان ذلك يوم السبت، في ساعات الصباح الأولى. اليوم السابق للانقلاب الشمسي، في التاسع عشر من الشهر".

"اليوم هو السابع والعشرون. الأحد، السابع والعشرون".

"آه، ربّاه".

"فعلوا ذلك لتنظيف جسدك. فالطقوس تفرض مرور سبعة أيّام على الأقلّ من دون أن تتناولي أيّ طعام".

كانت عيناه على القضبان الحديدية والمراقبَين الواقفَين في الخارج. "كاتلين، سيأتون من أجلك قريباً. وعندما يفعلون ذلك، سيُباشرون بالطقوس، وجزء منها يشتمل على اصطحابك إلى الخارج. سأكون معك، وستكون المراقبة مشدّدة؛ أكثر ممّا هي الآن. ولكن تلك فرصتنا الوحيدة".

ارتفعت معنويّاتها قليلاً وسألته: "فرصتنا؟ أيّ فرصة؟ ماذا ستفعل؟".

نظر إلى عينيها وأجاب: "كلّ ما في وسعي".

159

فوق الغيوم، كان الطيّار في طائرة الأباتشي أوّل من أدرك ما يجري. فراكبو الدرّاجات الثلاثة يلوذون بالفرار. تطاير الغبار حولهم وأسرعت الدرّاجات فجأة عبر الحقل باتّجاهات متعاكسة.

"الدخلاء يتفرّقون. هل وصلكم ذلك؟". كبّر ميلنر صورة الكاميرا لإظهار أكبر مساحة ممكنة من الأرض في الأسفل.

"عُلِم. الدوريّات البرّية جاهزة".

لمح ميلنر الشاحنة الكبيرة فوق الحقل، وسيارتي لاند روفر أصغر حجماً تسيران غرباً.

قال غولدينغ للطيّار: "لا نرى راكبي درّجات هنا غالباً، لا سيّما أشخاصاً يتصرّفون كأولئك الشبّان".

"لا بأس، من الجيّد أنّنا قمنا بجولة في هذه الطائرة العجوز بدلاً من الجلوس بشكل متواصل".

كان غولدينغ مسترخياً شأنه شأن الطيّار وقال: "برأيي، لا جدوى من امتلاك معدّات كبيرة ما لم تستخدمها".

ضحكا وهما يشاهدان على الشاشة شاحنات الجيش وهي تلاحق الدرّاجات النارية الفارّة.

قال غولدينغ: "ماذا يفعل أولئك الدخلاء هنا؟".

أجاب ميلنر: "ربّما كانوا من خارج المنطقة. ففي بعض الأحيان يأتي جنود من المارينز للتدرّب هنا قبل الذهاب إلى الشرق الأوسط".

سلك أحد راكبي الدرّاجات منعطفاً قاسياً، ثمّ عاد باتّجاه مختلف تماماً.

أشار ميلنر إلى الشاشة قائلاً: "سوف يُضيعون أولئك الشبان، انظر إلى ما يفعلونه. لقد انتشروا على مساحة واسعة جداً، وبسرعة كبيرة. لن تتمكّن الدوريّات من اللحاق بهم".

"سيتمّ القبض على أحدهم الليلة". ضغط غولدينغ على جهاز اللاسلكي قائلاً: "رصدنا دخيلاً متوجّهاً جنوباً نحو غطاء من الأشجار قرب هيتيسبيري. هل تريدنا أن نغيّر موقعنا أم نلازم مكاننا لمراقبة الآخرين؟".

"لازما مكانكما، أباتشي واحد".

بعد خمس دقائق، انتهى كلّ شيء. فقد نجحت الدرّاجات النارية في مناوراتها، واختفت، ولم يتمّ القبض سوى على أربعة من الدخلاء الذين كانوا يسيرون على الأقدام. طافت طائرة الأباتشي واحد في أجواء الميدان ثمّ عادت إلى القاعدة.

160

ستونهنج مغلق.

كما تبيّن لميغان وجيمي، وُضعت لافتات مشابهة على جميع مداخل الموقع التاريخي. كما أُغلق موقف السيّارات العامّ وجميع الطرقات غير العامّة.

مشى الشرطيّان على الحافّة العشبية الضيّقة لطريق أ 344، وعبرا المساحة القبيحة المكسوّة بالإسفلت والمسوّرة والتي يتمّ ركن السيّارات فيها عادة. عبرا الطريق ونظرا من خلال سور آخر باتّجاه

الجزء الأكثر اكتمالاً من النصب.

"ما الذي يجري، جيمي؟". حدّقت إلى عشرات موظّفي الأمن الواقفين، والذين يرتدون زيّهم الرسمي. كانوا جميعاً عند النصب.

"ليست لديّ فكرة على الإطلاق".

وقفا يراقبان. بدأت مجموعة من الحرّاس بتثبيت ألواح بلاستيكية سوداء كبيرة على السور الشبكي لمنع المارّة على الطريق السريع المجاور من رؤية أيّ شيء. توجّهت ميغان إلى أقرب فريق قائلة: "مرحباً، ماذا تفعلون أيّها الشباب؟". تجاهلوها وواصلوا عملهم.

صاح جيمي: "ماذا تفعلون؟".

"نهتمّ بشؤوننا". أتى الجواب من رجل أكبر سنًّا، غير حليق، يرتدي قميصاً قطنيًّا أسود وسروالاً واسعاً.

أخرجت ميغان بطاقة الشرطة ووضعتها أمام الأسلاك قائلة: "أنا مفتشة في الشرطة، وجعلتُ هذا الأمر من شأني أنا أيضاً".

نهض الرجل الذي كان راكعاً على ركبتيه وتوجّه نحوها وهو يحمل سكّيناً صغيرة بيده. قال للآخرين: "تابعوا عملكم". رسم ابتسامة أمام الأسلاك، قرب بطاقتها تماماً وقال لها: "إنّها حفلة خاصّة، فقد حجزت المكان إحدى الشخصيّات الهامّة هذه الليلة. أخبريني الآن بماذا يعنيكِ ذلك؟".

تجاهلت ميغان النبرة العدائيّة. لا بدّ من أنّه شرطيّ سابق تولّى وظيفة أمن ويريد أن يظهر أمام رجاله أكثر أهميّة ممّا هو عليه. "وماذا عن الألواح البلاستيكية؟". أشارت إلى النهر الأسود الذي يلتفّ حول الحقل. "ما الهدف من وجودها؟".

نظر إليها وكأنّها حمقاء وأجاب: "إنّها للحصول على الخصوصيّة. أرض خاصّة، حفلة خاصّة، أفهمتِ؟ عندما تدفعين مالاً طائلاً من أجل

متعتك الشخصيّة، فلن ترغبي في اقتراب المتطفّلين لإزعاجك طيلة الليل. هل فهمتِ ما أعنيه؟ والآن، إن أردتِ معرفة المزيد، يمكنك الاتّصال بمكتبي. ربّما يخبرونكِ عمّن قام بالحجز، وربّما لا. والآن، المعذرة، أنا مشغول".

استدار وذهب.

قالت في سرّها: يا له من نذل!

قال جيمي: "لديّ رقم شركة التأمين، سأتّصل بها من السيّارة".

طرقت ميغان بيدها على الأسلاك وهي تبتعد وقالت له: "يبدو أنّ مخبرك كان صادقاً. إنّهم يُعدّون لشيء كبير هذه الليلة؛ شيء يريدون على ما يبدو أن يبقى طيّ الكتمان".

161

فُتح باب الزنزانة مُصدراً صريراً، وتراقصت شعلة النار على الجدار بفعل الهواء الذي تسرّب منه.

"فينيكس". أخذه موسكا بعيداً عن القربان.

ترك غيديون كاتلين على سريرها، ممدّدة على جنبها، وعيناها مركّزتان على الرجل ذي العباءة والقلنسوة الذي ملأ إطار الباب.

كان موسكا يضع زوجاً من القفازات القطنية البيضاء، ويحمل بيده زوجاً آخر منها. "ضع هذه".

"لماذا؟".

نظر إليه الجزّار وكأنّه غبي وأجابه: "لإخفاء البصمات. لا نريد ترك بصمات على ما سأُعطيك إيّاه". انحنى نحوه مضيفاً: "سنأتي من أجلها بعد ساعة، عليك إخبارها لكي تكون هذه الدقائق الأخيرة لها وتستعدّ لموتها".

كان ذلك أكثر من مجرّد طقوس بالنسبة إلى موسكا، بدا ذلك واضحاً لغيديون. إنّه ساديّ، ويحبّ مشاهدة شخص يتعذّب. إنّه يستمتع بذلك.

خرج الجزّار من الزنزانة، وأحضر ورقة A4 بيضاء وقلماً رخيصاً من أحد المراقبين وقال له: "أعطها هذه، وقل لها إنّها تستطيع كتابة رسالة أخيرة إلى من تشاء. أكّد لها أنّ الرسالة ستصل".

"وهل ستصل؟".

"شرط ألاّ تكتب شيئاً غبيًّا، كأن تصف أحدنا أو المكان الموجودة فيه. في هذه الحالة، ستصل حتماً".

"فهمت، هل من شيء آخر؟".

"كلاّ. لديها ستّون دقيقة. هذا كلّ ما لديها. لن تُعطى دقيقة واحدة إضافيّة. احرص على أن تكون مستعدّة".

أُغلق باب الزنزانة.

جلست كاتلين بقلق، وراقبته وهو يعود.

أعطاها القلم والورقة وقال لها: "أرسلوا إليك هذه لتكتبي رسالة".

"لوالديّ؟".

لاحظ أنّها كوّنت فكرة خاطئة فقال: "ليس من أجل الفدية. قلتُ لك إنهم لن يطلبوا أيّ فدية. هؤلاء الناس لا ينوون إطلاق سراحك". جلس قربها وحاول مساعدتها على تقبّل الفكرة. "إنّهم يستعدّون لبدء الطقوس. لديك ساعة واحدة، هذا كلّ شيء. بعدها، سيبدأون".

162

كتبت كاتلين رسالتين. واحدة لأمّها، والأخرى لأبيها. تمنّت لو أنّها تستطيع كتابة واحدة فقط، ولكنّ هذا غير ممكن. كانت مضطرّة إلى

كتابة رسالتين. فطلاق والدَيها يُفسد موتها بقدر ما أفسد حياتها.

لم يكن إيجاد الكلمات سهلاً عليها. في البداية، لم تكتب شيئاً على الإطلاق. فهي لم تكن يوماً ماهرة في الكتابة. وفي الواقع، لا شيء يُعدّك لكتابة هذا النوع من الرسائل التي ينبغي أن تكون محصورة بالعجزة أو أصحاب الأمراض الخطرة.

في النهاية، كتبت ما تفكّر فيه.

شكراً لك لإنجابك إيّاي، وإحضاري إلى هذا العالم، وإعطائي جمالك وحبّك للمرح. ماما، أنا آسفة لأنّنا تشاجرنا كثيراً حول أبي وفرانسوا. أحبّي من تريدين، أحبّي كليهما إنّ سمحا لك! أتمنّى لو كانت لدينا الفرصة لنقبّل بعضنا ونعوّض عمّا فاتنا.

كوني سعيدة، ماما.

مع حبّي، كاتلين، قبلاتي.

كانت رسالتها إلى أبيها مختلفة على نحو مؤثّر.

أنا آسفة، بابا. أعرف أنّه كان يجدر بي طاعتك. أرجوك، لا تلقِ اللوم على إريك. فقد خدعتُه، هذا ما حدث. أحبّك يا أبي وسأفتقد إليك. سأنتظرك مع القهوة والفطائر، والكابوتشينو الكثيف كذاك الذي احتسيناه معاً في إيطاليا، وشراب الميسيسيبي كذاك الذي شربناه في هارد روك في لندن. قبلات حارّة من ابنتك الصغيرة، سأحبّك دائماً بابا.

لم ينظر غيديون إلى الرسالتين عندما أنهت كتابتهما، بل أخذهما منها وطواهما ثلاث مرّات وسألها: "هل أنت بخير؟".

"ليس فعلاً".

بدت منهكة، وكأنّ الحياة قد غادرت جسدها منذ الآن.

صبّت لنفسها بعض الماء.

"تبًّا!". رمت الوعاء على الأرض وبدأت تنتحب قائلة: "لا أريد أن أموت. آه، أرجوك يا الله، لا تدعهم يفعلون ذلك بي!".

163

حوّله رقم شركة الأمن مباشرة إلى المجيب الآلي. رسالة مسجَّلة. لن يتواجد أحد هناك حتّى نهار الغد.

سألت ميغان: "هل لديك رقم منزل المالك؟".

"أجل، جون دوران-سميث. لديّ رقم هاتف نقّال". بحث جيمي في دليل هاتفه ثمّ طلب الرقم.

لم يجبه أحد.

ترك جيمي رسالة، وجعل الأمر يبدو خطراً، مسألة رسميّة خاصّة بالشرطة، وطلب من الرجل الاتّصال به على نحو عاجل.

ثمّة أمر ما يحدث، أدركت ميغان ذلك الآن. عادت أفكارها إلى لي جونز. ما الذي أخفاه عنهما؟ ثمّة ثلاثة أسباب تدفع شخصاً مثله إلى مساعدة الشرطة. إمّا أنه خائف من الذهاب إلى السجن، أو يحتاج إلى المال لشراء المخدّرات على الأرجح، أو أنّه متورّط في شيء ما ولا يعرف بكلّ بساطة كيف يخلّص نفسه منه.

التفتت إلى جيمي وسألته: "هل طلب منك جونز مالاً؟".

"لم يطلب قرشاً واحداً".

"تحدّث إليك فقط لأنّ صديقه غراب قد اختفى؟".

"أجل".

"كم نحن غبيّان". احمرّ وجهها غضباً. "لا بدّ من أنّه كان مع غراب عندما قُتل تمبرلاند واختُطفت لوك".

اتّصل جيمي فوراً بهاتف لي جونز. ما كان يجدر بهما تركه يذهب، أدركت ذلك الآن. كان ذهنها لا يزال مشغولاً بسامي في ذلك الوقت.

"إنّه لا يجيب". وحمل جيمي الهاتف أمامها لتأكيد ذلك.

"هل تعرف عنوان بيته؟".

شغّل الرقيب محرّك السيّارة على الفور.

"ادعُ أن يكون هناك، جيمي".

164

لم تكن زيارة السيّد للنصب متوقّعة.

أسرع الأعضاء الموثوق بهم في الدائرة الداخلية بتثبيت الألواح السوداء، وأُخليَ الموقع تماماً. لم يعبر السيّد الممرّ الواقع تحت الطريق لدخول الموقع المبجّل إلاّ عندما أصبح المراقبون المتمرّسون خارج الستارة السوداء.

كانت نهاية النهار غائمة، والشمس تغيب بكآبة في الأفق. الوقت جوهري. مشى في طرف الحقل. كالعادة، سيدخل الأذرع المتشابكة لأحجار السارسين الضخمة الممتدة على خطّ شمسي من حجر العقبيّة إلى حجر المذبح. توقّف عند محور حدوة الحصان المؤلفة من خمسة تريليتونات عظمى وركع.

"أيّها المبجّلون في هذا الكون، أتوسّل إليكم، طالباً هدايتكم وحكمتكم. أفعل ذلك بضعفي وإخلاصي. كرّستُ نفسي لطقوس التجديد، وحرصتُ على إتمام جميع الاستعدادات لتكريمكم. تلك التي

اخترتموها جاهزة. ليست سوى تسديد متواضع للديون الهائلة التي ندين لكم بها".

نظر إلى الأعلى، ورأى ضوء الشمس يبهت أكثر مُنذراً باقتراب الموعد. من المحتمل أن تهبّ عاصفة غير متوقّعة؛ قوّة من الطبيعة يرسلها المبجّلون.

"أيّها المبجّلون، أعداؤنا يحتشدون ضدّنا. يطوّقوننا مثل الغيوم التي تحيط بالشمس والقمر. أعرف أنّها تجربة، واختبار لنا ولتصميمنا كأتباع، ولكنّني لا أستطيع مواجهتهم من دون إرشادكم، ومن دون موافقتكم".

شعر بذراعيه تزدادان ثقلاً، فأخفضهما إلى جانبَيه وكأنّه متعب من حمل ثقيل. لم تعد ثمّة حاجة إلى الكلام بعد الآن، فالمبجّلون يعرفون كلّ شيء.

أصبحوا في ذهنه، وفي شكوكه. تسابقوا عبر كلّ ذرّة من وجوده. عندما انتهوا، تركوه راكعاً، وهو يلهث لتنشّق الهواء. ولكنّ السيّد حصل على الإجابة.

عرف ما عليه فعله.

165

لم تكمل كيلي لوك المكالمة مع زوجها.

ما زال النذل يرفض الموافقة على دفع المال. حسناً، تعرف أنّه لا يستطيع فعل ذلك علناً. فنوّاب الرؤساء لا يفاوضون الإرهابيين، إنها تفهم ذلك. ولكنّه يستطيع أن يحلّ كيسه ويدفع سرًّا. يمكنها القول للشرطة والصحافة إنّها جمعت المبلغ الإضافي بنفسها.

ولكنّه لم يوافق على فعل ذلك حتّى، إنّه لا يستطيع المساومة على

مبادئه السامية. آه، كلاّ، هذا سيُثير الشكوك حول نزاهته. ولكن ما يعنيه هو أنّه سيكلّفه أصواتاً. ولن يسمح توم لوك الرجل الحديدي أن يراه أحد وهو يتفاوض مع الأشرار، ليس حتّى من أجل أسرته، وحتماً ليس مع اقتراب موعد الانتخابات.

راحت تذرع أرض جناحها في دورشيستر، والغضب يتصاعد في داخلها. لم تستطع حتّى بحث الأمر مع تشارلين. فقد أصيبت المساعدة الصحفية بالتسمم؛ في هذا اليوم من بين كلّ الأيّام. نظرت كيلي إلى الشراب. كم تحتاج إليه، ولكنّها لم تشرب، بل تناولت الشوكولاته عوضاً عنه. جلست على السرير وهي تأكل الشوكولاته، وتشاهد التلفاز، وتصغي إلى المذياع في الوقت نفسه. شعرت بالحاجة إلى بعض الفاليوم أو الأمفيتامين. تناولت جهاز التحكّم عن بُعد، ونقلت المحطّة إلى سكاي نيوز. راحت تدعو من أجل سماع أنباء جديدة عن طفلتها.

شغّلت كيلي الآي باد، وراحت تبحث على الإنترنت عن معلومات عن ابنتها. لا يجدر بها ذلك، فالنميمة على الشبكة قاسية، ومُرّة. وجدت منذ الآن شاهداً افتراضيًّا كُتبت عليه رسائل من معجبيها، ومعظمهم من الشباب.

ولكن، عليها قراءتها كلّها. عليها أن تبحث في كلّ ما يخصّ كاتلين، لأنّها في أعماقها، تشعر بشيء لا تستطيع تفسيره.

كان حدساً، حدس الأمّ. شعرت بأعصابها تتوتّر. ثمّة مكروه يحدث لطفلتها. عرفت ذلك وحسب.

166

سمعت كاتلين الصوت الذي كانت تخشاه؛ صوت احتكاك الحديد بالحديد.

استدار مفتاح مهترئ في القفل القديم، وفُتح باب الزنزانة. ها قد أتوا من أجلها. الطقوس على وشك أن تبدأ، ستموت قريباً.

أحاطها غيديون بذراعيه، وهمس قائلاً: "استعدّي. مهما فعلتُ، ومتى فعلتُ ذلك، استعدّي للدفاع عن حياتك".

شعر بقلبها ينبض قرب قلبه. كانت ترتجف من رأسها وحتّى أخمص قدميها.

قال صوت نافد الصبر عند الباب: "حان الوقت".

تشبّثت كاتلين بغيديون.

"كوني شجاعة، كوني قويّة". أبعدها عنه وأمسك بيدها. "سأكون معكِ". أخذت نفساً عميقاً، وبذلت جهدها لكي لا تفقد عقلها. لا تنهاري الآن، سيكون هذا أسوأ شيء يحدث. لن ينتهي القتال حتّى تفقدي كلّ أمل.

استمدّت الشجاعة من مكان ما في أعماقها، فحرّرت يدها من يد غيديون، واقتربت من الرجلَين اللذين كانا ينتظرانها عند باب الزنزانة.

أشار دراكو إلى الرسالتين الموجودتين على سرير الفتاة، ففهم غيديون وذهب لإحضارهما.

مشوا في رواق الموت، وتمايلت نيران المشاعل المثبّتة على الجدران، حتّى وصلوا إلى مكان الاغتسال. أُبعدت كاتلين عن غيديون، ثمّ جُرّدت من ملابسها وأُنزلت إلى الخندق الحجري العميق. انصبّت عليها مياه معدنية باردة ونظيفة من أنابيب ممدّدة في السقف الصخري. ارتجفت وراحت تجاهد للتنفّس.

استدار غيديون بينما أخرجها المنظّفون من الماء، وجفّفوها، وألبسوها الرداء القرباني الطويل. اقترب منه أحد المراقبين وتكلّم بصوت منخفض: "تعال معي فينيكس. عليك أن تكون معها في القاعة

الكبرى. فقد أُضيئت الدوائر وهم بانتظارها هناك".

لم يشأ غيديون الابتعاد عنها. شعر بيَد تشدّه من مرفقه ونظر إلى كاتلين خلفه وهم يمشون. كان يريد رؤية وجهها وإقامة اتّصال بشري معها، غير أنّه لم يستطع ذلك، فقد كانا محاطَين بالكثير من الناس.

في القاعة الكبرى، نظر حوله بعجز، وشمّ رائحة الشموع المحترقة. نظر إلى الأعلى، ورأى أنّ الأنفاق العمودية مفتوحة. كانت السماء رمادية والشفق يقترب.

الوقت ينفد.

وقعت عيناه على حجر المذبح الذي ستُقَيَّد عليه كاتلين، وستوسم بعلامات أحجار التريليتون على ساقيها وذراعيها وعمودها الفقري. سمع ضجّة في الخارج؛ وقع أقدام. إنّهم يحضرونها، والطقوس على وشك أن تبدأ.

ظهر دراكو برأسه المقلنس عند الباب. كانت عيناه الداكنتان مثبّتَين على غيديون وقال له: "تعال معي فوراً! علينا إخلاء القاعة الكبرى. لقد تغيّرت الخطّة".

167

"أما من طريق آخر جيمي؟".

هزّ الرقيب رأسه نافياً وأجاب: "بولفورد مرعبة. فنصف الجيش هنا".

أخيراً، تجاوزا موكب الجيش الذي يسير ببطء، وضاعف جيمي سرعة السيّارة على طريق مارلبورو، ثمّ انعطف يميناً في طريق هوبيرت هاملتون، ومن ثمّ يساراً إلى طريق هارينغتون. أخيراً، وصلا إلى المنطقة التي يقطن فيها لي جونز.

أوقفا السيّارة، ثمّ ترجّلا، وأخذا يركضان عبر حديقة عامّة. صعدا درجات إسمنتيّة حتّى وصلا إلى شقّة متهالكة. ضغطت ميغان على الجرس طويلاً، بينما مشى جيمي على شرفة صغيرة ليطرق على نافذة غرفة الجلوس.

لم يُجب أحد.

قرفصت ميغان ونادت لي عبر فتحة البريد: "لي، أنا المفتّشة بيكر ومعي الرقيب دوكيري. نودّ التحدّث إليك في أمر ضروري".

لا جواب.

"اخلع الباب".

تردّد جيمي.

"اخلع الباب، جيمي، وإلاّ فعلتُ ذلك أنا".

تراجع، ثمّ ركل الباب تحت القبضة. ارتدّت قدمه عن القفل، ولكنّه لم يُفتح. تراجع مجدّداً، ووجّه إليه ركلة أقوى بعقب قدمه. هذه المرّة فُتح الباب على مصراعيه، فدخلا المنزل.

عبر جيمي غرفة الجلوس إلى المطبخ الصغير، بينما دخلت ميغان غرفة النوم، ومن ثمّ الحمّام. ولكن، لا أحد في المنزل. عادت إلى غرفة النوم، وفتحت الخزانة والأدراج. كانت مليئة بالملابس. عادت إلى الحمّام، ووجدت فرشاة أسنان. لا دليل على هروب عاجل.

تجوّلا في الخارج وهما يفكّران في الخطوة التالية. على بُعد أربعين متراً في الشارع، رأت ميغان رجلاً نحيلاً يحمل جريدة بإحدى يديه وشطيرة باليَد الأخرى.

ها هو.

رآهما جونز على السلّم، ففرّ هارباً.

كان سريعاً أيضاً، أسرع ممّا توقّعت ميغان من شابّ مثله. دخل

الحقول خلف طريق هارينغتون، فاندفعت خلفه، بينما ذهب جيمي إلى السيّارة آملاً أن يسبقه وهو يخرج إلى طريق مارلبورو.

أوشكت ميغان أن تمسك به.

نظر جونز خلفه ورآها تقترب. لاحظ أيضاً أنّ جيمي ليس معها، ولم يكن بحاجة إلى الكثير من التفكير ليُدرك أنّه يتبعهما بالسيّارة.

ابتعد جونز عن طريق مارلبورو. لن يهرب إلى الحقول المفتوحة؛ فهو ليس بهذا الغباء. عوضاً عن ذلك، توجّه شمالاً نحو أيكة كثيفة. إن كان محظوظاً، فسيضيع منها هناك.

ولكنّه لم يستطع الوصول إليها.

استمدّت ميغان دفعة إضافيّة من الطاقة في الوقت الذي نفدت فيه طاقته. فانقضّت عليه على بُعد أمتار من طرف الأيكة.

كانا يلهثان، ولكنّ مفتّشة المباحث كانت أقوى منه وأكثر لياقة. لذا، أمسكت برسغه، ولوت ذراعه إلى الخلف بقوّة.

راح يركل قليلاً، لكنّ رئتَيه كانتا تؤلمانه.

"لا تفكّر في ذلك، لي".

168

قام ستّة أتباع، يقودهم دراكو وموسكا، بإعادة كاتلين وغيديون بسرعة إلى زنزانتهما.

عجلة الرجال أرعبتها، وانتقلت عصبيّتهم إليها.

سأل غيديون دراكو: "ماذا يجري؟".

"انتظر لحظة".

دفع المراقبون القربان إلى الداخل، وشدّه دراكو بعيداً عن القضبان وقال له: "غيّر السيّد خطط الطقوس. ذهب إلى النصب وجعل نفسه

وعاءً للمبجّلين، فأصبحت الكائنات الممجّدة داخله. إنّه الآن في القاعة الكبرى، ليتيح لهم اتخاذ أماكنهم في الهيكل".

"هل سيغيّر مكان الطقوس؟".

"هذا صحيح. يظنّ أنّ تأديتها هنا أكثر أمناً من تأديتها في العراء".

"وهل يتوافق ذلك مع التقاليد؟".

"أجل، فالنصب الموجود في القاعة الكبرى مأخوذ من الحجر نفسه الذي بُنيَ منه النصب العلني، حتّى إنّه أكثر تبجيلاً في الكثير من النواحي".

أدرك غيديون نتائج هذا التبديل؛ فهم لن يصطحبوها إلى الخارج، ولن تتوفّر لديه الفرصة لمساعدتها على الفرار. نظر عبر قضبان الزنزانة وفكّر: ستموت على بُعد خطوات من هنا.

"أريد رؤية والدي، يجب أن أتكلّم معه". حاول المرور من أمامه.

اعترض دراكو طريقه قائلاً: "هذا غير ممكن".

"الأمر ضروري".

"قلت هذا غير ممكن". ضاقت عيناه وأضاف: "ترك السيّد تعليمات واضحة بعدم إزعاجه. حان موعد الشفق، وقد بدأت الطقوس".

أُعيد غيديون إلى الزنزانة وأُقفل الباب. جلست كاتلين على سريرها، وشعرها لا يزال رطباً، وشدّت ثوب المراسم حولها بارتباك. كان مشقوقاً من الخلف للسماح باستخدام السكّين الحجريّة على بشرتها المكشوفة.

فكّ غيديون الحبل المحيط بخصره وقال لها: "استعملي هذا، يمكنكِ ربط الثوب به".

أخذته وابتلعت غصّة، وقالت: "هذا غباء، أليس كذلك؟ أنا على

وشك أن أُقتل، ومع ذلك أفكّر في حشمتي".

فهم حاجتها إلى الاحتفاظ بشيء من احترام الذات والكرامة فأجابها: "هذا ليس غباءً بل إنّه أمر طبيعي".

نظرت كاتلين إلى الباب. كانت خائفة جداً بحيث شعرت بأنها عاجزة عن الكلام، ولكنها سألته: "ماذا يجري هناك؟".

"سيُجرون الطقوس هنا، وليس عند النصب". تمنّى لو أنّ لديه أنباء أفضل يزفّها إليها.

أثقل الحزن وجهها، وبدت ضائعة تماماً وقالت له: "هل يمكنك احتضاني للحظة؟ أشعر وكأنّني سأنهار".

اقترب غيديون منها، فأحاطت خصره بذراعيها وأسندت رأسها على كتفه. كان شعوراً جميلاً أن تتلقّى المواساة من شخص لا يريد إيذاءها.

طرق أحد المراقبين على باب الزنزانة: "أنتما! هذا غير مسموح، ابتعد عنها".

ألقى غيديون على الرجل نظرة سأم. هل يظنّ هذا الغبي أنّه يفكّر في التحرّش بها؟ كم هو غبي! كان يعرف مثلهم أنّ القربان المدنّس لا يُجدي نفعاً.

لا يُجدي نفعاً.

كيف فاته ذلك؟

لا يزال بإمكانه إنقاذ حياتها.

169

وقف سيّد هانج مرتدياً عباءة القنّب التقليدية ذات القلنسوة، المصبوغة باللون الأحمر بواسطة مزيج قديم من الشمندر، ونبات الفوّة،

والكرز. بدا من تحت قلنسوته هلال من شعره الأشيب.

تمركز المبجّلـون في أماكنهم. وُضعت مصابيـح خاصّة، هي عبارة عن أنابيب مـن الزجاج الملـوّن مملوءة بشـموع جديـدة، وأُضيئت على مسافات متساوية حول النصب.

رأى لون السماء عبر الأنفاق العمودية.

لم تعد تفصلهم عن الشفق سوى طرفة عين.

كان السيّد على شـفير الإنهاك. فالإجهاد الناجم عن نقل المبجّلين إلى الهيكل قد استنفد قواه، ولكنّه لن يفشل.

رفع مرشّـة حجريـة قديمة مليئة بماء غُسـل بـه المبجّلـون، وصنع خطًّا من حجـر المذبح داخل محور حـدوة الحصان، ومنهـا عبر أقواس السارسين الشرقية، وعبر حجر المذبح إلى حجر العقبيّة.

أخرج من جيب ردائه السـكّين الحجرية القديمة وحدّق إلى اللوح الذي سيُشـقّ عليه القربان. خمسـة شـقوق، واحـد لكلّ تريليتـون عظيم يسـكن فيه كبار المبجّلين، وكائنات ممجّدة للشـمس، والقمر، والنجوم، والأرض.

سـتُترك خمس سـاعات، سـاعة لكلّ كائن ممجّد. بعد ذلك، سيتمّ فكّ قيودها وغسلها مجدّداً بالمياه المباركة، قبل أن تُقدّم.

امتدّت يد السيّد إلى جيبه العميق الآخر. تحسّس وجودها، مطارق التضحية. حوّل انتباهه إلى الحمّالَيـن اللذين يراقبان وينتظران عند الجهة الأخرى من باب القاعة الكبرى. كانا يمسكان حمّالة خشنة مصنوعة من خشب الصنوبر، وجاهزَين لنقل القربان في رحلته الأخيرة.

كان مستعدًّا.

هزّ رأسه، فانطلق الحمّالان على الفور.

"ممَّ تهرب يا لي؟". لوت ميغـان ذراعه أكثر وراء ظهره وهي تقف قائلة: "لا وقت لديّ لأضيعه، ولا وقت لديك أنت كذلك".

"حسناً، حسناً، سأخبركِ".

رأت جيمي وهو يعبر الحقل، فتركت جونز. جاهد الشابّ للركوع علـى ركبتيـه، واحتضـن ذراعـه التي كانـت تؤلمـه قائـلاً: "لقـد خفت، رأيتكما في منزلي فشعرتُ بالخوف".

شـدّته ليقف على قدميـه وقالت لـه: "أقدمـتَ أنت وشـون غراب على قتـل جايك تمبرلاند، وسـاعدته علـى اختطاف كاتلين لـوك. بتعبير بوليسـي، لقد قُضيَ عليك، يا صديقي". وخزت صـدره النحيل بإصبعها وتابعت: "سـبق أن قام فريق الطبّ الشـرعي بربط غراب بجريمتَي القتل والاختطاف. وأنـا واثقة أنّنا إن ذهبنا لنبحث عن آثـار لحمضك النووي، فسـنجدها. المحلَّفون يحبّون الحمض النـووي، فهم يصدّقونـه أكثر من أيّ شيء يمكن لمتشرّد مثلك ادّعاؤه".

سـبق لجونز أن سُـجن من قبل، ولم يكن يريد تكرار التجربة. نظر خلفهما، إلى عالَـم الحرّية. وقـارن بين خياراتـه، ثمّ تكلّم أخيـراً: "أريد حصانة، هل اتّفقنا؟ أريد ضمانة بأنّني لن أُتّهم بشيء".

قـال جيمـي: "لا تحلم بذلـك، تجاوزنـا مرحلـة الحصانـة. كلّ ما يمكننا أن نعـدك به هو الحـدّ من حجم الضرر. هيّا، أسـرع، مـاذا لديك قبل أن نوجّه إليك اتّهاماتنا؟".

فرك جونز ذراعـه مجـدّداً وأجاب: "ليـس الكثير، ليـس الأمر كما تظنّان".

حدّقـت إليـه قائلـة: "لا تتهـرّب، لي، نريـد معرفـة كلّ شـيء، بلا كذب، ومن دون أن تُخفي شيئاً. كلّ شيء".

وضع يده على رأسه. عادت إليه الصور، صورة الرجل الممدّد ميتا في الكامبرفان، والمرأة الجميلة التي تصيح وتركل، وهو في الكامبرفان يقترح قتلها عوضاً عن الوقوع في أيدي العدالة. "كانت حادثة، لم نقصد قتل أحد، أو أيّ شيء من هذا القبيل". رأى أنّهما لا يصدّقانه فتابع: "أنا أعني ما أقوله. لحقنا بهما لأنّ الفتاة لمست أحد المبجّلين. ثمّ خرجت الأمور من أيدينا. ضرب شون الشابّ وعندما نقلناه، مات. شعرنا بالخوف، فنحن لم نُخطّط للأمر على هذا النحو".

"قلت لا تخفِ شيئاً". وخزته ميغان مجدّداً وسألته: "لماذا كنتما عند النصب؟ من أرادهما ولماذا؟".

ابتلع ريقه وأجاب: "كان ينبغي اختيار شخص غريب من أجل الطقوس. قال شون إنّه قُرّر أن يكون أيّ شخص يلمس أحد المبجّلين. لم يكن من الضروري أن تكون الفتاة أو الشابّ الذي معها، كان من الممكن أن يكونا أياً كان. كلّ ما في الأمر أنّهما تواجدا في المكان والزمان غير المناسبَين".

سأله جيمي: "إذاً، أين هي؟".

"إنّها في الهيكل. في المكان الذي أخبرتكما عنه. ولكن، كما قلت، لا أعرف موقعه". رأى غضبهما يتصاعد فتابع: "حقاً، لم أره قطّ من الخارج. يقع قرب الطريق أ 360، قرب إمبر، هذا كلّ ما أعرفه. توقّفنا على طريق قبل القرية تماماً، قرب الميدان. ذهب شون من هناك مع الفتاة بسيّارته، وانتظرتُ في الكامبرفان مع الجثّة المتصلّبة".

ودّت ميغان لو تضربه: "أنت تتكلّم عن شابّ سلبته حياته. أظهر له بعض الاحترام".

قال جيمي: "تابع".

"عاد شون وقال إنّه اتّصل بأحدهم، أحد أعضاء الدائرة الداخلية، وبدا مرتاحاً. اعتقد أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام".

سألته ميغان: "إذاً، ما الذي قصدتَه اليوم؟ ما تلك القصّة عن الشيء الذي سيحصل في ستونهنج؟".

احمرّ وجهه.

حاولت أن تقرأ ملامحه، ثم قالت له: "إن ماتت الفتاة، فستُتّهم بالقتل".

فهم قصدها فقال: "أتى إليّ رجل يُدعى مات أتلي، ولكنّنا نناديه موسكا". نظر إلى جيمي. "كان يعرف أنّك تحاول إيجادي والتكلّم معي عن شون. فطلب منّي الاتّصال بك، والقول إنّ شيئاً ما سيحدث اليوم عند النصب". نظر جونز مجدّداً إلى ميغان. "شعرتُ بالحيرة، لأنّ شيئاً ما كان يُفترض أن يجري هناك الليلة بالفعل. إنّها بداية الطقوس".

صمت فقال جيمي بصوت حازم: "تابع، لي".

"الليلة ستتمّ، أنتما تعرفان، التضحية بالفتاة، وكان يُفترض أن يتمّ ذلك في ستونهنج".

"كان يُفترض؟".

شرح ونظراته تتنقّل بينهما: "تلك هي الفكرة. إنهم يعرفون أنّكم تلاحقونهم، يعرفون كلّ شيء. طلب منّي موسكا إخباركما بذلك لكي تذهبا إلى الأحجار".

أطلقت تنهيدة طويلة وسألته: "إذاً، أين سيتمّ ذلك؟".

"في الهيكل، على ما أظنّ". جمع رسغَيه معاً ومدّهما نحو جيمي قائلاً له: "عليك أن تسجنني. ضعني في سجن وقائي في مكان ما، فقد قال موسكا إنّه سيقتلني إن كشفتُ ذلك. قال إنّني سألاقي مصير شون إن لم أنفّذ ما أمرني به".

قالت: "ضعه في السجن، يمكن لرئيسة مفتّشي المباحث تومبكينز الاهتمام بأمره".

171

عبث ذاك المجنون مع الفتاة مجدّداً. كان فينيكس قد خلع سترته، وكانت يداه على ظهر القربان. ضغط فولانز وجهه على قضبان الزنزانة، ولم يُصدّق ما يراه.

هزّ باب الزنزانة وهو يصيح: "أنت! اتركها وشأنها، أيّها الوغد. سبق أن حذّرتك".

كان الاثنان في الزاوية يحاولان الاختباء، ولكنّه رآهما مع ذلك. ظهر موسكا في الممرّ وسأله: "ماذا يجري؟".

"ذاك المغفّل يعانق الفتاة".

"ماذا؟ أوقفوهما. افتحوا الباب".

بحث فولانز عن المفتاح، ولمحهما موسكا في أثناء ذلك وهما يقبّلان بعضهما فقال لفولانز: "أسرع، هيّا".

دخل المراقبان الزنزانة، وأمسكا بغيديون وكاتلين اللذين كانا يتعانقان بشغف، غير آبهَين بالجلبة حولهما.

"أيّها المغفّل!". شدّه موسكا من شعره، وأبعده عنها.

تراجعت كاتلين، وبدت الخيبة على وجهها.

أدار موسكا غيديون نحوه ولكمه على وجهه. ولكنّ هذا الأخير لم يسقط بل تمسّك به وحاول قتاله. اندفعت كاتلين إلى الأمام، وغرزت كسرة من الفخار في جانب عنق موسكا، وشعرت بالدم الدافئ يلوّث وجهها، وأدركت أنّها أصابت شرياناً رئيساً.

ترنّح موسكا، فتركه غيديون ينزلق على الأرض الباردة، ثمّ سحب

المسدّس من خصره. جمد فولانز في مكانه، واحتار بين مساعدة أخيه الذي يُحتضر وحماية القربان.

قال غيديون: "ابتعِد عنها، لن أتردّد في قتلك".

172

"كاتلين، خذي مسدّسه".

سحبت المسدّس من خصر فولانز بيدَين مرتعشتين، وأخذت حلقة المفاتيح من يده.

"اركع، ووجهُك نحو الجدار!". في أثناء ركوع فولانز، نظر غيديون إلى المسدّس الذي يحمله بيده. لم يسبق له أن حمل سلاحاً من قبل، ولا يعرف كيفيّة استخدامه. لم تكن لديه فكرة عن مكان مفتاح الأمان أو ما إذا كان المسدّس محشوًّا أساساً.

"فلنذهب!". دفع كاتلين إلى خارج الزنزانة، وأغلق الباب الحديدي خلفه. أمسكها من كمّها، وأخذا يركضان في الممرّ. سمعا خلفهما صيحات فولانز الذي كان يطلب النجدة.

كانت هناك خريطة ذهنية في عقل غيديون، وكان يعرف أنّها غير تامّة، ولكن هذا كلّ ما يملكانه. تخيّل أنّ المخرج الأقرب هو بعد القاعة الكبرى، عبر الممرّ الدائري للدائرة الخارجية، وبعد حجرة السيّد. سيقودهما ذلك الطريق إلى السلّم الحجري ومخرج المستودع.

ولكنّه لم يكن يتّجه إلى هناك، بل كان يتبع حدساً، إمّا أن يوصلهما إلى الحرّية، أو إلى الموت.

173

خرج السيّد بتردّد من القاعة الكبرى ونظر حوله. كان ينبغي للقربان أن يصل.

تناهت إليه أصوات عبر الممرّ، فاستدار واتّجه إلى الزنزانة. رأى أربعة حمّالين يركضون نحوه من دون الحمّالة.

صاح أحدهم: "لقد اختفت، هربت الفتاة من زنزانتها".

"وابني، أين هو؟".

"هرب هو أيضاً". كان ذاك صوت دراكو الذي أسرع نحو السيّد ويداه ملوّثتان بالدماء قائلاً: "لقد قتلا موسكا وأخذا مسدّس فولانز".

قال السيّد: "أغلقوا المخرج الرئيس. سيتوجّهان إلى السلّم الحجري في غرفة الانتظار". شعر بالعار لأنّه وثق بابنه، وعرّفه على الهيكل بنفسه.

أرسل دراكو الحمّالين لتنفيذ الأمر، وسأله: "وماذا عن الممرّ الموجود في حجرتك؟".

هزّ السيّد رأسه قائلاً: "لا يعرف بأمره. ولكن، أغلقه على أيّ حل".

"سأذهب بنفسي". اصطحب دراكو رجلَين، وأمر الباقين بتفتيش الهيكل.

تأمّل السيّد القاعة الكبرى الفارغة، وأحسّ باستياء المبجّلين، ولكنّه ظلّ هادئاً. فالهيكل قلعة محصّنة. لديهم وقت كافٍ للقبض على الفتاة مجدّداً وإتمام المراسم قبل طلوع الفجر.

مشى باتّجاه القاعة الكبرى، ثمّ فكّر مجدّداً.

ابتسم ونادى دراكو: "دع الرجال يذهبون، وتعال معي. أعرف أين هما".

174

كانت المشاعل على الجدران قليلة ومتباعدة، وكانت متاهة الممرّات باردة وعابقة برائحة الرطوبة والموت.

تعلّقت كاتلين بغيديون وهما يركضان. دعت ليكون مدركاً ما يفعله. فهي ما زالت تذكر محاولة هربها الفاشلة.

أحسّت بوجود خطأ ما، فهما يتّجهان إلى الأسفل، ويغوصان أكثر في أعماق هذا المكان الرهيب عوضاً عن الصعود إلى الأعلى والخروج إلى العالَم الخارجي الآمن. "نحن نسلك طريقاً خاطئاً!".

صاح غيديون وهو يلهث: "ثقي بي".

عرفت كاتلين أنّها لا تملك خياراً آخر.

بينما كانا يركضان في الممرّات المظلمة، حاول أن يتخيّل منعطفات الهيكل. كان في ذهنه أشبه بهرم مدفون، ولكنّه على شكل قبّة مستديرة. رأى الطوابق العليا، والجزء الحديث. تخيّل غرفه وسراديبه المبنيّة على نحو يخفّف من الوزن الذي يضغط على السقف. كانت تحتهما غرفة السيّد والقاعة الكبرى. رأى الممرَّين النازِل والصاعد شرق وغرب الغرفتَين. تخيّل أنّها بُنيت كلّها حول النفق العمودي المركزي، بحيث تشكّل نقاطاً متطابقة مع البوصلة ومجموعات النجوم.

تخيّل الآن الممرّ الشرقي، الذي يؤدّي إلى الطابق الأدنى، سرداب القدماء، وهو المكان الذي يتوجّهان إليه.

ذكّرته الممرّات المنعطفة والملتوية بقبور المصريين مجدّداً. فهي من نوع الأماكن التي تحتوي على أسرار هندسية. تذكّر هرم خوفو الأكبر وغرفه وسراديبه الخفيّة.

دعا ليكون للهيكل أسراره الخاصّة به. فالأنفاق العمودية، وتفاوت ارتفاعات الأروقة، والممرّان الصاعد والنازِل، والتراصفات الجغرافية، كلّها تشير إلى أنّه على الطريق الصحيح.

توقّفا أمام باب مقفل مصنوع من خشب السنديان.

قال وهو يدفع كاتلين اللاهثة إلى الجدار: "أسرعي. اجلسي،

اجلسي هنا ولازمي مكانك".

تراجع عدّة أمتار، ثمّ التفت إليها قائلاً: "تقدّمي قليلاً، تقدّمي نحوي نصف متر". هبطت على الأرض، وضمّت ركبتيها المرتجفتَين إلى صدرها، ثمّ أعادت تسوية ردائها المرتخي.

"حسناً، توقّفي". تراجع أكثر، حول زاوية الممرّ خلفهما، ثمّ أطلّ مجدّداً، ونظر إليها بتركيز.

"ابقي مكانك، ولا تتحرّكي. مهما حدث، حتّى لو رأيتهم آتين إليك، لا تبارحي مكانك".

175

جلست كاتلين وهي ترتجف على الأرض الباردة، بين ضوء المشعل المتمايل، وظلام الممرّ الطويل العالي المؤدّي إلى سرداب القدماء.

اختفى غيديون، وأصبحت بمفردها. عاد ذهنها إلى الطفولة، وتذكّرت كيف كانت تلعب الغميضة مع والدَيها. ولكنّها كانت تختبئ جيّداً حينها بحيث لا يعثر عليها أيّ منهما. كانت تنتظر طويلاً، وتخشى ألاّ يجداها أبداً.

هل رحل نهائيًّا؟ هل تركها كطعم؟

سمعت جلبة؛ وقع خطى. أحدهم يقترب، انتهى الانتظار. تناهت إليها أصوات مكتومة. ها قد أتوا من أجلها. تذكّرت ما قاله: لا تتحرّكي... مهما حدث... لا تبارحي مكانك. توتّرت أعصاب كاتلين. فقد اقتربوا الآن، اقتربوا كثيراً. كان وقع الخطى عالياً بحيث عرفت أنّهم على بُعد ثوان من كشف أمرها.

رأتهما؛ كانا رجلَين، أحدهما كبير في السنّ، والآخر أكثر شباباً.

صاحت كاتلين، واقترب أحدهما للإمساك بها.

دوّى في الرواق صوت رصاص. كان الصوت عالياً إلى حدّ أنّها أجفلت إثر الصدمة. طنّت أذناها بشكل مؤلم، ووضع الرجل الواقف أمامها يده على صدره. فتح عينيه على وسعهما، وفتح فمه، ثمّ ترنّح وسقط على ركبتيه.

خرج غيديون من مخبئه، ثمّ وجّه مسدّسه المرتجف نحو الرجل الأكبر سنًّا الذي يرتدي عباءة حمراء قائلاً: "أبي...". لفظ الكلمة باشمئزاز.

نظر السيّد إلى دراكو الممدّد على الأرض وهو ينزف وسأله: "ماذا فعلت؟".

لوّح غيديون بالمسدّس قائلاً: "أريد مفتاح السرداب".

نزع السيّد الحبل عن عنقه، ووجهه مليء بالاستياء، ثم قال له: "عرفتُ أنّك لن تغادر المكان من دون سرقة شيء ثمين. أنت لصّ قبور شأنك شأن ناثانيال". رمى المفتاح في بركة الدم قرب دراكو.

قال لكاتلين، والمسدّس ما زال موجّهاً نحو أبيه: "خذيه".

انحنت لتلتقطه، فأمسكها دراكو من كاحلها، وشدّها.

انقضّ السيّد على غيديون مثل فيل، وسحقه على الجدار.

دوّى صوت انفجار آخر.

176

سقط الرجلان على الأرض، فوق بعضهما. وسقط المسدّس فوق الأرض الحجرية الملوّثة بالدماء.

تحرّكت رغبة البقاء لدى كاتلين، فمدّت يدها من فوق دماء دراكو المتخثّرة وتناولت السلاح الذي سقط. كان لا يزال يشدّ ساقها.

ارتفعت يدان قويتان من كاحلها إلى ركبتها فاستدارت، ولم يكن لديها خيار سوى تنفيذ الفكرة التي سيطرت على ذهنها. ضغطت على الزناد، وأصابته في وجهه. كان دويّ الرصاصة يصمّ الآذان.

تلوّثت بالدماء والأشلاء. أوقعت المسدّس، ونظرت برعب إلى يديها الملوّثتَين بالسائل القرمزي، ثم جلست جامدة في مكانها إلى أن أتى إليها غيديون.

"تعالي، يجب علينا أن نذهب".

لم تستطع كاتلين الحراك، فقد تلاحقت صور ما فعلته للتوّ في ذهنها. الطريقة التي نظر بها إليها، ورذاذ الدماء الحمراء، والجلد، واللعاب، والعظام المتطايرة. لقد مات. لقد قتلت شخصاً للتوّ.

"كاتلين! انهضي!".

شعرت بغيديون يمسك بيدها. كانت ملوّثة بالدماء والأشلاء. راح يشدّها، وشعرت أنّ الأحجار ليّنة تحت قدميها. زاغ نظرها، فتوقّفت وانحنت، ثمّ تقيّأت آخر ما بقيَ من سوائل في معدتها الفارغة.

"هيّا!".

تقيّأت مجدّداً، ثمّ نظرت جانباً. كان غيديون يفتح باباً على بُعد بضعة أمتار.

عاد مسرعاً لإحضارها، ثمّ جرّها معه عبر الفتحة الجديدة.

ظلام، ظلام دامس.

وقفت مرتجفة بينما راح يبحث. عادت صورة رذاذ الدم الأحمر إليها. جلد، لعاب، عظام. النظرة الأخيرة الجامدة في عينيه، وكأنّه دمية معطّلة.

أضاء نور ما الغرفة. أخيراً أُضيء مشعل قربها. لون برتقالي، برتقالي وليس أحمر. كان غيديون هو الذي أشعله، ثمّ أمسك بيدها

وراح يُشعل شموعاً ضخمة في أرجاء الغرفة. تبدّد الظلام، واختفى مثل مياه على الرمل الحارّ. دارت الغرفة، والتوت ركبتاها، وشعرت بموجة دافئة تعصف بها.

"كاتلين!".

سمعت صوته، منخفضاً وبعيداً، وكأنّه يناديها عبر نفق طويل ومظلم وهي تسقط.

177

كانت الرصاصة التي أطلقها غيديون قد اخترقت فخذ السيّد مباشرة. كان محظوظاً. فمن خبرته كجندي، كان يعرف حقيقتين بسيطتين. الأولى، ما من شيء يُسمّى رصاصة غير قاتلة. فلو تركتَ أيّ جرح ينزف طويلاً، فستموت. ثانياً، ما لم تصوّب السلاح على جمجمة العدوّ أو عموده الفقري، فلن تستطيع أن تسبّب له العجز بواسطة مسدّس. صحيح أنّ الرصاصة ستصدمه، ولكن ما إن يتجاوز الصدمة، حتّى ينهض ويلاحقك مجدّداً. وهذا ما سيفعله.

مسح الدماء وتفحّص مدخل الرصاصة ومخرجها. وجدهما نظيفَين. تحسّس محيط الجلد المصاب. كانت الرصاصة منخفضة السرعة، فأحدثت ثقباً مستقيماً، ولم تُسبّب تلفاً كبيراً في الأنسجة المجاورة. ضغط ورأى الجرح يمتلئ بالدم. لو كان السلاح عالي السرعة، لسبّب إصابة أسوأ بكثير.

تحقّق جيّداً من إصابته إلى أن تأكّد من عدم وجود تمزّق أو كسور في العظام مزّقت الأنسجة العضلية. حاول الوقوف، ولكنّه وجد صعوبة في الحفاظ على توازنه. لم يشعر بالقدرة على الوقوف على ساقه التي آلمته عندما ضغط بثقله عليها. اتّكأ على الجدار، وسحب الحبل

المربوط حول وسطه، ولفّه بإحكام حول الجرح لإيقاف النزف مؤقّتاً.

كان يخاطر بالتسبّب بتلف في العصب، ولكنّه يبقى أفضل من النزف حتّى الموت. نظر إلى الأسفل، ورأى بركة الدم اللزجة والأشلاء التي تفجّرت من دماغ دراكو. لا جدوى حتّى من التحقّق من نبضه. رأى من زاوية عينه الأضواء المتراقصة الصادرة عن الشموع في السرداب. سمع ابنه يصيح وهو يحثّ المرأة لكي تُسرع.

دسّ يده في جيب عباءته العميق، وتحسّس المطارق والسكّين القربانية.

كانت كافية لإيقافهما.

وكافية لإتمام الطقوس.

178

تركها غيديون كارهاً وهي غائبة عن الوعي، وحمل المشعل عالياً وراح يمشي مسرعاً في أرجاء السرداب. عليه أن يجد إشارة ما، برهاناً على أنّه لم يرتكب خطأً فادحاً.

شعر وكأنّ عيون الجماجم الفارغة تلاحقه من عشرات التوابيت المائلة. مشت في أعقابه كالأشباح. شعر بأيديها النحيلة على عنقه، باردة مثل رعشة تجتاح عموده الفقري في جوف الليل.

حرص المصريّون القدماء على إحاطة موتاهم بأثمن مقتنياتهم. وكما رأى، يبدو أنّ أتباع المبجّلين قد فعلوا الشيء نفسه. إلاّ أنّ المصريين جهّزوا قبورهم بشيء آخر، بممرّات سرّية يعبرونها. فبنوا أنفاقاً طويلة تُتيح للملوك الذين يولدون مجدّداً النهوض واللحاق بشعبهم.

حاول غيديون التفكير في كلّ ما يعرفه عن الأهرامات، وتذكّر

البناء المتواضع الذي صُنع للملك الشابّ بيبي الثاني، وهرم جوسر المدرَّج، وهرم سنفرو الأحمر، وهرم الجيزة الذي بُني قبل ألفين وخمسمئة عام قبل المسيح، أي تقريباً في الزمن نفسه الذي بُنيت فيه أجزاء من ستونهنج، وبعد إتمام الهيكل تماماً. يحتوي الهرم الأكبر على غرف شبيهة بالغرفة التي تحيط به الآن؛ أنفاق عمودية غامضة تمتدّ من حجرتَي الملك والملكة إلى العالم الخارجي؛ ممرّات سرّية تسمح بالعبور إلى السماء.

حرّك غيديون التوابيت، فاهتزّ الراقدون فيها. سمع عظامهم تُدمدم متذمّرة، وراحت هياكلهم العظمية المكسوّة بخيوط العناكب تصرّ وتقعقع وهو يبحث خلف التوابيت وتحتها عن أبواب أو ممرّات خفيّة. ولكنّه لم يجد شيئاً.

سمع أنين كاتلين، فذهب إليها، وحمل الشعلة عالياً ليتمكّن من رؤية وجهها. كانت تستعيد وعيها، ولكنّها بدت شديدة الشحوب، وبدت عيناها كامدتَين. لقد نفدت طاقتها.

لمس كتفها وطمأنها قائلاً: "أنتِ بخير، لقد أُغمي عليكِ".

حوّلت نظرها عنه إلى فظائع الغرفة: توابيت، هياكل عظمية، شموع. لم ينتهِ الكابوس بعد.

عاد للتفكير في دراساته، وفي ملفّات أبحاثه المكسوّة بالغبار، وفي تاريخه الأكاديمي. حاول أن يبحث خلف ما هو ظاهر. مرّ على ذكرى عابرة لمتاهة هائلة، متاهة أمينيمهيت. كانت عملاً هندسيًّا اشتُهر بأنّه تفوّق على الأهرامات الكبرى، لاحتوائه على مئات الغرف، والسراديب، والأروقة، والغرف المزيّفة، والأنفاق العمودية، والفِخاخ الخفيّة.

كان ثمّة مخرج سرّي في السقف، مخبّأ بباب حجري عبارة عن فخّ. كان ثقباً صغيراً مفتوحاً على سلسة من الحجرات والسراديب

السرّية، طريقاً للخروج مليئاً بالفخاخ والأنفاق القاتلة، ولكنّه يبقى مخرجاً.

تذكّر أنّ علماء الآثار السكانديناڤيين اكتشفوا أنّ رمز المتاهة يمثّل الاعتدال الربيعي، وهو الوقت الذي يُفترض أن تهرب فيه الشمس من ظلام الشتاء. نظر إلى الأعلى، وتحوّلت عيناه إلى أعلى المكعّب الضخم الذي يحتوي على التحف، والموجود في وسط الغرفة. حتّى وإن تسلّقاه، فلن يصلا إلى الكتل الحجرية الموجودة فوق رأسَيهما. مع ذلك، بدا وكأنّه المخرج الوحيد.

تمنّى أن تكون كاتلين قويّة بما يكفي للوصول إليه.

"علينا الانطلاق، هيّا بنا". أمسك يدها وقادها إلى الكتلة الحجرية الضخمة. بدأ غيديون يتسلّقها، ثمّ سحبها إلى أوّل رفّ من الرفوف الحجرية.

"تمسّكي جيّداً". وضع أصابعها على طرف المكعّب الرملي الضخم وهو يقول: "تمسّكي، عليّ أن أتسلّق رفًّا آخر...".

ماتت الكلمات على شفتيه.

فقد استطاع أن يرى ما لم تره. رأى الرجل الواقف خلفها.

179

لم يتحرّك غيديون بالسرعة الكافية لإيقاف السكّين الحجرية التي شقّت ساق كاتلين.

صرخت وكادت أن تُفلت قبضتها عن المكعّب الرملي، ولكنّ غيديون أمسك بذراعها ورفعها قليلاً إلى الأعلى.

لوّح السيّد بالسكّين مجدّداً، ولكنّ الضربة كانت منخفضة ولم يصبها. اقترب أكثر، ولوّح مجدّداً. أصبح قريباً الآن، ولكن ليس لمسافة

كافية. تجاهل ألم ساقه وتسلّق الطبقة السفلية من مكعّب الأرشيف.

راح غيديون يدفع كاتلين إلى الأعلى حول جانب المكعّب ويبعدها عن الخطر. ولكنّه لم يرَ السكّين التي شقّت كتفه، ودفعته إلى السقوط. اندفع السيّد نحوه. فالمسألة شخصيّة، وهي تتعلّق بالكرامة والشرف؛ أي كلّ ما يعيش الإنسان ويموت من أجله. فهاجمه مجدّداً بالسكّين.

كان المسدّس على المكعّب، وبعيداً عن متناول غيديون الذي ركّز عينيه على السكّين القاتلة في يَد أبيه.

اقترب منه السيّد وهو يعرج، ووجّه إليه طعنة. ولكنّها لم تكن متوازنة، ولم تُصب الهدف. رأى غيديون نقطة الضعف، فقد كان الدم ينزف من ساق السيّد اليمنى، فوجّه إليها ركلة عنيفة.

صاح السيّد من شدّة الألم، وسقطت السكّين من يده. كان بمقدور غيديون القضاء عليه، فهو يستطيع العودة لأخذ المسدّس وقتله، ولكنّه لم يفعل، بل استدار وصعد نحو كاتلين.

قال السيّد الممدّد على الأرض وهو يمسك بساقه: "أنت أحمق! ما من مخرج هناك، لن تتمكّنا من الهرب".

وصل غيديون إلى أعلى المكعّب، وساعد كاتلين على تسلّق نصف المتر الأخير. وقفا على قمّة الحجر الرملي الضخم، ورأى أنّ أباه على حقّ. ما من مخرج إلى الحرّية.

180

خرج السيّد وهو يعرج من سرداب القدماء. عرف أنّه ما زال لديه الوقت الكافي. فإن تمكّن من الوصول إلى الحمّالين، والمراقبين، فمن الممكن الإمساك بالقربان مجدّداً. لقد تأخّر الوقت، ولكنّ إتمام

www.rewity.com Dafria

الطقوس ليس مستحيلاً.

شعر بالضعف والدوار، فقد كان يخسر الكثير من الدم. كان فخذه ينتفض ويتشنّج. توقّف، وأعاد ربط الحبل حول الجرح. بدأت أعصابه تموت، وبدت كلّ خطوة على الممرّ النازِل أشبه بالتعذيب. ولكن، حين وصل إلى منتصف السلّم، رأى غروس مع ثلاثة مراقبين.

"هنا! أنا هنا!". كان هذا كلّ ما استطاع قوله وهو يسقط على الأرض.

صاح غروس: "أحضر طبيباً، بسرعة". التفت إلى الرجلَين الآخرَين مضيفاً: "ساعداني على نقله إلى غرفته".

اعترض السيّد: "كلاّ، ابني والقربان في سرداب القدماء. أحضروها، أحضروها حالاً".

قال غروس لأحد المراقبَين: "اعتنِ به، ولا تتركه يموت". ثمّ نظر إلى صديقه مضيفاً: "سيحضر الطبيب في أيّ لحظة".

صاح السيّد: "اذهب! كانا يتسلّقان المكعّب. افعل ما في وسعك لإعادة الفتاة".

181

مُدّد السيّد على طاولة حجرية في حجرته.

قال الرجل الذي يعتني به: "لقد خسرتَ الكثير من الدم".

أجابه بجفاف: "أعرف ذلك. داوني وحسب".

هزّ الطبيب رأسه. انتظر وصول الثلج والمعقّم من الثلاجات الموجودة في قاعة العمليّات. كان ينوي كيّ الجرح بالحديد الحامي، وهي طريقة تعلّمها في ميادين الحرب وأجراها من قبل.

كان ذهن السيّد مشغولاً بأمر آخر. فعدم إتمام الطقوس سيكون ذا انعكاسات خطرة. إذ ستتضاءل قوّة المبجّلين؛ وربّما على نحو خطر. وستكون نتائج ذلك كارثيّة بالنسبة إلى الكثير من الناس.

ولكن، ماذا لو هرب ابنه مع القربان؟ جعلته تلك الفكرة يرتعد خوفاً.

سيُفتضح أمر الحرفة، لا يمكنه أن يسمح بحدوث ذلك. لن يكون لديه خيار سوى تنفيذ العقوبة القصوى، تلك التي استعدّ لها، والتي لا يمكن تنفيذها إلاّ بكلمة منه.

182

كان سطح المكعّب الذي يحتلّ وسط السرداب صلباً. لم يشعر غيديون بوجود شقّ في الحجر الرملي الضخم، ولم يرَ إلاّ نفقاً مربّعاً ضيّقاً يمتدّ بشكل مستقيم في وسطه، ولم يفهم الهدف منه. هل هو مصمّم للسماح بخروج شيء؟ أهو لتصريف المياه أو الغازات؟ أم لدخول شيء؟

نظر إلى الثقب العميق. هل كان يحتوي على مكعّب أطول يرتبط بسقف السرداب؟ كان النفق بعرض بئر ماء تقريباً، وبالكاد يتّسع له ليدخل فيه. ولكن هذا كلّ ما لديه، وما من إشارة إلى وجود شيء آخر قد يُشكّل مخرجاً.

جلست كاتلين على طرف المكعّب وهي تضغط على الشقّ في ساقها. نظر إلى النفق مجدّداً، والظلام المخيف الذي يخيّم عليه. سيأتي المراقبون إلى الغرفة في أيّ لحظة، فجلس وأنزل ساقَيه في الفراغ.

حدّقت إليه كاتلين غير مصدّقة وسألته: "ماذا تفعل؟".

"لا أعرف. غالباً ما يكون للأبنية القديمة هدف معيّن. كلّ ما عليكِ

فعله هو تحسّس طريقك فيها لاكتشاف الهدف منها". أنزل جسده في الثقب، وأسند مرفقَيه على السطح. آلمته كتفه مجدّداً.

مرّر غيديون قدمه على الجدار. شعر بشيء ما؛ موطئ قدم صغير، فجوة في الجدار. أدخل إصبع قدمه الحافية فيها، وأنزل ساقه الأخرى بحثاً عن موطئ قدم ثان. بعدما حرّكها إلى الأمام والخلف، وجد واحداً.

راقبته كاتلين وهو يختفي في النفق، ثمّ جرّت نفسها نحوه، فهي لن تبقى هنا بمفردها. لم تعد ترى منه سوى أصابع يديه. ناداها قائلاً: "ثمّة شقوق في الجدران، وكأنّك تنزلين سلّماً. تحسّسي طريقكِ إلى الأسفل".

اختفت يداه، ولم تستطع أن ترى من النور الباهت سوى أعلى رأسه. فركعت على ركبتيها، وبدأت تنخفض في الظلام. ها قد عادت إلى الجحر المظلم. انتفض عقلها وتصلّب جسدها. لا تستطيع فعل ذلك، لا تستطيع دخول الجحر.

ولكنّها مجبرة على ذلك. عليها أن تتبع غيديون، يجب أن تثق به.

راحت أظفار قدمَيها التي كانت ملساء ومطليّة في ما مضى تحتكّ بالجدار الخشن، إلى أن وجدَت الفجوات، وهبطت في المجهول.

ارتطمت ساقها اليسرى بموطئ قدم صلب على نحو غير معتاد؛ عقدة حجرية بارزة من الجدار. أتاح لها ذلك أن تُريح ساقها المشقوقة وتهبط بثقة أكبر.

ما إن فعلت ذلك، حتّى سمعت صوتاً مريعاً، وكأنّ قطاراً ما يعبر النفق فوق رأسها.

صاح غيديون من الأسفل: "ما هذا؟".

لم تكن تملك فكرة، فنظرت إلى الأعلى.

رأت شيئاً ينزلق فوق فتحة النفق؛ قرصاً حجريًّا يفصل بينهما وبين ما بقيَ من ضوء. راقبته كاتلين وهو يملأ الفجوة، ثمّ صدرت قعقعة، تبعها الصمت التامّ.

أُقفل النفق عليهما. أصبحا محتجزَين.

183

بينما كان الطبيب يلفّ الرباط المطّاطي حول جرح السيّد، كرّر غروس أنباءه المريعة: "السرداب خال، فتّشناه من الأعلى إلى الأسفل. إن كانا هناك، فقد خرجا الآن".

قال السيّد بصوت شنّجه الألم: "كانا على سطح المكعّب، كانا هناك، رأيتهما وهما يتسلّقانه".

قال غروس: "وهل تظنّ أنّني تجاهلتُ ما قلته؟ بحثنا في كلّ مكان، بما في ذلك المكعّب".

أضاف أحد المراقبين: "لقد تسلّقته، سيّدي، إلى القمّة. لا يمكن الوصول إلى السقف من هناك، ما من طريق للهرب من هناك".

أنزل السيّد ساقه عن الطاولة الحجرية وجلس، فسبّب له جريان الدم الدوار. "إذاً، ما زالا في الغرفة".

انحنى غروس نحو صديقه القديم قائلاً: "صدّقني، ليسا هناك. فلو كانا هناك لكنّا عثرنا عليهما".

"إذاً، لا بُدّ من أنّهما قد تسلّلا من السرداب الموجود خلفي". جلس، وتقلّصت ملامحه من الألم.

قال الطبيب: "عليك أن ترتاح حقاً. فعمليّة الكيّ أُجريت للتوّ، ولا يجب إلحاق المزيد من الأذى بالجرح".

تجاهله السيّد وقال: "فتّشوا الغرفة مرّة أخرى، مرّة واحدة بعد". بدت الهزيمة على وجهه. "غروس، أنت تعرف ما يجب فعله، أليس كذلك؟".

هزّ رأسه بالإيجاب. لقد فهم، فهم تماماً.

184

مرّت بضع ثوان قبل أن يتمكّن أيّ منهما من الحراك. فالظلام الدامس شلّ حركتهما. لم يستطيعا رؤية شيء، أو سماع شيء في ذلك الهواء الحارّ والساكن. لم يسمعا سوى أنفاسهما المتلاحقة، واحتكاك أقدامهما بالحجارة.

بدأت كاتلين تصاب بالذعر فقالت: "سنختنق. آه، يا الله! كلاّ!".

"ابقي هادئة". صعد غيديون بضع خطوات عبر النفق الحجري وقال لها: "كاتلين، توقّفي". مدّ يده وبحث عن قدمها للمسها. أقام اتّصالاً بسيطاً معها. فالنفق ضيّق جداً ولا يستطيع الاقتراب أكثر. "اهدئي أرجوكِ. علينا التفكير في طريقة للخروج من هنا".

أغمضت عينيها، وحاولت طرد ظلام النفق بأن تغرق نفسها في ظلامها الداخلي. تنفّست من أنفها ببطء، وزفرت الهواء من فمها ببطء.

سمع غيديون وتيرة تنفّسها العميق. انتظر قليلاً، ثمّ سألها: "ماذا جرى؟ هل ضغطتِ على شيء، هل وقفتِ على أيّ شيء؟".

"وقفتُ على شيء". بدت وكأنّها تبكي. "أنا آسفة، إنّه قرب ركبتي الآن. كان مثل حرف ناتئ".

فكّر قليلاً.

كان يعرف أنّ القبور القديمة غالباً ما تحتوي على أنظمة لمنع اللصوص من نهبها. رفع نفسه قليلاً وبحث عن الحرف الناتئ. كان

حجراً أملس، غير مؤذ بالحجم والشكل، ولكنّه موضوع في موقع استراتيجي ومتوازن مع حجر آخر في أعماق البنية. وأيّ ضغط كبير عليه، كثقل شخص مثلاً، يقلب التوازن، ويؤدّي إلى دفع القرص الحجري في الأعلى لإغلاق فتحة النفق. إنّها خدعة بسيطة. بسيطة وقاتلة.

"لقد احتجزنا، أليس كذلك؟". كانت تحاول أن تبدو هادئة، ولكنّها ترتعش خوفاً.

"لا يمكننا العودة، هذا مؤكّد". لم يترك لها غيديون الوقت للتحسّر فتابع قائلاً: "علينا مواصلة النزول. لا تقفي على شيء آخر نافر. إن صادفتِ حرفاً ناتئاً آخر مثلها، أخبريني. هل اتّفقنا؟".

أخذت نفساً عميقاً آخر وقالت: "اتّفقنا".

أحسّت به وسمعته وهو يهبط. شعرت بأنّها لم تعد تستطيع المواصلة، فأطرافها تخونها، وهي تخسر قدرتها على التمسّك بقوّة. أوقفها وهو يصيح: "توقّفي، توقّفي! وجدتُ واحداً آخر".

مرّر إصبع قدمه عليه. لا شكّ في أنّه حرف ناتئ آخر. ولكن، ماذا يحرّك بالضبط؟ هل سيفتح باباً أم يُغلق فتحة أخرى؟ ربّما يحجزهم هذا الحرف الناتئ في النفق إلى ما لا نهاية.

أهو مجرّد فخّ؟

هل عليه تجاهله ومتابعة النزول؟ ولكن عدم فعل شيء قد يؤدّي بهما إلى الموت أيضاً.

راح ذهن غيديون يعمل بجنون. من شأن فعر النفق أن يكون طبقاً متحرّكاً هو أيضاً. ومن الممكن جداً أن يؤدّي الوقوف عليه إلى صبّ شلاّل من الرمال والكلس أو حتّى الصخور المخبّأة فوقهما، وقد يُدفنان على قيد الحياة.

185

قال غروس: "لا أحد هناك. لم نجد أحداً".

جلس السيّد ورفع ساقه الجريحة وقال: "هل أنت واثق؟".

هزّ غروس رأسه وأجاب: "قمنا بمسح شامل، غرفة غرفة، وسرداباً سرداباً".

قال السيّد: "إذاً لقد رحلا. هذا هو الاستنتاج الوحيد. لا بُدّ من أنّهما قد تسلّلا إلى السطح من دون أن يراهما المراقبون".

لم يعرف أيّ منهم كيف استطاعا فعل ذلك. ولكن، ما من تفسير منطقي آخر. تردّد غروس بالبوح بما يدور في خلده، ولكن عليه ذلك. "لم يعد لدينا الوقت الكافي لإتمام الطقوس. علينا إعطاء التعليمات لتفريق المنظّفين، والحمّالين، والمراقبين. ينبغي لنا أيضاً إبلاغ إخواننا في الخارج، واتّخاذ جميع الاحتياطات اللازمة".

جاهد السيّد للوقوف على قدميه وقال: "أنت على حق، لقد خذلنا المبجّلين". صحّح قائلاً: "أنا خذلتهم، خذلتكم جميعاً".

كان غروس يعرف أنّه لا وقت لديهم للتحسّر، أو المسامحة، أو التعاطف فقال: "هل تعطونني الإذن لإلغاء جميع النشاطات الأخرى وتنفيذ البروتوكول الاحتياطي؟".

"أجل". ثمّ فتح ذراعيه وعانق صديقه قائلاً: "تأكّد من إخلاء الهيكل خلال عشر دقائق، سأهتمّ بالمبجّلين، ثمّ أستخدم السرداب".

هزّ غروس رأسه موافقاً وقال: "هذا هو الحلّ الوحيد".

186

صاحت كاتلين: "ماذا يجري؟ ماذا ستفعل؟".

لم يكن غيديون يعرف.

راح قلبه ينبض بعنف.

"أستريح". كذب عليها وهو يُنزل أصابعه بعيداً عن الحرف الناتئ. وجد موطئ قدم آخر واسترخى قليلاً. "كوني حذرة وأنت تهبطين، فثمّة فخّ آخر".

"حسناً". انزلقت أصابعها، فاستندت إلى جدار النفق وحشرت نفسها بين جدرانه لكي لا تسقط. كلّ ذلك الوقت الذي أمضته وهي محبوسة في الهيكل كان ذا فائدة في النهاية.

"هل أنتِ بخير؟".

"أفلتَت يدي". تحسّست الجدران وارتاحت لدى عثورها على فجوة أخرى تتمسّك بها، وقالت له: "أنا بخير الآن، كلّ شيء على ما يرام. تابع النزول".

لم يكن يستطيع ذلك.

وصل غيديون إلى قعر النفق، ولكنّه رفع قدمه مجدّداً.

عاودته الشكوك، وحاول أن يحسب المسافة التي نزلاها. كانت تعادل خمسة أضعاف طوله على الأقلّ، أي خمسة ضرب 1.8 متر، وهذا ما يعادل تسعة أمتار تقريباً. حسبما يذكر، يبلغ ارتفاع المكعّب نحو خمسة أمتار؛ مما يعني أنّهما أصبحا تحت مستوى أرض السرداب.

جعلته تلك الفكرة يشعر ببعض الراحة، فوضع إحدى قدميه على الأرض، ومن ثمّ الأخرى.

لم يحدث شيء.

الأرض آمنة.

ولكنّه لم يرَ سبيلاً للخروج.

سمع جلبة فوقه، وشعر فجأة بشيء يسقط فوقه، وبثقل كبير يحطّ

على كتفه، ويدفعه إلى الركوع داخل النفق الضيّق. كانت كاتلين قد سقطت فوقه.

في اللحظة نفسها، فُتحت الأرض تحته. فالثقل الزائد حرّك فخًّا آخر. هكذا، تحرّك اللوح الحجري تحت قدميه وسقط، ثمّ انزلقا متشابكَين، وهما يحتكّان بسطح الصخور الخشن. مرّت بضع ثوان سقطا خلالها بعنف في الفراغ. ثمّ خفّت درجة الانحدار، فأصبح انزلاقهما أبطأ، قبل أن يتوقّفا.

ما زالا على قيد الحياة، على قيد الحياة ومسرورَين. ثمّة سبب واحد لهذا السقوط الأخير. إنّه ممرّ إلى العالم الخارجي. فهم غيديون فجأة الجدوى من المكعّب. فقد صُمّم ليمتلئ بالآثار الروحية للقدماء. وعندما يمتلئ بوزن كافٍ، يصبح هناك ضغط يؤدّي إلى فتح السرداب الأخير الذي يسمح لهم بالخروج.

حاولت كاتلين أن تتحرّك وهي تئنّ. أصغى غيديون إلى تنفّسها الثقيل، كان واضحاً أنّها منهكة. مدّ يده نحوها قائلاً: "ارتاحي قليلاً، سنكون بخير".

187

انطلقت الأباتشي بعد خمس دقائق من الاتّصال الذي تلقّته من القاعدة.

كان تومي ميلنر قد بدأ يظنّ أنّ العمليّة لن تتمّ، فهم نادراً ما ينفّذونها. كانت عبارة عن عمليّة بحث وتدمير روتينيّة، يستطيع إنجازها وهو مغمض العينَين. رفعتهم المروحيّة في سماء الليل السوداء باتّجاه الميدان. رأوا من بعيد أضواء السيّارات التي تُخلي الميدان، فقد قيل لهم إنّ عمليّة سرّية قد جرت هناك.

سمع ميلنر صوتاً يصدر عن جهازه اللاسلكي: "تمّ إخلاء الميدان من أجل المناورات. أكّدوا لنا عندما ترون الهدف، أباتشي واحد".

"عُلم. نحن في الجوّ وبدأنا نقترب".

أعلن تشارلي غولدينغ، وأصابعه على رادار مراقبة إطلاق النار: "نحن فوق الميدان وجاهزون للقصف. انتهى".

"لديكم الإذن بالقصف كما تشاءون، أباتشي واحد".

تحقّق غولدينغ من شاشته. كان رادار مراقبة إطلاق النار ينقل المعلومات إلى لاقط موجات في مقدّمة صاروخ هيلفاير 2 الموجّه باللايزر. رأى غولدينغ وسط الشاشة أولى دبّابات العدوّ التي طُلب منهم تدميرها.

ظهر في ليل ويلتشر وميض يُعمي الأبصار، تبعه انفجار هائل. اهتزّت الأرض، وأصدرت دوياً كبيراً وهي تمتصّ قوّة الصاروخ. تشقّقت قبّة القاعة العظمى مثل قشرة بيضة، واختفت سراديب الهيكل كشرايين ذابلة، ودُفن سرداب القدماء تحت آلاف الأطنان من الأحجار الرملية والتراب والركام؛ وكأنّه لم يكن قطّ.

188

راح غيديون وكاتلين يتلمّسان طريقهما عبر الممرّ دامس الظلمة. كان عرضه وارتفاعه يزدادان تدريجيًّا، بحيث أصبح بإمكانهما السير جنباً إلى جنب. اتّكأت عليه لتخفيف الألم الذي تشعر به في ساقها المشقوقة.

لم يبارح الخوف غيديون. فقد كان القدماء يحمون مقابرهم بشراسة، ومن الممكن أن يصادفا مفاجآت جديدة. من شأن المكان بأكمله أن ينهار فوق رأسيهما أو تحت أرجلهما. حدّق عبر الظلام،

إلى الأرض، والجدران، بحثاً عن أيّ إشارة. ولكنّه لم يجد شيئاً غير اعتيادي. استخدم يده اليسرى لتلمّس طريقه على طول الجدار الصخري. تمسّك بإحكام، بحثاً عن دعامة أو شيء أسوأ يهدّد بسحقهما في أثناء مرورهما.

عرف من الجهد الذي يبذله وهو يمشي أنّهما يصعدان. أمل أن يعني ذلك أنّهما يتّجهان نحو المخرج. قدّر العمق الذي وصلا إليه تحت أرض الهيكل، وأدرك أنّ طريقهما ما زال طويلاً.

لم تقل كاتلين الكثير. فصدمة الساعات الأخيرة، وسبعة أيّام بلا طعام قد استنفدت طاقتها. من العجيب أن تكون ما زالت قادرة على السير.

"هل تريدين التوقّف؟".

"لا، لا، تابع المسير. إن توقّفتُ، فقد لا أتمكّن من السير مجدّداً".

في أثناء تقدّمهما، سمعا خلفهما صوتاً يصمّ الآذان، وتضاعف الصوت عبر السرداب. لم يستطيعا رؤية شيء، بل سمعا صوتاً قويًّا وشعرا بموجات الصدمة. اهتزّت الأرض تحتهما، وكذلك الجدران، وامتلأ الهواء بالغبار.

أدرك غيديون ما يجري. إنّه انهيار.

"علينا أن نركض". أحاط بخصرها وساعدها على التقدّم قائلاً: "النفق ينهار".

بدا وكأنّ وحشاً هائلاً تحت الأرض قد استيقظ وبدأ يلاحقهما وهو يزمجر في أعقابهما. اندفعا مذعورين عبر الممرّ المظلم، بينما راح الحيوان ينهش بفكّيه المكان خلفهما.

وصل غيديون إلى جدار؛ طريق مسدود. وأوقعه الاصطدام على

الأرض، وسقطت معه كاتلين. ارتطمت بالجدار بشكل جانبي وصدمت وركها.

كان الغبار والركام كثيفَين بحيث بالكاد استطاعت التنفّس. فالممرّ يمتلئ بالتراب والركام، مهدّداً بدفنهما.

"أين أنتَ؟". كانت قد فقدته في الظلام.

شعرت بالتراب والأحجار تتدفّق مثل نهر على قدمَيها الحافيتَين. موجة الموت آتية.

"غيديون! غيديون، أين أنت؟".

كان ممدّداً على بطنه ووجهه بين الركام. شعر وكأنّ صدره قد امتلأ بالإسمنت الرطب. كان رأسه يطنّ، بينما كُسر أنفه. احتاج إلى كلّ طاقته للنهوض على يدَيه وركبتَيه.

صاحت بيأس: "غيديون!".

قال: "هنا، أنا هنا".

ولكنّها لم تستطع إيجاده. "أنا هنا! غيديون، أنا هنا!".

اقترب من مصدر الصوت متعثّراً. وأخيراً، عثرت عليها يداه الممدودتان. كانت دوّامات الغبار تحيط برأسها.

"ارفع يدك! ارفع يدك". أحسّ بالإثارة في صوتها، فنفّذ طلبها.

عثرت أصابعه على فجوة. كانت فجوة في نفق خروج عمودي عبر سقف الممرّ. جمع يديه معاً وقرّبهما منها قائلاً: "ضعي قدمكِ على يديّ. اصعدي".

كانت لتضحك لو أنّ لديها الطاقة. إنّه نفق عمودي.

إن كان مثل النفق الآخر، فإنّهما على بُعد تسعة أمتار فقط من سطح الأرض، بحسب تقدير غيديون.

تسعة أمتار تفصلهما عن الحرّية.

استخدما ما بقيَ لديهما من قوّة للصعود إلى الأعلى.

صاحت: "توقّف. عثرتُ على حرف ناتئ آخر".

قال: "تجاوزيه، لا تضغطي عليه". ابتعدت كاتلين عن الحرف الناتئ ببطء. بلغت نقطة مرتفعة في النفق. نظرت إلى الأعلى آملة أن ترى بعض الضوء؛ لمحة من سماء الليل أو ومضة من النجوم، أو تشعر بنسمة هواء عذب. ولكنّها لم ترَ شيئاً، وكان الهواء لا يزال نتناً وكريه الرائحة.

راحت تصعد، وهي تفكّر في أبويها؛ في مصالحة أمّها، وتوثيق علاقتها مع والدها، والاعتذار مطوّلاً من إريك.

لم تعد تجد فجوات تتمسّك بها، ولم يعد ثمّة مجال للصعود أكثر، فقد بلغت أعلى النفق، ولمسته براحتَيها.

صاحت والذعر يملأ صوتها: "إنّه مسدود. ما من مخرج، النفق مسدود".

تمنّى غيديون لو أنّه في الأعلى ويستطيع استكشاف ما وجدته. ولكنّ النفق ضيّق جداً ولا يمكنهما تبديل الأماكن.

سألته بنفاد صبر وبصوت خائف: "ماذا أفعل؟".

"انتظري وفكّري". حاول أن يتخيّل تصميم السرداب. صعدا خمسة أمتار فوق المكعّب، ثمّ هبطا تسعة أمتار. إذاً، كان نفق الخروج على انخفاض أربعة أمتار تحت مستوى السرداب، ولكنّهما صعدا على الأرجح الارتفاع نفسه في أثناء عبوره. قدّر أنّهما تسلّقا مسافة مترَين تقريباً منذ دخولهما النفق العمودي الثاني. هذا يعني أنّ السطح ما زال ربّما على بُعد ثلاثة أو أربعة أمتار على الأقلّ.

قال: "أبعدي يدَيك عن سقف النفق، سأُجرّب شيئاً".

أخفضت كاتلين رأسها وانتظرت. رفع قدمه عن الفجوة، وضغط بثقله متعمّداً على الحرف الناتئ القريب من قدمه اليمنى. في البداية، لم يحدث شيء، ثمّ بدأ القرص الحجري الذي يعلو رأسيهما بالانزلاق. "إنّه يتحرّك. هذا الشيء يُفتح".

سرعان ما اختفت حماستها؛ فما زالت السماء مختفية؛ نفق آخر. حثّها قائلاً: "تابعي الصعود. بعد متر تقريباً، ستجدين حرفاً ناتئاً آخر إلى اليمين. لا تقفي على أيّ شيء إلى اليسار".

وجدته وسألته بلهفة: "ماذا أفعل؟".

تردّد. قد يكسبان كلّ شيء أو يخسران كلّ شيء. أغمض عينَيه قائلاً: "قفي عليه".

صعدت كاتلين إلى الأعلى، ثمّ وضعت ثقلها على قدمها اليمنى. لم يحدث شيء. وضعت ساقها الأخرى وأصبح كلّ ثقلها على الحرف الناتئ. فجأة، سقط عليهما وابل من التراب والأحجار. شهقت من أثر الصدمة والخوف، بينما راحت الأتربة والرمال تتساقط عليها وعلى غيديون.

هواء عذب. تنشّقته كاتلين للمرّة الأولى منذ أسبوع. تسلّقت بسرعة المتر الأخير، ولمست أصابعها العشب الرطب، وتناهى إليها صوت العالم الخارجي؛ صوت الحرّية.

رفعت نفسها من الفجوة، وتدحرجت على ظهرها. كانت لا تزال تضحك عندما خرج غيديون من النفق واستلقى قربها خائر القوى.

هبّت رياح باردة على الحقل الذي فجّرته القنبلة. استلقيا هناك وهما يلهثان ويتنشّقان هواء الصباح الباكر. لم يلاحظ أيّ منهما سيّارة الجيب المفتوحة المتّجهة نحوهما أو من كان فيها.

190

قال غروس لضابط الأركان الجالس أمام المقود: "توقّف أمامهما".

كان هو وأكيلا قد جهّزا نفسيهما، وما زالا يرتديان ملابس الحرفة. اخترقت أضواء مصابيح الجيب الشفق الرمادي، وسُلّطت على جسدَي غيديون وكاتلين المنهكَين.

كان الجميع قد غادروا الهيكل قبل دقائق من خروج السيّد واتّصاله بالقاعدة العسكرية. فبصفته الكولونيل، أعطى أمراً للأباتشي بقصف المكان قبل أن يهرب.

لم يتوقّع غروس قطّ إيجاد غيديون والقربان. كان يحاول ببساطة ركن سيّارته خارج ميدان إمبر.

التفت غيديون إلى مصدر الضوء وهو يفكّر أن النجدة قد وصلت أخيراً. وضع يده أمام عينَيه لحمايتهما من وهج النور، وكان على وشك أن يصيح للسائق عندما أدرك أنّ الرجل الذي يقترب منه سيراً على الأقدام يحمل مسدّساً. حتّى لو كانت لديه الطاقة للهرب، فما من مكان ليختبئ فيه.

ضحك غروس ساخراً وقال: "هديّة أخيرة من المبجّلين. الابن الخائن والمرأة اللذان أفسدا كلّ شيء. يبدو أنّها ستموت في النهاية".

فتح زرّ الأمان في المسدّس واقترب أكثر. فجأة، سلّطت طائرة الأباتشي أضواءها الليلية البيضاء عليهم. ثمّ تبعتها رسالة تردّدت عبر مكبّر الصوت في الحقل الذي يحيط بهم: "الشرطة تطوّق المكان، ارمِ سلاحك. المكان مطوّق".

بدا وجه غروس جامداً، فقد عرف الصوت. كان صوت جيمي، ابنه. نظر جانباً، ووقعت عيناه في الضوء الخفيف خلف الأضواء

الكاشفة على الرجال الذين يرتدون الزّيّ الأسود، على بُعد خمسين متراً على الأكثر. الدعم التكتيكي. كانوا يركضون منخفضي الرؤوس، بين الأعشاب، وهم يصوّبون أسلحتهم. يعرف تلك الإجراءات.

سطعت أضواء الأباتشي أكثر، وحامت المروحيّة على ارتفاع أدنى.

"أنت مطوّق، ارمِ سلاحك!".

تردّد صوت ابنه مجدّداً. لا وقت لديه، أدرك ذلك. رفع غروس المسدّس، ثمّ وضعه في فمه وأطلق النار.

على الفور، تحرّك الجيب المتوقّف فوق الأعشاب وانطلق مبتعداً. تردّدت أصوات الرصاص عبر الحقل، ثمّ انطفأت مصابيح الجيب، وتبعت ذلك طلقات أخرى. هذه المرّة كانت الطلقات آتية من سيّارة الجيب المسرعة. أُطلق الرصاص مجدّداً من بين الأعشاب، وزمجر مثل كلاب مسعورة.

انحرفت السيّارة فجأة، ثمّ انقلبت على جانبها، مثل رياضيّ أخرق. تدحرجت رأساً على عقب، وسقطت منها جثث كالدمى. تبع ذلك صمت مخيف، ولم يتحرّك أحد.

عندما ارتفعت أصوات العصافير، أشار أحد رجال الشرطة المسلّحين إلى أنّ المكان آمن. فجاهد غيديون وكاتلين للوقوف واحتضنا بعضهما، بينما غاب البدر في سماء الصباح. طلع الفجر أخيراً فوق سهل ويلتشر.

191

الاثنين 28 حزيران

وصلت أنباء العثور على كاتلين سالمة إلى جناح كيلي لوك عند الساعة الخامسة صباحاً. وعند الساعة السادسة، استفاقت نجمة هوليوود

بشكل كافٍ للتحدّث إلى ابنتها ونقل الأخبار السارّة إلى أبيها وهي تبكي.

بدأ فريق التحقيق الكامل، الذي أرسلته جود تومبكينز إلى إمبر، عملَه على مسرح الجريمة عند الساعة السادسة والنصف. وعند السابعة، تمّ فحص جثث سائق جايمس بيندراغون نيكولاس سميث، ونائب رئيس الشرطة غريغوري دوكيري، والمفتّش آدمز ستون في موقع الحادث من قِبل خبيرة أمراض من وزارة الداخلية، ونُقلت إلى مستودع جثث المقاطعة.

عند الساعة الثامنة صباحاً، تمّ استجواب لي جونز رسميًّا في ديفايزيس، من قِبل جيمي. وعند التاسعة، كان أوّل من وُجّهت إليه تهمة الخطف والقتل.

عند الساعة التاسعة واثنتين وخمسين دقيقة، وصلت القصّة إلى وسائل الإعلام، وملأت النشرات الموجزة جميع أجهزة الراديو والتلفاز ونشرات الأخبار الإلكترونية في معظم أنحاء العالم.

عند الساعة العاشرة، دعا رئيس الشرطة ألان هانت إلى مؤتمر صحفي عاجل في ديفايزيس، هنّأ فيه ضبّاطه، وشكر وزارة الداخلية، والأف بي آي، والشعب على دعمهم.

عند الساعة الحادية عشرة، أجرى جوش غوران، أوّل مقابلة تلفزيونية من بين مقابلات عديدة ينوي إجراءها في المستقبل، ليُخبر الناس كيف كان له الفضل في توجيه الشرطة إلى إمبر، وكيف سيُلاحق الجيشَ قضائيًّا للحصول على المكافأة التي تبلغ عشرة ملايين دولار والتي يعتبرها حقًّا له. كما أظهر للمراسلين الجحور التي حفرها هو ورجاله للهرب من دوريّات الجيش.

عند الظهيرة، تذكّر أحدُهم في ثكنة وارمينستر أنّهم ما زالوا

يحتجزون عدداً من رجال غوران في إحدى الزنزانات، فأطلقوا سراحهم كارهين.

بعد الساعة الواحدة بقليل، كانت ميغان في منزل والديها تحتضن ابنتها سامي وتتساءل كيف ستُخبرها أنّها لن ترى أباها مجدّداً.

قبل الساعة الثالثة، استيقظ غيديون في مستشفى ساليسبوري، وهو المستشفى نفسه الذي عُولج فيه بعض تعرّضه للاعتداء في منزل الرجل الذي سيعتبره دائماً أباه، أباه الحقيقي، البروفيسور ناثانيال تشيس.

عند الساعة الخامسة عصراً، تلقّى غيديون اتّصال شكر من نائب رئيس الولايات المتحدة ورسالة بالفاكس من مكتب الرئيس.

عند الساعة السادسة مساءً، نزع فريق الأمن الألواح البلاستيكية السوداء عن الأسوار المحيطة بستونهنج، وجهّزوا لحفل افتتاح جديد أمام العامّة في اليوم التالي. في الوقت الذي أخلى فيه العمّال الموقع، كان الشفق قد حلّ مجدّداً.

أظهرت تقارير الشرطة أنّه لم تتمّ إقامة احتفال لشخصيّة هامّة على الإطلاق. لم تأتِ حشود، ولم يُقدّم أيّ قربان. لم يحدث أيّ أمر غير اعتيادي، باستثناء شيء واحد. ففي الضوء الشاحب لذلك الصباح الحافل في ويلتشر، أتى زائر وحيد إلى النصب. إذ دخل الدائرة رجل رمادي الوجه، بدا عليه التعب. أمضى وقتاً طويلاً وهو راكع على ركبتيه بوقار، ويقبّل كلّ حجر.

لم يبدُ أنّ أحداً يعرف اسمه.

ولم يره أحد منذ ذلك الحين.

رواية لغز ضحايا ستونهنج عمل من وحي الخيال الصرف. سيلاحظ العلماء أنّ معظمها مرتكز على حقائق من علم الفلك، وعلم الآثار، والتاريخ، وقد استُخدم بعضها لأهداف القصّة ولا يُشكّل حقيقة جماعيّة. مع هذا، وبالرغم من قرون من البحث، لم يعثر العلماء على جواب حاسم عن السؤال الكبير: لماذا بُني ستونهنج؟

www.rewity.com
روايتي Dalyia